BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

مكتبة الإسكندرية 2010 ©

الاستغلال غير التجاري

تم إصدار المعلومات الواردة في هذا المصنف للاستخدام الشخصي والمنفعة العامة لأغراض غير تجارية، ويمكن إعادة إصدارها كلها أو جزء منها أو بأية طريقة أخرى، دون أي مقابل ودون تصاريح أخرى من مكتبة الإسكندرية . وإنما نطلب الآتي فقط :

- يجب على المستغلين مراعاة الدقة في إعادة إصدار المصنفات.
- الإشارة إلى مكتبة الإسكندرية بصفتها "مصدر" تلك المصنفات.
- لا يعتبر المصنف الناتج عن إعادة الإصدار نسخة رسمية من المواد الأصلية، ويجب ألا ينسب إلى مكتبة الإسكندرية، وألا يشار إلى أنه تمّ بدعمٍ منها .

الاستغلال التجاري

يحظر نسخ المواد الواردة في هذا المصنف كله أو جزء منه، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية . وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذا المصنف، يرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص.ب. 138 الشاطبي، الإسكندرية، 21526، مصر . البريد الإلكتروني :

secretariat@bibalex.org

في الفكر النهضوي الإسلامي

الحركة الإسلامية

هموم وقضايا

تأليف

السيد محمد حسين فضل الله

دراسة تقديمية

زكي الميلاد

دار الكتاب المصري
القاهرة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دار الكتاب اللبنانى
بيروت

الحركة الإسلامية

هموم وقضايا

هــذا الكتــاب

طبع لأول مرة عام (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، ويُعدّ واحدًا من أهم مؤلفات السيد محمد حسين فضل الله، وأكثرها قربًا وصلة بمشروعه الفكري المرتكز على العلاقة بين الفكر الإسلامي وانعكاسه الحركي على الواقع؛ لتعزيز الإسلام في الحياة المعاصرة. كما يُعد من أهم المؤلفات التي حاولت نقل الجدل والنقاش حول هموم وقضايا الحركة الإسلامية من الأطر النخبوية والحركية الداخلية والمغلقة، إلى الأطر العلنية والعامة والمفتوحة. وهو كذلك من أهم المؤلفات المبكرة التي دعت وطرحت وناقشت مسألة تجديد وتحديث الفكر الإسلامي الحركي على المستوى النظري، وتجديد وتحديث الحركة الإسلامية على المستوى العملي.

يسعى الكتاب إلى أن يكون عنصرًا من عناصر الإثارة الفكرية التي تخطط لإبداع نهج جديد لحركة إسلامية جديدة تعمل بقوة ووعي وتدقيق؛ من أجل أن يكون الإسلام قاعدة للفكر والعاطفة والحياة، وليس لصالح انتماء ضيق أو تنظيم.

يتكون الكتاب من الناحية البنائية من مقدمة، وسبعة وثلاثين فصلا، عالجت أربعًا وعشرين قضية تمثل أبرز هموم وقضايا الحركة الإسلامية المعاصرة. من أهمها: قضية التغيير في الأمة، والواقعية والمثالية، والسرية والعلنية، والأكثرية والأقلية، والإسلامية والمذهبية، والإسلامية والوطنية، والسياسة والدعوة.

سلسلة

في الفكر النهضوي الإسلامي

الإشـراف العام

إسماعيل سراج الدين

رئيس التحرير ومدير المشروع: صلاح الدين الجوهري

سكرتير التحرير: ألفت جافور

اللجنة العلمية

محمد عمارة — محمد كمال الدين إمام

صلاح الدين الجوهري — منى أبو زيد

تصميم جرافيكي

عاطف عبد الغني ـ صفاء الديب

الإشراف على مراجعة النصوص

أحمد محمد شعبان — محمد القاسم

مراجعة لغوية: سماح رضوان سالم

الأعمال التحضيرية والمتابعة

هدى سيد ـ شيماء التركي ـ منة الله لبيب

في الفكر النهضوي الإسلامي

الحركة الإسلامية
هموم وقضايا

تأليف

السيد محمد حسين فضل الله

دراسة تقديمية

زكي الميلاد

١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥ م

دار الكتاب المصري
القاهرة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دار الكتاب اللبناني
بيروت

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة - أثناء - النشر (فان)

فضل الله، محمد حسين، 1935 - 2010 م.
الحركة الإسلامية هموم و قضايا / تأليف السيد محمد حسين فضل الله ؛ تقديم زكي الميلاد. — القاهرة : دار الكتاب المصري ؛ الإسكندرية : مكتبة الإسكندرية؛ بيروت : دار الكتاب اللبناني، 2015.
ص. سم. (في الفكر النهضوي الإسلامي)

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية
تدمك 978-977-452-308-3

1. الإسلام و الدولة. 2. الدين و الدولة. 3. الإسلام و السياسة. أ. الميلاد، زكي، -1965 ب. مكتبة الإسكندرية. ج. العنوان. د. السلسلة.

ديوي — 181.7 　　 2015757575

ISBN: 978-977-452-308-3 　　 رقم الإيداع: 2015/4081

تتقدم مكتبة الإسكندرية بالشكر والتقدير
للوكالة السويسرية للتنمية والتعاون Swiss Agency for Development and Cooperation (SDC)
ومؤسسة كارنيجي بنيويورك Carnegie Corporation of New York
على الدعم المادي والمعنوي الذي قدَّماه للمشروع.

© مكتبة الإسكندرية، 2015

جميع حقوق النشر الورقي محفوظة لدار الكتاب المصري/دار الكتاب اللبناني،
وذلك بموجب اتفاق مبرم بين المكتبة والدار

مصر - ٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة - تليفون: ٢٣٩٢٢١٦٨/٢٣٩٣٤٣٠١/٢٣٩٢٤٦١٤
ص.ب. العتبة الرمز البريدي ١١٥١١ - القاهرة - ج.م.ع، فاكسميلى ٢٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)+
لبنان - بيروت شارع مدام كورى تجاه فندق بريستول - بيروت - تليفون ٧٣٥٧٣٢، فاكس / ٩٦١١٣٥١٤٣٣+

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م
First Edition
A.D. 2015 - H 1436

Website: www.daralkitabalmasri.com
E-Mail: info@daralkitabalmasri.com

هذا الكتاب ضمن فعاليات مشروع «إعادة إصدار مختارات من التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّيْن/ التاسع عشر والعشرين الميلاديَّيْن»

المحتوى

مقدمة السلسلة ٣١
دراسة تقديمية ٣٧

كتاب

الحركة الإسلامية.. هموم وقضايا

مقدمة الطبعة الثالثة ٣
تقديم ٧

كيف نواجه قضية التغيير في الأمة (أ) ١٣
الأسلوب التقليدي في المواجهة: الهدوء والمرحلية ١٥
أسلوب التحدي وإثارة التوتر الروحي والفكري ١٦
الحضور الدائم للعقيدة كهمّ يومي ١٧
الروحية الإيمانية وتحريك الأمة ١٨
الاسترخاء حالة خطرة ١٩
التقية محاولة مرنة لحماية القضية ٢٠

المرحلية تحدٍّ مخطط ومنظم ٢٠
التحدي: مفاجأة العدو وعدم الاستسلام ٢١
حالة طوارئ متحركة ٢٤
وعي الأمة لأعدائها ٢٤
كيف نواجه قضية التغيير في الأمة (ب) ٢٧
الخط العملي والنقاط الواقعية ٢٩
تفجير المواقع وحرية التحرك ٢٩
ولادة مشروع جديد ٣٠
موقع الدعوة وموقع الثورة ٣١
نتائج الأساليب المطروحة ٣٢
عملية الهجوم وعملية الدفاع ٣٣
الدقة في الخط الشرعي والتمييز بين الذات والرسالة ٣٤
تقييم الساحة والحذر المطلوب ٣٦
الثورية الإسلامية والجو الهادئ ٣٧
المضمون الإسلامي للتحرك ٣٨
الاقتداء بالقرآن والسنة ٣٩
موقف للهدف ومواجهة للتحدي ٣٩
تجربة الثورة الإسلامية ٤٠

دراسة الظروف الموضوعية ٤١
تطوير الظروف وتميز المواقع ٤٣
خط التوتر والهدف ٤٤

كيف نواجه قضية التغيير في الأمة (ج) ٤٥

١ التغيير من داخل النظام ٤٧
الدخول في اللعبة السياسية ٤٧
منح الشرعية للنظام ٤٨
ضغط النظام على الحركة ٤٩
فقدان الثورية الإسلامية ٤٩

٢ التغيير من خارج النظام ٥٠
لا مشكلة توازنات ٥٠
سقوط الثورة أمام النظام ٥١
اللمعان الثوري وتغيير الواقع ٥٢
ردود على ما سبق ٥٣
المشاركة بضوابط فكرية وعملية ٥٣
المرونة ثمن الحرية ٥٤
الثورية داخل المعارضة ٥٥
النماذج السلبية وسقوط التجربة ٥٦

كيف نواجه قضية التغيير في الأمة (د) ٥٩
رفض التعاون مع الظالم ٦١
مسؤولية الأمة ٦٢
الرفض النفسي للظالم ٦٢
التغيير لا الاستسلام ٦٣
اللعبة الديمقراطية ومصلحة الإسلام ٦٤
رفض اللعبة الديمقراطية ٦٦
حق الشعب في التشريع ٦٧
تحفظات على ما سبق ٦٨
شرعية الموقف والموقع ٦٨
إفساح المجال للتشريع الإسلامي ٦٨
إمكانية الثورة وواجب الإصلاح ٦٩
شرعية الانتخاب والشورى ٧٠
أفكار للتأمل والمناقشة ٧١
كيف نواجه قضية التغيير في الأمة؟ (هـ) ٧٣
التعليقات الانفعالية ٧٥
التوقيت وإرباك المسيرة الإسلامية ٧٥
احتواء الثورة وتدجينها ٧٧

جنة الحكم ونار المعارضة ٧٨
طموحات الزعماء وحسابات الدوائر ٧٩
ردود على ما سبق ٨٠
بين الثورة والحركة ٨٠
الحكم وركوب الموجة الإسلامية ٨١
المعارضة وجماعة المنتفعين ٨٢
رفض التحرك العشوائي ٨٤
الثورة والخيار الوحيد ٨٥
مسؤولية صنع القوة وإيجاد البدائل ٨٦
مناقشة المصادر الإسلامية ٨٨
من الذي يقود عملية التغيير في الأمة حزب الأمة أو أمة الحزب؟ (أ) ٨٩
دور الحزب والأمة ٩١
الحزب وقيادة الأمة ٩٢
التنظيم والجو الإسلامي ونشوء (حزب الله) ٩٢
العقلية الحزبية والتفاعل ٩٣
إطار العصبية الحزبية ٩٤
شرعية القيادة الحزبية ٩٤
السرية الحزبية والرقابة ٩٦

الحزبية أسلوب غربي ٩٧
منطلقات أمة (حزب الله) ٩٨
العمل بعقل مفتوح ٩٨
ظاهرة تنوع لا صدام ٩٨
الوعي الشرعي والسياسي ٩٩
علنية القيادة ورقابة الأمة ٩٩
الأمة والقرار السياسي ١٠٠
التفاعل بين الأمة والفقيه ١٠١
من الذي يقود عملية التغيير في الأمة، حزب الأمة أو أمة الحزب؟ (ب) ١٠٥
تحديد دائرة التحرك ١٠٧
الأسلوب النبوي في مواجهة التحديات ١٠٧
الخطة العملية ومصلحة الرسالة ١٠٩
طبيعة المرحلة وشرعية الأسلوب ١١٠
تطوير الوسائل العملية ١١١
الحاجة إلى التنظيم ١١٢
الخطة الإسلامية المرنة ١١٣
اختلاف أساليب العمل والتعبير ١١٤
مناقشة التفاصيل ١١٥

شرعية العمل الحزبي ١١٥
استئذان الفقيه ١١٦
حدود ولاية الفقيه ١١٧
التخطيط العام للحركة الإسلامية ١١٨
بحث المسائل ١١٩
١ مشكلة التربية الإسلامية ١٢٠
تضخم الشخصية مشكلة عامة ١٢١
٢ الحالة الانفعالية والتعصب الأعمى ١٢٢
الطاعة الحزبية والثقة بالقيادة الشرعية ١٢٣
الحالة النفسية المعقدة والذهنية الضيقة ١٢٤
٣ السرية والظروف الضاغطة ١٢٦
سرية الإدارة السياسية ١٢٧
الزوايا الضيقة والأفق المفتوح ١٢٨
السرية ليست نصًّا منزَّلاً ١٢٩
عقلية الطبقة وعقلية الرسالة ١٢٩
الحزبية ووحدة الثقافة والفكر ١٣٠
صعوبة اختراق العمل الحزبي ١٣١
الصيغة المثلى!! ١٣٢

من الذي يقود عملية التغيير، حزب الأمة أو أمة الحزب؟ (ج) ١٣٣
دور الحزب ودور الأمة ١٣٥
خصوصية الإسلام الدينية ١٣٥
النداءات القرآنية ١٣٧
تفاعل الأمة مع الموقف ١٣٧
الأسلوب الجماهيري وتحريك القضايا ١٣٩
أطروحة حزب الله ١٤٠
الفكرة الحزبية والخط القيادي ١٤١
حاجات الأمة الخاصة والعامة ١٤٤
دور الحزب المتطور ١٤٥
بين الحزب والشورى ١٤٦
بين الحزب والمرجعية ١٤٧
لقاء الحزب بالأمة ١٤٨
الأحزاب والقاعدة السياسية ١٤٩
الحزبية والخصوصية الدينية ١٥١
تبلور فكرة حزب الله ١٥٢
علامات استفهام ١٥٣

الحركة الإسلامية بين الانفتاح والانغلاق (أ) ١٥٥
الإسلام والتيارات المختلفة ١٥٧
أسئلة لا بد من الإجابة عليها ١٥٨
خياران أمام التيار الإسلامي ....
أولاً: الانغلاق السياسي ١٦٠
ثانيًا: خيار الانفتاح السياسي ١٦٣
سلبيات الانغلاق: عزلة التيار الإسلامي واستفادة الآخرين ١٦٧
إيجابيات الانفتاح: إبراز أهداف الإسلام ومعرفة الكواليس ١٦٨
الانفتاح انطلاقة والانغلاق جمود ١٧٠
الحركة الإسلامية بين الانفتاح والانغلاق (ب) ١٧٣
كيف نفهم الآيات القرآنية الحاسمة في المباينة مع الآخرين؟ ١٧٥
إثارة الفواصل الفكرية: من أجل اللقاء والوفاق لا التعصب والانفصال ١٧٥
حصانة الأمن العقيدي والمجتمعي أولاً ١٧٧
ضبط الشخصية والبعد عن العُقد ١٧٨
رفض موالاة الأعداء ١٧٩
مشكلة السلوك المنحرف والعقلية العنصرية ١٨٠
مسألة قيم وقضية دعوة ١٨١
الحوار والصداقة الفكرية ١٨٣

اللقاء في أجواء المعاني الروحية: لا مجاملة ولا هروب، بل حذر وواقعية ١٨٤
المحافظة على الوجود ١٨٦

الحركة الإسلامية بين الانفتاح والانغلاق (ج) ١٨٩
الانفتاح على أهل الكتاب ١٩١
هل ننفتح على اليهود؟ ١٩١
جبهة المؤمنين أمام جبهة الملحدين: الحذر من استغلال الخط
العام لمصلحة الحالة الخاصة ١٩٢
اللقاء في بعض المواقع لا يلغي الصراع في المواقع الأخرى ١٩٤
كيف نواجه الصراع السياسي مع النصارى،
البعد عن الأجواء الطائفية والحرب العشائرية ١٩٥
التعايش هو القاعدة لا المواقع القتالية ١٩٧
الانفتاح على العلمانيين تحدده المصلحة الإسلامية ١٩٨
اللقاء مع التيارات العلمانية لمصلحة الإسلام ١٩٩
الانفتاح على المسلمين مع اختلاف المذاهب من أجل الوحدة ومواجهة
القضايا المصيرية ٢٠٢
الانفتاح قضية الحياة وكسر الجمود والتعقيد النفسي ٢٠٣
الانفتاح لا يلغي التحفظات ٢٠٤

الحركة الإسلامية بين الانفتاح والانغلاق (د) ٢٠٧
الخط الأحمر والضوء الأخضر ٢٠٩

١ من سلبيات انفتاح الحركة الإسلامية في النطاق الواقعي:
المحاصرة والاختراق والسقوط ٢٠٩
٢ من إيجابيات انفتاح الحركة في نطاق الدولة: تركيز الوجود السياسي ٢١١
٣ الانغلاق ليس خيارًا وحيدًا لاستقامة الحركة الإسلامية ٢١٣
٤ الانفتاح حاجة وضرورة للحركة الإسلامية ٢١٤
٥ الحركة الإسلامية أمام بعض التنازلات لخدمة الموقف الأساسي ٢١٦
الانفتاح في موقع القوة لا الضعف ٢١٧
الانفتاح حالة أصيلة ٢١٨
٦ التجربة الإسلامية الرائدة في نطاق الحركة والدولة ٢١٩
الانفتاح أثبت نجاحه وواجه العزلة ٢٢١

الحركة الإسلامية بين السرية والعلنية (أ) ٢٢٣
شبهات مطروحة ٢٢٥
١ فقدان الثقة ٢٢٥
٢ عزل الحركة ٢٢٦
٣ فقدان التفاعل مع القيادة ٢٢٦
٤ فراغ المسؤولية ٢٢٧
٥ الاختراقات الفكرية والأمنية ٢٢٨
١- العلنية والعبث القاتل ٢٢٩

٢- التخريب الداخلي ٢٣٠
٣- الطموحات الشخصية ٢٣٠
٤- العقليات المتخلفة ٢٣١
٥- الرياح المتقلبة ٢٣٢
العمل في الظروف الضاغطة ٢٣٢

المعطيات الفكرية الشرعية للسرية والعلنية ٢٣٤
بين السرية والعلنية: قوة القاعدة الإسلامية هي الأساس ٢٣٤
١ السرية تحريك البطولة لا البطل ٢٣٥
٢ السرية (تقية شرعية) ٢٣٥
٣ التقية بين المؤيد والمعارض: اتفاق في المبدأ واختلاف في التفاصيل ٢٣٦

الحركة الإسلامية بين السرية والعلنية (ب) ٢٤١
١ السرية: غموض الأجهزة لا الحركة ٢٤٣
٢ السرية: انطلاقة من الخلايا إلى الأمة ٢٤٥
٣ السرية: ربط المسلمين بالفكرة لا بالشخص ٢٤٦
٤ الاختراق الأمني والفكري: أمر مشترك بين العمل السري والعلني ٢٤٩
السرية والمرحلة الصعبة ٢٥٠
دراسة الظروف والمرحلة ٢٥١

الحركة الإسلامية بين التطرف والاعتدال (أ) ٢٥٣
ضجة قوية ٢٥٥
١ **التطرف مرونة وواقعية أم غلو وانحراف؟!** ٢٥٥
شمولية الإسلام والآراء المختلفة حول التطرف ٢٥٦
المغالاة في تفسير النصوص ٢٥٧
٢ **ابتعاد الواقع عن الطرح الإسلامي** ٢٥٧
حواجز ومواجهة ٢٥٨
٣ **الإسلام في الدائرة الثقافية** ٢٥٩
دائرة تنوع الأديان ٢٥٩
٤ **المشروع الإسلامي وإلغاء الآخرين** ٢٦٠
خلافات دموية أو تقسيم للحصص ٢٦١
الأصولية والإرهاب وحشر الآخرين ٢٦٢
٥ **واقعية الطرح وحدته في المعادلات السياسية** ٢٦٤
التحرك في دائرة المعادلات الدولية ٢٦٨

الحركة الإسلامية بين التطرف والاعتدال (ب) ٢٧١
١- شمولية الإسلام والتطرف ٢٧٣
الاجتهاد وخط الاعتدال ٢٧٤
الحوار مع القائلين بالتطرف ٢٧٦

٢ **الواقعية وتطرف الفكر التغييري وانطلاقة المستقبل** ٢٧٦
الواقعية في الوسائل لا الطروحات ٢٧٨
٣ **تنوع الأديان والتطرف: الإسلام يدعو للحوار بعقل بارد وقلب مفتوح النصرانية لا تحمل منهجًا سياسيًّا** ٢٧٩
.... ٢٨١
بين العصبية والعقلانية ٢٨٢
٤ **التطرف الإسلامي يدعو إلى الرفق لا العنف** ٢٨٣
الإرهاب دعاية عالمية ضد الإسلام ٢٨٥
٥ **المعادلات الدولية والتطرف** ٢٨٦
منطق الرسالة بين اللين والعنف ٢٩٠
الحملات الإعلامية وحرب الأعصاب ٢٩١
التمييز بين المعتدلين والمتطرفين لتحييد الشخصيات الإسلامية ٢٩١

الحركة الإسلامية بين منطق الثورة ومنطق الدولة ٢٩٣
أساليب العمل الحركي ٢٩٥
القلق والأسلوب القرآني ٢٩٦
الأمة والثورة المتحركة ٢٩٧
بين الثورة والدولة ٢٩٨
واقعية الثورة ومنطق الدولة ٣٠٠
السنن الإلهية والعناية الغيبية ٣٠١

الثورة الواقعية والخيالية ٣٠٣
حركة الثورة نحو الدولة: السلبيات والإيجابيات ٣٠٥
الحرية في الثورة والدولة ٣٠٥
الدولة قاعدة للثورة ٣٠٦
العلاقات بين الثورة والدولة ٣٠٧
غرابة المصطلح ٣٠٨

الحركة الإسلامية بين الثقافة الخاصة والثقافة العامة ٣١٣
جدل حول الثقافة ٣١٥
العقلية الحزبية والمنفتحة ٣١٦
الثقافة الخاصة ووحدة الأمة ٣١٧
الثقافة العامة وحماية الأمة ٣١٨
ملاحظات ومواقف ٣٢١
الثقافة الموجهة والعامة ٣٢٢
الثقافة بين الإنسان والحركة ٣٢٢
بين الدليل والحجة الشرعية ٣٢٣
دور الحركة الإسلامية ٣٢٤

الحركة الإسلامية بين الإيجابية والسلبية ٣٢٥
أساليب العمل ٣٢٧

الإسلاميون والسلبية ٣٢٨

التقليديون بين الغيب والتقية السلبية ٣٢٩

الإسلاميون في دائرة التنظير ٣٣١

الموقف الرمادي ٣٣٢

الاجتهاد السياسي والعناوين الثانوية ٣٣٤

الحركة الإسلامية وصيغ العمل ٣٣٧

الرأي الأول: التنظيم مفسدة وتعصب ٣٣٩

الرأي المقابل: التنظيم تركيز للخطوات وصنع للقيادات ٣٤١

التنظيم بإشراف المرجعية ٣٤٣

المرجعية ليست بديلاً عن التنظيم ٣٤٤

الحزبية موقع لتنظيم العمل ٣٤٥

انسجام الحزبية مع المرجعية ٣٤٧

الحركة الإسلامية وإجازة السلطات ٣٤٩

حديث في الوسط السياسي ٣٥١

الحزب الإسلامي وموقف السلطة ٣٥١

حركة النهضة في تونس ٣٥٢

سلبية ترك العنوان الإسلامي ٣٥٣

الخطة الاستكبارية ٣٥٤

بين العمل السري والتحرك غير المعنون ٣٥٤
موقع التقية في التحرك ٣٥٥
أين يكمن الخوف؟ ٣٥٦
الموقف المطلوب والمعركة المفتوحة ٣٥٧
مغالطة واضحة ٣٥٨
بين الإيمان والإسلام ٣٥٩
دور الحركة الإسلامية ٣٦٠
الواقعية والمثالية في الأسلوب العملي (أ) ٣٦١
المفاهيم الضبابية والحلول غير الواقعية ٣٦٣
التعامل مع الواقع والشرعية ٢٦٤
شعار «لا شرقية ولا غربية» سلاح ذو حدين ٣٦٦
القفز على خطوط التوازن السياسية ٣٦٧
الحياد الإيجابي واللاعبون الكبار ٣٦٩
التعاون مع الآخرين والمصلحة الإسلامية ٣٧٠
التحرك والتوقف بحساب ٣٧٠
الواقعية والمثالية في الأسلوب العملي (ب) ٣٧٣
العاملون للإسلام وشعار مقاومة الظلم ٣٧٥

الحكمة والمرونة ونهج الأئمة (ع) ٣٧٥
التدقيق في الطروحات ٣٧٦
الصلة أو اللقاء ليس انتماءً أو ارتباطًا ٣٧٨
منح الشرعية والموقف الحاسم ٣٧٨
الرسالة في الفكر والأسلوب والشخص ٣٨٠
الواقعية والمثالية في الأسلوب العملي (ج) ٣٨٣
التفكير بين الواقع والمطلق ٣٨٥
الإسلام أو لا شيء ٣٨٥
بين التقية والواقعية ٣٨٨
التزاحم بين المهم والأهم؟ ٣٨٩
الواقعية وسياسة الأمر الواقع ٣٩٠
واقعية المشروع الإسلامي ٣٩٢
التخطيط الواقعي ٣٩٤
الواقعية في العلاقات السياسية ٣٩٧
العمل في ظل الأنظمة غير الإسلامية ٣٩٩
١- الرفض والمقاطعة ٣٩٩
٢- التعايش لا التوافق والتأييد ٣٩٩
اكتشاف الأرض والجو الهادئ ٤٠١

السنة والشيعة أمام الكفر ٤٠٢
اللقاء مع أهل الكتاب وغير الإسلاميين لمواجهة الخطر على أرض الإسلام ٤٠٢
الواقعية السياسية لا الميوعة ٤٠٥
القوة وصناعة القرار ٤٠٦
الطرح الحقيقي والطرح المائع ٤٠٧
تعميق الشعارات وإثارة الوعي ٤٠٧

الإقليمية في العمل الإسلامي ٤٠٩

ظاهرة الشخصية الإقليمية ٤١١
الاستعمار والكيانية السياسية ٤١٢
الإقليمية عنصر إضعاف وإثارة تناقضات ٤١٣
بين الوطنية و«الإسلامية» المشكلة تربوية ٤١٥
وحدة المصالح العامة للمسلمين ٤١٥
الإقليمية والمصلحة العامة للأمة ٤١٦
الإقليمية وقضية فلسطين ٤١٧
الإقليمية في لا شعور العاملين ٤١٩

الوطنية من وجهة نظر إسلامية ٤٢١

المسلم والوطن ٤٢٣
أولاً: الخط الشعوري العاطفي ٤٢٣

ثانيًا: الخط السياسي ٤٢٥
الوطن في المصطلح السياسي ٤٢٦
عناصر مكونات الوطن ٤٢٧
النظرة الإسلامية لمفهوم الوطن ٤٢٨
قيام وطن إسلامي محدود ٤٢٩
الفهم المحدود للوطن ٤٣٠
جبهة وطنية ٤٣٠
الخصوصية الإسلامية ٤٣١
المسألة الوطنية تحت المجهر ٤٣٢
دور الإسلاميين ٤٣٣

الانفعالية في خطوات العمل ٤٣٥
الانفعالية ظاهرة ضبابية ٤٣٧
الانفعال تجاوز للمرحلة ٤٣٨
الانفعال وهم كبير وحماس ٤٣٩
الثورة الإسلامية وانفعال الجماهير: مشكلة تخلف فكري وسياسي ٤٤٠
الساحة اللبنانية وطابع الاستعجال ٤٤٣

علامات استفهام أمام وحدة القيادة وتعددها ٤٤٥
بين الوحدة والتعدد ٤٤٧

الخليفة الواحد والدولة الواحدة ٤٤٧
تعدد القيادة بين الشرع والفقه ٤٤٩
نظرية الإمامة وولاية الفقيه ٤٥٠
التعددية في الحكم والفوضى ٤٥١
الوحدة والوضوح ٤٥٢
الأعلمية وولاية الفقيه ٤٥٣
الولاية وأسبقية الإشراف ٤٥٤
الأمة بين وحدة الولي والحكومة والمصلحة ٤٥٤
دراسة نظريات الحكم ٤٥٥
الدولة الإسلامية بين الإسلامية والمذهبية ٤٥٧
العصبية والمشكلة المذهبية ٤٥٩
مشكلة الموقع الوحدوي الإسلامي ٤٥٩
نظرية الإمامة والخلافة ٤٦١
١ تجربة الخلفاء الراشدين ٤٦١
الإمام علي (ع) المعلم والمعاون ٤٦٢
النموذج الوحدوي المنفتح ٤٦٣
بين النهج الإسلامي والكافر ٤٦٥
العصبية للشخص والحركة ٤٦٦

٢- الاجتهاد والمسائل الفكرية ٤٤٦
جو المسؤولية ٤٦٨
بين المذهب والقانون ٤٦٨
التحديات وتأييد الدولة الإسلامية ٤٧٠

المشروع السياسي بين العنوان الإسلامي والعناوين الأخرى ٤٧٣
التيار الإسلامي ولونه الفاقع ٤٧٥
الطرح العام والأجواء المحمومة ٤٧٦
الطرح العام وكشف الأوراق ٤٧٨
الدين والمسألة السياسية ٤٧٩
تغيير الوجدان الحركي ٤٨١
عملية تجديد شاملة ٤٨٢
ملاحظات على مقولة الفريق الأول: ٤٨٣
١ **الصفة الإسلامية والإيجابية** ٤٨٣
٢ **قناع الصفة العامة** ٤٨٥
الصفة العامة والسلبيات ٤٨٦
٣ **العنوان المحدّد والسذاجة** ٤٨٨
٤ **المرحلية ووعي الهدف** ٤٨٩
نزع الخوف ٤٩٠

الأكثرية والأقلية في المفهوم الإسلامي ٤٩١
الأكثرية والأقلية ٤٩٣
الأكثرية والأقلية في القرآن ٤٩٤
حكمة الموقف القرآني ٤٩٦
العدد والقيمة والمقياس ٤٩٩
النفاذ إلى قلب الأمة ٥٠١
الرأي العام والزلزال ٥٠٢
الإسلاميون والهزيمة ٥٠٤
القلة المؤمنة والأمل ٥٠٦

السياسة والدعوة في العمل ٥٠٩
لا سياسة بل تشريعات ٥١١
شمولية الإسلام ٥١١
مرحلية العمل ٥١٢
سلبية مطلقة ٥١٣
مناقشة الخطين ٥١٣
السياسة والقضايا المصيرية ٥١٥
الصحوة الإسلامية ٥١٦

المرحلية في العمل ٥١٧
بين الثقافة والسياسة ٥١٩
التجربة النبوية ٥١٩
الحركة والواقع السياسي ٥٢١
السياسة والجهاد والثقافة ٥٢٣
دور المرحلية ٥٢٤

خط البطل وبطل الخط ٥٢٥
ظاهرة القيادات والتحرك الفعّال ٥٢٧
قيادة الشخص: سحر وعبادة ٥٢٨
العصبية للشخص: عملية انتماء لا ولاء ٥٢٩
فكر الشخص: محور للاستنباط والاجتهاد ٥٣٠
بين الشخص والخط ضاع الإنسان ٥٣١
(خط الإمام) عنوان للمسيرة وفرز للمجتمع ٥٣٢
الوجه الإيجابي للمسألة: وجود القائد القدوة دون الغموض والقلق ٥٣٣
الوجه السلبي للمسألة: الهتاف للشخص يتقدم الهتاف للفكرة ٥٣٥
نقد الفكرة إساءة للشخص ٥٣٥
الانشداد للشخص بدل الفكر ٥٣٦
المزايدة وعدم وضوح الرؤية ٥٣٨

نقد الفكرة والشخص ٥٣٨

المطلوب إعطاء الحرية للنقد الموضوعي ٥٣٩

شرعية الأسلوب واستقامة الخط ٥٤١

العمل الإسلامي والأسلوب الشرعي ٥٤٣

التقييم على أساس الحقيقة والعدالة ٥٤٥

العاملون والعلماء وفوضى الأحكام ٥٤٧

مشكلة تربية ٥٤٩

حركة الشعار في واقعنا ٥٥١

دور الشعار في حركة الواقع ٥٥٣

معرفة الحدود الفكرية ٥٥٣

الشعار في القرآن: تكوين المشاعر الإنسانية حربًا وسلمًا ٥٥٤

الشعار في شروطه: كلمة للعقل والعاطفة ٥٥٦

الشعار والواقع: الأرض الضالة والحواجز ٥٥٧

الشعار في مرحلة الدعوة: صدم الفكر القديم ٥٥٨

الشعار في مرحلة الدولة: المرونة لا الإلغاء والتجميد ٥٦٠

خطورة الشعار في دائرة المطلق ٥٦١

مقدمة السلسلة

إن فكرة هذا المشروع الذي أُطلِق عليه «إعادة إصدار مختارات من التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّيْن / التاسع عشر والعشرين الميلادِيَّين»، قد نبعت من الرؤية التي تتبناها مكتبة الإسكندرية بشأن ضرورة المحافظة على التراث الفكري والعلمي في مختلف مجالات المعرفة، والمساهمة في نقل هذا التراث للأجيال المتعاقبة تأكيدًا لأهمية التواصل بين أجيال الأمة عبر تاريخها الحضاري؛ إذ إن الإنتاج الثقافي - لا شكَّ - تراكمي، وإن الإبداع ينبت في الأرض الخصبة بعطاء السابقين، وإن التجديد الفعال لا يتم إلا مع التأصيل. وضمان هذا التواصل يعتبر من أهم وظائف المكتبة التي اضطلعت بها، منذ نشأتها الأولى وعبر مراحل تطورها المختلفة.

والسبب الرئيسي لاختيار هذين القرنين هو وجود انطباع سائد غير صحيح؛ وهو أن الإسهامات الكبيرة التي قام بها المفكرون والعلماء المسلمون قد توقفت عند فترات تاريخية قديمة، ولم تتجاوزها. ولكن الحقائق الموثقة تشير إلى غير ذلك، وتؤكد أن عطاء المفكرين المسلمين في الفكر النهضوي التنويري - وإن

مر بمدٍّ وجزر - إنما هو تواصل عبر الأحقاب الزمنية المختلفة، بما في ذلك الحقبة الحديثة والمعاصرة التي تشمل القرنين الأخيرين.

يهدف هذا المشروع - فيما يهدف - إلى تكوين مكتبة متكاملة ومتنوعة، تضم مختارات من أهم الأعمال الفكرية لرواد الإصلاح والتجديد الإسلامي خلال القرنين الهجريَّيْن المذكورَيْن. والمكتبة إذ تسعى لإتاحة هذه المختارات على أوسع نطاق ممكن، عبر إعادة إصدارها في طبعة ورقية جديدة، وعبر النشر الإلكتروني أيضًا على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)؛ فإنها تستهدف في المقام الأول إتاحة هذه المختارات للشباب وللأجيال الجديدة بصفة خاصة.

ويسبق كلَّ كتاب دراسة تقديمية أعدها أحد الباحثين المتميزين، وفق منهجية منضبطة، جمعت بين التعريف بأولئك الرواد واجتهاداتهم من جهة، والتعريف بالسياق التاريخي / الاجتماعي الذي ظهرت فيه تلك الاجتهادات من جهة أخرى؛ بما كان فيه من تحديات وقضايا نهضوية كبرى، مع التأكيد أساسًا على آراء المؤلف واجتهاداته والأصداء التي تركها الكتاب. وللتأكد من توافر أعلى معايير الدقة، فإن التقديمات التي كتبها الباحثون قد راجعتها واعتمدتها لجنة من كبار الأساتذة المتخصصين، وذلك بعد مناقشات مستفيضة، وحوارات علمية رصينة، استغرقت جلسات متتالية لكل تقديم، شارك فيها كاتب التقديم ونظراؤه من فريق الباحثين الذين شاركوا في هذا المشروع الكبير. كما قامت مجموعة من المتخصصين على تدقيق نصوص الكتب ومراجعتها بما يوافق الطبعة الأصلية للكتاب.

هذا، وستسعى المكتبة أيضًا - وفق توفر الإمكانات الفنية والمادية - إلى ترجمة تلك المختارات أو مقتبسات منها إلى الإنجليزية ثم الفرنسية؛ مستهدفة أبناء المسلمين الناطقين بغير العربية، كما ستتيحها لمراكز البحث والجامعات ومؤسسات صناعة الرأي في مختلف أنحاء العالم. وتأمل المكتبة أن يساعد ذلك على تنقية صورة الإسلام من التشويهات التي يلصقها البعض به زورًا وبهتانًا، وبيان زيف كثير من الاتهامات الباطلة التي يُتَّهم بها المسلمون في جملتهم، خاصة من قِبَل الجهات المناوئة في الغرب.

إن قسمًا كبيرًا من كتابات رواد التنوير والإصلاح في الفكر الإسلامي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، لا يزال بعيدًا عن الأضواء، ومن ثم لا يزال محدود التأثير في مواجهة المشكلات التي تواجهها مجتمعاتنا. وربما كان غياب هذا القسم من التراث النهضوي الإسلامي سببًا من أسباب تكرار الأسئلة نفسها التي سبق أن أجاب عنها أولئك الرواد في سياق واقعهم الذي عاصروه. وربما كان هذا الغياب أيضًا سببًا من أسباب تفاقم الأزمات الفكرية والعقائدية التي يتعرض لها أبناؤنا من الأجيال الجديدة داخل مجتمعاتنا العربية والإسلامية وخارجها. ويكفي أن نشير إلى أن أعمال أمثال: محمد عبده، والأفغاني، والكواكبي، ومحمد إقبال، وخير الدين التونسي، وسعيد النورسي، ومالك بن نبي، وعلَّال الفاسي، والطاهر ابن عاشور، ومصطفى المراغي، ومحمود شلتوت، وعلي شريعتي، وعلي عزت بيجوفتش، وأحمد جودت باشا - وغيرهم - لا تزال بمنأًى عن أيدي الأجيال

الجديدة من الشباب في أغلبية البلدان العربية والإسلامية، فضلاً عن الشباب المسلم الذي يعيش في مجتمعات أوروبية أو أمريكية؛ الأمر الذي يلقي على المكتبة عبئًا مضاعفًا من أجل ترجمة هذه الأعمال، وليس فقط إعادة نشرها بالعربية وتيسير الحصول عليها (ورقيًّا وإلكترونيًّا).

إن هذا المشروع يسعى للجمع بين الإحياء، والتجديد، والإبداع، والتواصل مع الآخر. وليس اهتمامنا بهذا التراث إشارة إلى رفض الجديد الوافد علينا، بل علينا أن نتفاعل معه، ونختار منه ما يناسبنا، فتزداد حياتنا الثقافية ثراءً، وتتجدد أفكارنا بهذا التفاعل البناء بين القديم والجديد، بين الموروث والوافد، فتنتج الأجيال الجديدة عطاءها الجديد، إسهامًا في التراث الإنساني المشترك، بكل ما فيه من تنوع الهويات وتعددها.

وأملنا هو أن نسهم في إتاحة مصادر معرفية أصيلة وثرية لطلاب العلم والثقافة داخل أوطاننا وخارجها، وأن تستنهض هذه الإسهامات همم الأجيال الجديدة كي تقدم اجتهاداتها في مواجهة التحديات التي تعيشها الأمة؛ مستلهمة المنهج العلمي الدقيق الذي سار عليه أولئك الرواد الذين عاشوا خلال القرنين الهجريين الأخيرين، وتفاعلوا مع قضايا أمتهم، وبذلوا قصارى جهدهم واجتهدوا في تقديم الإجابات عن تحديات عصرهم من أجل نهضتها وتقدمها.

لقد وجدنا أن من أوجب مهماتنا ومن أولى مسئولياتنا في مكتبة

الإسكندرية، أن نسهم في توعية الأجيال الجديدة من الشباب في مصر، وفي غيرها من البلدان العربية والإسلامية، وغيرهم من الشباب المسلم في البلاد غير الإسلامية بالعطاء الحضاري للعلماء المسلمين في العصر الحديث، خلال القرنين المشار إليهما على وجه التحديد؛ حتى لا يترسَّخ الانطباع السائد الخاطئ، الذي سبق أن أشرنا إليه؛ فليس صحيحًا أن جهود العطاء الحضاري والإبداع الفكري للمسلمين قد توقفت عند فترات زمنية مضت عليها عدة قرون، والصحيح هو أنهم أضافوا الجديد في زمانهم، والمفيد لأمتهم وللإنسانية من أجل التقدم والحث على السعي لتحسين نوعية الحياة لبني البشر جميعًا.

وإذا كان العلم حصاد التفكير وإعمال العقل والتنقيب المنظم عن المعرفة، فإن الكتب هي آلة توارثه في الزمن؛ كي يتداوله الناس عبر الأجيال وفيما بين الأمم.

إسماعيل سراج الدين

مدير مكتبة الإسكندرية

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن وجهة نظر
مكتبـة الإسكندرية، إنما تعـبِّر عن وجهة نظر مؤلفـيها.

دراسة تقديمية

زكي الميلاد

١ فضل الله.. والنزعة الإصلاحية

عُرف السيد محمد حسين فضل الله (١٣٥٤-١٤٣١هـ/١٩٣٥-٢٠١٠م)، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، كأحد المصلحين الكبار في ساحة الفكر الإسلامي المعاصر، وعلى مستوى العالم الإسلامي الحديث، وكان صاحب نزعة إصلاحية عميقة، تجلت بوضوح كبير في خطابه ومواقفه وشخصيته، وظهرت في كتاباته وأحاديثه، وبقي على طول الخط متمسكًا بهذه النزعة الإصلاحية.

في لبنان، ورث السيد فضل الله، إلى جانب السيد موسى الصدر والشيخ محمد مهدي شمس الدين (١٣٥٤-١٤٢١هـ/١٩٣٦-٢٠٠١م)، جيل المصلحين الرواد الذين كانوا قبلهم، ويأتي في طليعتهم السيد محسن الأمين (١٢٨٤-١٣٧١هـ/١٨٦٧-١٩٥٢م)، والسيد عبد الحسين شرف الدين (١٢٩٠-١٣٧٧هـ/١٨٧٣-١٩٥٧م)، وهما من الذين عاصروا حقبة الاستعمار

الفرنسي على بلاد الشام، وما بعد هذه الحقبة، إلى نهاية النصف الأول من القرن العشرين.

ومن هذه الجهة، يعد السيد فضل الله أقرب إلى المنهج الإصلاحي الذي مثله وسلكه السيد محسن الأمين، ويمكن القول إنه مثل امتدادًا له ولنهجه الإصلاحي، خاصة في موقفه من إصلاح وتهذيب طقوس الشعائر الحسينية التي تقام في ذكرى عاشوراء.

ومن بعد هذين المصلحين الأمين وشرف الدين، يعتبر السيد فضل الله إلى جانب السيد موسى الصدر والشيخ شمس الدين، هم الأكثر حضورًا وتأثيرًا على الصعيدين الثقافي والاجتماعي في المجال الشيعي اللبناني بشكل خاص.

ومن المفارقات البارزة بين هؤلاء الثلاثة من جهة النهج العام، أن السيد الصدر غلَّب عامل الحركة على عامل الثقافة، بمعنى أنه غلب النشاط العملي على النشاط الذهني المتمثل في الكتابة والتأليف والنشر، في حين غلب الشيخ شمس الدين عامل الثقافة على عامل الحركة، وعرف بكتاباته ومؤلفاته، وبأطروحاته الفكرية والثقافية، وأما السيد فضل الله فقد جمع بين عاملي الثقافة والحركة، وعرفه بكتاباته ومؤلفاته الفكرية والثقافية، كما عرف بحركته ونشاطه أيضًا.

وفي جانب الحركة والنشاط، أظهر السيد فضل الله تفوقًا كبيرًا لا يكاد يجاريه أحد، ويصلح أن يضرب به المثل من هذه الجهة، فقد عرف بالحركة

والنشاط الدؤوب والمستمر الذي لا يهدأ ولا يتوقف طيلة أيام الأسبوع، وعلى مدار السنة كاملة، ويجمع في حركته ونشاطه بين إعطاء الدرس الديني، وإلقاء المحاضرات، والالتزام بصلاة الجماعة والجمعة، واستقبال الناس، إلى جانب اللقاءات والحوارات الفكرية والسياسية، ومتابعة أعمال المؤسسات والجمعيات التابعة له، كل ذلك يحصل بصورة يومية أو شبه يومية تقريبًا.

وبفضل هذا الجانب من الحركة والنشاط الممتد لما يزيد على نصف قرن، استطاع السيد فضل الله أن يصبح أحد أبرز المؤثرين فكريًّا وثقافيًّا في ساحة الفكر الإسلامي المعاصر، ليس في لبنان فقط، وإنما في خارجه أيضًا، في مشرق العالم العربي ومغربه، وامتد إلى ساحات أخرى مثل إيران وتركيا وباكستان وأفغانستان، ليس على مستوى النخب وإنما على مستوى الجمهور العام أيضًا، وليس في النطاق الشيعي فحسب، وإنما في النطاق السني كذلك.

وعلى الصعيد الفكري، مثل السيد فضل الله امتدادًا للنهج الفكري الذي سلكه السيد محمد باقر الصدر (١٣٥٠-١٤٠٠هـ/١٩٣١-١٩٨٠م)، لكن ليس بصفته تلميذًا أو تابعًا له، وإنما بصفته زميلاً وصديقًا مقربًا يتفق ويتناغم مع نهجه الفكري، ومع استشهاد السيد الصدر وغيابه، حاول السيد فضل الله أن يرث دوره، ويكمل مسيرته، ويمضي في نهجه، النهج الذي ظل يمتدحه، ويصوبه، ويلفت النظر إليه.

ومع هذا الاتفاق والتناغم الفكري بين الاثنين، إلا أن هناك بعض الفروقات بينهما، والتي تتحدد في أمرين مهمين، هما:

الأمر الأول له طبيعة منهجية، ويتحدد في أن السيد الصدر ركز على الجانب النظري في بناء وتكوين مشروعه الفكري، والذي كان يهدف إلى بناء التصور الإسلامي الشامل ليكون بديلاً عن المدارس الفكرية والأيديولوجية الأخرى المغايرة، كالماركسية والرأسمالية والوجودية وغيرها، بينما ركز السيد فضل الله على الجانب العملي في بناء وتكوين مشروعه الفكري.

الأمر الثاني له طبيعة معرفية، ويتحدد في الموقف تجاه الفلسفة، فالسيد الصدر كتب في الفلسفة، وله كتابه الشهير(فلسفتنا)، وعرف بهذا الاهتمام، ولم يُسجل له موقف في ذم وقدح الفلسفة، بخلاف السيد فضل الله الذي لا يميل إلى الفلسفة، ولا يقترب منها، وظل يذمها علنًا.

وعلى الصعيد الفقهي، مثل السيد فضل الله في المنحى العام امتدادًا لنهج أستاذه أبي القاسم الخوئي، أحد أبرز أساتذة البحث العالي في الفقه والأصول في حوزة النجف العراقية، وأحد أبرز مراجع الدين المعاصرين عند الإمامية، وقد اتفق السيد فضل الله معه في النهج الفقهي، ولكنه افترق عنه، واختلف معه في بعض الاجتهادات، وهذا ما يحدث عادة بين الفقهاء، وفي ساحة المجتهدين.

وفي التجربة الفكرية والإصلاحية للسيد فضل الله، هناك محطتان بارزتان، لا بد من التوقف عندهما، والاقتراب منهما، وهما محطتا النجف وبيروت في العراق ولبنان: في النجف كانت النشأة والتكوين الديني والعلمي والفكري، وفي بيروت كانت ساحة العمل والنهوض والانطلاق.

٢ في النجف.. النشأة والتكوين

ولد السيد فضل الله في مدينة النجف العراقية، في التاسع عشر من شعبان سنة (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م)، إذ كان والده السيد عبد الرؤوف فضل الله (١٣٢٥-١٤٠٥هـ/ ١٩٠٧-١٩٨٤م) مقيمًا آنذاك في مدينة النجف لتحصيل العلوم الدينية، التي وصل إليها سنة ١٩٢٧م، وهو في الثامنة والعشرين من عمره، وبقي فيها إلى سنة ١٩٥٥م.

ومن المعروف أن مدينة النجف الواقعة جنوب العراق، كانت وما زالت أحد أهم المراكز العلمية في تدريس وتحصيل العلوم والمعارف على مذهب أهل البيت، ويقصدها طلبة العلم والعلماء بأعداد كبيرة، ومن مختلف أرجاء العالم، ويمكثون فيها لفترات طويلة، تتجاوز أحيانًا عشرين سنة، طلبًا لتحصيل مرتبة الاجتهاد في فقه أهل البيت، وهناك من يفضلون البقاء والتوطن في هذه المدينة إلى نهاية العمر، رغبة في مجاورة مقام الإمام علي عليه السلام.

نشأ السيد فضل الله في أجواء دينية، وفي بيئة وحاضرة علمية، بدأ تعليمه الأوليّ في حلقة الكتاتيب لتعلم القرآن الكريم تلاوة وحفظًا، وفي العاشرة

من عمره التحق بمدرسة تابعة لجمعية منتدى النشر، وبعد فحص معلوماته تقرر ترقيته إلى الصف الثالث، متجاوزًا الصف الأول والثاني، وبقي في المدرسة إلى الصف الرابع.

ولا يعلم السيد فضل الله -حسب قوله- ما هي الظروف التي جعلته يخرج من المدرسة وهو في الصف الرابع، ليتابع باكرًا الدراسة الدينية، وهو في سن الحادية عشرة[1].

في سنة ١٣٦٣هـ، بدأ السيد فضل الله مشواره الطويل في الدراسة الدينية حسب نظام الحوزة العلمية النجفية، وامتدت دراسته إلى اثنتين وعشرين سنة، وكان والده السيد عبد الرؤوف فضل الله من أبرز أساتذته في ما يعرف في نظام الحوزات العلمية، بمرحلتي المقدمات والسطوح.

وفي مرحلة الدراسات العليا، أو ما يعرف بمرحلة بحث الخارج في الفقه والأصول، فإن من أبرز أساتذته، هم:

١ـ السيد محسن الحكيم (١٣٠٦-١٣٩٠هـ/١٨٨٩-١٩٧٠م).
٢ـ السيد أبو القاسم الخوئي (١٣١٧-١٤١٣هـ/١٨٩٩-١٩٩٢م).
٣ـ السيد حسين الشاهرودي (١٣٠١-١٣٩٤هـ/١٨٨٢-١٩٧٤م).
٤ـ الشيخ حسين الحلي (١٣٠٩-١٣٩٤هـ).

(١) وضاح الحلو وإسماعيل الفقيه، أسئلة وردود من القلب مع العلامة السيد محمد حسين فضل الله، بيروت: دار الملاك، ط٣، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ص١٣.

كما حضر عند الشيخ صدر البادكوبي درسه الفلسفي لكتاب الأسفار لصدر الدين الشيرازي.

وفي النجف يمكن الإشارة إلى ثلاث تجارب مهمة، تركت بصماتها وتأثيراتها العميقة في شخصية السيد فضل الله، من جهة التكوينات النفسية والاجتماعية والثقافية والسياسية، وظلت حاضرة في سيرته وذاكرته، وهذه التجارب الثلاث هي:

أولاً: التجربة الاجتماعية والاقتصادية

عاش السيد فضل الله مع عائلته في النجف ظروفًا معيشية واقتصادية صعبة للغاية، غلب عليها حالة الفقر الشديد، الفقر الذي كاد أن يودي بأهله إلى حافة الجوع، وأن أنفة والده -كما يقول السيد فضل الله- منعته من التماس العون من الأغنياء لفك ضيقته، لئلا يكون ذلك على حساب كبريائه، وكرامة أسرته.

هذه التجربة المرة، طبعت في نفسية السيد فضل الله، وحفرت في وجدانه مشاعر وأفكار تحددت في اتجاهين سلوكيين، هما:

الاتجاه الأول: تولد لديه نفور من الثراء، وعدم الرغبة في عيش الأثرياء المترف.

الاتجاه الثاني: بسبب الحرمان من مباهج الحياة التي غالبًا ما تغمر مرحلة الطفولة،

ولد لديه مشاعر الاهتمام بالفقراء والمحرومين، الذين ارتبط بواقعهم ومعاناتهم لمدة طويلة[١].

ثانيًا: التجربة الثقافية والأدبية

انفتح السيد فضل الله منذ وقت مبكر على الثقافة والأدب، وكانت له تجربة يفتخر بها، ويتذكرها باعتزاز؛ لأنها تقدم صورة عن نهجه المنفتح، وشخصيته المنفتحة على الثقافة المعاصرة والأدب الحديث، وللبرهنة على أن هذا الانفتاح الذي ميز شخصيته دائمًا، لم يكن طارئًا أو عابرًا أو مصطنعًا، وإنما كانت له جذور وأساسيات مبكرة، وحصل في ظروف غير مواتية، وفي بيئة لا يعرف عنها هذا النمط من الاهتمام، ويغلب عليها الطابع التقليدي، والانشغال الواسع بالدرس الديني الذي لا يكاد يترك مجالاً للاهتمامات الأخرى الثقافية والأدبية.

ومن صور هذا الانفتاح الثقافي والأدبي المبكر، متابعته للصحف والمجلات العربية، والمصرية منها بالذات، ففي سن الحادية عشرة كان يطالع- حسب قوله- مجلات أكبر من سنه وثقافته، (فكنت في ذلك الوقت أقرأ مجلة الرسالة التي يصدرها أحمد حسن الزيات، وكنت أستمتع بقراءتها، ولا أدري إذا كان هذا استمتاع الفكر الواعي، كما كنت أقرأ أيضًا مجلة الثقافة التي تصدر في مصر، وفي ذلك الجو كنت أعيش الانفتاح أكثر من أقراني، من خلال هذه

(١) مجموعة كتاب، محمد حسين فضل الله، لعقلانية و لحو ر من أجل لتغيير، بيروت: مركز لحضارة لتنمية لفكر لإسلامي، ٢٠١٠م، ص٢٧.

القراءات التي قد لا تكون منظمة أو مرتبة أو ممنهجة، ولكنها كانت كمن يتنقل بين الأزهار)[١].

وفي سن الخامسة عشرة، تتابعت وتطورت متابعاته وقراءاته للصحف والمجلات الثقافية والأدبية، فكان يقرأ ويتابع مجلة (أدب الكتاب) التي كان يصدرها طه حسين، ومجلة (الكتاب) التي كان يصدرها عادل الغضبان في مصر، ومجلة (الأديب) التي كان ينشرها ألبير أديب، وفي بداية الخمسينيات الميلادية، أخذ ينفتح على مجلة الآداب اللبنانية.

وحين يريد السيد فضل الله أن يصف طفولته، يقول عنها إنها كانت طفولة ثقافية مبكرة، قرأ فيها ترجمات كثيرة، منها ترجمة أحمد حسن الزيات لأشعار لامارتين، وترجمات جان جاك روسو، وترجمات أناتول فرانس، والتقى في ذلك الوقت بأدب طه حسين، الذي يقول عنه إنه (استطاع أن يؤثر تأثيرًا كبيرًا في أسلوبي، ولا يزال يفرض نفسه علي حتى الآن)[٢].

ويتصل بهذا المنحى الانفتاحي، مبادرته إلى إصدار مجلة خطية بالتعاون مع صديقه وابن خالته السيد مهدي الحكيم نجل المرجع الديني السيد محسن الحكيم، حملت هذه المجلة اسم (الأدب) صدر منها خمسة أعداد فقط ما بين سنتي ١٩٤٩ و١٩٥٠م، كتب فيها السيد فضل الله موضوعين فقط، وجاء إصدار

(١) وضاح لحلو وإسماعيل لفقيه، أسئلة وردود من لقلب، مرجع سابق، ص١٣.

(٢) لمرجع لسابق، ص١٦.

هذه المجلة في فترة كان يعيش فيها السيد فضل الله هاجس أن يصبح صحفيًّا.

والخطوة الأهم في هذا الدرب، حين اشترك السيد فضل الله مع بعض أصدقائه في أواخر الخمسينيات بتأسيس (أسرة الأدب اليقظ)، التي مثلت فيما بعد حدثًا يؤرخ له في تاريخ تطور الأدب الحديث في مدينة النجف؛ وذلك لأنها أحدثت دويًّا وتموجًا بسبب انفتاحها على حركة الشعر الحديث، وظلت هذه التجربة في ذاكرة المؤسسين لها، يتحدثون عنها بإعجاب كبير؛ لأنها قدمت وعبرت عن تجربة حديثة، حملت معها ملامح اليقظة والحداثة والتجديد.

وعن هذه التجربة وتأثيرها يقول السيد فضل الله: «أعتقد أننا مع كثير من أصدقائنا في النجف، ساهمنا في إدخال النجف في التجربة الشعرية الحديثة، عندما كنت المعركة الأدبية التي كانت تعيش في مجلة الآداب اللبنانية، بين الشعر الحر بشعرائه المتنوعين كبدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وصلاح الدين عبد الصبور... وهكذا انفتحت على شعر الجواهري ومحمد سعيد الحبوبي والشيخ علي الشرقي وغيرها من الأسماء التي لا تزال الذاكرة تحملها»[(١)].

وفي بعض مراحل حياته الشعرية، سمع السيد فضل الله بعض الناس يتحدثون عن أن الإنسان الذي يتعاطى الشعر، قد لا يكون محل ثقة في علمه؛ لأن الشعر يشغل عن الدراسة والتعمق فيها، فذهب إلى أحد العلماء الكبار، وهو

(١) صحيفة لصباح لكويتية، لجمعة ٢ يوليو ٢٠١٠م.

السيد عبد الهادي الشيرازي، وقال له: «هناك من يتحدث عن ممارستي للشعر بطريقة سلبية، فهل ترى أن أترك الشعر وأتفرغ للدراسة؟ قال: لا، إن قيمة الشعر والأدب، هو أنه يصقل السليقة، بمعنى أنه يبلور الذوق الأدبي للإنسان، فيستطيع أن يفهم القرآن أكثر، والحديث أعمق، باعتبار أن القرآن عربي، وينطلق من خلال أعلى أساليب البلاغة، والحديث أيضًا، حديث النبي العربي، وبذلك كلما كان الإنسان أديبًا أكثر كان أقدر على استيعاب النصوص أكثر. ثم قال لي: أنا شاعر وأبي كان شاعرًا، وبدأ يتلو علي شعرًا من شعره، وهو جالس في ديوانه»[١].

مع ذلك فضَّل السيد فضل الله أن يوقع قصائده فيما بعد، بأسماء رمزية مثل اسم «أبو علي»، و«رشدي ناجي».

وفي سنة (١٣٨٠هـ/١٩٦٠م) أصدرت جماعة العلماء في النجف، مجلة ثقافية إسلامية باسم (الأضواء)، وكان السيد فضل الله أحد المشرفين عليها، إلى جانب السيد محمد باقر الصدر والشيخ محمد مهدي شمس الدين، وكان يكتب افتتاحيتها الثانية بعنوان (كلمتنا)، والافتتاحية الأولى كان يكتبها السيد محمد باقر الصدر بعنوان (رسالتنا).

(١) وضاح الحلو وإسماعيل الفقيه، أسئلة وردود من القلب، مرجع سابق، ص٢٥.

ثالثًا: التجربة السياسية والحركية

عاصر السيد فضل الله الأحداث والتطورات السياسية التي حصلت في العراق والمنطقة العربية، وتفاعل معها، وتأثر بها، ومنها حدث النكبة في فلسطين سنة ١٩٤٨م، وثورة الضباط الأحرار سنة ١٩٥٢م، والعدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦م، وانقلاب عبد الكريم قاسم في العراق سنة ١٩٥٨م، وغيرها من أحداث وتطورات أخرى.

والحدث المهم في التجربة السياسية والحركية للسيد فضل الله، هو انخراطه في تأسيس حزب الدعوة الإسلامية في العراق سنة ١٩٥٧م، مع مجموعة من العلماء الذين كان قريبًا منهم وعلى صلة بهم، وفي طليعة هؤلاء العلماء: السيد محمد باقر الصدر، والسيد مرتضى العسكري، والسيد مهدي الحكيم، والسيد محمد باقر الحكيم، والشيخ محمد مهدي شمس الدين، والشيخ عبد الهادي الفضلي، إلى جانب آخرين علماء ومثقفين.

ويعد حزب الدعوة، أحد أكبر الأحزاب السياسية والدينية التي ظهرت في المجال الإسلامي الشيعي الحديث، وتعادل هذه التجربة في أهميتها أهمية انبعاث وتأسيس حركة الإخوان المسلمين في المجال الإسلامي السني الحديث.

هذه لعلها هي أبرز التجارب التي عاصرها السيد فضل الله في العراق، والتي تركت تأثيرًا على تكوينه الديني والعلمي والأدبي والسياسي والاجتماعي، وهي التجارب التي بقيت في ذاكرته، وظلت عصية على النسيان، يرجع إليها،

ويتحدث عنها، بشوق وحنين، كما أن هذه المحطة النجفية مثلت له أهم محطة في سيرته، وفي تجربته الفكرية والإصلاحية، ولولاها لما أصبح السيد فضل الله هو السيد فضل الله الذي نعرفه اليوم.

٣ في بيروت.. العمل والانطلاق

في سنة ١٩٥٢م، قام السيد فضل الله بأول زيارة له إلى لبنان برفقة والده، وكان في السادسة عشرة من عمره آنذاك، وجاءت هذه الزيارة بقصد رؤية العائلة والأقرباء في جنوب لبنان، فوالده ينحدر من بلدة عيناثا، ووالدته تنحدر من بلدة بنت جبيل الجنوبيتين.

هذه الزيارة بقيت في ذاكرة السيد فضل الله، وظل يتذكرها، ويتحدث عنها باستمرار في كثير من حواراته وأحاديثه الفكرية والإعلامية، وكنت قد سمعتها منه مباشرة في شتاء ١٩٩٦م.

لم تكن هذه الزيارة بالنسبة للسيد فضل الله، مجرد زيارة اجتماعية عادية على الإطلاق، تحددت واقتصرت على رؤية ولقاء العائلة والأقرباء في منطقة الجنوب، وإنما مثلت له مناسبة مهمة؛ لأن يعرف ويعرف عن نفسه لأول مرة من جهة، ويتعرف من جهة أخرى على هذه البيئة التي ظل يسمع عنها، ولعله كان يتوق إليها، ولم يرَها ويتصل بها إلا بعد ست عشرة سنة، وهي فترة غير قصيرة في تاريخ عمر الإنسان.

خلال هذه الزيارة التي دامت أشهر عدة، تنقل فيها السيد فضل الله بين مناطق الجنوب وبيروت، وأتاحت له فرصة الاشتراك، في العديد من الحوارات والمناقشات الفكرية والدينية مع مثقفين ومفكرين وسياسيين، ينتسبون لتيارات فكرية مختلفة، قومية وليبرالية وماركسية.

وعن أجواء هذه الحوارات ورؤيته لها، يقول السيد فضل الله متذكرًا: «عندما جئت إلى لبنان لأول مرة عام ١٩٥٢، وكنت في سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة، بدأت جلسات حوارية في الجنوب اللبناني مع الشيوعيين والقوميين العرب. وكنت ألتقي ببعض الشخصيات الفكرية مثل الدكتور حسين مروة الذي كانت تربطني به علاقة ومعرفة، وكانت هناك أحاديث متنوعة، واستطعت من خلال التنوع الثقافي الذي كنت ألمّ به بطريقة أو بأخرى، أن أنفتح على الحوار أو على الآخر منذ تلك اللحظة، فلم أكن أتعقد من فكر الآخر المعارض، وكنت أفكر أن عليّ أن أدير الحوار مع الفكر الآخر، وما هو السبيل للتفاهم والتحاور في هذا المجال»[١].

والحدث المهم في هذه الزيارة الذي جعلها في الذاكرة والذاكرة التاريخية عن السيد فضل الله، هو مشاركته في مناسبة كبيرة، هي ذكرى أربعينية المصلح الديني السيد محسن الأمين في بيروت، التي حضرها وتحدث فيها شخصيات

(١) صحيفة عكاظ لسعودية، أجرى لحو ر في بيروت: زياد عيتاني وهشام عليو ن، (٢٢ رمضان ١٤٢٤هـ/١٧ نوفمبر ٢٠٠٣م).

إسلامية وسياسية ومعروفة، منهم كامل مروة والدكتور مصطفى السباعي المرشد العام للإخوان المسلمين في سوريا ولبنان، في هذه المناسبة ألقى السيد فضل الله قصيدة لفتت الانتباه إليه على صغر سنه، ولقيت استحسان الحاضرين.

في سنة ١٣٨٥-١٩٦٦م غادر السيد فضل الله النجف نهائيًّا بصحبة والده عائدًا إلى موطنه لبنان، وأقام في بيروت بدعوة من جمعية أسرة التآخي في منطقة النبعة، ومن ثم انتقل إلى الضاحية الجنوبية، واستقر نهائيًّا في حارة حريك.

إذا كانت النجف بالنسبة للسيد فضل الله مثلت مرحلة الكسب والبناء والتكوين، فإن بيروت بالنسبة له مثلت مرحلة العمل والنهوض والانطلاق، وكان السيد فضل الله بحاجة إلى هذه المحطة التي وجد فيها فرصة كبيرة لانطلاقته، وقد حولها فعلاً إلى فرصة كبيرة للانطلاق، جعلت منه واحدًا من أكثر رجال الدين في لبنان حيوية وفاعلية، وأصبح مكسبًا كبيرًا لبيروت ولبنان، ومن ثم مكسبًا كبيرًا للعالمين العربي والإسلامي.

في بيروت ولبنان عمومًا، استطاع السيد فضل الله أن يشق طريقه بجدارة، ويتفرد بتجربة فكرية وإصلاحية عرف وتميز بها، وعدت فيما بعد واحدة من التجارب الفكرية والإصلاحية الرائدة ليس في لبنان فحسب، وإنما على مستوى العالمين العربي والإسلامي، وبشكل لا يمكن التنكر لها، وعدم الاعتراف بها، أو التغافل عنها، وستظل عصية على المحو والنسيان.

والدور الذي نهض به السيد فضل الله في بيروت ولبنان، يمكن القول إنه تحدد في ثلاثة مجالات أساسية، هي:

أولاً: المجال الديني والثقافي

في هذا المجال نهض السيد فضل الله بدور كبير ومؤثر، وخلال سنوات طويلة من العطاء والعمل، تمكن من تنمية حالة إسلامية متوهجة، ظل يرعاها ويمدها بالتوجيه الديني والثقافي من خلال الكتاب والمحاضرة والاجتماع والندوة، في المسجد والمنزل والمعهد والحوزة.

ويتصل بهذا المجال، الكثير من الأنشطة المتنوعة العامة والخاصة، العامة الموجهة للجمهور العريض من الناس كالوعظ الديني والتوجيه الثقافي، والخاصة الموجهة للطلبة وأهل العلم الديني كالبحث الفقهي والتفسير القرآني، وهي الأنشطة التي داوم وانتظم عليها السيد فضل الله سنوات طويلة.

ويتصل بهذا المجال أيضًا، المعاهد والمراكز الدينية والثقافية التي أسسها وأشرف عليها، منها المعهد الشرعي الإسلامي، والمركز الإسلامي الثقافي، ومجمع الحسنين في بيروت، وحوزة المرتضى في منطقة السيدة زينب جنوب العاصمة السورية دمشق.

وتعزز هذا الدور الذي ينهض به السيد فضل الله في المجال الديني والثقافي، من خلال بعض الوسائط الإعلامية المرتبطة به، مثل إذاعة البشائر

التي يصل بثها إلى كامل الأراضي اللبنانية، وقناة الإيمان الفضائية، ونشرة بينات التي تصدر أسبوعيًّا بصورة ورقية، وموقع بينات الإلكتروني وهو الموقع الرسمي للسيد فضل الله.

ثانيًا: المجال الاجتماعي والتعليمي

أولى السيد فضل الله عناية كبيرة بهذا المجال الاجتماعي والتعليمي، والذي خصه بشكل خاص للأيتام والفقراء، وللطبقات الضعيفة والمحرومة، وذلك لكونه عاش حياة الفقر والبؤس، وتذوق هذه المرارة مع أسرته في مدينة النجف العراقية، وكان قريبًا من الفقراء ومن الطبقات الضعيفة والمحرومة في بيروت ومنطقة الجنوب، ونتيجة لما سببته الحروب الأهلية الطويلة التي مرت على بلده لبنان، وأدت إلى تزايد أعداد اليتامى، وتسببت بأضرار كبيرة تأثرت منها الطبقات الضعيفة.

وفي هذا النطاق، أسس السيد فضل الله جمعية المبرات الخيرية، التي تفرعت منها مبرات عدة، وفي ظل الحرب اللبنانية أمنت هذه المبرات السكن الكريم للأيتام، ومن ثم تطورت الرعاية بالأيتام لتشمل مختلف الجوانب النفسية والجسدية والتعليمية والدينية والاجتماعية، وأصبحت هذه المبرات تتعهد هؤلاء الأيتام بالتعليم في المراحل كافة، من ما قبل الابتدائية إلى تأمين فرص التعليم الجامعي، وبعد التخرج تفتح لهم مجال العمل والتوظيف في هذه المبرات، وتعطي لهم صفة الأفضلية والأولوية.

ولتأمين التعليم لهؤلاء وغيرهم، أسست هذه المبرات عددًا من المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية، بالإضافة إلى عدد من المعاهد الفنية والتقنية وللتمريض، ومعهد خاص لذوي الإعاقة السمعية والبصرية، مع مجموعة من المستشفيات والمراكز الصحية.

وتحتضن جمعية المبرات حسب إحصاءاتها، أكثر من ٣٣٠٠ يتيمًا من الذكور والإناث موزعين على مبراتها المختلفة.

هذا النشاط الاجتماعي والتعليمي الواسع والكبير، وخاصة لهذه الشريحة الضعيفة من الناس، قرب السيد فضل الله من الناس، وقرب الناس إليه، وأصبح في قلب حركة الناس، وضرب مثلاً للعالم والمفكر ورجل الدين الذي يقترب من الناس، ويقدم الخدمة الاجتماعية لهم، ولا ينفصل أو ينعزل أو يتعالى عليهم.

ثالثًا: المجال السياسي والنضالي

بقدر ما عرف السيد فضل الله بدوره الديني والثقافي والاجتماعي، عرف أيضًا بدوره السياسي والنضالي، فهو من الشخصيات التي كان لها وزنها الديني والسياسي معًا في لبنان والعالم العربي، فالسياسة حاضرة بصورة دائمة ومستمرة في خطاباته وأحاديثه وحواراته، وله مواقفه السياسية التي يستقل بها تجاه ما يجري من قضايا وأحداث في لبنان وفي العالمين العربي والإسلامي.

وخطبة الجمعة التي كان يلقيها أسبوعيًّا من على منبر مسجد الحسنين في حارة حريك، والمكونة من خطبتين، خطبة يخصصها للقضايا الدينية والثقافية، وخطبة أخرى يخصصها للقضايا السياسية التي تهم المسلمين كافة، وهذه الخطبة السياسية تتحول بعد إلقائها إلى تصريحات سياسية تعمم وتنشر أسبوعيًّا في الصحافة اللبنانية، وتذاع في المحطات الإذاعية والتلفازية.

وقد عرف عن السيد فضل الله متابعته اليومية للأحداث والقضايا السياسية، ومطالعته اليومية للصحافة الصادرة في لبنان والعالم العربي، ولديه وقت مجدول يوميًّا لهذا النوع من المتابعة والمطالعة.

ويتصل بهذا النمط من الاهتمام، لقاءاته وحواراته السياسية الشبه اليومية مع السياسيين والصحفيين والإعلاميين، وأعضاء السلك الدبلوماسي المعتمدين في لبنان، بما في ذلك السفراء والدبلوماسيين الأجانب والأوروبيين، الذين يقصدونه في بيته، ويتحاورون معه، ويستطلعون آراءه ووجهات نظره حول القضايا السياسية وحتى الثقافية والدينية، وهذا ما تنقله بالصورة الصحافة والتلفزة اللبنانية يوميًّا أو شبه يومي.

هذا الاهتمام السياسي كمًّا وكيفًا عند السيد فضل الله، لا ينفصل وطبيعة لبنان البلد والكيان وشكل النظام السياسي، وما فيه من إعلام وصحافة وأحزاب وحريات لا تتوفر ولا تقارن بأي بلد عربي آخر، وبشكل شجع اللبنانيين على الانخراط في الحياة السياسية، كما أن الظروف السياسية التي مرت على

لبنان، والحروب التي حصلت على أرضه جعلت السياسة حاضرة ومؤثرة في حياة اللبنانيين.

وكان للسيد فضل الله نهج سياسي ملتزم، يغلب فيه الجانب الشرعي والمصلحة الإسلامية العامة والعليا، فقد عرف بموقفه المبدئي تجاه القدس والقضية الفلسطينية، ورفضه القاطع للوجود والكيان الإسرائيلي، واصطف إلى جانب المقاومة في فلسطين ولبنان، وظل مدافعًا عن هذا النهج على طول الخط، وهذا ما يعرفه الفلسطينيون واللبنانيون الذين وجدوا فيه سندًا قويًّا وثابتًا.

كما أنه كان إلى جانب الشعوب دائمًا في دفاعها عن قضاياها العادلة، وفي مطالبها المحقة في الحرية والعدالة والكرامة، وخطبه ومواقفه وأحاديثه تشهد له على ذلك بكل صراحة ووضوح وثبات.

وبسبب هذا النهج السياسي الملتزم تعرض السيد فضل الله إلى أكثر من محاولة اغتيال، كان أخطرها على الإطلاق حادثة بئر العبد سنة ١٩٨٥، وعن هذه الحادثة وعلاقتها بمواقفه السياسية يقول السيد فضل الله: «الواقع أنني كنت ولا أزال مستهدفًا لأكثر من حملة مخابراتية، وعلى مستوى دولي، حتى إنني تعرضت لأكثر من محاولة اغتيال، كانت آخرها محاولة الاغتيال التي دبرتها المخابرات المركزية الأمريكية، كما ذكر مدير المخابرات المركزية الأمريكية وليم كايسي في مذكراته، وهذه المحاولة حصدت ما يقارب ٢٠٠ بين قتيل وجريح

ومعاق، وقد تعرضت في أكثر من حالة استهدفت تشويه صورتي، من قبل أكثر من مؤسسة إعلامية، وقد كنت أعتبر أن ذلك طبيعي؛ لأن الذي يقف في الساحة ليواجه مثل هذه التحديات، ويقدم هذه المواقف، لا بد أن يدفع ضريبة من صورته أو من حياته»[١].

وفي حرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦م، تعرض منزله في الضاحية الجنوبية إلى قصف الطيران الإسرائيلي المعتدي.

هذه لعلها أهم المجالات التي تكشف عن الدور النهضوي الكبير الذي نهض به السيد فضل الله منذ وصوله واستقراره في بلده لبنان سنة ١٩٦٦م.

٤ فضل الله.. والمحنة

في النصف الثاني من تسعينيات القرن العشرين، تعرض السيد فضل الله إلى حملة شرسة من الاتهام والتشويه والتجريح والتشكيك طالت شخصه وفكره وخطابه ونهجه، وتمثلت في إصدار بيانات، وإطلاق تصريحات، ووصلت إلى إصدار كتب ونشرات، وإلى فتح مواقع إلكترونية، اشترك فيها طلبة وعلماء وفقهاء في لبنان وسوريا وإيران والعراق وبعض دول الخليج، عرفت عند هؤلاء في وقتها بفتنة فضل الله، وحكموا عليه بالضلال والانحراف.

---

(١) محمد حسين فضل الله، الحركة الإسلامية ما لها وما عليها، إعد د: نجيب نور الدين، بيروت: د ر الملاك، ٢٠٠٤م، ص٤٤٣.

وهذه كانت أشرس حملة اتهامية وتجريحية تعرض لها السيد فضل الله في حياته، ولعلها كانت أشد وأشرس وأخطر حملة اتهامية تعرض لها رجل دين خلال النصف الثاني من القرن العشرين، أقول هذا الكلام لأنني في هذه الفترة كنت ألتقي بالسيد فضل الله في درسه ومجلسه، وفي لقاءات ثنائية معه، وسمعت منه وجهة نظره، وتعرفت على انطباعه، ورِدَّة فعله.

ولم تكن هذه الحملة بهذا النمط الشرس في بال أحد، وكانت خارج التوقع على الإطلاق، بما في ذلك توقع السيد فضل نفسه، ولعله كان يرى أن منزلته ومكانته في الساحة، وتاريخه الفكري والإصلاحي يشفع له، ويعطيه حصانة من الابتلاء بهذه المحنة، وهو الذي سخر كل إمكاناته وطاقاته وجهده ووقته في الدفاع عن الإسلام، والعاملين للإسلام، وللقضايا الإسلامية الكبرى في الأمة، وإذا به وبعد كل هذه السنوات الطويلة يكون في دائرة الاتهام والتجريح والتشكيك.

وجاءت هذه الحملة على خلفية بعض القضايا الفكرية والفقهية والتاريخية التي أثارها السيد فضل الله، وكانت له وجهات نظر مغايرة لما هو سائد ومألوف تجاه هذه القضايا، وأراد أن يفتح نقاشًا، ويحرك ساكنًا، ويسجل موقفًا مختلفًا، على طريقة ما حصل من قبل بين الشيخ محمد بن محمد النعمان الملقب بالشيخ المفيد (٣٣٦-٤١٣هـ/٩٤٧-١٠٢٢م)، مع أستاذه الشيخ محمد ابن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (٣٠٦-٣٨١هـ)،

فالمفيد ألف كتابًا عقائديًّا في الرد على أستاذه الصدوق، وأظهر الاختلاف معه، حمل هذا الكتاب عنوان «تصحيح الاعتقاد أو الرد على ابن بابويه».

أو على طريقة ما حصل بين الشيخ محمد بن إدريس الحلي (٥٤٣-٥٩٨هـ)، والشيخ محمد بن الحسن الطوسي، حين وجه الأول نقدًا للثاني، وأظهر اختلافًا معه في بعض المسائل الفقهية والأصولية، وعدت هذه الخطوة جرأة كبيرة من ابن إدريس، لكنها حمدت فيها بعد، وجرى اعتبارها خطوة أسهمت في إخراج الفكر الفقهي والاجتهادي من ركوده وجموده.

أو على طريقة ما قام به السيد محسن الأمين حين اعترض على بعض الطقوس والمراسيم التي تقام في ذكرى عاشوراء، وطالب بتهذيب وتنزيه هذه المناسبة الدينية، وشرح وجهة نظره في رسالة صغيرة بعنوان «رسالة التنزيه»، صدرت سنة ١٩٢٨م. هذا الموقف في وقته قابله البعض بالرفض والاستنكار، لكنه عدّ فيما بعد موقفًا إصلاحيًّا، يسجل لصاحبه ويؤرخ له في تاريخ تطور حركة الإصلاح الديني في المجال الإسلامي الشيعي.

ولعل في تقدير السيد فضل الله، أن ما أثاره من قضايا فكرية وفقهية وتاريخية، لا تخرجه عن السيرة التي خطها من قبل الشيخ المفيد ما بين القرنين الرابع والخامس الهجريين، أو السيرة التي خطها ابن إدريس في القرن السادس الهجري، أو السيرة التي خطها السيد الأمين في العقود الأولى من القرن العشرين.

والذي فاقم الموقف، وأثار حفيظة الآخرين، أن هذه الإثارات من السيد فضل الله، تزامنت مع إعلانه المرجعية بوصفه مرجع تقليد في مسائل الفروع الفقهية، على الطريقة السائدة عند المسلمين الإمامية في ضرورة اتباع العالم ليكون العمل بأحكام الشريعة عن علم، هذه الخطوة من السيد فضل الله وجد فيها البعض أنها سوف تؤدي إلى حالة من التنافس والتزاحم مع مرجعيات أخرى، خاصة في الساحة اللبنانية.

إلى جانب من وجد في هذه الخطوة، أنها يمكن أن تعطي تلك الإثارات المثيرة للجدل والمتحفظ عليها عند هؤلاء، صفة الامتداد والتأثير على الناس، باعتبار أن المرجع الديني له تأثير على الناس لا يقارن بالآخرين، إلى جانب حسابات وتخوفات وحساسيات أخرى عند البعض.

ومن النصوص التي شرح فيها السيد فضل الله رؤيته تجاه هذه المحنة؛ خلفياتها وأبعادها واستهدافاتها، ومن يقف وراءها، وكيف تعامل معها، النص الآتي: «كانت لي آرائي حيال بعض القضايا التاريخية والفقهية، وما إلى ذلك مما هو خارج عن المألوف، أو مما يصطدم ببعض الحساسيات العاطفية لدى الناس، وقد التقى ذلك مع بعض العقد النفسية لدى بعض الأشخاص.

ولذلك حاولوا أن يثيروا حربًا غوغائية بأكثر من طريق من خلال المناشير، ومن خلال بعض الكتب، وقد واجهت ذلك بطريقة عقلانية جدًّا، فلم أرد على ما لا يحتاج إلى رد، وأرد على ما يحتاج للرد بطريقة علمية، حتى إذا طرح اسمي

في المرجعية الشيعية ولم أختره، لكن فرض علي من الكثير من الأصدقاء في العالم، الذين كانت لهم قناعاتهم لجهة أني أملك بعض المواصفات التي يمكن للناس أن يرجعوا إليّ في موضوع الفتوى.

وهنا بدأت حملة شرسة جدًّا فوق العادة في هذا المجال، بمحاولة التصريح بالقضايا العقيدية، ولا سيما القضايا التي تتصل بالحقوق الشيعية الأساسية، سواء كانت تاريخية أو غير تاريخية، أو بعض القضايا الفقهية أو ما شابه ذلك، وقد قام الكثيرون من هؤلاء المعقدين بالحملة في مدينة قم والشام ولبنان، وفي أكثر من مكان، في محاولة لإيجاد حرب أعصاب ضد كل الذين يلتزمون موقفي أو الذين يقفون على الحياد.

وهكذا كثرت المناشير التي توزع في أكثر من مكان مما كان مكذوبًا علي بنسبة ٩٠٪ ومحرفًا فيها كلامي بنسبة ١٠٪ وقد وصلت محاولتهم الأخيرة إلى أن يكذبوا على علماء النجف، بإحضار بيانات تتحدث بلغة رخيصة جدًّا لا تتناسب مع مستوى علماء، بحيث إن الإنسان الذي يقرؤها يقتنع مسبقًا بأنها لا يمكن أن تكون صادرة منهم؛ لأن المرجعية لا يمكن أن تنزل بهذا المستوى من الكلام الرخيص.

وقد حاولوا أن ينشروا هذه المناشير لا سيما في الخليج، ولكم المراجع كانوا في مستوى المسؤولين فأصدروا أكثر من بيان، وتحدثوا مع أكثر من شخص، وأعلنوا أنها مكذوبة عليهم جملة وتفصيلاً، ولذلك فإن المسألة هي من المسائل

التي تعتبر بحسب الوضع، وضع التخلف الذي تعيش فيه بعض قطاعات الأمة وهو أمر طبيعي جدًّا.

إنني أود أن أقول لكل إخواني أنني أنطلق من موقع إخلاصي الإسلامي، ولخط أهل البيت - عليهم السلام، ولأمتي كلها، وإن مشكلتي هي أنني أقف ضد الاستكبار العالمي، وضد الصهيونية، وضد التخلف والجهل، وإنني أعمل من أجل تأصيل مفاهيمنا وفقهنا وقضايانا حتى تدخل العصر؛ لأنني أؤمن بأن على الإنسان أن يملك حس المعاصرة، دون أن يسقط تحت تأثير كلمات العصر وآرائه، ولكن أن ندخل الإنسان إلى العصر بالوجه المشرق للإسلام»[1].

أمام هذه المحنة القاسية، لا نستطيع القول إن السيد فضل الله لم يتأثر منها، وذلك مهما أوتي من قوة وصلابة، لأنه في الأخير بشر لديه قلب وعاطفة وإحساس، لكنها محنة لم تزلزله وتصيبه بالوهن، وتحد من عزيمته وإرادته، ولم تدفع به نحو التراجع والانكماش في عمله وحركته، فقد حافظ على توازنه وتماسكه، وبقي على حيويته وفاعليته المعتادة.

وانقلبت صورة الموقف عند وفاته، وأمام التشييع الكبير لجنازته، والحضور النوعي اللافت للعلماء والشخصيات الفكرية والدينية والسياسية، التي حضرت للتعزية برحيله، ومع مرور الوقت ذهبت المحنة، وبقي السيد فضل الله علمًا ومصلحًا.

---

(١) لمرجع لسابق، ص٤٤٤.

٥ مواقف واجتهادات

خلال تجربته الفكرية الطويلة، تبلورت عند السيد فضل الله بعض المواقف والأفكار والاجتهادات الفكرية والفقهية والتاريخية، التي أفصح عنها في العلن، ولم يتكتم عليها خوفًا أو احترازًا على نفسه أو منزلته، لكونها تخالف رأي المشهور من العلماء، أو تصادم ما هو مألوف في عرف الجمهور من الناس، وهي التي أثارت عليه غضب البعض، وأوقعته في ظروف المحنة، ومن هذه المواقف والأفكار والاجتهادات:

أولاً: نفي القول بالولاية التكوينية لأحد من البشر، حتى الأنبياء والرسل والأئمة - عليهم السلام- جميعًا، وليس لأحد من هؤلاء ولاية التصرف في الكون كما يشاؤون، وقد شرح السيد فضل الله هذا الموقف في كتاب خصصه لهذه القضية حمل عنوان «نظرة إسلامية حول الولاية التكوينية».

في هذا الكتاب اعتبر السيد فضل الله أن القرآن الكريم هو المرجع في تحديد نظرة الإنسان المسلم للأنبياء والأولياء، ولدورهم وحركتهم في الحياة، وحسب رأيه أن للقرآن الدور الأساس في تحديد طبيعة التصور الذي أراد الله تعالى للإنسان أن يأخذ به في نظرته للأنبياء ودورهم وحركتهم في الحياة، وكذلك بالنسبة إلى الأولياء بالأولوية.

ومن جانب آخر، يرى السيد فضل الله أن الولاية التكوينية ليست من المعتقدات الأساسية لدى الشيعة الإمامية، ولا هي من أصول الإيمان ولا من

أركانه، وإنما هي من الفروع الاعتقادية النظرية، التي تخضع للدليل والبرهان إثباتًا ونفيًا.

ثانيًا: احترام رموز المسلمين من الصحابة والخلفاء وأمهات المؤمنين، وتحريم السب، وللسيد فضل الله في هذا الشأن موقف فقهي ملزم، شرحه بقوله: «أنا شخصيًّا أحرِّم سبّ أي صحابي؛ لأن الله سبحانه وتعالى تحدث عن الصحابة بقوله تعالى: ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا**﴾ [الفتح/ ٢٩]، وإن كان لنا رأي في مسألة الإمامة والخلافة، أما في مسألة السبّ، فقد قلت إن هذا يحرم على أي مسلم، وأنا أسجل هذا في كل استفتاء يأتيني، بأنه يحرم سبّ أي صحابي بمن فيهم الخلفاء... لذلك نحن نحرِّم سبّ أمهات المؤمنين والإساءة إليهن، كما نحرِّم سب الصحابة، وقد أصدرنا فتوى في ذلك انتشرت في العالم»(١).

ثالثًا: إصلاح الشعائر الحسينية، في نظر السيد فضل الله أن القضية الحسينية كالقضية الإسلامية لا بد أن يتزاوج فيها العقل والعاطفة، ولا بد أن يتزاوج فيها الإيمان والحس، وكما أننا نحتاج إلى البراهين العلمية وإلى الجو العلمي من أجل تنمية الأفكار في عقولنا، نحتاج كذلك إلى الأساليب العاطفية من أجل تعميق العاطفة في إحساسنا ومشاعرنا. ونحن نصرّ على بقاء العاطفة في كل قضية تتصل

---

(١) صحيفة عكاظ لسعودية، (٢٨ صفر ١٤٢٩هـ/ ٦ مارس ٢٠٠٨م).

بالجانب العقدي؛ لأنه لا العقل وحده ولا الفكر وحده بقادرين على تخليد أي مبدأ... لذلك فلا بد أن يكون المنبر الحسيني واعيًا، ولا بد أن يكون خطيب المنبر الحسيني مثقفًا يعرف الإسلام جيدًا، ويعرف السيرة الحسينية جيدًا، ويعرف الواقع الاجتماعي والسياسي من حوله جيدًا، حتى يعرف كيف يحوّل المنبر إلى إحياء أمرهم في خط الوعي، لا إلى إماتة أمرهم في خط الجهل والتخلف.

وبالنسبة للشعائر الحسينية يرى السيد فضل الله أنها تمثل الأساليب التعبيرية عن الحزن وعن الولاء. وأساليب التعبير تختلف بين زمن وزمن، فالبكاء أسلوب إنساني في التعبير عن الحزن. واللطم الهادئ الحزين أسلوب إنساني في التعبير عن الحزن. لكن بعض الأمور التي تضر الجسد ليست أسلوبًا إنسانيًّا في التعبير عن الحزن، فعندما يجرح أحد أقاربكم لا تجرحون أنفسكم مواساةً له، وعندما يجلد أحد أصدقائكم فإنكم لا تجلدون ظهوركم حزنًا عليه؛ لأن جلد الظهر أو جرح الجسد ليس طريقة إنسانية في التعبير عن الحزن أو عن الاحتجاج، بل هي عملية تعذيب للنفس قد يرضى بها العدو أكثر مما يحزن عليها؛ لأنها بدلاً من أن توجه سيفك إلى عدوك توجهه إلى نفسك، لقد قلت لا مانع من أن نجرح أجسادنا ورؤوسنا في سبيل الحسين وفي خط الحسين، وأن نجلد ظهورنا في سبيل الحسين، ولكن هل تعرفون أين؟ هناك في الخط الذي جرح الحسين فيه، فلقد جرح (ع) في خط الجهاد، أتعرفون من هم الحسينيون في عاشوراء وفي الأربعين،

إنهم الذين يقاتلون العدو الصهيوني من أبناء المقاومة الإسلامية الذين ينطلقون فيجرحون ويقتلون، هذه هي المواساة للحسين[١].

رابعًا: العمل بالحسابات الفلكية في إثبات بدايات الشهور القمرية، وفي هذا الشأن يرى السيد فضل الله أن مسألة الشهر هي من المسائل المربوطة بالنظام الكوني للزمن، ولا علاقة لها بمسألة أن يراه شخص أو لا يراه، وأن الحسابات الفلكية أدق من الرؤية، لأن الفضاء ملوث هذه الأيام، ومن الصعب جدًّا أن تحصل رؤية صافية، والرؤية الواردة في الحديث النبوي: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» هي وسيلة من وسائل المعرفة.

ومن جانب آخر يرى السيد فضل الله أنه «من الناس الذين يحاولون أن يعيشوا عصرهم، لا من جهة عقدة العصر، لكن من خلال أنني أتطلع إلى المستجدات في العصر تنطلق من تطور العلم والنظريات التي يستنبطها المختصون؛ لأنني أثق بالعلم عندما يحصل منه اليقين»، وفي نظره أن «مسألة الحسابات الفلكية لم تخطئ في مدى مئة سنة في قضية التوليد».

والثمرة التي ينتهي إليها السيد فضل الله يحددها بقوله: إن بإمكان الحسابات الفلكية حسم الخلاف الأبدي بين السنة والشيعة حول بداية شهر رمضان[٢].

(١) محمد حسين فضل الله، لشعائر لحسينية، موقع بينات لإلكتروني.

(٢) صحيفة لأخبار للبنانية، لجمعة ٢١ أغسطس ٢٠٠٩م.

خامسًا: حق المرأة الجنسي، يرى السيد فضل الله مبدأ التساوي في الحق الجنسي بين المرأة والرجل، وليس مبدأ التفاضل الذي يقدم حق الرجل ويفاضله على حق المرأة، وحسب رأيه أن «حق المرأة في الجنس بالنسبة للرجل كحق الرجل بالنسبة إلى المرأة، خاصة إذا لاحظنا أن الجانب الجنسي هو الأساس في الزواج؛ لأنه لا معنى لأن تتزوج المرأة حتى تجد شخصًا يوفر لها الطعام!. والحاصل أن الجنس غريزة خلقها الله في المرأة والرجل، فكما أنه يمثل حاجة هنا، فإنه يمثل حاجة هناك، وبالتالي فكما يجب على المرأة أن تستجيب كلما أراد الرجل، كذلك يجب على الرجل أن يستجيب كلما أرادت المرأة، إلا أن تكون هناك حالة مرضية أو حالة إعياء أو عذر شرعي وما إلى ذلك من العناوين»[١].

سادسًا: إرث المرأة من الأراضي والعقارات، يرى السيد فضل الله أن المرأة ترث من كل شيء تركه الرجل، كما هو يرثها من كل شيء تركت حتى الأراضي وأعيان العقارات، وهذا بخلاف رأي المشهور عند علماء الإمامية الذين يرون أن الزوجة ترث من كل ما تركه الزوج باستثناء العقار، فإنها لا ترث لا من عينه ولا من قيمته، وترث قيمة ما ترك فيها من بناء وآلات وأشجار وأخشاب[٢].

(١) جعفر لشاخوري، كتاب لنكاح، تقرير بحث لسيد محمد حسين فضل لله، بيروت، د ر لملاك، ١٩٩٦م، ج١، ص١٦٩.

(٢) مجموعة كُتاب، محمد حسين فضل لله: لعقلانية و لحو ر من أجل لتغيير، مرجع سابق، ص٨١.

٦ المشروع الفكري

التجربة الفكرية الطويلة للسيد فضل الله، وانخراطه المبكر في العمل الإسلامي، وحالة الانفتاح الثقافي التي تميز بها، واستمر عليها، ساعدته على بلورة مشروع فكري، ونضجت له ملامح ومكونات هذا المشروع الذي عرف وتميز به، وشرحه وكشف عنه في كتاباته وأحاديثه، وأعطى له قوة التجلي والحضور بتأثير عامل الحركة الذي ضرب به مثلاً.

وعند النظر في هذا المشروع الفكري، يمكن القول إنه يتحدد في العلاقة بين الإسلام والحركة لأجل إعادة الإسلام إلى الحياة المعاصرة، وبالفحص البنيوي فإن هذا المشرع يستند على ثلاث ركائز أساسية، هي:

أولاً: إن الإسلام قادر على إدارة الحياة في كل زمان ومكان، وعلى مستوى الجوانب والأبعاد كافة، وبما يحقق التقدم والازدهار؛ وذلك لأن الإسلام جاء إلى الحياة لا ليكون طارئًا أو عابرًا أو حدثًا مؤقتًا، ولا ليكون لزمان دون زمان، أو مكان دون مكان، أو حال دون حال، وإنما ليكون نهجًا ثابتًا وخالدًا في الحياة.

ثانيًا: إعادة الإسلام إلى الحياة، بعد ما حصل من انقطاع وابتعاد واختلال في العلاقة بين الإسلام والحياة، وذلك نتيجة ما أصاب المسلمين من تراجع وتخلف وجمود، حجب عنهم نور الإسلام وإشعاعه الحضاري، وسلبهم الوعي والبصيرة، وتحول الدين إلى طقوس وعبادات فردية وحرفية وشكلية منفصلة عن

الحياة وحركتها، الوضع الذي يجب تغييره وإصلاحه ليعود الإسلام إلى الحياة من جديد.

ثالثًا: إن إعادة الإسلام إلى الحياة لا تتم بالنشاط الفكري والنظري، وإنما بالعمل والحركة، وحسب عبارة السيد فضل الله: «إن الدعوة إلى الإسلام ليست حركة في الموقع الفكري للإنسان، بل هي حركة في الموقع العملي، الذي يتولى التثقيف بالممارسة، كما يتولى ذلك بتحريك الفكرة بالخطاب والتوجيه»[١].

وقد أطلق السيد فضل الله على مشروعه الفكري تسمية الإسلام الحركي، ومن هذه التسمية جاء الربط بين الإسلام والحركة، الربط الذي يعني أن إعادة الإسلام إلى الحياة بحاجة إلى حركة وليس إلى نظر، وبحاجة إلى عمل يتجاوز الجمود والسكون، وبحاجة إلى فعل يتخطى سلوك القاعدين والمتقاعدين.

ومن دلائل العلاقة بين الإسلام والحركة أن الإسلام بطبعه يولد العمل والحركة، وهو دين العمل والحركة، وليس دين الرأي والنظر، فالإسلام عمل كله، وحتى النظر هو شكل من أشكال العمل، وينبغي ألا ينفصل عن العمل، أو ينقطع عنه.

وفي هذا النطاق جاء تأكيد الإسلام على ربط العلم بالعمل، وربط الإيمان بالعمل، وربط العبادات بالعمل، وجعل العبادات سلوكيات عملية، وربط

(١) محمد حسين فضل الله، الحركة الإسلامية.. هموم وقضايا، الطبعة الحالية، ص٤٨١.

الأذكار بالعمل، فالصلاة هي عمل، حركة وذكر وليس مجرد تأمل من دون حركة، والصوم هو عمل، حركة وذكر وليس مجرد إمساك من دون حركة، والحج هو عمل، حركة وذكر وليس مجرد قصد من دون حركة، والزكاة هي عمل، وليس مجرد تطهر من دون حركة.

ومن دلائل العلاقة بين الإسلام والحركة، أن الحركة ينبغي ألا تنفصل عن الإسلام أو تنقطع عنه، ولا أن تتجاوزه وتتخطاه وتخرج عليه، ولا أن تصطدم به وتتعارض معه، ولا أن تبعضه وتجزئه وتلفق فيه، وإنما تصطبغ وتتقوم به، وتستند وترتكز عليه، وتتخذ منه نهجًا ومنهجًا وسبيلاً، ونظامًا سلوكيًّا، ومرجعية شاملة في الجوانب والأبعاد كافة، وفي الأزمنة والأمكنة عامة.

ومن دلائل العلاقة بين الإسلام والحركة أيضًا، ضرورة أن تتولد حركة إسلامية تتمثل أصالة الإسلام وشموليته، وتعمل على إعادة الإسلام إلى الحياة، ليكون الإسلام حيًّا في الحياة، وتكون الحياة متصلة بالإسلام ومصطبغة به، فلا يكون الإسلام غريبًا أو بعيدًا أو منفصلاً عن الحياة، ولا تكون الحياة غريبة أو بعيدة أو منفصلة عن الإسلام.

وكما بدأ الإسلام في مهده الأول بدعوة وحركة إسلامية، فلا بد أن يبقى الإسلام ويستمر بدعوة وحركة إسلامية، حركة تكتسب من الإسلام حيوية وفاعلية، لتولد في الحياة حيوية وفاعلية.

وما هو جدير بالإشارة، أن السيد فضل الله هو أول من تمثل مشروعه الفكري، وكان مثالاً حيًّا في العلاقة بين الإسلام والحركة، فمن جهة كان شديد العلاقة بالإسلام، وهو القائل: «إني اكتشفت إسلاميتي في وقت مبكر؛ ولذلك لم أشعر بنفسي في أي مرحلة من مراحل حياتي بما هي المرحلة الحائرة بين الطفولة والشباب، لم أشعر أني شيء آخر غير الإسلام، لذلك كنت أتحسس الإسلام في وجداني بحسب ما كنت أتمثله من ثقافة آنذاك، كنت أتحسس الإسلام كشيء يعيش في وجداني في اللاشعور، ويتحرك في حياتي في مواقع الدراسة»[(١)].

ومن جهة أخرى، كان شديد العلاقة بالحركة، وظل في حالة حركة مستمرة، وضرب مثلاً في هذا الجانب.

وفي نطاق هذا المشروع الفكري، جاءت المؤلفات الأساسية للسيد فضل الله، وفي طليعتها كتاب «خطوات على طريق الإسلام»، وكتاب «قضايانا على ضوء الإسلام»، وكتاب «مع الحكمة في خط الإسلام»، وكتاب «الإسلام ومنطق القوة»، وهكذا كتاب «الحركة الإسلامية.. هموم وقضايا».

٧ الحوار.. فكرة وممارسة

لا يمكن دراسة التجربة الفكرية والإصلاحية للسيد فضل الله، من دون التوقف عند فكرة الحوار، والالتفات لهذه الفكرة، التي مثلت أحد الملامح البارزة

---

(١) مجموعة كُتاب، محمد حسين فضل الله: لعقلانية و لحو ر من أجل لتغيير، مرجع سابق، ص١٨٧.

والممتدة في هذه التجربة، ليس على مستوى النظر فحسب، وإنما على مستوى العمل والممارسة أيضًا، وبشكل يمكن اعتبار السيد فضل الله أحد رجالات الأمة البارزين في مجال الحوار.

وفي رؤيته لنفسه، يرى السيد فضل الله أنه بدأ حواريًّا منذ وقت مبكر أثناء مرحلة الدراسة والتعليم الديني في حوزة النجف، وحسب قوله: «كنت في بداياتي الإسلامية حواريًّا، وقد كنت في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر، كانت لنا كشباب مسلم علاقات مع شيوعيين وقوميين، وكنا ندخل الحوار مع الشباب في مثل عمرنا بالطريقة الساذجة التي نفهم بها الشيوعية والقومية»(١).

هذه البداية المبكرة مع الحوار، اتصلت واستمرت في تجربة السيد فضل الله، ولم تنقطع أو تتوقف، وفيما بعد تنبه لهذا النمط من السلوك في تجربته، وظل يتحدث عنه بنوع من الاهتمام، ويستعيده في ذاكرته، وكيف أنه بقي ملتزمًا بهذا السلوك الحواري مع تعاقب أطوار تجربته الزمنية والفكرية، ومما يتذكره في أول زيارة له إلى بلده لبنان، هو جلسات الحوار التي جمعته مع المختلفين معه فكريًّا، وعن هذه الجلسات يقول: «عندما جئت إلى لبنان لأول مرة عام ١٩٥٢، وكنت في سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة، بدأت جلسات حوارية في الجنوب اللبناني مع الشيوعيين والقوميين العرب، وكنت ألتقي ببعض الشخصيات الفكرية مثل الدكتور حسين مروة الذي كانت تربطني به علاقة ومعرفة، وكانت

(١) صحيفة عكاظ لسعودية، مرجع سابق، (٢٢ رمضان ١٤٢٤هـ/١٧ نوفمبر ٢٠٠٣م).

هناك أحاديث متنوعة، واستطعت من خلال التنوع الثقافي الذي كنت ألمّ به بطريقة أو بأخرى، أن أنفتح على الحوار أو على الآخر منذ تلك اللحظة، فلم أكن أتعقد من فكر الآخر المعارض، وكنت أفكر أن عليّ أن أدير الحوار مع الفكر الآخر وما هو السبيل للتفاهم والتحاور في هذا المجال»(١).

وظلت علاقة السيد فضل الله بالحوار في حالة تطور وتقدم متصاعد، إلى أن أصبح الحوار جزءًا من برنامجه اليومي، ومن سيرة حياته، ووصل به الحال لأن يكون مقصدًا للحوار عند الكثيرين قريبين وبعيدين، متفقين ومختلفين، مفكرين وسياسيين، إسلاميين وعلمانيين، مسلمين ومسيحيين، فلا يكاد يمر عليه يوم دون أن يلتقي به أحد يطلب التحاور معه والنقاش.

وهناك الكثيرون من هؤلاء الناس الذين يحتفظون في ذاكرتهم بهذه الحوارات التي يعتزون بها، وأصبحت جزءًا من سيرتهم في العلاقة مع هذا الرجل، رجل الحوار والانفتاح.

والسيد فضل الله في هذه الحوارات هو سياسي مع السياسيين، ومفكر مع المفكرين، وفقيه مع الفقهاء، ومفسر مع المفسرين، ولاهوتي مع اللاهوتيين، وشاعر مع الشعراء.

هو سياسي لأنه متابع للأحداث السياسية، ويقصده السياسيون والدبلوماسيون والسفراء، اللبنانيون والعرب والأوروبيون والأجانب غير

---

(١) لمرجع لسابق.

الأوروبيين للحديث والحوار معه.

وهو مفكر صاحب ثقافة واسعة، ولديه تأملاته ونظراته النقدية والاجتهادية تجاه المستجدات والتطورات الفكرية والثقافية، وما يتعلق بقضايا العصر، ويقصده المفكرون من كل مكان على اختلاف مذاهبهم وأديانهم واتجاهاتهم.

وهو فقيه عرف باجتهاده ويرجع إليه في الأحكام الفقهية والمسائل الشرعية، وكان له بحث فقهي يرجع إلى سنوات طويلة، وله أيضًا أبحاث فقهية استدلالية منشورة، وله كذلك نظراته واجتهاداته الخاصة التي ينفرد بها عن الآخرين.

وهو مفسر صاحب تفسير للقرآن الكريم، يعرف بعنوان «من وحي القرآن الكريم»، يقع في خمسة وعشرين مجلدًا.

وهو لاهوتي يتحاور معه المسيحيون على اختلاف طوائفهم، وهم الذين يتقاسمون المعيشة مع المسلمين في لبنان وطن العيش المشترك، وله كتاب في هذا الشأن بعنوان «آفاق الحوار الإسلامي المسيحي».

وهو شاعر يعرفه الشعراء، وكان ينظم الشعر منذ شبابه، وله العديد من الدواوين الشعرية المنشورة.

لهذا فهو رجل حوار بامتياز، يدعو إلى الحوار، ويشجع عليه، ويتمسك به، ولم يتخلَّ عنه، ويكون فيه منشرحًا، وهو صاحب مقولة: لا مقدسات في الحوار.

وقد أخبرني في أحد اللقاءات أنه بات اليوم المرجع الإسلامي الوحيد الذي يرجع إليه المسلمون والعلمانيون وحتى المسيحيون.

وليس من المبالغة القول: إن معظم -إن لم يكن جميع- الشخصيات التي شاركت في تعزيته وتأبينه، على كثرتها كانت قد تحاورت معه من قبل.

والسيد فضل الله في هذه الحوارات ينطلق من رؤية إسلامية تأصيلية شديدة العمق، شرحها وكشف عنها، وبرهن عليها في كتابه الشهير «الحوار في القرآن.. قواعده، أساليبه، معطياته» الصادر سنة ١٣٩٦هـ.

وفي مقدمة الطبعة الأولى من هذا الكتاب، اعتبر السيد فضل الله أنه لم يجد في المكتبة الإسلامية في حدود قراءاته كتابًا يبحث في هذا الموضوع بشكل متكامل، لهذا كان شديد الاعتزاز بهذا الكتاب لطبيعة موضوعه، وسبقه إليه، وطرحه له بشكل متكامل، ولأنه أيضًا رجل حوار، ويرى نفسه دائمًا في الحوار، وغالبًا ما يخرج الآخرون في الحوار معه منشرحين.

وفي تراثه الفكري هناك الكثير من النصوص المشعة حول فكرة ومفهوم الحوار، ومن هذه النصوص المبكرة، والتي تتجلى فيها قوة المعنى، ما جاء في الطبعة الأولى من كتاب «الحوار في القرآن»، إذ يقول: «وكان القرآن الكريم خاتمة الكتب السماوية، التي جاءت لتعلم الإنسان كيف يكون الحوار طريقًا للفكر والعقيدة والعمل، وجاء الإسلام من خلال القرآن الكريم ليكون دين الحوار، الذي يطلق للعقل أن يفكر في كل شيء، ليتحدث عن كل شيء، وليحاور الآخرين على

أساس الحجة والبرهان والدليل، ليعلمهم كيف يصلون إلى قناعاته وآفاقه بالكلمة الحلوة، والأسلوب الطيب، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، وتقدم الإسلام وتقدمت معه تجارب الحوار، وعرف المسلمون كيف ينفتحون على العالم من خلال ذلك، وكيف ينطلقون إليه في رسالتهم في أجواء الحوار، التي تحترم الإنسان الذي يختلف معها، لتقوده إلى أفكارها من موقع احترام الفكر والكلمة والموقف»(١).

٨ التقريب والوحدة

لا أظن أن أحدًا من المسلمين سنة وشيعة وحتى سلفيين، يختلفون على المسلك التقريبي والوحدوي في شخصية وخطاب السيد فضل الله، وذلك لشدة ظهور هذا المسلك وانكشافه ووضوحه عند الكثيرين، وخاصة عند أولئك الذين تحاوروا معه، وسمعوا منه، وعند أولئك الذين تابعوه في كتاباته وأحاديثه، وتعرفوا على أفكاره ومواقفه، وشهدوا على صدقه وثباته في هذا المسلك.

ولم يكن هذا المسلك التقريبي والوحدوي، عابرًا أو طارئًا في سيرة وتجربة السيد فضل الله، وإنما كان أصيلاً وعميقًا، رافقه وصاحبه منذ انخراطه المبكر في تجربة العمل الإسلامي، ومثل له هاجسًا كبيرًا بقي معه على طول الخط لا يحيد عنه، ولا يغرب عن باله.

---

(١) محمد حسين فضل لله، لحو ر في لقرَن: قو عده، ٲساليبه، معطياته، بيروت، د ر لملاك، ٢٠٠١، ص٧.

وحين يريد السيد فضل الله، أن يؤرخ لبدايات اهتمامه بهذا المسلك الوحدوي، فإنه يرجعه إلى ما قبل منتصف القرن العشرين، وحسب قوله نحن «بدأنا الدعوة للوحدة الإسلامية منذ ما يفوق ٥٢ سنة، وبدأنا عملنا الإسلامي قبل الخمسينيات، يعني أنني بدأت عملي الإسلامي في أول سنة احتلال اليهود لفلسطين سنة ١٩٤٧م، والوحدة الإسلامية هي هاجسي الكبير»[١].

وليس من المبالغة القول بأن السيد فضل الله، يعد أحد أبرز رجالات الوحدة الإسلامية في العصر الحديث، ومثل محطة مهمة في تاريخ تطور علاقة الفكر الإسلامي المعاصر بفكرة الوحدة الإسلامية، الفكرة التي ظلت حاضرة ونابضة في كتاباته وأحاديثه، ومتجلية في نهجه ومسلكه العملي، وكان واضحًا في التعبير عنها، وثابتًا في التمسك بها.

وعند البحث عن عناصر ومكونات رؤية السيد فضل الله حول التقريب والوحدة، يمكن التوقف أمام العناصر والمكونات الآتية:

أولاً: إنّ من أولى عناصر العمل التقريبي اعتبار الإسلام قاعدة للوحدة؛ لأنّنا قد نلاحظ أنّ المسلمين غالبًا لا يعيشون الصفة الإسلاميّة كفكرٍ وحركة حياة؛ لأنّهم جعلوا الإسلام يعيش في زاوية ضيّقة، أمكن لهم أن يرتبطوا بأيّ فكر حتى لو كان يواجه الإسلام وجهًا لوجه، فعلى سبيل المثال، قد يرى المسلم أنّ بإمكانه

---

(١) محمد حسين فضل الله، الحركة الإسلامية ما لها وما عليها، مرجع سابق، ص٣٣٢.

أن يكون مسلمًا وأن يكون شيوعيًّا على مستوى فكريّ، أو مسلمًا ووجوديًّا في آنٍ.

ثانيًا: من الضروريّ أن ينطلق العمل التقريبي على أساس دراسة الواقع، لا أن ينطلق في آفاقٍ حالمة مثاليّة ترتكز على العاطفة والانفعال، ممّا قد يقودها إلى التبسيط الساذج مع كلّ المشاكل التي تعترض حركة الوصول إلى الهدف، وإلى مواجهة كلّ علامات الاستفهام التي يثيرها الآخرون حول جدّية العمل التقريبي وواقعيّته، باعتبارها لونًا من ألوان التشاؤم والانهزاميّة أو العدوانيّة ضدّهم؛ ولذلك قد نرى من خصائص هذا النمط المثاليّ العمل على إثارة الجماهير بالخطب الحماسيّة والشعارات المثيرة والمهرجانات الصاخبة، ما يجعل الجماهير تصفّق لبلاغة هذا الخطيب، وتهتف لحماسة ذاك القائد.. وهكذا تبقى القضيّة لديهم هدفًا يبحث عن طريق، ودورًا يبحث عن ساحة.

ثالثًا: إنّ الواقعيّة هي التي ينبغي أن تحكم حركة العمل التقريبي؛ لأنّ لكل ظاهرة أسبابها الكافية في الواقع، ولكلّ واقع ظروفه المحدودة بالزمان والمكان والأشخاص، ولكل هدف وسائله ومراحله وآفاقه. ولا يصحّ النظر إلى القضايا بالمنطق التبسيطي؛ لأنّ التاريخ المعقّد الذي عاش المسلمون مشاكله الدامية، وأساليبه المتخلّفة، ومواقعه القلقة، لا يُمكن إلغاؤه بخطبة بليغة أو حركة سريعة؛ إذ إنّ الرواسب التي يتركها في الأعماق، من مشاعر وأفكار وتعقيدات، تخلق حاجزًا نفسيًّا مقدّسًا ضدّ الفريق الآخر، وتنقل الصورة في منهج التفكير من موقع الاجتهاد في فهم العقيدة أو الشريعة، الذي يفسح المجال لاجتهاد آخر

مخالف له، على أساس اختلاف وجهات النظر في فهم المسألة الواحدة، إلى موقع التأكيد على نفي الإسلام عن الفريق الآخر؛ لأنّ الخصوصيّة تحاصر الشموليّة، والجزئيّات تطوّق الكلمات.

رابعًا: إنّ مشروع التقريب هو بطبيعته مشروع متعدّد الجوانب، وأهميته تكمن في النجاح في إيجاد أواصر القربى على المستوى الشعبي، سواء في الجانب الفكري أو الشعوري الوجداني، بحيث يتحرّك المسلمون المتوحّدون حول قضاياهم الكبرى بوحي من هذه القضايا، ولا يكتفون بالشعارات والانفعال بالإثارات الطارئة هنا وهناك.

ولذلك، قد تبدو المشكلة في بقاء كثير من صيغ التقريب في الأبراج العاجيّة، وعدم نزولها إلى الشارع العادي، ما يوحي بأنّ دخول الأطراف في هذه الأطر والصيغ هو أقرب إلى الترف الثقافي والفكري منه إلى التفعيل الجادّ لصيغ الحوار التي تعرّف كلّ طرف واقع الطرف الآخر بالنحو الذي ينعكس على القواعد الشعبيّة لكلّ طرف.

خامسًا: التقريب النفسي، عبر العمل على إزالة الحواجز النفسيّة التي تراكمت عبر التاريخ بين المسلمين، سواء عبر لقاء القيادات والنُّخب الثقافيّة والفعاليّات أو اللقاءات العامّة التي تتحرّك في الأجواء الاحتفاليّة المشتركة.

سادسًا: التقريب الفكريّ، وذلك بالابتعاد عن منطق تسجيل النقاط الذي طبع السجال الثقافي بين مختلف المذاهب الإسلاميّة، أو الاجتزاء في تناول آراء أو نصوص الطرف الآخر، أو العقليّة الجدليّة التي لا تحاول التدقيق فيما ينفع الخصم، بل كلّ ما عندها أن تدقّق فيما ينفع فريقها وإن لم تلتزم به، ما نتج عنه أحكام متنوّعة من التفسيق تارة والتضليل أخرى، وصولاً إلى التكفير ثالثة.

وقد نجد في هذا المجال أنّ علينا كعلماء ومفكّرين، أن نبحث عن أسس الخلاف والوفاق، من خلال البحث عن المصادر الأصيلة التي يمكن أن يعتمدها الفريقان أو الفرقاء في قبول رأي أو رفضه، لنصل من خلال ذلك إلى القاعدة الفكريّة الموحّدة التي يُمكن أن تحكم أصول التقويم للمصادر، في سندها ودلالتها، ثمّ نبحث في المصادر التي نختلف عليها، لنعرف ما هي أسس اعتماد هذا الفريق عليها دون ذاك، ولندقّق في مدى اعتماده عليها من ناحية المبدأ والتفاصيل، لئلا نقع في الخطأ الذي وقع فيه الكثيرون، من نسبة قول إلى شخص لم يقله، أو نقل فكر عن شخص لم يلتزم به.

وسيقودنا ذلك إلى اكتشاف الحقيقة العلميّة الواقعيّة، وهي أنّ مواطن اللقاء بين المسلمين تصل إلى نسبة ثمانين في المئة؛ لأنّ اختلاف الاجتهاد لدى الشيعة الآن، ولدى السنّة في الماضي، استطاع أن يحمل إلينا تنوّعًا في الآراء لدى الفريقين، بحيث لا ترى رأيًا في الفقه الشيعي إلّا وترى ما يقابله في الفقه السنّي، والعكس صحيح أيضًا. وقد عاشت جامعاتنا العلميّة في النجف وقم

والأزهر هذه التجربة في الدراسات المقارنة من ناحية المبدأ، وينبغي العمل على تطويرها في المستقبل.

وربّما نحتاج إلى التأكيد على ضرورة تأصيل المفاهيم العامّة لبعض القضايا المهمّة، كمسألة التوحيد والشرك، والكفر والإيمان، والهدى والضلال، والعدالة والفسق، والتي يكثر الحديث عندها لدى المسلمين، فيما قد يتّهم بعضهم بعضًا بالشرك تارة، وبالكفر أخرى، وبالمروق عن الدين ثالثة، وذلك من خلال ما يحملونه من آراء حول مفهوم الكفر والشرك، أو ما يعتقدونه من معتقدات، دون إفساح المجال لهم ليوضحوا فكرتهم ويناقشوا فكرة الفريق الآخر.

سابعًا: التقريب السياسي، وذلك في الساحات التي تتحوّل فيها المذاهب، أو الطوائف إلى كيانات مستقلّة في قضاياها ومصالحها، وفي حركة الحاضر والمستقبل، أو الساحات التي تأخذ فيها الدولة بُعدًا مذهبيًّا طائفيًّا يضغط على شعبه، أو شرائح منه. وذلك أنّ هذا التشرذم السياسي يشكّل أرضيّة خصبة تعمل المحاور الدوليّة والإقليمية على الاستفادة من سلبياتها لتحويل التنافر إلى صراع طائفي، لتضع أكثر من قضيّة سياسية في نطاق الصراع المذهبي، في الوقت الذي نعلم فيه أنّ موضوع السنّة والشيعة -مثلاً- بمدلوله الفقهي، لا دخل له في كلّ ذلك.

قد لا يكون من الواقعيّ -أمام ذلك- أن نطلب من المسلمين إلغاء كلّ فرقة منهم لخصوصيّاتها المذهبيّة، ولكنّنا نثير في الجوّ ضرورة العمل على إيجاد

حالة وحدويّة من خلال القضايا المصيرية التي يعيشها المسلمون على مستوى ما يمثّله الوجود الإسلامي مقابل أيّ وجود آخر، سواء فيما يتحرّك في داخل أيّ بلد أو خارجه على مستوى قضايا المنطقة والعالم، وذلك بمحاولة ربط هذه القضايا بالمبادئ والقيم الإسلاميّة السياسية والاجتماعيّة في الحياة، لتتحوّل هذه الحالة الوحدويّة إلى حالة إسلاميّة عميقة في وجدان كلّ مسلم، ليكون ذلك أساسًا للبحث في المواضيع الواقعيّة المختلف عليها، بعيدًا عن الحواجز النفسيّة؛ لأن وحدة الموقف السياسي في بعض المواقع، عندما تمتزج بالحالة الإيمانيّة الوجدانيّة الملتزمة بخطّ الإسلام في أجواء التقوى، سوف تسهّل الكثير من الحلول للمشاكل العالقة في الساحة.

ثامنًا: من مشكلات التقريب ما يكمن في ذهنيّة المسلمين الثقافيّة، ذلك أنّ التربية العامّة والخاصّة تؤكّد على الشخصيّة المذهبيّة في انتماءاتها قبل التأكيد على الشخصية الإسلاميّة العامة؛ فالمسلم السنّي يولد سنّيًّا في طفولته وشبابه، ويعيش مفردات المذهب المليئة بالحساسيّات والتعقيدات المختنقة بالزوايا المغلقة للتاريخ الغارق في عصبيّاته، وبذلك ينطلق في علاقته بالمسلم الآخر ونظرته إليه من كلّ هذه الأجواء السلبيّة التي تفرضها التربية العامّة والخاصة. والمسلم الشيعي يتحرّك في الخطّ نفسه انطلاقًا من شيعيّته. وهذا ما يساهم في إبعاد المسلمين عن الانفتاح على الإسلام في الأفق الواسع والساحة الممتدّة، سواء في أفكاره وأهدافه، أو في قيمه الأخلاقيّة وحركته الشاملة في العالم كلّه، وفي أساليبه

الحواريّة الوحدويّة.

وقد يتحوّل هذا المسار بفعل الحالة الشعوريّة الحادّة، والاستذكار التاريخي الدائم للمشاكل المتنوّعة، والممارسة اليومية للانفعالات القاسية، إلى تراكمات عقليّة ونفسيّة وتعقيدات عمليّة، تؤدّي إلى أن يتحوّل المذهب إلى دين مميّز بالمستوى الذي قد يعيش فيه المنتمي إليه ثقل الشعور العدواني ضدّ الدين / المذهب، بحيث يجد في وعيه الذهني والشعوري العذر للّقاء بأتباع الأديان الأخرى في مواقع اللقاء بما لا يجد العذر فيه للّقاء بأتباع المذاهب الأخرى في دائرة الإسلام.

تاسعًا: غياب المنهج القرآني في الحوار مع المسلمين من المذهب الآخر، من خلال العناوين العامّة في التخاطب والجدال ومواجهة المشاكل في ساحة الخلاف، ومناقشة الخلافات على ضوء الثوابت الإسلاميّة، فيما جاءت به الآيات الكريمة: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ [الإسراء/ ٥٣]، ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل/ ١٢٥]، ﴿وَلَا تَسۡتَوِى ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت/ ٣٤]، ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِى شَىۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء/ ٥٩]، وقد بلغ الأسلوب الحواري القرآني الذروة في قوله

تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ/ ٢٤]، ليوحي بأنّ مسألة الخلاف الفكري بين خطّ الهدى وخطّ الضلال يفترض أن يبتعد عن الأحكام الحاسمة السابقة، وعن الجوانب الذاتيّة، ليتحوّل إلى حوار بين فكر وفكر، من دون أن يكون للواقع الانتمائي إلى هذا أو ذاك دور في الحوار.

عاشرًا: تجنب الأخذ بالأساليب العدوانيّة في الشتم والسبّ والاتهامات غير المدروسة وغير الخاضعة للدقّة والحساب، ممّا يزيد من هوّة الخلاف، ويمنع من وجود أي ظروف حواريّة هادئة. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ [الأنعام/ ١٠٨]، فإذا كانت القضيّة المطروحة في الآية قضيّة خلاف بين الشرك والتوحيد، فينبغي ألا يكون السباب هو أسلوب التعبير عن الرفض، أو وسيلة المواجهة في الصراع، بل لا بدّ أن تنطلق الأساليب في دائرة الحجّة والبُرهان من أجل تكوين القناعات على أساس ثابت؛ لأنّ مسألة السباب لن تؤدّي إلى أيّ نتيجة حاسمة، بل إنّها تزيد الأمور تعقيدًا، ما قد يفسح المجال أمام المزيد من الخصومات والحروب الساخنة.

الحادي عشر: رفض منهج التكفير الذي تأخذ به بعض الجهات، ما يُدخل مسألة الخلاف في بُعدٍ خطير جدًّا، ولعلّ هذا الأمر ممّا يُشكّل إحدى أهمّ المنافذ التي يتحرّك من خلالها المستكبرون، على مستوى الجهات والدول، لتغذية عناصر الفرقة، عن طريق سفك الدم الحامي، والذي يأخذ بُعدًا طائفيًّا، خصوصًا في

ظلّ السكوت عنها الذي قد يراه البعض مصلحة مذهبيّة كردّ فعل على أوضاع مذهبيّة أخرى.

لذلك نرى أنّ من الضروريّ أن يتمّ الإعلان بصراحة ووضوح عن رفض المسلمين جميعًا لهذا المنهج في استحلال دماء المسلمين، حتى يرى التكفيريّون أنّهم معزولون إسلاميًّا، وتُحمى بالتالي قضايا المسلمين الكبرى والمشتركة من عدوانهم وعبثهم، ما يحمي تاليًا كلّ مشاريع التقريب على مستوى الحاضر والمستقبل.

الثاني عشر: إن من أهم المشاكل التي تواجه مسألة الوحدة الإسلاميّة من الناحية العمليّة، هي الجدليّة الحاصلة بين النُّخبة التي يقع على عاتقها تحريك المشروع الوحدوي، وبين الجماهير التي من المفترض أن تتمثّل هذا المشروع في ثقافتها وحركتها الخاصّة والعامّة. ومقصودنا بالجدليّة هو أنّ القيادة تتحرّك في توجيهاتها للقاعدة، وحتّى في صياغة مفردات المشروع الوحدوي، وفق ما تستسيغه الجماهير التي نعرف أنّها تقع تحت مؤثّرات العاطفة والانفعال بشكل أو بآخر، خصوصًا أنّ التراكم التاريخي للخلاف بين المسلمين يتكفّل بإبقاء جذوة هذه المؤثّرات حامية، بحيث يُصبح المطلوب والملحّ في حركة النخبة هو ألّا تقع تحت تأثير الرفض الجماهيري تجاه أطروحات تصطدم مع هواها، ما قد يُفقد النخبة شرعيّتها من حيثُ امتدادها الجماهيري.

ولذلك قد نجد أنّ النُّخبة تلجأ أحيانًا إلى نوع من التسوية في هذه المسألة، بحيث تُفهم قواعدها الشعبيّة أنّ المشروع الوحدوي تفرضه الظروف الآنيّة، كجزء من حركة الشكل الوحدوي أكثر منه في المضمون، ما يُدخل مسألة الوحدة الإسلاميّة في إطار المجاملات الاجتماعيّة التي تقترب أحيانًا من النفاق والرياء وما أشبه ذلك.

لذلك نرى من الضروري أن تقتنع النخبة بمشروع الوحدة الإسلاميّة، كحقيقة يفرضها واقع الاختلاف بين المسلمين، لا تعني التنازل عن مبادئ أيّ من أطرافها، بل تفعيل اللقاء على العناصر المشتركة الذي يشكّل الحركة الطبيعيّة تجاه محافظة كلّ فريق على مصالحه النابعة من عنوانه الإسلاميّ العريض المشترك.

ومن هنا، فقد يبدو أنّ على النخبة ألّا ترضخ في قناعتها بالمشروع لهوى القاعدة؛ لأنّ هوى القاعدة لا يفترض أكثر من تنويع أساليب الطرح، طولاً على مستوى المراحل الزمنيّة، وعرضًا فيما يتّصل بتنوّع الثقافات والظروف التي تعيشها القاعدة والتي تفترض تنوّع أساليب الطرح[1].

هذه الرؤى والأفكار هي من أحدث ما تحدث به السيد فضل الله في مجال التقريب والوحدة، وتكشف عن الطرح الواضح ووضوح الرؤية لديه، كما

(١) إدريس هاني، في مسألة لوحدة و لتقريب بين لمذ هب لإسلامية في حو ر مع لسيد فضل الله، لكلمة، بيروت، لعدد ٧٠، لسنة لثامنة عشرة، شتاء (٢٠١١م/١٤٣٢هـ)، ص١٦٥-١٧١.

تكشف عن مستوى الدراية والخبرة بهذا الموضوع، وللاطلاع الواسع حول أبعاد هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى كتابين له في هذا الشأن، هما: كتاب «أحاديث في الوحدة الإسلامية» الصادر سنة (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، وكتاب «أحاديث في قضايا الاختلاف والوحدة» الصادر سنة (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).

٩ المعرفة والعلاقة

كانت بيني وبين السيد فضل الله مودة كبيرة، وكان يظهر لي هذه المودة باستمرار، وفي كل مرة أراه وأزوره، وكلمات الاشتياق هي أول ما أسمعها منه عندما أسلم عليه، في إشارة إلى ما كان يفصل هذه اللقاءات من تباعد زمني بعض الشيء.

وقد كنت متابعًا له في مقالاته وحواراته ومؤلفاته، وسمعت له في ندوات ومؤتمرات ومحاضرات، وجلست معه في لقاءات عديدة جرت فيها حوارات ونقاشات فكرية وثقافية، وحضرت في مجلسه العام، وبعض دروسه وأبحاثه الفقهية في منطقة السيدة زينب جنوب العاصمة السورية دمشق، التي كان يصل إليها عصر يوم الجمعة من كل أسبوع، وعلى مدار السنة وبدون توقف أو انقطاع، صيفًا وشتاءً، ويبقى فيها يومي السبت والأحد، وهما يوما الإجازة والتعطيل الرسمي في موطنه لبنان.

وبرنامجه في هذين اليومين يكون مزدحمًا في العادة ما بين درس ومحاضرة ولقاء، وهذا يعني أنه كان يمضي أيام الأسبوع بلا إجازة وبلا راحة أو توقف.

ومعرفتي به في أول الأمر بدأت من بعد عن طريق كتاباته ومؤلفاته، حيث كان اسمه يتردد في الأجواء الفكرية والإسلامية بوصفه أحد المفكرين الإسلاميين المشتغلين بقضايا الفكر الإسلامي وبشؤون الأمة الإسلامية، وكانت أكثر مؤلفاته شهرة آنذاك، هي كتاب «خطوات على طريق الإسلام» الصادر سنة ١٩٧٨م، وكتاب «قضايانا على ضوء الإسلام»، وكتاب «الإسلام ومنطق القوة».

لكن متابعتي الشبه الجادة له، بدأت مع مقالاته الافتتاحية اللافتة في مجلة «المنطق» الشهرية، التي كان يصدرها اتحاد الطلبة المسلمين في بيروت، وهي المقالات المعنونة بتأملات في مسيرة العمل والعاملين، وكانت تتناول قضايا فكرية بارزة وحيوية في ساحة الفكر الإسلامي. وقد ظلت هذه المقالات تثير جدلاً ونقاشًا مفيدًا في وقتها، واكتسبت شهرة واهتمامًا في أوساط النخب الفكرية الدينية في العديد من البيئات والمجتمعات العربية، وذلك لطبيعة الطرح والمعالجة من جهة، ولطبيعة الطريقة والأسلوب من جهة أخرى، بالإضافة إلى حيوية وحساسية القضايا والمسائل المثارة، حيث عالجت قضايا الانفتاح والانغلاق، التطرف والاعتدال، الواقعية والمثالية، الإقليمية والوطنية، الإسلامية والمذهبية، الأكثرية والأقلية.. وقضايا أخرى.

وفي وقت لاحق جمعت هذه المقالات في كتاب حمل عنوان «الحركة الإسلامية.. هموم وقضايا» صدر سنة (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

أما معرفتي المباشرة بالسيد فضل الله، فقد بدأت بعد أن تعرف هو على بعض كتاباتي المنشورة بشكل خاص في مجلة الكلمة التي كانت تصله بانتظام، ويتابعها باهتمام، وقد وجد في هذه الكتابات كما أخبرني ملامح وسمات روح البحث والنضج والانفتاح والتواصل مع العصر.

هذا الانطباع الفكري الذي تكون عند السيد فضل الله هو الذي جعل المعرفة به، والعلاقة معه تتقدم بسرعة، وتتوطد بشكل وثيق، وتحافظ على بقائها وديمومتها وتصاعدها أيضًا؛ لأنه كان يلتفت جيدًا إلى أصحاب المواهب الفكرية الذين كانت لهم كتابات ومؤلفات وأعمال منشورة ومعروفة ويجري الحديث عنها، وكان يقربهم إليه، ويتابع كتاباتهم ومؤلفاتهم، ويحاول أن يُكوِّن عنها انطباعات وتقييمات يستند عليها في التواصل معهم.

ومن أول لقاء معه شعرت كما لو أن هذا اللقاء هو التاسع أو العاشر أو أكثر من ذلك، وليس هو اللقاء الأول، فالمشاعر والانطباعات التي وجدتها منه، وحتى طبيعة الحوار والنقاش، هي ما كانت توحي بذلك.

وفي هذا اللقاء الذي حصل سنة ١٩٩٦م في منزله جنوب العاصمة دمشق، سجلت معه مداخلة رائعة نشرت في مجلة الكلمة شتاء ١٩٩٦م، بعنوان «مستقبل الحوار الإسلامي — الإسلامي». ومن بعد هذا اللقاء توالت اللقاءات بين وقت وآخر، وإن كانت متباعدة بعض الشيء، ودائمًا ما كانت هذه اللقاءات

ثرية وحيوية في مناقشاتها وحواراتها الفكرية والثقافية، وفي إثاراتها الذهنية، وما تطرحه من تساؤلات جادة تبحث عادة عن أفق جديد.

١٠ كتاب الحركة الإسلامية.. الأهمية والمنهجية

يمثل كتاب «الحركة الإسلامية.. هموم وقضايا» واحدًا من أهم مؤلفات السيد فضل الله، وأكثرها قربًا وصلة بمشروعه الفكري المرتكز على العلاقة بين الإسلام والحركة لإعادة الإسلام إلى الحياة المعاصرة، والذي يعرف اختصار بالإسلام الحركي، التسمية التي أطلقها السيد فضل الله، وحددها لتكون معبرة عن مشروعه الفكري.

وفي نطاق الإسلام الحركي، يمكن الإشارة إلى ثلاثة مؤلفات، هي من أكثر المؤلفات التي شرح فيها السيد فضل الله أفكاره ومواقفه المتصلة بهذا النطاق، كما أنها المؤلفات التي تكشف عن تطورات الرؤية عند السيد فضل الله وتحولاتها خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، إلى منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

وهذه المؤلفات الثلاثة هي: خطوات على طريق الإسلام، الحركة الإسلامية.. هموم وقضايا، الحركة الإسلامية.. ما لها وما عليها.

في المنحى الفكري والزمني العام، يمكن القول إن هذه المؤلفات الثلاثة، تنتمي إلى ثلاث حقب زمنية، واكبها السيد فضل الله باهتمام في عطائه

الفكري والثقافي، فكتاب «خطوات على طريق الإسلام» ينتمي إلى حقبة سبعينيات القرن العشرين، وكتاب «الحركة الإسلامية.. هموم وقضايا» ينتمي إلى حقبة الثمانينيات، وكتاب «الحركة الإسلامية ما لها وما عليها» ينتمي إلى حقبة التسعينيات بصورة أساسية، ويمتد إلى السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين.

ومن جانب آخر، تتصل هذه المؤلفات، بثلاثة أطوار فكرية لها علاقة بما قبل وما بعد حدث الثورة الإسلامية في إيران، فكتاب الخطوات ينتمي إلى طور ما قبل حدث الثورة في إيران حين كانت الحركة الإسلامية في وضعها الهادئ والساكن نسبيًّا، بينما ينتمي كتاب «هموم وقضايا» إلى طور ما بعد حدث الثورة في إيران، الحدث الذي غير واقع الحركة الإسلامية، ونقلها من الوضع الهادئ والساكن الذي كانت عليه من قبل، إلى الوضع الفاعل والمتحرك، وأما كتاب «ما لها وما عليها» فهو ينتمي إلى طور ما بعد الطفرة السريعة التي حصلت في مسارات الحركة الإسلامية، والتداعيات التي ظهرت جراء ذلك.

ومن جانب ثالث، فإن هذه المؤلفات الثلاثة أحاطت بها أجواء صعبة وساخنة على الصعيدين الذاتي والعام، فكتاب «الخطوات» كتب في ظل ظروف صعبة، هي ظروف الحرب الأهلية في لبنان، وأشار المؤلف إلى ذلك في خاتمة الكتاب بقوله: «كتبت أكثر هذه الأبحاث في ظروف صعبة جدًّا، حيث كنت في منطقة النبعة الواقعة في ضواحي بيروت، عندما كانت القذائف تنهال عليها

من كل جانب، وكنت أكتب هذه الأبحاث في أغلب الحالات تحت أصوات القذائف، وفي أضواء الشموع»[١].

أما كتاب «هموم وقضايا» فقد أحاطت به ظروف صعبة، لكن من جهة التطورات والتحولات التي واجهت الحركة الإسلامية، وعن هذا الوجه من الصعوبة يقول السيد فضل الله: «لقد حاولت أن أكون موضوعيًّا فيما كتبت، بالرغم من أن الظروف التي كتبت فيها هذه الكلمات كانت عاصفة، تنطلق في أجواء الرياح العاتية، والزلازل الرهيبة»[٢].

واختلف وجه الصعوبة أيضًا مع كتاب ما لها وما عليها، فالظروف الصعبة التي أحاطت بهذا الكتاب لها من جهة علاقة بظروف المحنة التي مر بها السيد فضل الله، ومن جهة أخرى لها علاقة بالظواهر السلبية التي ظهرت في ساحة الحركة الإسلامية، وغيرت من صورتها بعض الشيء.

ومن جانب رابع، إلى ما قبل صدور كتاب «هموم وقضايا»، كان كتاب «الخطوات» هو الكتاب الأهم من بين مؤلفات السيد فضل الله بصورة عامة، وفي نطاق الإسلام الحركي بصورة خاصة، لكن هذه الصورة تغيرت مع صدور كتاب «هموم وقضايا» الذي حل مكان الكتاب السابق من ناحية الأهمية، وكذلك من ناحية الحداثة والتجدد على مستوى التجربة والخبرة والأفكار، وبقي هذا الكتاب

(١) محمد حسين فضل الله، خطو ت على طريق لإسلام، بيروت: د ر لتعارف، ١٩٨٢م، ص٥٢٩.

(٢) محمد حسين فضل الله، لحركة لإسلامية.. هموم وقضايا، مرجع سابق، ص١١.

على أهميته وتفوقه حتى بعد صدور الكتاب الثالث «الحركة الإسلامية ما لها وما عليها»، الذي لم يستطع أن يأخذ مكان هذا الكتاب الثاني، ولا أن يحركه من مكانه، الأمر الذي يؤكد أن كتاب «هموم وقضايا» هو الكتاب الأهم من بين هذه المؤلفات الثلاثة.

كما أن كتاب «الحركة الإسلامية.. هموم وقضايا»، يعد أيضًا أحد أهم المؤلفات التي حاولت إثارة الجدل والنقاش حول الهموم والقضايا الفكرية والسياسية والدعوية التي ظهرت في ساحة الفكر الإسلامي خلال حقبة ثمانينيات القرن العشرين، على إثر حدث الثورة الإسلامية في إيران، وانبعاث ما عرف آنذاك في الكتابات الإسلامية بحركة الصحوة الإسلامية.

ويعد هذا الكتاب كذلك، أحد أهم المؤلفات التي حاولت نقل الجدل والنقاش حول هموم وقضايا الحركة الإسلامية من الأطر النخبوية والحركية الداخلية والمغلقة، إلى الأطر العلنية والعامة والمفتوحة، وتحويل الاهتمام بالفكر الإسلامي الدعوي والحركي من اهتمام الخاصة إلى اهتمام العامة.

والجانب الأهم في ذلك أن هذا الكتاب، يعد أحد أهم المؤلفات المبكرة التي دعت وطرحت وناقشت مسألة تجديد وتحديث الفكر الإسلامي الحركي على المستوى النظري، وتجديد وتحديث الحركة الإسلامية على المستوى العملي.

يضاف إلى ذلك فإن هذا الكتاب من جهة الأهمية، يعد أحد أهم المؤلفات التي كشفت وعرفت عن طبيعة النقاشات التي كانت تجري في المجال الإسلامي الشيعي حول الفكر الإسلامي الحركي والدعوي.

هذا عن أهمية وقيمة الكتاب، أما عن جانب المنهجية المتبعة في هذا الكتاب، فإنها تحددت في السمات الآتية:

أولاً: الموازنة في التعامل مع الأفكار والأقوال، والكتاب من هذه الجهة هو أقرب إلى ما يعرف اليوم بفقه الموازنات، فأمام القضايا والموضوعات المطروحة يجري عرض الأفكار والأقوال والنظريات على قاعدة الموازنة بينها من جهات مختلفة، المهم والأهم، المنافع والأضرار، الآنية والآجلة، القريبة والبعيدة، الخاصة والعامة، وهكذا.

الأمر الذي يعني أن المؤلف لم يعالج القضايا والموضوعات بمنطق أحادي القول أو أحادي الرأي، وإنما بمنطق الأقوال المتعددة والآراء المتعددة.

ثانيًا: الواقعية، وضرورة التحول من المنحى النظري إلى المنحى الواقعي، وهذه من أكثر السمات التي حاول المؤلف تأكيدها وتصويب النظر إليها، وأراد من كتابه أن يكون أقرب إلى فقه الواقع، الفقه الذي يتخذ من الواقع أساسًا في تحديد القضايا والموضوعات من جهة، وفي تحديد الحلول والمعالجات من جهة أخرى.

ويكفي للدلالة على ذلك أن المؤلف حاول أن يعرف كتابه بهذه السمة، منذ الأسطر الأولى، فقد افتتح مقدمة الكتاب بقوله: «هذه كلمات لم تكتب في وقت واحد، ولم تنطلق من فكر تجريدي، ولكنها كتبت في أوقات متلاحقة، ومن موقع الحركية الإسلامية في صعيد الواقع الذي عاشته الحركة الإسلامية في طبيعتها الذاتية، وفي الأجواء المحيطة بها، وفي التحديات الصعبة التي تواجهها، على مستوى الشكل والمضمون.

فقد نلاحظ أن الإسلاميين الحركيين لم ينفتحوا على الكثير من التحديات الصعبة من منطلق الواقع ليواجهوها بطريقة واقعية، بل انفتحوا عليها من منطلق الأفكار العامة الكلية، من منطلق المثال»(١).

وما يؤكد هذه السمة وسلوك هذا المنحى الواقعي، أن أكثر الكلمات التي تكررت وتواترت في الكتاب من البداية إلى النهاية، هي كلمات (الحركة، الواقع، حركة الواقع، حركة الإسلام، حركة الحياة وغيرها).

ثالثًا: الدعوة إلى العقلانية، وضرورة التحول من المنحى العاطفي إلى المنحى العقلاني، وذلك لتجنب حالات التسرع والانفعال في انتخاب الأفكار، واختيار المواقف، ورسم الإستراتيجيات، وهي الحالات المسببة للوقوع في الأخطاء والأخطار، إلى جانب أن المنحى العاطفي يتسم بضيق الأفق، وقصر النظر،

---

(١) لمرجع لسابق، ص٧.

بخلاف المنحى العقلاني الذي يتسم بالتروي في التعامل مع القضايا، وعدم التسرع، وتجنب الانفعال.

ويتصل بهذه السمة، تأكيد المؤلف على عبارات أن لا تأخذنا العاطفة، وأن لا نكون تحت تأثير العاطفة، وأن لا يأخذنا الانفعال، وغير ذلك، بقصد تأكيد المنحى العقلاني.

رابعًا: تنقيح المناط وتحرير موضوع البحث، وقد تجلت هذه السمة بوضوح كبير في معظم أو كل القضايا والموضوعات التي عالجها الكتاب، واتخذ المؤلف منها مدخلاً في دراسة ومعالجة هذه القضايا والموضوعات، فقبل أن يعطي رأيه، ويحدد وجهة نظره، ويحسم موقفه، يبدأ بشرح القضية، ويحدد محل النزاع أو الخلاف في هذه القضية، ويكشف عن طبيعة التعدد والانقسام في الرأي حولها.

وهذه هي الطريقة العلمية التي سلكها العلماء في أبحاثهم ودراساتهم الفقهية والأصولية والكلامية، وهي الطريقة المنهجية والمنطقية السليمة في تكوين الرأي، وفي التعامل مع الآراء والأقوال والنظريات المطروحة.

خامسًا: الطريقة الهادئة في المعالجة، وتكمن أهمية السمة في أن القضايا والموضوعات المطروحة كانت ساخنة في طبعها وسياقها وإيقاعها، وأحاطت بها أجواء غلبت عليها حالات التوتر والانفعال والحماس، وهي السمات التي طبعت حقبة ثمانينيات القرن العشرين بصورة عامة.

والقاعدة العلمية تقتضي أن القضايا والموضوعات كلما كانت ساخنة، كانت بحاجة إلى المعالجة الهادئة، بحثًا وتحريًا لشروط العلمية والموضوعية، ونفيًا وتجنبًا لحالات التوتر والانفعال والحماس.

هذه لعلها أبرز ملامح وسمات المنهجية التي ميزت كتاب «الحركة الإسلامية.. هموم وقضايا».

١١ الكتاب.. قضاياه ومواضيعه

الكتاب من الناحية البنائية يتكون من مقدمة، وسبعة وثلاثين فصلاً، عالجت أربعًا وعشرين قضية، اعتبرها المؤلف تمثل أبرز هموم وقضايا الحركة الإسلامية المعاصرة، وحسب المؤلف فإن بعض هذه الموضوعات قد أثارت الكثير من الجدل والتهويل، مما اعتادته الساحة الإسلامية في الأفكار غير المألوفة التي تثير المشاعر والحساسيات الانفعالية.

وجميع هذه الفصول والقضايا والموضوعات، نشرها المؤلف منذ النصف الثاني من ثمانينيات القرن العشرين على صورة مقالات شهرية متتابعة في مجلة المنطلق، الصادرة آنذاك عن اتحاد الطلبة المسلمين في لبنان، القريب نفسيًّا وفكريًّا من السيد فضل الله، ضمن زاوية تأملات في مسيرة العمل والعاملين.

وتحددت أبرز فصول الكتاب في القضايا والموضوعات الآتية:

قضية التغيير في الأمة

عالج الكتاب هذه القضية في ثمانية فصول، وتحددت في موضوعين: الأول كيف نواجه قضية التغيير في الأمة؟ والثاني: من الذي يقود عملية التغيير في الأمة؟ حزب الأمة أم أمة الحزب؟

في هذا النطاق ناقش المؤلف الأفكار والأقوال والنظريات المطروحة والمتداولة في ساحة الفكر الإسلامي الحركي والدعوي، موازنًا بينها، وناظرًا لها من جهة تعدد الأمكنة، وتنوع الأزمنة، وتغاير الأحوال، وعلى قاعدة لفت النظر إلى جوانب النفع والضرر، السلب والإيجاب، وبطريقة التجاذب في الأفكار والأقوال لإثارة النقاش والجدل في ساحة العمل والعاملين.

هذه الأفكار والأقوال والنظريات تحددت في المسائل الآتية:

أولاً: التجاذب في قضية التغيير بين الأسلوب التقليدي الهادئ والمرحلي، وبين الأسلوب الذي يتسم بالتحدي وإثارة التوتر، فهناك من يرى أن قضية التغيير في الأمة، ومواجهة التحديات الصعبة، وتأثيرات القوى المضادة، ينبغي أن يكون من خلال الأساليب التقليدية المألوفة التي ترتكز على أساس سياسة النفس الطويل في التربية والتثقيف الفكري التربوي، ليتسنى للعاملين تعميق المفاهيم والأفكار الأصيلة في ذهنية الأمة، وذلك لمواجهة التحديات من موقع العمق والقوة لا من

موقع الضعف، والسطحية، وحتى لا تتعرض الحركة للاهتزاز عندما تكون في طور النمو، وعملاً بقاعدة تعاقب المراحل في عملية التغيير، التي تقتضي تقدم المرحلة الفكرية على المراحل السياسية والجهادية.

إلى جانب هذا الرأي، هناك من يرى أن قضية التغيير في الأمة، ينبغي أن تكون من خلال أساليب التحدي والمواجهة التي بإمكانها تحريك القضية، وإثارة حالة التوتر الروحي والفكري، بشكل يجعل الإنسان مشدودًا إلى الهدف، وبطريقة تتحول طاقاته إلى حركة دائمة تثير فيه الوعي والحركة والتجدد والامتداد، باعتبار أن حالة الاسترخاء تحول الإنسان إلى طاقة كسولة وباردة.

ثانيًا: ضرورة التوازن بين حركة العمل في موقع الدعوة من أجل تغيير القاعدة الفكرية للإنسان، وبين حركة العمل في موقع الثورة من أجل تغيير القاعدة السياسة للحياة؛ لأن كل واحد منهما مناخًا ومنهجًا وأسلوبًا قد يختلف عن الآخر.

إيجاد حالة التوازن بين هذين الموقعين، حتى لا يحصل ارتباك واهتزاز في الموقف، بالشكل الذي يجعل الثورة تتحرك من دون فكر، أو أن يبتعد الفكر عن خط الثورة، وفي كلتا الحالتين قد يخسر الإسلام موقعه الحقيقي الثابت في حركة الحياة.

ثالثًا: هناك نمط آخر من التجاذب في قضية التغيير، بين من يرى التغيير من داخل النظام السياسي، وبين من يرى التغيير من خارج النظام السياسي.

وحسب الرأي الأول، فإن التغيير من داخل النظام بواسطة الانخراط في عملية اللعبة السياسية قد يكون ممكنًا ومتاحًا، ويوفر فرصة لتحصيل القدرة على التغيير السياسي الذي يضمن حفظ الأمن والسلامة العامة.

وحسب الرأي الثاني، فإن التغيير من خارج النظام يستهدف اقتلاع الجذور؛ لأنه يريد أرضًا خالية يغرس فيها الغراس الجديدة، بعيدًا عن كل العوامل المضادة التي تمنع من حركة النمو والارتفاع.

رابعًا: في نطاق التجاذب بين التغيير من داخل النظام أو من خارج النظام، قد يطرح البعض المسألة من ناحية فقهية، تتعلق بالتعاون مع الظالم، سواء كان شخصًا أو مؤسسة أو نظامًا. وفي هذا الشأن، هناك من يرى عدم جواز التعاون مع الظالم؛ لأنه يمثل لونًا من ألوان الركون إليه، وتقوية كيانه، وتأكيد سلطانه، وأن المطلوب شرعًا مقاطعة هذا النظام، والتعامل معه بطريقة سلبية.

وفي المقابل، هناك من يرى أن الركون إلى الظالم، الذي منعت منه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾[هود/ ١١٣]، يعني الاستسلام إليه في عملية تأييد وتعاطف، وفي حالة عدم الاستسلام فإن الموقف يختلف، مع الأخذ بعين الاعتبار أن طريقة الحكم قد تغيرت ما بين الماضي والحاضر، في الماضي كانت السلطة بكل تفاصيلها تحت تصرف شخص الحاكم، أما في الحاضر فقد أصبحت السلطة متفرعة إلى مؤسسات عدة.

والمسألة التي يريد السيد فضل الله أن يثيرها في هذا الشأن، يقررها بقوله: «إننا نريد أن نثير هذه الأفكار أمام العاملين للإسلام، للتأمل وللمناقشة من أجل أن يكون تفكيرنا أكثر واقعية، عندما نريد إثارة التفكير والحوار في الخطوط الشرعية، التي تحكم حركة التغيير للواقع الفاسد؛ لأننا في الوقت الذي نعبر فيه عن احترامنا للتحفظات، التي يسجلها العاملون للإسلام على هذا الأسلوب التغيري، الذي يتحرك داخل اللعبة السياسية للحكم اللاإسلامي، نريد أن نعبر عن خوفنا، في أن يصل التفكير في أسلوب العمل إلى طريق مسدود في بعض المراحل، وفي بعض الأماكن، بحيث يتحول التخطيط الثوري لدينا، إلى ما يشبه القفز في الهواء، أو السباحة في بحار الأحلام والأوهام»[(١)].

خامسًا: ما هو الإطار العملي والواقعي للعاملين في خط التغيير في الأمة؟ هناك من يرى أن الحزب هو الإطار العملي والواقعي لعملية التغيير، بوصفه يمثل دور القيادة الواعية الذي ينظم طاقات الأمة، ويجعلها تتحرك بخطى ثابتة نحو تحقيق ما تريد، وهذا هو النهج الذي درجت عليه الحركات الإسلامية السياسية.

في مقابل هذا الرأي، هناك من يرى أن الحزبية حركة بعيدة عن الجو الإسلامي، وأن الدين جاء لمخاطبة الأمة، وهي المستهدفة في عملية التغيير، ولم يأت لمخاطبة شريحة من الناس، حتى لو كانت هذه الشريحة تمثل نخبة الناس.

---

(١) محمد حسين فضل الله، الحركة الإسلامية.. هموم وقضايا، مرجع سابق، ص٧١.

وحسب هذا الرأي، فإن الذي يقود عملية التغيير هي أمة الحزب وليس حزب الأمة، وفي هذا الجو طرحت فكرة حزب الله، التي كان يراد منها آنذاك أن تكون طريقة في التغيير بعيدة عن التنظيم الحزبي، وبديلة عنه، وتستند على الأمة بوصفها إطارًا للتغيير، بمعنى أن الحاجة هي لحركة الأمة لا إلى حركة الحزب.

أمام هذا التجاذب في الرأي، قد يحصل في نظر السيد فضل الله نوع من الالتباس ما بين دور الحزب في الأمة، ودور الأمة في خط التغيير، بشكل يوحي بأن الحزب يريد أن يأخذ دور الأمة، ويسلبها فاعليتها، ويجعلها تابعة له، أو أن الأمة تحاول في حركتها أن تلغي دور الحزب، وتعمل على تصفيته، وإبعاده عن موقع المسؤولية!

والرأي الذي يميل إليه السيد فضل الله، هو الدفاع عن فكرة الحزبية الإسلامية، ويرى أن فكرة أمة الحزب هي «فكرة جديرة بالاهتمام؛ لأنها استطاعت أن تثور الشعب بطريقة أكثر حرارة، من الطريقة التي مارستها الأحزاب، ولكنها مع ذلك تنظر إلى الأمور من زواياها الظاهرة، بعيدًا عن العمق الضارب في الجذور»[١].

والحكمة التي يريد السيد فضل الله أن ينتهي إليها في خاتمة الحديث عن هذه المسألة، يقررها بقوله: «إننا نريد في هذا البحث، أن نثير أفكارًا وعلامات استفهام حول التجارب المطروحة في الساحة، سواء فكرة التنظيم الحزبي، أو

(١) لمرجع لسابق، ص١٥٣.

فكرة أمة حزب الله، لندرس المسألة من غير مواقع الانفعال، بل ندرسها من موقع الفكر والتأمل، لنعرف كيف نجعل الأسلوب الإسلامي في العمل، قريبًا من الواقعية، وبعيدًا عن المثالية في أجواء التفكير بالمطلق»[١].

بين الانفتاح والانغلاق

في تحريره لهذه المسألة يقول السيد فضل الله: كيف يواجه الإسلام الحركي التيارات الفكرية والسياسية الموجودة في ساحة الأمة؟ هناك تيارات دينية غير إسلامية تتحرك في إطار ما يسمى بحرية الوجود المسيحي في الشرق، وهناك تيارات غير دينية قد تقترب من الإسلام في بعض ملامحها وخطوطها، كما في الأحزاب القومية العربية التي تنفتح على الإسلام من خلال التاريخ أو التراث.

وهناك تيارات لا دينية ملحدة في تفكيرها الفلسفي، ثورية في التفكير السياسي والاقتصادي، بعيدة عن الإسلام من جهة الركائز الفكرية، وقد تلتقي مع حركته في بعض المواقع السياسية، كما في الأحزاب الماركسية المتنوعة في الواقع السياسي العالمي.

وهناك تيارات سياسية محلية وإقليمية، لا تنطلق من حالة فكرية في العمق، وإنما تنطلق من واقع محلي أو إقليمي في مستوى القضايا المحلية والإقليمية على خط القضايا الحياتية والاجتماعية.

---

(١) لمرجع لسابق، ص١٥٣.

أمام هذه التيارات، أين يقف التيار الإسلامي منها في حركته السياسية؟

هل يقف بعيدًا عنها وينعزل ليمارس خطته وحده، ويحاول أن يحقق أهدافه بمفرده؟

أو أن يعمل على دراسة هذه التيارات، فيلتقي بالتيار الذي يقترب من بعض ملامحه وخطوطه، ويبتعد عمن يختلف معه في الأساس والتفاصيل، ليحفظ للقاعدة توازنها في الأساسيات، ويتصرف بمرونة في القضايا المتفرعة عنها؟

أو يواجه الموقف بطريقة واقعية، تضع في حسابها مواطن اللقاء، ومواطن الخلاف مع هذا التيار أو ذاك، ثم تدرس حاجة الأهداف المرحلية أو النهائية إلى اللقاء، لتحدد الجهة التي تلتقي معها في الطريق إلى تلك الأهداف، سواء بالمواجهة لتيار آخر مضاد مشترك في الداخل، أو بالتحرك معه، بعيدًا عن مواجهة الداخل، أو بالانطلاق نحو الهدف الخارجي المعادي، أو بالاكتفاء بالتواجد على ساحة الصراع السياسي في المواقف المتحركة للصراع، التي قد تتداخل أو تتقاطع أو تتباين تبعًا لما يفرضه الواقع، أو تؤكده الحاجة، من حركية التيار الإسلامي ووجوده الفاعل على الساحة كقوة واقعية، بين القوى الأخرى، في مشاريعها وخططها المتحركة نحو الأحداث؟[1].

أمام هذه القضية، يرى السيد فضل الله أن التيار الإسلامي أمامه خياران، هما:

(١) لمرجع لسابق، ص١٥٩.

أولاً: خيار الانغلاق السياسي

أصحاب هذا الخيار، يقولون إن الموقف الإسلامي يفرض على العاملين المقاطعة التامة لهذه التيارات الموصوفة بالكفر والضلال؛ لأن أي شكل من أشكال العلاقة معها يمثل لونًا من ألوان المودة والموالاة اللتين أكد القرآن الكريم على المؤمنين الابتعاد عن تقديمها للكافرين والضالين.

ومن جانب آخر، فإن العلاقة السياسية مع هذه التيارات، تمثل اعترافًا بشرعيتها كفريق سياسي في الساحة الإسلامية، فيما يوحيه ذلك بأن له الحق بالمشاركة في تخطيط مستقبل البلد وإدارة شؤونه، وهذا أمر غير جائز شرعًا؛ لأن الاعتراف بالخط الكافر أو المنحرف لا يمثل أية شرعية إسلامية، بل هو النقيض البديهي لذلك.

بالإضافة إلى أن العلاقة مع هذه التيارات، قد تسهم في إضلال الجماعة المسلمة، نتيجة إسقاط الحواجز النفسية التي تحجز المسلمين عن التأثر بهم(١).

ثانيًا: خيار الانفتاح السياسي

أصحاب هذا الخيار، يقولون إن الانفتاح السياسي هو الخيار الأصوب، الذي يفسح المجال للفكرة الإسلامية الشاملة التي تؤكد الوحدة من خلال الفكر، والتفاهم من خلال الحوار، والتسامح من خلال الانفتاح، والحرية والعدالة

---

(١) لمرجع لسابق، ص١٦١.

من خلال الخطة السياسية والاجتماعية الواسعة، وهكذا نجد في الانفتاح على الحركات السياسية، والواقع السياسي، والنفاذ إلى عمق الساحة، انطلاقة إسلامية في ساحة الحياة، لا تختزن من السلبيات، بقدر ما تختزن من الإيجابيات.

أما حديث الموادة والموالاة المرفوض إسلاميًّا مع غير المسلمين، فلا موقع له في مجال إثارة الحديث عن الانفتاح عليهم؛ لأن مفهوم الموادة يعني العاطفة القلبية الحميمة العميقة، المتمثلة بالإخلاص الروحي، النابع من اللقاء الداخلي في الفكر والروح والعاطفة، كما أن مفهوم الموالاة يمثل الصلة الواقعية المتحركة في خط الطاعة والاتباع والاندماج بالآخر، على مستوى الانتماء والإخلاص، وهذا أمر لا نريد إثارته في ساحة العلاقات الواقعية السياسية بين الإسلام والتيارات الأخرى، بل كل ما نريده هو العمل على إيجاد مواقع عملية للقاء على أهداف مشتركة، فيما يهم الإسلام والمسلمين.

والرأي الذي ينتصر إليه السيد فضل الله بكل وضوح وتأكيد هو خيار الانفتاح، فالانفتاح بالنسبة إليه «هو قضية الحياة التي تنفتح في كل يوم على شيء جديد، وليس هناك أية فائدة من انغلاق الناس على بعضهم فيما ينطلقون فيه من فكر، وفيما يثيرونه في حياتهم من خطط ومشاريع، وفيما يتحركون نحوه من أهداف؛ لأن ذلك يجمد الخطأ في النفس، ويحوله بالتالي إلى حالة مقدسة، ويمنع العقل من تطوير الفكرة في حركة الحوار، ويؤدي بالتالي إلى تجميد الحياة».

ومن جانب ثان، يرى السيد فضل الله أن الانفتاح هو السبيل الوحيد لانفتاح الآخرين على الجوانب المشرقة من الفكرة، وبالتالي على قناعتهم بها؛ لأن إثارة الخلافات من موقع الوحدة يختلف عن إثارتها من موقع الافتراق، فيما يثيره ذلك من أجواء حميمة روحية، قد تكسر الكثير من الجمود، والتعقيد النفسي في مواجهة الفكرة، وإدارة التفكير من حولها.

ومن جانب ثالث، يرى السيد فضل الله إذا كان بعض الناس يرون في الانغلاق حماية للفكرة من الانحراف، وابتعادًا عن التأثر والذوبان في الأفكار الأخرى، ومحافظة على أصالتها ونقائها وصفائها من التلوث والتشويه، فإن بعضًا آخر يرى فيه لونًا من ألوان الخوف من الآخرين، ومظهرًا من مظاهر الضعف أمام التحديات الفكرية التي تواجهه؛ لأن الإنسان الذي لا يسمح لنفسه بالانفتاح على الآخرين، هو إنسان ضعيف الحجة في رحاب الفكرة.

إننا نعلم أن حماية الفكرة لا تتحقق بالهروب من التحدي، بل تكون بالمواجهة القوية لكل ما يثيره الآخرون حولها من شبهات وإشكالات؛ لأن ذلك هو الذي يؤكد نقاط القوة، ويبعدها عن الاستسلام لمواقع الضعف[١].

ومن جانب رابع، يعتقد السيد فضل الله أن الانفتاح يمثل «حالة إسلامية، أصلية تفرض على الداعية المسلم، والحركي الإسلامي، والدولة المسلمة الانطلاق في الحياة من القاعدة الفكرية التي تؤكد أن الوصول إلى

---

(١) لمرجع لسابق، ص٢٠٤.

ساحات الآخرين، وقناعاتهم ومواقفهم وتأييدهم، يفرض اللقاء معهم على أرض مشتركة، والانفتاح عليهم من خلال المفاهيم المشتركة، أو الآفاق المشتركة التي تختلف فيها الاتجاهات؛ ولذلك فإن الأصل أن تواجههم ويواجهوك، وتتكلم معهم ويتكلمون معك، وتتنازل لهم ويتنازلون لك. ولكن بشرط واحد، وهو أن تكون في موقع القوة التي تتيح لك أن تثبت أقدامك في مواقعك عندما تريد أن تقارن بينها وبين مواقع الآخرين»[١].

ومن جانب خامس، يرى السيد فضل الله أن «الذين يتحدثون عن الانغلاق كخيار وحيد في حركة الثورة أو في تجربة الحركة، لا ينطلقون من قاعدة فكرية أو سياسية واقعية، بل ينطلقون من تجربتهم الذاتية التي يحكمها الخوف من الواقع الآخر، والهروب من مواجهة الموقف بوسائل متطورة في مجابهة التحديات، بالخطة الإيجابية التي تأخذ وتعطي، بدلاً من الخطة السلبية التي تجد في الانغلاق راحة تصنع للحركة دائرتها في الصراع على قياس الخطة، التي لا يريد لها الخائفون أن تثقل أوضاعهم ومواقعهم، لتدفعها إلى المسؤوليات الكبيرة على مستوى الأمة، في صعيد المستقبل»[٢].

بين التطرف والاعتدال

تساءل السيد فضل الله: كيف نفهم الحدود الفاصلة بين التطرف والاعتدال؟ واتخذ من هذا التساؤل أساسًا لمعالجة هذه القضية.

(١) لمرجع لسابق، ص٢١٩.
(٢) لمرجع لسابق، ص٢٢٢.

وعند تحريره للبحث وتنقيحه للمناط، وجد السيد فضل الله أن هناك صورًا عدة لهذه القضية، من هذه الصور:

الصورة الأولى: هناك من يفهم التطرف والاعتدال على أساس ما يتناسب وما لا يتناسب مع الأوضاع المألوفة للناس، فيما اعتادوه من قضايا حياتهم وأوضاعهم العامة، فيتحدد التطرف بما يفرض على الناس من التزامات قاسية، وقيود شديدة، وعلاقات محددة تتحرك في دائرة ضيقة، لا مجال فيها للمرونة والواقعية.

الصورة الثانية: هناك من يضع التطرف والاعتدال في دائرة الطرح الشامل للإسلام كخط فكري وتشريعي يشمل السياسة والاقتصاد والاجتماع والحرب والسلم، إلى جانب العبادة والأخلاق، بالإضافة إلى الجوانب الذاتية للفرد، فمن يقول بهذا الطرح الشامل للإسلام يكون متطرفًا، ومن لا يقول به يكون معتدلاً.

الصورة الثالثة: هناك من يضع التطرف والاعتدال في دائرة اقتراب الواقع أو ابتعاده عن الإسلام وشموليته، وذلك على خلفية انحسار الإسلام عن حركة الحياة السياسية والقانونية، وتطور الواقع في اتجاه الأفكار الأخرى، وسيطرة القوى المغايرة على مجرى الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وبطريقة شاملة.

الوضعيات التي جعلت من غير الممكن -حسب هذا التقدير- طرح الإسلام بشموليته على الواقع، لكونه سوف يؤدي إلى خلق مشاكل في حياة الناس، ويعقد عليهم أوضاعهم العامة، ويربك معيشتهم، يضاف إلى ذلك ما أحدثته التعقيدات الثقافية الغربية التي فرضت نفسها على الذهنية العامة لدى المسلمين، وبالشكل الذي أسهم في ابتعاد الواقع عن الطرح الإسلامي الشامل.

الصورة الرابعة: هناك من يضع التطرف والاعتدال في دائرة تنوع الأديان والمذاهب، فالمجتمعات التي تتنوع فيها أديان الناس أو تتنوع فيها مذاهبهم، يقتضي واقع الحال البحث عن مواقع اللقاء سعيًا وتحقيقًا للتعايش، ولا ينبغي إثارة حساسية أصحاب هذه الديانات وأصحاب هذه المذاهب، بإثارة الحديث عن فكرة الإسلام الشامل.

هذه هي أبرز الصور التي حاول السيد فضل الله مناقشتها، نافيًا ومشككًا في صحتها، ومدافعًا عن فكرة الإسلام الشامل، ومتسائلاً هل الحديث عن شمولية الإسلام للحياة في جميع مجالاتها العامة هو حديث تطرف؟

وبطريقة اعتراضية، من أين جاء هذا التصور للإسلام الذي يحدد له الدائرة الأخلاقية والعبادية، ويفصله عن الدوائر الأخرى في الحياة، ليكون التزام الشمولية في مضمونه تجاوزًا عن الحد المعقول، الذي يضعه في دائرة التطرف؟

وفي نظر السيد فضل الله، الحديث عن التطرف من جهة الحديث عن شمولية الإسلام للحياة، لا يستند إلى أساس معقول، وليس له مع هؤلاء إلا أن يدعوهم

إلى الدخول في حوار علمي إسلامي في هذه القضايا المثارة[١].

بين الواقعية والمثالية

إشكالية البحث في هذه القضية يحررها السيد فضل الله بقوله: «من الملاحظ في خطوات كثير من العاملين للإسلام، أنهم يواجهون الساحة بالأفكار غير الواقعية، وذلك من قاعدة إيمانية، تطرح الفكرة الكبيرة بعيدًا عن وسائلها الطبيعية، مما يجعل المسيرة تتجه إلى الهدف، فيما يشبه القفز في الهواء، ويؤدي بالتالي، إلى أن تبقى القضية في موقع التنظير، بعيدًا عن حركة التطبيق، ويساهم في تعبئة الأفكار بالمفاهيم الضبابية، التي تقدم الصورة في إطار من الغموض والإبهام، الذي يفقد الساحة حيويتها ومرونتها، في وضوح الرؤية، وواقعية الحركة»[٢].

وما يدعو إليه السيد فضل الله في هذا الشأن، هو ضرورة التحلي بالواقعية من جهة، والتخلي عن المثالية من جهة أخرى، وقد حاول التأكيد على النزعة الواقعية من جهتين:

أولاً: الجهة الفكرية، من هذه الجهة يرى السيد فضل الله أن «الواقعية هي الأقرب إلى المنطق الإسلامي، الذي أراد الله له أن يحكم المسلم في الحياة، من خلال

(١) لمرجع لسابق، ص٢٧٦.

(٢) لمرجع لسابق، ص٣٦٣.

القدرة الإنسانية؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها أو ما أتاها، ولأن الميسور لا يسقط بالمعسور، وأن ما لا يدرك كله لا يترك كله، ولأن الله يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، وما جعل عليكم في الدين من حرج، وما من شيء إلا وقد أحله الله لمن اضطر إليه، ولأن المصلحة الأهم تتغلب على المفسدة التي لا ترقى إليها في الأهمية، مما يفرض تجميد الحكم لمصلحة الجانب الأهم، وهذا ما نلاحظه في كثير من خطوات السيرة النبوية في تجميد بعض الأمور المهمة لمصلحة القضية الأهم، فإن الله يريد للإسلام أن يثبت نفسه ولو في بعض المواقع، ويريد للمسلمين العزة ولو في بعض المواقف، لتنطلق المسيرة نحو العزة والثبات بطريقة واقعية متوازنة»[١].

ثانيًا: الجهة العملية، من هذه الجهة يرى السيد فضل الله أن الواقعية «تمثل المنهج العملي الذي يعتمد على العناصر والوسائل العملية، التي تجد لها مجالاً في الحركة نحو الغاية على صعيد الواقع، وعلى مستوى الحاضر، في المشاريع الحاضرة، وعلى مستوى المستقبل في المشاريع المستقبلية، بحيث تربط النتيجة بالمقدمات، وتتحرك الغايات من خلال الوسائل، فلا تكون الأهداف في تصور المؤمنين بها، والساعين إليها، قفزة في المجهول، وحركة في المطلق، كما يفكر المثاليون، الذين يطرحون الأفكار كما لو كانت في عالم آخر غير عالم الحس والحركة والحياة»[٢].

---

(١) لمرجع لسابق، ص٣٩٠.

(٢) لمرجع لسابق، ص٣٩١.

بين الإيجابية والسلبية

في تحريره لهذه المسألة يقول السيد فضل الله في الواقع العملي هناك «أسلوبان في حركة العاملين: الأسلوب الإيجابي والأسلوب السلبي، ونعني بالأسلوب الإيجابي، النهج الذي يواجه الواقع بالأفكار التي تحدد الموقف في كل ساحة، وتضع الحلول لكل مشكلة، وتدير المسألة بالطريقة التي لا تترك فراغًا في التصور أو في الحركة، بحيث لا يشعر الناس معها باللاموقف. أما الأسلوب السلبي، فهو النهج الذي يواجه الواقع، بالأفكار التي تبقى القضية معها جامدة في مكانها، رافضة للأفكار المتحركة في الواقع، من دون أن تضع في الساحة أفكارًا بديلة، ليكون الجو للرفض المطلق، الذي يعمل من أجل الهدم لا من أجل البناء»[١].

ولهذا يرى السيد فضل الله أن «الأسلوب الإيجابي هو الأسلوب العملي، الذي ينبغي للحياة أن تأخذ به وتتوفر عليه، لأنه هو الذي يرتبط بالحركة الواقعية التي تحتوي قضاياها، وترتبط بها بشكل مباشر، وتمنحها نموًّا وتطورًا في الحركة التصاعدية للأشياء، بينما لا يحقق الأسلوب السلبي لها أي شيء، لأن العدم لا يحقق وجودًا، والنفي لا يؤكد الحياة»[٢].

وإذا كانت هذه المسألة، بهذا المقدار من الأهمية في الواقع العملي، فإنها تستدعي في نظر السيد فضل الله «أن يكون لنا في كل قضية رأي، وفي كل ساحة

(١) لمرجع لسابق، ص٣٢٧.

(٢) لمرجع لسابق، ص٣٢٧.

موقع، وفي كل حركة موقف، لنستطيع تأكيد وجودنا في ساحة الصراع الفكري والعملي؛ لأن ذلك هو الذي يمنحنا الصفة الحركية الإنسانية في خط الزمن»[١].

بين السرية والعلنية

حدد السيد فضل الله مورد البحث في هذه القضية، في أن البعض قد يطرح مسألة السرية والعلنية كعنوانين للجدل الدائر حول الطابع العملي للحركة الإسلامية، فيما هي الشرعية من جهة، وفيما هي النتيجة الواقعية من جهة أخرى، وفيما هو الانسجام مع العمق الديني المتمثل في طبيعة الحركة من جهة ثالثة، وذلك من خلال بعض علامات الاستفهام التي تخطر في البال، وتثير الجدل.

والحقيقة الواقعية التي ينبغي الإشارة إليها في نظر السيد فضل الله، والمتعلقة بأساليب العمل السري والعلني، هي «أن أية إيجابيات في أسلوب معين، تلتقي بسلبيات في نفس الموقع، لأننا لا نجد أي عمل يملك إيجابيات مطلقة، كما لا نجد أي عمل يملك سلبيات مطلقة، فلا بد من دراسة المسألة، فيما هو الأكثر إيجابية، أو الأكثر سلبية، كما لا بد من ملاحظة الموضوع في نطاق ظروفه العامة والخاصة، في النطاق المرحلي أو الإستراتيجي»[٢].

---

(١) لمرجع لسابق، ص٣٢٨.

(٢) لمرجع لسابق، ص٢٥١.

بين الثقافة الخاصة والثقافة العامة

في ساحة الحركة الإسلامية، هناك نقاش يدور حول جدل العلاقة بين الثقافة الخاصة والثقافة العامة، ويتمحور هذا الجدل حول هل الحركة الإسلامية بحاجة إلى ثقافة خاصة تتقيد بها، وتلزم أفرادها بالتفاعل معها، والدفاع عنها؟ أم ليس هناك ضرورة لمثل هذه الثقافة الخاصة، وتكفي الحاجة إلى الثقافة العامة؟

القائلون بضرورة الثقافة الخاصة، ينطلقون من الحاجة إلى وحدة التصور للجماعة، وبما يحقق وحدة الموقف، ووحدة الشعور العام، والتزامًا بقاعدة أن الحاجة إلى حركة واحدة يتطلب ثقافة واحدة يلتقي عليها الجميع.

أما القائلون بالثقافة العامة، فإنهم ينطلقون من ضرورة إعطاء الأمة حريتها في اختيار الثقافة التي تنفتح عليها، وتتواصل معها، كما ينطلقون من مسألة حرية كل إنسان فيما يعتقد، وفيما يلتزم من مفاهيم وأفكار، وليس لأحد الحق في أن يفرض عليه رأيه في فهمه للإسلام وثقافته.

في توجيهه لهذا النقاش الجدلي، يرى السيد فضل الله «أن الثقافة الموجهة لا تلغي حرية حركة الفكر، بل هي تعبير عن وحدة الحركة في وحدة الفكر، مع إبقاء النوافذ على كل الفكر الآخر الذي يرصد الخطأ والصواب، ليستطيع تغيير القاعدة الفكرية للحركة، من خلال تغيير الذهنية التي أدت إلى الالتزام الخاص، من خلال القناعة الخاصة».

والرأي الذي يراه السيد فضل الله، يحدده بقوله: «إن الحركة الإسلامية، تدعو إلى النقد، كما تدعو إلى الالتزام، وتنادي بالمراقبة، كما تنادي بالانضباط، ولا تدعي العصمة لنفسها...، وعلى ضوء هذا، فإن الفكر الإسلامي، يبقى متحركًا في ساحة التغيرات الاجتهادية أو الموضوعية، من خلال كل عناصر التغيير، لتبقى الحركة الإسلامية في حالة تقدم وتطور»[١].

بين الأكثرية والأقلية

يطرح العاملون في الحقل السياسي والاجتماعي، مسألة الأكثرية والأقلية كعنوانين للقيمة السياسية أو الاجتماعية، وحسب هذا الطرح، فإن الأكثرية ترفع القيمة، والأقلية تحط القيمة.

وهنا يتساءل السيد فضل الله: هل الأكثرية هي المقياس الذي نقيس به الصواب والخطأ، والحق والباطل، والمصلحة والمفسدة؟ أم أن القيمة ليست خاضعة للعدد أكثرية أو أقلية، وإنما للعناصر الأصيلة الحية في طبيعة المضمون الواقعي للأشياء؟

وما يراه السيد فضل الله في هذا الشأن، أن العدد لا يملك مسألة القيمة سلبًا أو إيجابًا، بل لا بد من التدقيق في العناصر الذاتية والموضوعية للمسألة، ومناقشتها على أساس القواعد الفكرية الأصيلة والثابتة، التي يمكن أن تكون الأساس في مسألة الحق والباطل، أو الخطأ والصواب.

(١) لمرجع لسابق، ص٣٢٤.

بين الإسلامية والمذهبية

يرى السيد فضل الله أن مشكلة المذهبية قد «تحولت إلى حالة ذهنية عصبية متحجرة بدلاً من أن تكون حالة فكرية منفتحة متحركة، مما جعلها تترك تأثيرها العميق، على المحتوى النفسي للإنسان المسلم، في نظرته إلى المسلم الآخر. وربما تفاعلت في بعض المواقع الإسلامية، فتحولت لديها إلى حالة من الغلو، التي تنظر إلى الآخرين، كما لو لم يكونوا من المسلمين، فتعتبرهم حالة كفر أو شرك في داخل الإسلام، لتكون مشكلة في العقيدة، التي تشكل نوعًا من الخطورة على الإسلام نفسه، لا مشكلة في الشريعة، أو في الفهم الاجتهادي لتفاصيل العقيدة.

وفي ضوء ذلك، كان الواقع المذهبي، يقيم حواجز نفسية، تثير العصبيات في المجتمعات الإسلامية، لتفصلها عن بعضها، وتقسمها إلى مجتمعات سنية، ومجتمعات شيعية، قد تتخذ كل واحدة منهما، مواقع مستقلة عن مواقع الأخرى، وقد يجد بعضها لأفراده مصالح، تختلف عن مصالح أفراد الآخرين»(١).

وهذا ما حاول السيد فضل الله نقده ونقضه ورفضه، داعيًا إلى الإسلامية في مواجهة المذهبية، معتبرًا أن من الإخلاص للإسلام أن نفكر بجدية في الأفق الإسلامي الواسع، الذي يوحي بالتعاون بدلاً من التناحر والتخالف والتحارب.

---

(١) لمرجع لسابق، ص٤٥٩.

بين الإسلامية والوطنية

في تقدير السيد فضل الله أنه «للوطن في الوعي الفكري والشعوري للإنسان المسلم خطان مختلفان: خط شعوري عاطفي، يتصل بالجوانب الحميمة الذاتية، الخاضعة للانفعال الداخلي بالأشياء القريبة إلى عاطفته المتصلة بمكامن الإحساس الذاتي في كيانه. وخط سياسي، يلتقي بالمضمون القانوني للأرض في حدودها الجغرافية الدستورية، التي تفصلها عن الأرض الأخرى، التي تملك حدودًا معينة فاصلة، وينفتح على مجموعات بشرية مختلفة، في الدين والمذهب والاتجاه السياسي والقومي واللون والعرق، ولكنها تتوحد فيه، ويتقاطع وينفصل في علاقاته بجماعات أخرى، أو ببلدان أخرى»(١).

أمام هذه القضية، تساءل السيد فضل الله كيف يواجه الإنسان هذين الخطين، من خلال صفته الإسلامية، التي تحدد له علاقاته بالناس والأشياء؟

في الخط الشعوري والعاطفي، يرى السيد فضل الله أن ليس هناك أي إشكال في ذلك؛ لأن الله لا يمنع أحدًا من عباده أن يألف بعض الأشياء التي تحيط به، لتتحول الألفة إلى علاقة في الذات، وبالتالي إلى حالة عاطفية تحنو وتهفو وتنفتح على كل مفردات الأرض والناس والأشياء؛ لأن الله لا يريد للإنسان أن يتعقد في عاطفته، ما دامت المسألة مقتصرة على جانب الإحساس العاطفي.

---

(١) لمرجع لسابق، ص٤٢٣.

وفي الخط السياسي، حاول السيد فضل الله أن يلفت النظر إلى ما يسميه التحفظ الفكري على بعض المفردات من ناحية المضمون، وتحديدًا من جهة أن لا يؤثر هذا الالتزام على الابتعاد عن ملاحظة الخصوصية الإسلامية فيه، بشكل لا تمثل المصلحة الإسلامية أية قيمة في تحديد الموقف.

بين السياسة والدعوة

عالج السيد فضل الله هذه القضية، بالإشارة إلى اتجاهين متغايرين في ساحة المسلمين المعاصرين، هما:

الاتجاه الأول: ينطلق من قاعدة فكرية تنكر على الإسلام أن يكون سياسة، فهو دين الله أنزله على رسوله، كما أنزل الأديان على الرسل الآخرين، ليقود الناس إلى عبادة ما فرضه عليهم من شؤون العبادة، وليتمثلوا بقيمه الروحية والأخلاقية، وليدل الناس على النهج الصحيح، في العناوين الكبيرة لقضايا الحياة، ليترك لهم الوسائل التي يكتشفونها ويحددونها في تجسيد هذه العناوين في موقع الحرية العملية، فليس هناك نظام حكم يتخذ السياسة سبيلاً للوصول إليه، بل هناك تشريعات فردية متناثرة هنا وهناك، تحدد للفرد بعض مساره فيما يأخذه وفيما يتركه، من أقوال وأفعال وعلاقات إنسانية مع الناس.

الاتجاه الثاني: ينطلق من قاعدة فكرية تؤمن بالشمولية الإسلامية لقضايا الحياة كلها، حتى قضية الحكم، الذي يشرف على تنفيذ الشرعية، أو تحقيق العدل للناس، وتحريك الحياة في اتجاه القضايا الكبيرة، فهو يؤمن بأن الإسلام عقيدة

وشريعة ونظام ومنهج للحكم وللحياة، ولكنه يرى ضرورة التوفر على الدعوة إلى الله، حتى يمكن إيجاد القاعدة الواسعة في الأمة في الإيمان بالإسلام، ثم العمل على التربية الروحية، التي تؤكد على البناء الروحي والأخلاقي، الذي يصنع الشخصية الإسلامية القوية الواعية، المنفتحة على الله في روحانيتها وأخلاقيتها وعبادتها الخاشعة. فإذا استكملنا ذلك، أمكننا أن نضع في الواقع الإسلامي، المنهج السياسي الذي يستمر في الإسلام، صفاؤه ونقاؤه وحركيته وفعاليته في حركة الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله؛ لأننا بذلك نضمن للإسلام البقاء على حيويته وطهارته، ونضمن للحركة الإسلامية استقامتها على الخط، فيما تملكه من عناصر الاستقامة الفكرية والعملية[١].

بين منطق الثورة ومنطق الدولة

في الحقل السياسي التغييري يطرح البعض مسألة الثورة كأسلوب في العمل التغييري، في مواجهة الدولة كأداة لتنظيم المجتمع بطريقة مقننة، وحسب هذا الرأي، أن الثورة عندما تتحول إلى السير في خط الدولة، فإنها تفقد روحيتها وثوريتها وصفاءها وطهارتها واندفاعها الشعبي، الأمر الذي يوجب البقاء في ساحة الثورة بعيدًا عن التنظيم والتقنين.

في المقابل، هناك من يرى خطورة هذا الطرح؛ لأنه يؤدي إلى الفوضى السياسية والفلتان الأمني في حياة الناس.

(١) لمرجع لسابق، ص٥١٢.

وبعد فحص ونقاش، يرى السيد فضل الله ضرورة التزاوج والتكامل بين منطق الثورة ومنطق الدولة، وأنهما يشتركان في حركة الدعوة على صعيد النظرية والتطبيق، فالدولة والثورة هما من جهة حركة الدعوة في مسألة التطبيق، ومن جهة أخرى فإن الدعوة هي النظرية في خط الثورة والدولة في حركة الإنسان على صعيد الواقع.

والفرق بين الثورة والدولة في تقدير السيد فضل الله، أن الثورة تعني التحرك نحو تحقيق الشروط الموضوعية لتحضير الأرض، وتنقيتها من كل العوامل المضادة للتغيير، وتهيئة الأوضاع الملائمة في الجوانب السلبية والإيجابية، لحركة الدولة في تنظيم الأوضاع الإنسانية والحياتية، على أساس الواقع الرسالي الجديد.

ولذلك فإن الثورة لا تعبر في طبيعتها عن منطق مخالف لمنطق الدولة؛ لأنهما يمثلان المنطق التكاملي في تحويل الدعوة في خطها النظري إلى حركة حية في الواقع التطبيقي، فيما هي المقدمات والنتائج، مما يجعل من الدولة قمة الثورة، عندما تصل إلى تحقيق برامجها الرسالية على صعيد الواقع[١].

بين خط البطل وبطل الخط

في حالات معينة تبرز في داخل الجماعات السياسية، ومنها الحركات الإسلامية، شخصيات قيادية فكرية أو سياسية، تمثل دور البطل في داخل هذه

(١) لمرجع لسابق، ص٣٠٩.

الجماعات، ويصل الحال بهذه الجماعات لأن تعرف بهذا البطل، والسؤال الذي يطرح في هذا النطاق هل الشرعية والمشروعية في الانتماء لهذه الجماعات لخط البطل أم لبطل الخط؟

النتيجة الحاسمة التي ينتهي إليها السيد فضل الله هي ضرورة ارتباط الأمة بالشخص من خلال الفكرة التي يؤمن بها أفرادها تبعًا لارتباطه بخط الفكرة، بحيث يبقى الارتباط به متحركًا تبعًا لحركة الفكرة في حياته، مع ملاحظة إعطاء الحرية للنقد البناء الموضوعي في المجالات القابلة للنقد، فإذا انحرف عن الخط، ابتعدت الأمة عنه، وإذا بقي مخلصًا له، استمرت سائرة معه، وبذلك فإن علينا أن يكون شعارنا في حركتنا العملية، هو الإخلاص لبطل الخط، أو إمامه، أو قائده، من خلال بطولته وإمامته وقيادته التي تمثل حركة الخط في حياته، وليس الإخلاص لخط البطل(١).

هذه هي أبرز الأفكار والأقوال والنظريات التي ناقشها السيد فضل الله في هذا الكتاب، الذي يشرح فيه أيضًا تأملاته في مسيرة العمل والعاملين، ويأمل منها أن يكون فيها عناصر الإثارة الفكرية التي تخطط للمنهج الفكري الذي يحاول إبداع نهج لحركة إسلامية جديدة تعمل بكل قوة ووعي وتدقيق من أجل أن يكون الإسلام قاعدة للفكر والعاطفة والحياة، وسعيًا لنهضة الأمة نحو البناء والتقدم الحضاري الشامل.

---

(١) لمرجع لسابق، ص٥٤٠.

قائمة بمؤلفاته

معظم هذه المؤلفات هي في الأصل محاضرات أو ندوات أو أحاديث أو دروس شفهية، جرى إعدادها من آخرين، وقليلة هي المؤلفات التي خطها السيد فضل الله بيده، وهذه هي قائمة المؤلفات:

١- أسلوب الدعوة في القرآن، النجف – العراق ١٣٨٠هـ/١٩٥٩م.

٢- الحوار في القرآن.. قواعده، أساليبه، معطياته، بيروت، ١٣٩٦هـ.

٣- خطوات على طريق الإسلام، بيروت، دار التعارف، ١٣٩٧هـ.

٤- مع الحكمة في خط الإسلام، بيروت، مؤسسة الوفاء، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

٥- المقاومة الإسلامية.. آفاق وتطلعات، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٦- أحاديث في الوحدة الإسلامية، طهران، منظمة الإعلام الإسلامي، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٧- الحركة الإسلامية.. هموم وقضايا، بيروت، دار الملاك، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

٨- تأملات إسلامية حول المرأة، بيروت، دار الملاك، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٩- المعالم الجديدة للمرجعية الشيعية، إعداد: سليم الحسني، بيروت، دار الملاك، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

١٠- أسئلة وردود من القلب، إعداد: وضاح الحلو وإسماعيل الفقيه، بيروت، دار الملاك، ط٣، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

١١- قضايا إسلامية معاصرة، إعداد: خالد اللحام، بيروت، دار الملاك، ط٢، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

١٢- الإسلام وفلسطين، إعداد: محمد سويد، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٥م.

١٣- دنيا الشباب، إعداد: أحمد أحمد وعادل القاضي، بيروت، مؤسسة العارف، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

١٤- المرأة بين واقعها وحقها في الاجتماع السياسي الإسلامي، بيروت، دار الثقلين، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

١٥- خطاب الإسلاميين والمستقبل، إعداد: غسان بن جدو، بيروت، دار الملاك، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

١٦- الحوار بلا شروط.. تمرد على ثقافة الخوف، بيروت، دار الملاك، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

١٧- كتاب الجهاد، إعداد: السيد علي فضل الله، بيروت، دار الملاك، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

١٨- اليمين والعهد والنذر، إعداد: المركز الإسلامي الثقافي، بيروت: ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

١٩- كتاب النكاح، إعداد: جعفر الشاخوري، بيروت، دار الملاك، الجزء الأول طبع سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، والجزء الثاني طبع سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٢٠- القرعة والاستخارة، إعداد: المركز الإسلامي الثقافي، بيروت، ط٢.

٢١- حركة النبوة في مواجهة الانحراف، إعداد: شفيق الموسوي، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٢٢- رؤى ومواقف، إعداد: المركز الإسلامي الثقافي، بيروت، دار الملاك، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٢٣- الجمعة منبر ومحراب، إعداد: المركز الإسلامي الثقافي، بيروت، دار الملاك، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٢٤- من وحي عاشوراء، بيروت، دار الملاك، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٢٥- الوصية: إعداد المركز الإسلامي الثقافي، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٢٦- الإسلاميون والتحديات المعاصرة.. مطارحات فكرية وسياسية، إعداد: سليم الحسني، بيروت، دار الملاك، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٢٧- المرجعية وحركة الواقع، بيروت، دار الملاك، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٢٨- الإسلام والمسيحية بين ذهنية الصراع وحركية اللقاء، بيروت، دار الملاك، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٢٩- الفتاوى الواضحة، بيروت، دار الملاك، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٣٠- فقه الإجارة، إعداد: محمد الحسيني، بيروت، دار الملاك، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٣١- الندوة، إعداد: عادل القاضي، ١٩ جزءا، بيروت، دار الملاك، صدر من سنة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م إلى سنة ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٣٢- حديث عاشوراء، إعداد: جعفر فضل الله، بيروت، دار الملاك، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٣٣- الزهراء المعصومة.. أنموذج المرأة العالمية، بيروت، دار الملاك، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٣٤- الفتاوى الواضحة، بيروت، دار الملاك، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٣٥- من عرفان القرآن، إعداد: شفيق الموسوي، بيروت، دار الملاك، ط٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٣٦- الصيد والذباحة في شرح العروة الوثقى، إعداد: المركز الإسلامي الثقافي، بيروت، دار الملاك، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٣٧- تفسير من وحي القرآن، بيروت، دار الملاك، أربعة وعشرون مجلدًا، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٣٨- صلاة الجمعة الكلمة والموقف، إعداد: شفيق الموسوي، بيروت، دار الملاك، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٣٩- تحديات الإسلام بين الحداثة والمعاصرة، بيروت، دار الملاك، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

٤٠- الإسلام وقدرته على التنافس الحضاري، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٤١- بينات حوارات فكرية في شؤون الدين والإنسان والحياة، إعداد: شفيق الموسوي، بيروت، دار الملاك، جزآن، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٤٢- يا ظلال الإسلام، شعر، بيروت، دار الملاك، ط٣، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٤٣- آفاق الروح في أدعية الصحيفة السجادية، بيروت، دار الملاك، جزآن، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٤٤- فقه المواريث والفرائض.. بحث فقهي مقارن، إعداد: خنجر حمية، بيروت، دار الملاك، جزآن، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٤٥- قاعدة لا ضرر ولا ضرار، إعداد: محمد أديب قبيسي، بيروت، دار الملاك، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٤٦- تحديات المهجر بين الأصالة والمعاصرة، إعداد: مصطفى الشوكي، بيروت، دار الملاك، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٤٧- أحاديث في قضايا الاختلاف والوحدة، إعداد: نجيب نور الدين، بيروت، دار الملاك، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٤٨- قصائد للإسلام والحياة، بيروت، دار الملاك، ط٢، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٤٩- للإنسان والحياة، إعداد: شفيق الموسوي، بيروت، دار الملاك، ط٣، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٥٠- مسائل عقائدية، بيروت، دار الملاك، ط٢، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٥١- أمراء وقبائل.. خفايا وحقائق لبنانية، إعداد: نجيب نور الدين، بيروت، رياض الريس، ٢٠٠١م.

٥٢- محاضرات حول الصداقة والصديق من خلال القرآن الكريم والسنة الشريفة، بيروت، دار الملاك، ط٢، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٥٣- حوارات في الفكر والسياسة والاجتماع، إعداد: نجيب نور الدين، بيروت، دار الملاك، ط٢، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٥٤- مفاهيم إسلامية عامة، بيروت، دار الملاك، ط٣، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٥٥- في رحاب دعاء مكارم الأخلاق، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

٥٦- فقه الشركة، إعداد: محمد الحسيني، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٥٧- شهر رمضان رحلة الإنسان إلى الله، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٥٨- التوبة عودة إلى الله، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٥٩- الأخلاقيات الطبية وأخلاقيات الحياة، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٦٠- رسالة الحج، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

٦١- تقوى الصوم، إعداد: علي رفعت مهدي، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

٦٢- في رحاب دعاء الافتتاح ودعاءي استقبال ووداع شهر رمضان المبارك، بيروت، دار الملاك، ط٣، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٦٣- في رحاب أهل البيت، إعداد: شفيق الموسوي وسليم الحسني، بيروت، دار الملاك، ط٢، جزءان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٦٤- علي ميزان الحق، إعداد: صادق اليعقوبي، بيروت، دار الملاك، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

٦٥- المدنس والمقدس.. أمريكا وراية الإرهاب الدولي، بيروت، رياض الريس، ٢٠٠٣م.

٦٦- الإسلام ومنطق القوة، بيروت، دار الملاك، ط٤، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

٦٧ - على طريق الأسرة المسلمة، بيروت، دار الملاك، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

٦٨- دنيا المرأة، حوار: سهام حمية، إعداد: منى بليبل، بيروت، دار الملاك، ط٥، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٦٩- فقه القضاء، إعداد: حسين الخشن، بيروت: دار الملاك، جزءان، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، الجزء الثاني، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٧٠- رسالة إلى المغتربين، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٧١- نظرة إسلامية حول عاشوراء، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٧٢- على ضفاف الوصية، إعداد: جعفر فضل الله، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٧٣- من أجل الإسلام، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٧٤- الحركة الإسلامية ما لها وما عليها، إعداد: نجيب نور الدين، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٧٥- صلاة الجمعة.. الكلمة والموقف، إعداد: المركز الإسلامي الثقافي، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٧٦- قضايانا على ضوء الإسلام، بيروت، دار الملاك، ط٨، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٧٧- الزهراء القدوة، إعداد: حسين الخشن، بيروت، دار الملاك، ط٣، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٧٨- دنيا الطفل، إعداد: نبيه محيدلي، بيروت، دار الملاك، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٧٩- رسالة الرضاع، إعداد: محمد أديب قبيسي، بيروت، دار الملاك، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٨٠- كتاب الصوم، إعداد: مكتب الاستفتاء، بيروت، دار الملاك، ط٤، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٨١- مسائل في الحج، إعداد: مكتب الاستفتاء، بيروت، دار الملاك، الجزء الأول، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، الجزء الثاني ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، الجزء الثالث ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٨٢- مع روحانية الزمن.. شرح أدعية أيام الأسبوع، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٨٣- في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي، بيروت، دار الملاك، ط٣، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٨٤- فقه الشريعة، بيروت، دار الملاك، ثلاثة أجزاء، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.

٨٥- أحكام الشريعة، بيروت، دار الملاك، ط٣، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٥م.

٨٦- البلوغ.. بحث علمي فقهي، إعداد: جعفر فضل الله، بيروت، دار الملاك، ط٣، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

٨٧- وطن ممنوع من الصرف، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

٨٨- خطاب المقاومة والنصر، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

٨٩- فقه الطلاق وتوابعه، إعداد: محمد أديب قبيسي، بيروت، دار الملاك، الجزء الأول، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٩٠- فقه الحج، إعداد: عبدالهادي فرحات، بيروت، دار الملاك، الجزء الأول، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٩١- فقه الأطعمة والأشربة، إعداد: محمد أديب قبيسي، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٩٢- مناقشة هادئة لأفكار بابا الفاتيكان، إعداد: المركز الإسلامي الثقافي، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٩٣- عن سنوات ومواقف وشخصيات، إعداد: منى سكرية، بيروت، دار النهار، ٢٠٠٧م.

٩٤- الرسول الداعية، بيروت، المركز الإسلامي الثقافي، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٩٥- نداءات للوطن والأمة، بيروت، المركز الإسلامي الثقافي، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٩٦- دليل مناسك الحج، بيروت، دار الملاك، ط٣، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٩٧- استفتاءات في الحج، إعداد: مكتب الاستفتاء، بيروت، دار الملاك، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٩٨- المسائل الفقهية، بيروت، دار الملاك، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

٩٩- في رحاب دعاء كميل، بيروت، دار الملاك، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

١٠٠- إشراقة العقل، بيروت، دار الملاك، خمس حلقات، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

١٠١- أيها الأحبة، إعداد: يوسف عباس ومحمد عمير، بدون ذكر الناشر، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

١٠٢- الميسر في أعمال الحج والعمرة، إعداد: المكتب الشرعي، بيروت، دار الملاك.

١٠٣- تأملات في آفاق الإمام موسى الكاظم، بيروت: دار التعارف.

١٠٤- اتجاهات وأعلام.. حوارات فكرية في شؤون المرجعية والحركة الإسلامية، إعداد: المركز الإسلامي الثقافي، بيروت، دار الملاك.

١٠٥- آفاق إسلامية، بيروت، دار الزهراء.

١٠٦- رسالة التآخي.. تأملات في داخل السيرة النبوية على طريق الأسرة المسلمة، بيروت، دار الزهراء.

١٠٧- دور المساجد في بناء الأمة وتأصيل وحدتها، دمشق، دار التآخي.

الحركة الإسلامية
هموم وقضايا

تأليف

السيد محمد حسين فضل الله

طُبِع لأول مرة في عام (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

وبعد..

لا تزال الحركة الإسلامية تعيش الصراع الحادّ مع القوى الكافرة والضالّة والمستكبرة باعتبارها الحركة المنفتحة على الإسلام الحركي في خط العقيدة التوحيدية، والرسالية المتحركة، والمنهج الشامل، والإنسانية الباحثة في كل مرحلة عن آفاق الإبداع الفكري والروحي والعملي من أجل أن ترتفع بالحياة إلى رحاب الله والمواجهة المتحدية التي تطلق التحدي فكرًا وحركة وعمقًا وامتدادًا، وترد التحدي بمثله، فليست رد فعل لحركة الآخر، بل هي فعل في وعي الإنسان وفي قلبه وروحه وحياته كلها.

وهكذا بدأنا نلاحظ كيف أطلق الاستكبار في الداخل والخارج الكفر الثقافي، والضغط الإعلامي، والحصار السياسي، والحرب الاقتصادية من أجل أن يخنق الصحوة الإسلامية في عيون المسلمين، ويعطل مسيرة الإسلام الحركي بمختلف وسائله، بحيث استطاع أن يحاصرها من مواقع إسلامية ثقافية وسياسية على أساس إطلاق المفاهيم الضبابية الغائمة في حديثه عن الرفق والعنف، والاعتدال والتطرف، والمثالية والواقعية، وعن السلبية في علاقة الدين بالسياسة وارتباط المسجد بالواقع.

وبدأت الحملة العدوانية المتعددة الجوانب والأبعاد تضغط على الحركيين من المسلمين في أكثر من بلد إسلامي تحت عنوان الحرب على الأصولية الإسلامية، باعتبارها حركة عنف في الوسائل والأهداف ونهجًا فكريًّا وسياسيًّا ينطلق من إلغاء الآخر.. حتى إن الديمقراطية التي يتحدث عنها الاستكبار العالمي، والعلمانيون المثقفون كمنهج يحترم إنسانية الإنسان كخيار وحيد للحضارة والتقدم والإبداع، حتى إن هذه الديمقراطية لا تمثل لدى هؤلاء شيئًا إذا وصل الإسلاميون من خلالها إلى الثقة الشعبية الكبيرة التي تتحرك بهم للوصول إلى حكم الإسلام، فبدؤوا يتحدثون عن الديمقراطية التي تلغي الديمقراطية باعتبار أن الخيار الإسلامي يرفض الحريات ويقف ضد التعددية الفكرية والسياسية تمامًا كما لو كانت الديمقراطية مسألة إطار ومضمون، لا مجرد إطار يفسح المجال لأي مضمون ينطلق به الاختيار الشعبي.

لقد بدأت الحملة ضد الإسلام الشعبي على أساس أن هذا الاستفتاء لا قيمة له إذا كانت نتائجه في غير مصلحة المستكبرين والعلمانيين، حتى إننا رأينا تحالفًا بين القوى المستكبرة والقوى العلمانية التقدمية التي كانت شعاراتها السياسية تواجه الاستكبار، وكانت تتهم الإسلاميين بالوقوف مع الاستكبار العالمي في حركتهم السياسية حتى إذا وقف هؤلاء في مواجهة الاستكبار وانطلقوا في حركة المطالبة بالحرية والعدالة حسب مفهومهم الثقافي تحولوا إلى مواجهتهم؛ لأن المسألة أن هؤلاء لا يريدون الإسلام الرجعي- كما كانوا يعتبرون- ولا يريدون

الإسلام المتحرك في خط الحرية والعدالة؛ لأنهم لا يؤمنون بالتعددية الفكرية والسياسية إذا كانت نتائجها الإيجابية في الدائرة الإسلامية، ويريدونها إذا كانت في دائرتهم.

إن الواقع الذي يعيشه الإسلام الحركي في مواجهة القوى العالمية المضادة في المواقع الفكرية والسياسية والأمنية من خلال المعارك الجديدة المفتوحة على أكثر من جانب، والمتحركة مع أكثر من عاصفة؛ يفرض علينا- كإسلاميين حركيين- أن نواجه قضايا الحركة الإسلامية في تصويب حركتها، وتثبيت مواقعها، وتأصيل مفاهيمها وإثارة الحوار مع كل الذين يريدون الحوار في الداخل والخارج والنفاذ إلى كل الثغرات المفتوحة في جدار الاستكبار العالمي والتأكيد على دلالات المصطلحات في القاموس السياسي الإعلامي؛ لأن بعض المصطلحات تعني في اللغة العربية مفهومًا إيجابيًّا ولكنها تعني في المصطلح الغربي مفهومًا سلبيًّا كما نلاحظه في كلمة الأصولية التي توحي- في اللغة العربية- الحركة التي تنطلق من الأصول والجذور في منطلقات الفكرة، بينما توحي في المفهوم الغربي حركة العنف والإلغاء في مواجهة الآخر، مما لا يتناسب مع خط المسلمين الحركيين الذين ينطلقون من الكلمة السواء ويتحركون في الساحة من أجل الدفع بالتي هي أحسن، والجدال بالتي هي أحسن، وقول التي هي أحسن، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والبحث عن اللقاء في مواقع الحوار حتى يحولوا أعداءهم إلى أصدقاء.

إن على الإسلاميين أن يفكروا في هذه المرحلة التي يواجهون فيها حربًا عالمية ثقافية وسياسية وأمنية واقتصادية أن ينطلقوا في حركة نقد للذات حتى لا يسقطوا تحت تأثير أخطائهم، وفي حركة وعي للواقع حتى لا يقعوا في خطأ الحسابات للأعداء والأصدقاء والقضايا السياسية المتحركة في ساحة الصراع وفي عودةٍ إلى أصالة المفاهيم الإسلامية بعيدًا عن مفاهيم التخلف والجهل التي علقت بالإسلام من خلال العصور المظلمة.

وفي ضوء ذلك، ربما كنت أجد في هذا الكتاب حاجة في هذه المرحلة، كما كان حاجةً في المرحلة التي كتبت فيها أبحاثه آملاً أن ينطلق الإسلام معه في عملية فكر وحوار ونقد؛ لأن الحركة الإسلامية تحتاج إلى أكثر من إثارة فكرية وعملية؛ لأن ذلك هو الذي يكشف لها معالم الطريق، ويحدد لها اتجاهات الريح، ويثبت لها مواقع أقدامها في المسيرة الطويلة ويمنحها الثبات في حالات الاهتزاز، ويمنعها من الانحراف، ويبقى معها في الخط المستقيم.

والله أسأل أن ينفعني به، ويحرك به بعض ما تحتاجه المسيرة من فكر ووعي وانطلاق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٢٣ شوال – ١٤١٣هـ

محمد حسين فضل الله

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

وبعد..

هذه كلمات لم تكتب في وقت واحد، ولم تنطلق من فكر تجريدي ولكنها كُتبت في أوقات متلاحقة، ومن موقع الحركية الإسلامية في صعيد الواقع الذي عاشته الحركة الإسلامية في طبيعتها الذاتية، وفي الأجواء المحيطة بها، وفي التحديات الصعبة التي تواجهها على مستوى الشكل والمضمون.

وقد تكون قيمتها– فيما تعالجه من قضايا– أنها كانت تتحرك من خلال المشاكل التي أثارتها التعقيدات الفكرية والعملية التي عاشت في ساحة الحركة الإسلامية في مواقع الصراع الداخلي في اتجاهاتها المتنوعة، وفي مواقع الصراع الخارجي في الاتجاهات غير الإسلامية من تيارات وقوى وأحزاب.

فقد نلاحظ أن الإسلاميين الحركيين لم ينفتحوا على الكثير من التحديات الصعبة من منطلق الواقع ليواجهوها بطريقة واقعية، بل انفتحوا عليها من منطلق الأفكار العامة الكلية، من منطلق المثال انطلاقًا من المفاهيم الأخلاقية التي

كانوا يختزنونها في وعيهم الفكري الإسلامي من دون التوقف عند التحفظات والاستثناءات، مما جعل القيمة الأخلاقية أو الروحية الإسلامية تمثل حاجزًا بين الإسلام وبين الانطلاق بعيدًا في مواقع الصراع؛ لأنه لا يملك الوسيلة الضاغطة على تلك المواقع، المتناسبة مع المبادئ العامة التي تحكم ذهنية المسلم الحركي في أخلاقياته وروحياته.. وهذا هو الذي جعل من عنوان الواقعية والمثالية في العمل الحركي الإسلامي عنوانًا حيًّا يحتاج إلى إثارة البحث حوله من أجل تحديد آفاق الحلال والحرام في حركة الإنسان في الواقع لتكون له الحرية في ممارسة دوره في خط المواجهة مع الآخرين بالطريقة التي لا يبتعد بها عن خط الإسلام الذي يلتزمه في حركته.

وقد تتحرك المسألة الحركية في الإسلام، في التزاماتها الفكرية أو الشرعية أو العملية من خلال مضمون معين بالأوضاع المألوفة في العرف الاجتماعي أو في المرحلة السياسية، مما يجعل الطابع الذي تأخذه في ميزان التقويم السياسي، يمثل طابع التطرف الذي قد لا يستطيع الثبات في صعيد الواقع؛ لأنه لا يتناسب مع الأجواء المسيطرة على الساحة كلها، بينما يمثل الانسجام مع خصائص الواقع وعناصره الطبيعية لونًا من ألوان الاعتدال الذي تتوازن فيه الأوضاع والخطوات والمواقف، وتملك — من خلال ذلك — الكثير من فرص البقاء والامتداد، وهذا هو الذي جعل من الحديث عن الحركة الإسلامية بين التطرف والاعتدال حديثًا مهمًّا في سلامة الموقف في الواقع الإسلامي الحركي.

أما الحديث عن السرية والعلنية، فهو حديث عن الظروف الموضوعية التي تفرض العمل السري تارة، كما تسمح بالعمل العلني أخرى ليكون الأسلوبان في العمل الحركي منسجمين مع طبيعة الشرعية لهذا الأسلوب أو ذاك في الخط الإسلامي العملي من دون أن تمثل السرية في ظروفها أية سلبية في الموقف والحركة والمنهج.

ويبقى للحديث عن الانفتاح والانغلاق في علاقة الإسلاميين بغيرهم الأهمية الكبرى في الحركة الإسلامية التي يحاول الحديث أن يؤكد على الانفتاح على كل الآخرين في نطاق المصلحة الإسلامية العليا، كخيار وحيد لحيوية الانطلاق نحو الحياة من الباب الواسع؛ لأن الانغلاق لا يحمي حركةً، بل يحولها إلى سجن لأصحابها ولأهدافها التي لا تملك الوصول إلى مواقعها الطبيعية.

وهكذا يمتد الحديث في موضوع الإيجابية والسلبية في الحركة الإسلامية، فقد يفهم بعض الناس في حركة الإسلام في الحياة أن الرفض هو الطابع العام للتحرك الإسلامي أمام القضايا المطروحة من الآخرين على مستوى الواقع الموضوعي الخاضع في عناصره لتيارات بعيدة عن الإسلام.. مما يفرض على الباحثين الإسلاميين أن يعالجوا هذا الموضوع بطريقة تجد في الإيجابية بشكل متحرك أسلوبًا لا يبتعد عن الإسلام.

وقد يلتقي العاملون من أجل الإسلام بالمشكلة المذهبية التي تمثل عنوان التنوع والاختلاف في المسألة الفكرية والفقهية في الإسلام فكيف تنطلق الدولة

على شاكلتها؟ هل هي صورة هذا المذهب أو ذاك؟ وكيف تضمن حقوق أهل المذاهب الأخرى إذا ارتكزت الدولة الإسلامية على قاعدة مذهبية معينة.. وهذا هو الموضوع الذي أثاره عنوان «الدولة الإسلامية بين الإسلامية والمذهبية».

وإذا كانت الوطنية هي العنوان الكبير الذي تمثله الدولة التي يختلف فيها انتماء الناس الفكري والديني والقومي معها من خلال وجهة نظر معينة لا تبتعد في عناصرها الحية عن المفهوم الإسلامي في الدوائر المتنوعة التي تحكم حياة الإنسان في الواقع؟

وهذا ما أثارته مسألة الوطنية في وجهة نظر إسلامية.

وتأتي مسألة الحزبية والتنظيم كأسلوب للعمل السياسي المرتكز على قاعدة فكرية معينة في مواجهة فكرة حزب الله والمرجعية.

وهنا يبرز السؤال:

كيف نعالج الواقع الإسلامي بين خط المرجعية وخط التنظيم، ومن الذي يتولى عملية التغيير حزب الأمة أو حزب الله الذي يصطلح عليه بكلمة أمة حزب الله؟

فقد نشأ هناك صراع فكري وسياسي بين هذين الأسلوبين في العمل.

وهذا ما عالجته فصول متعددة في هذه التأملات.. وهناك مسائل أخرى فرعية فيما هو عنوان العمل الإسلامي أمام العناوين الأخرى العامة، وما إلى

ذلك مما تفرضه طبيعة الظروف المتنوعة والمتغيرات المتحركة في العمل الإسلامي السياسي في أساليبه وعناوينه وأخلاقياته وجذوره.

ولا يزال الكثير من علامات الاستفهام التي تفرضها طبيعة التطور التي يتحرك فيها العمل السياسي في منطق الثورة ومنطق الدولة، وقضية الرفق والعنف، والإرهاب والمقاطعة السياسية أو الاقتصادية وغير ذلك مما يحتاج إلى تفكير وتنظير وبحث وتدقيق بشكل تفصيلي؛ لأن كثيرًا من هذه المسائل لم يقع موردًا للبحث، مما أدى إلى ضياع الأوضاع الإسلامية بين هذا المنهج أو ذاك؛ لأن فقدان النظرية الإسلامية في بعض هذه الأمور، أدى إلى الأخذ بنظريات الآخرين في الأسلوب والمنهج، فكان ذلك سببًا في انطلاقة بعض الحركات الإسلامية بأساليب كافرة أو ضالة.

لقد حاولت أن أكون موضوعيًّا فيما كتبت، بالرغم من أن الظروف التي كتبت فيها هذه الكلمات كانت عاصفةً تنطلق في أجواء الرياح العاتية والزلازل الرهيبة، وقد أثارت بعض هذه الموضوعات الكثير من الجدل والتهويل مما اعتادته الساحة الإسلامية في الأفكار غير المألوفة التي تثير المشاعر والحساسيات الانفعالية.

ونحن لا نزال نرجو من الباحثين المزيد من النقد الموضوعي والمناقشة العملية الهادئة؛ لأن ذلك هو السبيل إلى بلورة هذه الموضوعات، وتأصيل هذه الأفكار التي كان عنوانها الكبير «تأملات في مسيرة العمل والعاملين» لتتحول في هذا

الكتاب إلى «الحركة الإسلامية.. هموم وقضايا» راجيًا أن أجد لدى إخواني المزيد من التأملات الناقدة، والأبحاث الجديدة، ولعل قيمة هذه التأملات أنها تصلح أن تكون عنصرًا من عناصر الإثارة الفكرية التي تخطط للمنهج الفكري الذي يحاول إبداع نهج لحركة إسلامية جديدة تعمل بكل قوة ووعي وتدقيق من أجل أن يكون الإسلام قاعدة للفكر والعاطفة والحياة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

محمد حسين فضل الله

بيروت

١٠ جمادى الثانية – ١٤١٠هـ

كيف نواجه قضية التغيير في الأمة في مواجهة تحديات القوى المضادة؟ (أ)

- أسلوب الهدوء والمرحلية لبناء القاعدة الشعبية

أم أسلوب التحدي والتوتر الروحي والفكري؟

- الهدوء والمرحلية

مرونة وتحد مخطط وحماية للقضية.

- التحدي وإثارة التوتر

يوحي للأمة بالأصالة وينقلها إلى الأمام.

- الأسلوب التقليدي

في المواجهة: الهدوء والمرحلية.

كيف نواجه قضية التغيير في الأمة في مواجهة تحديات القوى المضادة؟ (أ)

كيف يمكن أن يواجه العاملون للإسلام قضية التغيير في حياة الأمة؟ وكيف يتحركون أمام التحديات الصعبة، المتمثلة في القوى المضادة التي تمارس مختلف الضغوط المادية والمعنوية ضد عملية التغيير؟

الأسلوب التقليدي في المواجهة: الهدوء والمرحلية

هل يواجهون ذلك بالأساليب التقليدية المألوفة التي ترتكز على أساس سياسة النفس الطويل فيما تتحرك به من خطوات عملية لتربية الأفراد والجماعات من أجل القاعدة الشعبية الصلبة في هدوء وسلام ليتسنى للعاملين تعميق المفاهيم والأفكار الأصيلة في ذهنية الأمة، فتواجه التحديات من مواقع العمق والقوة، لا من مواقع الضعف والسطحية، وبذلك فإن العنف لا يساعد على الوصول إلى النتائج السليمة المطلوبة؛ لأنه يشغل الساحة عن عملية البناء الذاتي التغييري، ويعطل عملية النمو فيما يثيره من أجواء الحماس والانفعال التي تعمل على إثارة العواطف بدلاً من إثارة الأفكار... هذا أولاً.

أما ثانيًا: فلأنه يعرض الحركة للاهتزاز وهي لا تزال في طور النمو، ويجعلها في موقع الخطر فيما تواجهه من القوى المضادة التي ستحاول الضرب بقسوة للتخلص من الحركة بسرعة، قبل أن تستكمل قوتها، وتتحول إلى خطر محقق

على الواقع الخاضع لتوجيه تلك القوى، بينما تبتعد الأساليب الهادئة، بالساحة عن خط المواجهة، في عملية إيحائية مرنة بأنها لا تمثل خطرًا كبيرًا على حركة الواقع المضاد، مما يبعد عنها مواقف التحدي في أولويات الصراع لدى القوى المضادة.

ربما يفكر بعض العاملين بذلك، وقد يعتبرها البعض منهم خاضعة لأسلوب المراحل في عملية التغيير.. فيما يقرره من تقدم المرحلة الفكرية على المرحلة السياسية والجهادية، مما يجعل من مسألة التحرك الهادئ، مسألة تتصل بالمنهج العملي في خط السير، وقد يستوحي البعض هذا الاتجاه المسالم الذي يبعد الحركة عن الأضواء من الأحاديث التي تؤكد على «التقية»، في أجواء الحكم الجائر، كوسيلة واقعية من وسائل حماية الفكرة وسلامة العمل، وقد يتطرف هؤلاء فيؤكدون على تحريم أية خطوة تؤدي إلى إزهاق النفوس، مهما كانت النتائج، ومهما كانت المبررات التي تفرض ذلك؛ لأن قضية الدماء مما ينبغي للإنسان أن يحتاط فيها؛ لأنها ترقى إلى مستوى الأهمية الكبيرة عند الله.. وهكذا يحاول هؤلاء أن يبتعدوا بالساحة عن خط المواجهة لتظل بعيدة عن أجواء التحديات، فلا تخيف أحدًا ولا تخاف من أحد.. ليتم لها ممارسة عاداتها بهدوء، وإلقاء مواعظها بسلام.

أسلوب التحدي وإثارة التوتر الروحي والفكري

ولكن هناك وجهة نظر أخرى تؤكد على مواجهة الموقف بأسلوب التحدي الذي يحرك القضية، في هذا الاتجاه من ناحية المبدأ، ويحاول أن يدخل دائمًا في عملية موازنة بين الظروف الموضوعية المتوافرة في الساحة، وبين النتائج السلبية

والإيجابية للحركة في خط المواجهة، ويرى أصحاب هذه النظرة، في هذا الموقف، عنصرًا حيًّا من عناصر استمرار البقاء للإسلام، في حياة الناس من الداخل والخارج؛ لأنه يثير في الساحة حالة التوتر الروحي والفكري التي تجعل الإنسان مشدودًا إلى الهدف، في شعور حي بالمسؤولية المتحركة، في أكثر من اتجاه، وفي قلق إيجابي متوتر، يرصد خلفيات الواقع، بنفس القوة التي يرصد فيها ظواهره؛ لأنه يعيش الإحساس بالخطر فيما يكمن في خفايا الأشياء، كما يعيشه فيما يواجهه من أخطار حقيقية بارزة، وبذلك تتحول طاقاته إلى حركة دائمة تتحرك في كل الاتجاهات لتثير فيه الوعي والحركة والتجدد والعمق والامتداد؛ لأن حالة الاسترخاء، تحول الإنسان إلى طاقة كسولة باردة، لا توحي له بشيء، إلا بالمزيد من الجمود، الباحث أبدًا عن الأعذار والمبررات، في آفاق حب السلامة والبعد عن عوامل الخطر، مما يجعل الإنسان في حالة موت روحي يتنفس بأنفاس الحياة، ولكن من دون حياة.

الحضور الدائم للعقيدة كهمّ يومي

ويضيف هؤلاء إلى هذا العامل الذاتي في مسألة بناء الشخصية الإسلامية في ساحة الصراع عاملاً آخر، وهو الإحساس بالحضور الدائم للعقيدة في حركة الإنسان في الحياة، مما يجعله يعيش معها في أفكاره ومشاعره، وفي علاقاته ومطامحه، فتتحول في داخل ذاته إلى هم يومي متحرك يراقب الأشياء من خلاله، ويحدد موقفه منها على أساسه، ويواجه أخطارها ومشاكلها من مواقعه، وبذلك

تنفذ العقيدة إلى كيانه من خلال كل النوافذ التي يطل منها على واقع الحياة من حوله، الأمر الذي يجعل من العقيدة شيئًا يتجذَّر في الذات بدلاً من أن تكون مجرد شيء يختفي في زاوية محدودة من زوايا الفكر، وربما نستوحي ذلك من الكلمة المأثورة عن الإمام عليّ(ع): «ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله خلفه «أو معه»»، وربما رأى البعض، أن الأجواء العبادية فيما يمارسه الإنسان من صلاة وصوم ودعاء هي التي يمكن أن تحقق للإنسان المسلم هذا الحضور الدائم للعقيدة في ذاته؛ لأنها تجعله في حالة لقاء روحي خاشع بالله في أغلب الأوقات، وهذا ما يجعلنا نلمس الروحية الصافية لدى المتعبدين أكثر ما نلمسها لدى العاملين في ساحة الصراع السياسي والجهادي.

الروحية الإيمانية وتحريك الأمة

ولكننا نثير أمام هذا الرأي ملاحظة مهمة، وهي أن الوعي الإسلامي للعبادة، يتمثل في هذا الشمول والامتداد في علاقة الإنسان بالحياة، وتحويلها إلى حركة خضوع وطاعة لله سبحانه فيما يأمره به وينهاه عنه مما يوحي بأن من الضروري للإنسان الذي يريد أن يعيش الروحية الإيمانية التي تفتح قلبه على الله، أن يعيش اللقاء بالله في ممارسة حية تتحرك فيها المعاناة والآلام في داخل حياته، مما يجعله يعبد الله في جراحه التي تنزف، وفي أوجاعه التي تتلوى، وفي همومه التي تتألم، وفي كل مشاكل الصراع مع قوى الشيطان في سبيل الله، وبذلك تتحول الروحية إلى روحية إيجابية تتحفز للتضحية، وتستهدف الشهادة، وتعمِّق الحاجة إلى رضا

الله لتغدو هاجسًا يوميًّا يلاحق كل مواطن رضاه في عملية تدقيق ومعاناة. أما الاقتصار على العبادة، والانعزال عن ساحة الصراع، فسيجعل من الروحية، روحية مريضة سلبية، ترى في العبادة حالة ذاتية تجريدية، لا تعرف من علاقتها بالله إلا مشاعر الحب الذاتي لله، وذلك هو ما لا يريده الإسلام من المسلم، فإنه يريد أن يجعل من الروحية عاملاً من عوامل تحريك الحياة بجميع أوضاعها وقضاياها، وتحويلها إلى ساحة اللقاء بالله، وعبادته في جميع شؤون خلقه.

الاسترخاء حالة خطرة

وهناك نقطة أخرى يثيرها هؤلاء، وهي أن القوى المضادة لا تتعامل مع قوى التغيير من خلال المواقف البارزة فحسب، بل تتعامل معها من خلال أجهزة المخابرات التي تحاول أن ترصد حركة القوى الموجودة في الساحة، ومدى تأثيرها في واقع الأشياء من الساحة، ومدى تأثيرها في واقع الأشياء من حولها لتتحرك في عملية تطويق متنوعة، تتنوع تبعًا لحجم النمو والتأثير، وبذلك فلن تكون عملية الاختفاء كفيلة بالحصول على الأمن المطلق، بل ربما تحاول أن تضرب ضربتها بالطريقة الخفية التي تجهز فيها على الفريسة من دون إثارة أية مشاكل من حولها، مما يجعل من حالة الاسترخاء تحت تأثير الشعور بالأمن، حالة خطرة؛ لأنها توحي للإنسان بالسلام، في الوقت الذي تحرك فيه كل نوازع الحرب من حوله.

وقد لا يقصد هؤلاء من إبقاء حالة التوتر حية في حركة العمل، إثارة الحالة الاستعراضية التي تحاول أن تطرح أوراقها في الساحة بطريقة بارزة أمام القوى المضادة، بحيث تسهِّل لها أمر الاطلاع على كل شيء، بل كل ما يقصدونه هو أن يظل العاملون في مواقع التحدي التي تثير التوتر الروحي الذي يجعل من الإنسان طاقة حية متحركة في كل اتجاه فيما يفكر به، وفيما يتحرك نحوه، وفيما يواجهه من أخطار من خلال ما يطلقه من تحديات نحو القوى المضادة.

التقية محاولة مرنة لحماية القضية

أما التقية، فليست حالة تجميد يتجمد عندها العمل ليسلِّم الساحة إلى حالة كسولة من الاسترخاء، بل هي تحويل للتحرك من دائرة الضوء إلى دائرة غائمة، لا توحي بشيء مما يتحرك في الداخل من نشاط فكري وسياسي وجهادي، ومحاولة مرنة لحماية القضية من الضغوط الشديدة التي قد تعطل حركتها، وتشل إرادة التقدم عندها، وعملية النمو في داخلها، وفي نطاق الأساليب الشرعية التي تحكم مسيرة للعاملين فيما يأخذون به، وفيما يدعونه من أعمال إلى تغيير الصورة تمامًا، وإفساد المبادئ في التصور والحركة، وإثارة مشاعر الخوف في داخل العاملين، بالمستوى الذي يشل فيهم إرادة المواجهة وطبيعة التحدي ليحولهم إلى كيانات مهزومة أمام حالات الخطر؛ لأن التقية إنما شرعت لحماية الإسلام من أخطار الخارج، فلا يمكن أن تكون وسيلة لتخريبه وتعريضه للأخطار التحريفية أو التجميدية من الداخل.

المرحلية تحدٍّ مخطط ومنظم

أما سياسة المراحل التي تعتمد خط النفس الطويل في الوصول إلى النتائج الحاسمة، فلا تعني تجميد المرحلة في أسلوب معين، بل تعني التعامل مع الظروف الموضوعية بطريقة واقعية لتتحرك القضية في المسار الطبيعي للأشياء الذي يربط النتائج بمقدماتها.

وليس معنى ذلك أن تنفصل المرحلة الفكرية دائمًا عن المرحلة السياسية، بل قد تفرض ظروف الساحة على العاملين الدخول في مرحلة الصراع السياسي إلى جانب الصراع الفكري في الأوضاع التي يشعر العاملون فيها أن التحديات السياسية المحيطة بهم لا تفسح لهم المجال في البعد عن ساحة المواجهة، وهكذا نجد التحرك الجهادي يتقدم ليواجه التحديات الصعبة التي تفرض المعركة على العاملين، بحيث لا يبقى لديهم أي خيار في عملية الابتعاد عنها.

إن المرحلية لا تعني الاسترخاء الفكري في مرحلة الفكر، بل تعني بداية التحدي الذي يثير التوتر في بداية الطريق، في عملية تخطيط وتنظيم، كما أن الاستسلام لحدود المرحلة، يبقى في نطاق الظروف الطبيعية التي تسمح للعاملين بالتخطيط الهادئ لأساليب التحرك، أما في الظروف الاستثنائية التي يعلن فيها الآخرون الحرب السياسية والعسكرية ضد الإسلام والمسلمين، فلابد من الدخول في المعترك لمواجهة الموقف بقوة وثبات.

التحدي: مفاجأة العدو وعدم الاستسلام

ولكن، كيف نفهم هذا التحدي الذي يتمثل في مواقف العاملين للإسلام في مواجهة القوى المضادة؟

هل يعني العنف الثوري الذي يحرك كل الطاقات الموجودة في الساحة، بطريقة انفعالية مثيرة، تحول الأمة إلى كتلة ملتهبة من المشاعر المتوترة التي تلاحق تلك القوى بمختلف الأساليب العنيفة لتثير حولها الأجواء العاصفة التي تحطم قوتها، وتهزم غرورها لتقودها إلى الاستسلام أو الفرار بعيدًا عن كل حسابات الخسائر في الأرواح وفي غيرها؛ لأن التفكير الثوري، لا يتحدث عن الأرقام السلبية في حركة الجهاد، لا سيما إذا كان الخط هو خط الإسلام الذي يوحي للإنسان بالشهادة التي لا تترك أي معنى لحسابات الخسارة، في مقابل الربح الكبير الذي يواجه الإنسان بالرضوان الإلهي في رحاب الجنة.

قد يفكر البعض بهذه الطريقة؛ لأنه يرى أن الوسائل الهادئة في المواجهة، ربما تغري العدو باستلام زمام المبادرة في عملية الهجوم، وتوجيه الضربات المتلاحقة التي تشل فينا القدرة على الوقوف، فضلاً عن التقدم إلى الأمام، وبذلك نفقد كل إمكانات الدفاع عن النفس، الأمر الذي يجعلنا في مواقع الهزيمة الساحقة.

بينما نجد في الوسائل العنيفة التي تطوقه من جميع الجهات، بعملية الهجوم على كل أهدافه بمختلف الأساليب خطوة متقدمة تدفعه إلى الوقوف في موقف الدفاع الذي يعطل في داخله إرادة الانتصار لتهزمه نفسيًّا من خلال المفاجَآت

التي لم يحسب لها أي حساب فيما خطط له وفيما حاول مواجهته.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن هذا الاتجاه في التحرك يبعد الأمة عن الاستسلام لبعض حالات الخدر السياسي الذي قد يحصل كنتيجة للتعامل مع قضايا الصراع بالطرق المألوفة التي يمكن للأعداء أن ينفذوا من خلالها إلى داخل حياة الأمة في مفاوضات ولقاءات ومشاورات قد توحي بالأمل الكاذب الذي يظل يلهث وراء كلمة مشجعة هنا، وحركة موحية هناك، حتى تتكامل المؤامرة التي تغطي على الكيان كله، أو تضعف فيه القوة الدافعة إلى صراع جديد.

وتلك هي الخطة التي يعتمدها الاستعمار في احتواء الثورة أو المعارضة، وذلك بإغراقها في الجزئيات والتفاصيل التي يدور حولها الجدل الفارغ بعيدًا عن القضية الأصيلة ليصير إلى تمييعها وتذويبها وإفراغها من مضمونها الحقيقي، مما يؤدي إلى النتائج الكاملة التي تستهدفها، في السيطرة على الساحة كلها من خلال رموزه الذين يختفون وراء ألف قناع وقناع.

إن إبقاء الأمة في حالة التوتر الدائم يفوت على الاستعمار الفرصة في اللعب على التناقضات الموجودة في داخلها؛ لأنه يجعلها في حالة حذر متحركة ومراقبة كقضية..

وملاحقة سريعة لكل الأوضاع والأشخاص والأحداث التي ينفذ منها العدو لتحقيق أهدافه الشريرة– وبذلك تستطيع أن تطبق على أكثر العوامل

السلبية التي تواجه قضية حركة الرسالة في الوصول إلى غاياتها الخيرة، في معركة الحق والباطل على أكثر من صعيد.

حالة طوارئ متحركة

وربما يجد هؤلاء المفكرون في هذا الاتجاه، الوسيلة الفضلى لتجميع كل فئات الأمة حول الهدف الواحد، وتطويق كل محاولة من قبل عناصر الفتنة لبث سموم الفرقة، باستغلال الأوضاع السلبية في الأمة لتفتيت وحدتها؛ لأن هذه الوسيلة تجعل الأمة في حالة طوارئ متحركة في كل اتجاه لمواجهة الخطر القادم من بعيد أو من قريب، مما يجعلها حساسة أمام كل الطروحات التي قد توحي بالعقل في ظاهرها، ولكنها توحي بالخبث والتعقيد في باطنها، فتسيطر عليها بالأسلوب الثوري، قبل أن تفرض نفسها على الساحة، كعنصر من عناصر القوة المضادة، وبذلك قد نستطيع تفويت الفرصة على عوامل الهزيمة من الداخل.

وعي الأمة لأعدائها

ويضيف هؤلاء إلى هذه النقاط نقطة أخرى، وهي التأكيد على وعي الأمة للفواصل التي تفصلها عن التيارات الأخرى الكافرة والضالة، وذلك من خلال ارتباط حركة الجهاد في ساحة الصراع، بالخط الإسلامي الذي يزداد وضوحًا في الداخل كلما اشتدت المعركة، وبذلك يتعمق الإحساس بالمعنى الذي يمثله الخط الآخر الذي يتبناه الفريق الآخر من خطر على قضية العقيدة والوجود،

وتتحول المسألة من قضية فكر مجرد، يناقش ويحاكم ويستنتج إلى قضية وجود ومصير، يدافع ويواجه ويهاجم.. وينتصر.

ولعل مثل هذه الروح الواعية الممتدة، لا تستطيع أن تحقق ذاتها، إلا في الأجواء الحادة التي تعطي للشخصية دورها وشعورها بأهميتها، وتعيدها إلى أصالتها؛ لأن التجربة دلّت على أن ما من شيء يوحي للأمة بالأصالة والتمايز والوضوح، ويؤكد لها شخصيتها ويعمق فيها الشعور بالانتماء، مثل ما توحي لها حالات التوتر الروحي والفكري والشعوري في ساحة الصراع، فإنها تنقلها خطوات سريعة إلى الأمام، وتختصر لها مسيرتها، بما لا تستطيعه في زمن طويل من أجواء الهدوء الذي يعيشه الفكر في مجالات الاسترخاء.

ولابد لنا- ونحن نقرر هذه النقطة- من الإشارة إلى أن الوصول إلى هذه النتائج الإيجابية المثيرة يفرض على أولي الأمر الذين يقودون المسيرة أن يتابعوا الموقف بطريقة مدروسة تحاول أن تستفيد من أجواء التوتر لتعمق للأمة وعيها بالقضايا الحية، في برنامج تربوي يربطها بالتفاصيل المهمة من خلال الأفكار العامة التي تحرك انطلاقتها في أجواء الإثارة؛ لأن ذلك هو الذي يجعل التجربة غنية بالمضمون الذي تمثله الفكرة بدلاً من أن يبقى الجو متحركًا في نبضات المشاعر، وخطرات الوجدان الذي لا يترك وراءه في حالات الانفصال عن جو التوتر، إلا الذكريات الطيبة التي لا توحي إلا بالشعر والأحلام.

كيف نواجه قضية التغيير في الأمة؟ (ب)

- وسائل التغيير

وأساليب الثورة تحددها قاعدة العمل الإسلامي.

- لابد من التوازن

في حركة العمل بين الدعوة والثورة.

- الصراع العنيف حالة طارئة

للدفاع عن الحركة وهناك أكثر من أسلوب.

- التحرك في خط

التوتر الهادف والمخطط لتحقيق النصر.

كيف نواجه قضية التغيير في الأمة؟ (ب)

الخط العملي والنقاط الواقعية

ربما كان الحديث عن مواجهة قضية التغيير في الأمة حديثًا في المطلق؛ لأنه كان يطرح مبادئ عامة بعيدًا عن التفاصيل فيما يحاول من إبقاء درجة التوتر في الأمة بشكل مستمر، ومواجهة القوى المضادة بالعنف الذي يحاصرها من كل جهة، وتوعية الأمة بالفواصل التي تفصلها في الخط الفكري عن الآخرين، وما إلى ذلك، وإبعادها عن حالة الخدر السياسي الذي يسلمها إلى الضعف والسقوط، واختصار المراحل في عملية تكثيف للمرحلة بدلاً من تحريكها في خطة تصاعدية رتيبة.

وقد لا يختلف المفكرون في هذه النقاط، كأهداف للساحة، وكشعارات للعمل، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه على الساحة هو: كيف نحرك الخط العملي؟ الذي يحولها إلى نقاط واقعية متحركة بدلاً من أن تبقى مجرد نقاط مضيئة في بدايات الطريق؟

تفجير المواقع وحرية التحرك

قد يفكر البعض بأن من الضروري أن تحول الساحة إلى مواقع متفجرة في كل اتجاه، وتمنعها من الاستقرار، فتثير فيها المشاكل الكامنة في الأعماق لتطفو

على السطح، ثم تبدأ الحركة في استيعاب الأرض لمصلحتك؛ لأنك- بذلك- تشغل الفئات الأخرى بهذه المشاكل التي تجعلها بعيدة عن مواجهتك والاصطدام بك، مما يمنحك حرية التحرك في أكثر من موقع، ولا فرق في ذلك بين حالة السلم وحالة الحرب؛ لأن إمكانات التفجير متوفرة في كلتا الحالتين، وإن كانت أدواتها مختلفة فيما تفرضه طبيعة كل منهما من مفردات واقعية على الأرض.

ولادة مشروع جديد

ولكن هناك وجهة نظر تقول: إنك لا تملك الساحة كلها، بل هناك أكثر من فريق يتحرك فيها من خلال وجودة الفاعل، وبذلك فإنك لا تملك حرية الحركة في داخلها. أما إذا استطعت أن تحصل على بعض الحرية، فلن تستطيع الحصول على النتائج الإيجابية لمصلحتك، بل ربما يرتد انفجارها عليك، وعلى أهدافك المستقبلية من خلال إغلاق الآخرين النوافذ التي تستطيع أن تهرب من خلالها إلى مواقع أخرى بعيدة عن خط النار. وقد تواجه— في حالات النجاة من ذلك— أنك لا تملك الأفق الذي يحقق لك الخطوة المتقدمة نحو أهدافك الكبيرة، إذ لا يكفي أن تدمر الآخرين، بل لابد لك أن تجعل ذلك وسيلة من وسائل التغيير الإيجابي للواقع على أساس ولادة مشروع جديد على أنقاض مشروع قديم، لا أن تكون المسألة خاضعة لشعار «عليّ وعلى أعدائي يارب..».

موقع الدعوة وموقع الثورة

وقد يثير البعض نقطة أخرى في الموضوع، وهي أن العمل الإسلامي يتحرك في موقعين؛ موقع الدعوة من أجل تغيير القاعدة الفكرية للإنسان، وموقع الثورة من أجل تغيير القاعدة السياسية للحياة من حوله، ولابد من إيجاد حالة توازن بين حركة العمل في الموقعين؛ لأن لكل واحد منهما مناخًا ومنهجًا وأسلوبًا قد يختلف عن الآخر، مما يخلق في بعض المراحل حالة ارتباك في الموقف، وربما تعيش الساحة في هذه المرحلة بعض الاهتزاز الذي يجعل الثورة تتحرك من دون فكر، أو يوحي للفكر أن يبتعد عن خط الثورة– وفي كلتا الحالتين، يخسر الإسلام موقعه الحقيقي الثابت في حركة الحياة؛ لأن الثورة عندما تتحرك بدون فكر، فستواجه فكرًا آخر بعيدًا عنها، في محاولة لاحتوائها ومصادرتها لمصلحة الاتجاه المضاد، كما نلاحظه في بعض الثورات التي انطلقت باسم الإسلام، ولكنها وقعت في قبضة الرأسمالية، أو الماركسية في نهاية المطاف؛ لأنها لم ترتكز على أساس المنهج الإسلامي الحركي في خط الثورة، بل ارتكزت على قاعدة من الفراغ الرهيب– إن صح التعبير– فلم تعرف الملامح الحقيقية التي تميز بين الحق والباطل في ميزان التقويم الدقيق للحركات والأساليب، أما إذا انطلق الفكر بعيدًا عن خط الثورة، فسيقع في قبضة التخلف عندما يبدأ في التجمد والانحسار عن الواقع ليتحول إلى حالة تجريدية تفكر في المطلق، أو تتحرك في الدائرة المغلقة، أو في الحلقة المفرغة بعيدًا عن الموقع الحي المتحرك الذي يغني الفكرة من خلال

التجربة الغنية بالمزيد من حركة الواقع المتنوع الحافل بألوان الأفكار، وبذلك تبدأ القوى المضادة لتفرض سيطرتها على الواقع الإسلامي الذي يبدأ في التقلص والانكماش لينتهي إلى كمية مهملة من الحياة التي لا تمثل شيئًا إلا ما تمثله الدمى المتحركة في متاحف الشمع.

نتائج الأساليب المطروحة

وفي ضوء ذلك، لابد لنا– فيما يقول هذا البعض– من دراسة النتائج السلبية والإيجابية للأساليب المطروحة في الساحة على مستوى الدعوة والثورة معًا لنتعرف المرحلة التي نستطيع أن نخطط لها من أجل تربية القاعدة الصلبة من جماهير الأمة، وطلائعها الواعية التي يمكن أن تواجه الرياح العاصفة من مواقع الأرض القوية، والأقدام الثابتة. فلا تتزلزل أمام أية ريح، ولا تهتز أو تضعف أمام أي تحدٍّ للموقف لتكون الفكر الذي يخطط ويحلل، والعين التي تراقب وترصد، واليد التي تمسك الأرض وتحفظها من الاهتزاز من أجل البدء بعملية البناء تمامًا كما هي تجربة الرسول الأعظم (ص) في حركة الدعوة التي سبقت مرحلة حركة الثورة في اتجاه بناء الدولة، فقد كان (ص) يجد من مصلحة الإسلام أن يخطط للنفاذ إلى القلوب والأفكار والمشاعر والأساليب في نهج واقعي حكيم، قبل أن يخطط للنفاذ إلى حركة الواقع في الحياة– وهكذا استطاعت حركة الدعوة في بناء القاعدة، واكتشاف الأرض، وصنع الأجواء أن تقود الخطى الثابتة في مواقع الفكر والروح إلى أن تنطلق بعيدًا في خط الثورة، وقد يحتاج العاملون– في هذا

الاتجاه- إلى المزيد من الصبر والمعاناة وتحمل الآلام من أجل التغلب على كل المشاعر السلبية المنطلقة أبدًا من نزف الجراح، وأنين الأحزان والآلام، لئلا يؤدي ذلك إلى السقوط السهل أمام التحديات.

عملية الهجوم وعملية الدفاع

أما إذا فرضت المعركة، فلابد لنا من مواجهتها بالطريقة التي لا تلغي المرحلة في نطاقها الموضوعي، بل تؤكدها لتعطي الموقف حجمه الطبيعي في اعتبار الصراع العنيف حالة طارئة تدخل في أجواء الدفاع عن حرية الحركة من أجل الدعوة في تغيير المسار العملي لاتجاه جديد، قبل أن يخطط المهندسون للطريق التي يسلكها العاملون.

إن هناك فرقًا بين أن تدخل الحرب من خلال التخطيط لها بطريقة مستقلة، كقاعدة للانتقال إلى عالم جديد، وإسقاط كل الطروحات الموجودة في الساحة من أجل استكمال عملية التنفيذ لتكون حركتك نهاية المطاف في المواقع المتحركة نحو التغيير، وبين أن تدخلها لمواجهة مخططات الآخرين في محاولة التحضير لهزيمتك في بداية الطريق، حتى لا تفرض فكرك في الساحة، ولا تبني الحياة على طريقتك في التخطيط.

إنه الفرق بين عملية الهجوم وبين عملية الدفاع، اللتين تتفقان في الموقف الحاسم الذي يفرض المواجهة عليك، ولكن الأولى تطرح نفسها كحركة فعل

متحرك من موقع الخطة، بينما تطرح الثانية نفسها من موقع رد الفعل لاعتداءات الآخرين لكي تمنع هؤلاء من إيقاف حركتك عن التقدم.

وهذا هو ما نريد أن ندرسه في حركة الإسلام في الحياة لنتعرف الساحة التي تحتاج إلى حركة الدعوة من أجل إنضاج الثورة في الداخل، والساحة التي تحتاج إلى حركة الثورة من أجل تحويل الدعوة الناضجة في الفكر والروح والشعور إلى واقع حي يشمل كل حياة الإنسان في تطلعاته الفكرية وآفاقه الروحية، ومواقفه العملية.

الدقة في الخط الشرعي والتمييز بين الذات والرسالة

وقد يطرح بعض الناس في هذا المجال موضوع الدقة في ملاحقة الخط الشرعي للحركة، فقد لا يكفي أن تجد الفرصة سانحة للتقدم الواقعي للحركة في هذا الموقع أو ذاك، بل لابد لك من أن تضمن خضوع الفرصة للحكم الشرعي الذي يحكم الموقف، لئلا ينحرف خط التحرك عن خط النهج.. وبذلك تواجه حالة ربح للفرصة في مقابل هزيمة للفكرة، مما يجعلك مهزومًا فيما تخطط له من خلال كونك منتصرًا فيما وصلت إليه.

وهذا هو ما نواجهه في الكلمة المأثورة عن أمير المؤمنين علي (ع)، وفيما روي عنه: «قد يرى الحوّل القلَّب وجه الحيلة ودونها حاجز من أمر الله ونهيه فيدعها رأي عين وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين».

فقد كان الكثيرون يريدون أن يغروه بالفرص السانحة، والحيل الجاهزة التي تدفعه إلى المزيد من الأرباح على مستوى النجاح في الحكم في ساحة الواقع، ولكن على حساب الانحراف عن خط الله فيما يأمر به أو ينهى عنه، وهذا هو الذي يواجه فيه الإنسان الصراع العنيف بين مصلحته الذاتية على مصلحة الرسالة، فيحاولون الإيحاء له بأن ذلك هو السبيل إلى تحقيق غايات الرسالة في نهايات المطاف؛ لأن قوته الجديدة ستكون قوة لرسالته في المستقبل، مما يجعل من الانحراف عنها في طريق تحصيل القوة الذاتية حالة طارئة لا تلبث أن تزول أمام النتائج النهائية للحركة.

وربما غفل هؤلاء عن الحقيقة الواقعية التي تقول أن الإخلاص للذات في المرحلة الأولى سوف يترك تأثيره على خط السير في المراحل التالية؛ لأن لكل مرحلة تحدياتها الفكرية والعاطفية والعملية التي يقف فيها الإنسان في مواقع الصراع بين الذات وبين الرسالة، مما يجعل من تبرير الانحراف في البداية وسيلة لتبريره في الخطوات السائرة نحو مشارف النهاية لتجعل منه قاعدة للحركة، ووجهًا للموقف.

وقد لا تكون المسألة في بعض المواقف شأنًا ذاتيًّا بالمعنى الشخصي للذات، فلا يكون هنا شخص يراد نجاحه، بل يكون لدينا حزب، أو مؤسسة سياسية أو اجتماعية، يراد الوصول بها إلى موقع متقدم في السلَّم السياسي أو الاجتماعي، مما قد يفرض نوعًا من الأساليب، أو الوسائل المثيرة التي قد تخلق حالة حماسية

أو انفعالية تثير الجماهير بعيدًا عن مصلحتها الحقيقية على مستوى الحاضر أو المستقبل؛ لأن الغاية هي مصلحة المؤسسة كإطار للتحرك، لا مصلحة الناس في عمق قضاياهم المصيرية.. وذلك فيما تتميز به الحالات الاستعراضية من زهو وخيلاء في مواجهة الآخرين في حالاتهم الاستعراضية على أكثر من صعيد.

إننا نؤكد على دراسة الخطة الشرعية من خلال مفردات الحكم الشرعي الكلية والجزئية لنستطيع إحراز الطاعة لله فيما نتقدم به أو نتأخر.. فلا نشعر — في الطريق، إلا بما يشعر به الجندي في المعركة فيما ينفذه من أوامر القيادة بعيدًا عن مزاجه الذاتي، ومصلحته الشخصية، أو تفكيره الخاص ليكون الهدف هو الله، لا الشخص، كما توحي به كلمة الإمام علي (ع) في مخاطبته لأصحابه الذين كانوا يفكرون بوحي الذات بعيدًا عن وحي الله: «ليس وأمري وأمركم واحدًا إنني أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم..».

تقييم الساحة والحذر المطلوب

وربما كان علينا في هذا المجال— كمسؤولين— أن نستعمل الدقة في تقييمنا للحكم الشرعي من خلال تقييمنا للساحة التي نتحرك فيها، والأجواء التي نعيش معها، والمشاكل التي نواجهها، والآفاق التي نتطلع إليها، فلا نبادر إلى استنباط الحكم من خلال نظرة سطحية ارتجالية تبصر الحكم الشرعي من حالة طارئة سريعة، لا تدخل في حسابها عمق الواقع، بل تعمل على دراسة الحالة من جميع جوانبها في حسابات الحاضر والمستقبل في علاقتها بالساحة ككل، وفي

اتصالها بالمواقع المحدودة لخصوصياتها في هذه الساحة أو تلك؛ لأن ذلك هو الذي يحدد موقع الحكم الشرعي الذي قد يختلف حاله في العنوان الأوَّلي عن موقعه بحسب العنوان الثانوي. فقد يكون الشيء حلالاً في ذاته، ولكنه يتحول إلى حرام، عندما يستلزم ضررًا عامًّا بالشخص أو بالأمة أو بالخطة العامة لحركة الإسلام في الحياة، وربما كانت بعض الأشياء محرمة في ذاتها، ولكنها تصبح حلالاً عندما تفرض مصلحة الأمة القيام بها لدفع ضرر كبير أو جلب نفع عظيم، ولابد من الحذر في تقويم الحالة، لئلا نتجاوز حدود الله من حيث لا نريد، أو من حيث لا نشعر.

الثورية الإسلامية والجو الهادئ

وقد يكون هذا هو ما نواجه مشكلته في بعض ساحات العمل الإسلامي التي تأثرت ببعض الطروحات السياسية في ساحة العمل السياسي على مستوى الفكرة أو على مستوى الأسلوب، مما يرتبط بالفكر الماركسي في بعض جوانبه، أو بالمنهج الليبرالي في بعض آخر، ولكنه يحمل لونًا إسلاميًّا في مضمون الحركة، وفي مدلول العمل، فيخيل للكثيرين أنه المنهج الإسلامي، وليس كذلك؛ لأنه لم ينطلق من حسابات الواقع الشرعية، بل انطلق من حالاته الانفعالية، فإذا طرحت الحكم الشرعي في اجتهاداته المتنوعة، وطالبت بالدقة في تحديده وتحريكه، كانت المشكلة عند هؤلاء، أنهم يعتبرونك بعيدًا عن خط الثورية الإسلامية لأنك تناقش في الجزئيات، وتتوقف عند أشياء هامشية، ولا تعيش رحابة الثورة في آفاقها

الواسعة، وأبعادها الشاسعة التي تتجاوز خصوصيات الأمور لتقف عند كلياتها. وقد يحسنون الظن بك، فيقولون عنك، إنك عشت في جو هادئ عقلاني، يحسب الثوة تهورًا ويرى في الحركة القوية اندفاعًا، ولذلك فإنك لا تفهم جيدًا معنى ثورية الأسلوب، وثورية الهدف.

المضمون الإسلامي للتحرك

أما تعليقنا على ذلك، فهو أن القاعدة التي تحكم العمل الإسلامي هي التي تحدد وسائل التغيير وأساليب الثورة. فليست القضية هي أن تكون عقليتك حادة أو هادئة، أن يكون شعورك حارًّا أو باردًا، بل القضية هي المضمون الإسلامي الذي يبني عقليتك، ويحرّك شعورك، فلابد من دراسة الفكر في مصادره الموثوقة، ومعرفة الساحة في أبعادها الواقعية، فقد تكتشف أن الثورة ترتبط بالخط الهادئ في بعض المراحل الذي يقود المسيرة إلى الهدف من أقرب طريق؛ لأنه يضمن للخطة أن تتحرك في مسارها الصحيح من دون تعقيدات أو تشنجات، كما ترتبط بالخط العنيف الذي قد يشارك في تسريع الحل في بعض المراحل، وهكذا لن يكون لدينا أسلوب واحد للعمل، بل، قد نلتقي بأكثر من أسلوب في الطريق من موقع الحكم الشرعي الذي يستهدي كتاب الله وسنة نبيه فيما يمارسان من خطوط عامة، ويتتبع حركة الساحة فيما تحققه من مفردات وتفصيلات.

الاقتداء بالقرآن والسنة

ولعل دراسة الأسلوب القرآني فيما يطرح من خطوط متحركة لمواجهة المشاكل، والتدقيق في الأسلوب النبوي فيما تتحرك به مسيرة الدعوة والجهاد، المنطلقة في اتجاه التغيير، في حياة النبي(ص)، في أقواله وأفعاله، في حالات الحرب والسلم، هذا بالإضافة إلى تنوع الأسلوب في تجربة الأئمة من أهل البيت (ع)، لعل ذلك كله، يضع أيدينا على طبيعة المرونة التي ينبغي أن تحكم الأسلوب العملي لقضية التغيير للواقع في مجالات الحكم والتشريع وواقع الحياة.

ولهذا، فإننا ندعو العاملين إلى أن يدرسوا المسألة من هذا المنطلق، بعيدًا عن كل الطروحات الجاهزة التي تمثل خطوطًا متنوعة، لا تمت إلى الإسلام بصلة؛ لأنها ولدت في مناخ غير إسلامي، وانطلقت من قاعدة غير إسلامية.

موقف للهدف ومواجهة للتحدي

وفي ضوء ذلك، لن نطرح العنف كأساس للحركة، كما لا نعتبر الرفق هو الطابع الذي يطبع منهج السير، بل نجد فيهما أسلوبين طبيعيين فيما تختزنه الحياة من أساليب لنضع كل واحد منهما في موضعه، ولنتحقق من توفر شروطه لنندفع مع لهذا أو ذاك، بكل قوة وعزيمة وإخلاص، فلا نتنازل عن موقف يحتاجه الهدف، بل نعطي كل واحدة منهما موقع القوة من أنفسنا، وبذلك تكون الثورية تعني الالتصاق بالهدف من خلال كل القضايا مهما كانت قسوة الظروف، فذلك هو الذي يحدد لنا خط السير.

وتبقى التفاصيل خاضعة لتطور التجربة، وطبيعة التحدي في مواجهتنا لحركة الكفر، وهجمة الاستعمار لتدرس الخطة الواقعية الحكيمة التي تواجه بها خطة مضادة أخرى، ولتتعرف علاقة هذا الأسلوب بمشكلة الحاضر في مقارنة واعية لأسلوب آخر، يتعلق بمشكلة المستقبل لتوازن بينهما لتختار لنفسك الأسلوب الأكثر تأثيرًا والأقرب منفعة فيما يحقق مصلحة الإسلام والمسلمين، وتلك مهمة الذين يقودون الساحة، ويراقبون متغيراتها ليحددوا لها ما تحتاجه، وما لا تحتاجه من هذا الأسلوب أو ذاك.

تجربة الثورة الإسلامية

وقد يطرح بعض الناس سؤالاً، حول التحليل الذي قدمناه في الحلقة السابقة، أو في مطلع هذه الحلقة في أسلوب العمل التغييري للأمة، فيقول:

لماذا هذا التنظير والبحث عن الأسلوب العملي في نطاق الفكر التجريدي، نحن نعيش التجربة الناجحة الفريدة– على الأرض في حركة الثورة الإسلامية في إيران.

فقد انطلقت هذه الثورة في أسلوب قائدها الكبير السيد الخميني– رضوان الله عليه – من موقع المواجهة الحاسمة للطاغوت بعيدًا عن أي عمل تجريدي، مما يحاوله هؤلاء المنظرون.. الذين يملأون الصفحات تحليلاً وتفسيرًا للظروف وللشروط الموضوعية للحركة، وللمراحل الفكرية والثقافية والسياسية والعسكرية،

وإلى غير ذلك من الأمور في أسلوب تبريري لكل الحالات الانهزامية التي تحاول تبرير الهزيمة بالظروف فالأوضاع والأحداث، مما يجعل منها قضاء الحياة وقدرها الذي لا مجال للخلاص منه.

ويتابع هؤلاء أن التجربة تمثل الجانب الوجداني للنتائج الذي يطرح المسألة في حركة الواقع، بينما يمثل التنظير الجانب الفكري النظري الذي يبحث عن أرض تسمح له بالتجربة. فلماذا لا نختصر الدرب، ونأخذ الفكرة من التجربة بدلاً من أن نبحث للفكرة عن أرض تنغرس فيها لنعرف طبيعة الخطأ والصواب، مما نريد أن نواجهه أو نسير فيه؟

دراسة الظروف الموضوعية

ولكننا نحب أن نثير أمام هؤلاء سؤالاً يطرح أمامنا أبعاد الجواب..

هل التجربة تمثل المطلق في آفاقها، أو نتائجها، أو تمثل الحدود الزمانية والمكانية والإنسانية في ذلك كله؟

وإذا كان لنا أن نجيب بأن التجربة محدودة، فإن ذلك يعني أن نتائجها لا تتجاوز حدودها في حركة الواقع، مما يجعلنا في موقع الدراسة الدقيقة التي تبحث عن الأرض التي عاشت فيها، وعن البذور التي طرحت هناك، والينابيع التي تدفقت في أعماقها، وعن الإنسان الذي عاش هناك، وعن التاريخ الذي كانت نتاجًا له، ثم ماذا عن الظروف الموضوعية في طبيعة الحكم الذي سقط أمام الثورة،

ونوعية الوضع السياسي الذي كان يحوط البلد والمنطقة والعالم، ومدى تأثير ذلك في نجاح الثورة.

هذا بالإضافة إلى نوعية القيادة من حيث الشخص الذي قاد الثورة، ومن حيث الخلفيات التاريخية والدينية التي تكمن وراءها، ومن حيث العمق الديني الذي يعمق الصلة بين القيادة والقاعدة ليجعل العلاقة شيئًا يشبه الصلة العضوية التي يتحرك فيها الدم الواحد ليضع الفكر الواحد والشعور الواحد، وهكذا تتابع هذه المفردات لتشكل الهيكلية المتكاملة التي تعني شخصية التجربة في حدود الأسباب والمسببات والأجواء والأشخاص والمواقع.

إن ذلك كله يحتاج إلى دراسة تفصيلية عميقة، قبل أن يتحدث الإنسان عن الغيب في حركة المطلق فيما ينصر الله به عباده؛ لأن للنصر الإلهي مقومات فيما يعنيه اللطف الإلهي، وفيما تمثله سنن الله في الكون، وربما احتاج الدارس إلى أن يتوفر على معرفة الاجتهادات الكلية والجزئية في التخطيط الكلي للثورة، وفي مفردات التعليمات اليومية التي توجه للثائرين، ثم في نوعية القوى التي تمثل قوى المساندة، أو قوى المعارضة، ما هو حجمها؟ وما هو أسلوبها؟ وما هي خلفياتها المحلية والإقليمية والدولية؟ ومدى تأثير ذلك على حركة الثورة؟

ثم.. هل نتوقف عند النتائج الإيجابية، فلا نتساءل عن حجم السلبيات؟ وماذا عن الثورة المضادة فيما يمثلها النفاق والمنافقون!؟ وعن أساليب المواجهة، ومدى فاعليتها، وعن حسابات الخطأ والصواب، في هذا أو ذاك، في حركة لا

تدّعي العصمة لنفسها، ولا تريد لأحد أن يدعيها له.. لأن ادّعاء العصمة يثقل الحركة فيما يفرضه عليها من أخطاء مقدسة لا تستطيع التراجع عنها إلى غير ذلك من علامات الاستفهام التي يغيب الكثير منها في ضباب الحماس والانفعال.

ثم بعد ذلك، ما هي طبيعة هذه الساحة أو تلك؟ وما هي نوعية الأرض هنا وهناك؟ وهل تقبل هذه الغراس أن تنزرع فيها؟ وتكرُّ كل علامات الاستفهام لتضع لها مواقع في كل زاوية للأرض وللحركة والإنسان، ولتقف في حالة تأمل وتفكير لتبحث عن الجواب في حركة الفكر الذاتي، أو لتطلبه من الآخرين في أجواء استلهام فكر الآخرين.

تطوير الظروف وتميز المواقع

إننا لا نمانع في تطوير الظروف في هذا الموقع لتتلاءم مع موقع آخر، ولكننا لا نستطيع أن نغمض أعيننا عن التمايز بين المواقع في خصوصيات الأشياء، مما يفوض علينا أن نأخذ الفكرة المشتركة، ثم نواجه التفاصيل بعمق وتأمل وحذر لنعرف كيف نصل إلى النتائج الإيجابية الحاسمة الصادقة من أقرب طريق.

إن الفكرة تولد من التجربة، كما تولد من التحليل النظري، ولكن لابد من دراسة التجربة بعمق وشمول لنعرف كيف نطرح الفكرة، وكيف نؤطرها، وكيف نمتد بها إلى أفق أوسع من ساحتها المحدودة، لا سيما إذا كانت التجربة خطوة متقدمة نحو التغيير، ولا سيما إذا كانت الفكرة التي نريد أن نستنبطها من التجربة محاولة جادة من أجل التخطيط الشامل لمستقبل التغيير.

خط التوتر والهدف

وأخيرًا، نحن مع التحرك في الساحة لا من مواقع إبقاء خط التوتر الذي يطوّق كل القوى المضادة بكل الأفكار والمشاعر والمواقف، ولكن نفهم من التوتر الموقف الذي لا ينفصل لحظة عن الهدف في عملية مراقبة وحركة وتقدم وانتظار، ولكنه يراقب من مواقع الفكر، ويتحرك من مواقع الخطة، ويتقدم من خلال الحساب، وينتظر في كل مواطن النجاح والانتصار ليستقبل النصر في حالة استعداد للفرح الروحي الكبير.

كيف نواجه قضية التغيير في الأمة؟ (ج)

بين قائل بأن:

- التغيير من داخل النظام

محكوم بأصول اللعبة وقواعد التوازن.

- والتغيير من خارج النظام

يملك الحرية ولا يعاني مشكلة التوازن.

- وعي النظام وأساليب الثورة

يبعدان السلبيات عن العمل.

- العمل داخل وخارج النظام

لتحريك خيوط التغيير وتجميع عناصر الثورة.

كيف نواجه قضية التغيير في الأمة؟ (ج)

١ - التغيير من داخل النظام

الدخول في اللعبة السياسية

يرى البعض أن عملية الثورة قد تحتاج إلى وسائل من داخل المؤسسات التقليدية الموجودة في الأنظمة غير الإسلامية فيما تشتمل عليه من مواقع إدارية أو سياسية أو اجتماعية أو عسكرية، وذلك بالعمل على الدخول إلى هياكلها المتنوعة من أجل الوصول إلى مواقع متقدمة هناك ليسهل – من خلال ذلك- العمل على تحويل الاتجاه السياسي إلى اتجاهات جديدة تلتقي بالتطلعات الإسلامية للإنسان فيما تتحرك نحوه من تغيير الواقع المحلي والإقليمي للتأثير على الواقع الدولي في المواقع في خلق الأجواء الملائمة، وفي إفساح المجال للأجيال الطالعة بالنمو والحركة في الاتجاه السليم، وفي إيجاد الأرضية الصالحة لبذور المستقبل، وفي مواجهة القوى المضادة للعمل على إضعافها، وتحجيم مواقعها، وخلخلة توازنها من الداخل، وفي التأكيد على ملاحقة المتغيرات الداخلية والخارجية للتأثير على معطياتها في الجانب الإيجابي للقضية بدلاً من إهمالها وتركها لمصلحة الجانب السلبي للواقع.

ويضيف هذا البعض: إن مثل هذه المعطيات لا يمكن أن تحقق إذا لم تكن هناك في داخل اللعبة السياسية واجهة بارزة تفرض نفسها على ساحة الواقع

من داخل حركة الواقع؛ لأن العمل من الخارج قد لا يملك الفرصة الكبيرة لتحقيق كثير من المعطيات والنتائج، ولذلك فإن على القائمين على شؤون العمل التغييري من قاعدة إسلامية أن يدرسوا أفضل الوسائل للحصول على تلك المواقع من أقرب طريق.

منح الشرعية للنظام

ولكن هناك رأيًا آخر من موقع النظرة الإسلامية السياسية للحياة يختلف عن هذا الرأي ويجد فيه انحرافًا عن الشرعية الإسلامية فيما تريد أن تحققه من عملية التغيير للواقع.

ويرى أصحاب هذا الرأي أن مثل هذا الاتجاه يمنح الواقع الفاسد الكافر – إن كانت الواجهة المسيطرة على النظام كافرة بشكل مباشر، أو الضال المنحرف– إن لم تكن الواجهة كافرة بطريقة واضحة – شرعية إسلامية لا تملكها؛ لأن معنى الدخول في هيكل النظام: الاعتراف به، وبقاعدته كأساس للحكم، وكقاعدة لحل مشاكل الناس؛ لأن المواقع المتقدمة التي تحصل عليها الطليعة السليمة الملتزمة، تمثل المفردات التفصيلية للخط العام للنظام، مما يعني بأن الحركة في نطاقها سلبًا أو إيجابًا، تدخل في نطاق التحرك في التفاصيل، مع الالتزام بالمبدأ، وبذلك تفقد الطليعة خطها الأصيل، وتخسر مواقعها الحقيقية في مقابل ما تربحه من مواقع مزيفة، قد تحتفظ لها بالإطار، ولكن على حساب الصورة.

ضغط النظام على الحركة

ويضيفون إلى ذلك، أن النظام الكافر أو المنحرف، قد يستفيد من وجود هذه الجماعات في داخله من أجل أن يقوّي مواقعه في ساحات أخرى في خطة إيحائية، بما تقدمه من معطيات لقضية الحرية في مناخ سياسي، تلتقي فيه الأفكار المختلفة، والتيارات المتصارعة بعيدًا عن كل عوامل القهر والضغط.

ولكنه - في الوقت نفسه - يمارس الضغوط القاسية على الاتجاه الإسلامي بوسائل متنوعة، بما يثيره في وجهه من مشاكل معقّدة من خلال إفساح المجال للقوى المضادة أن تضغط عليه، أو إشغاله عن القضايا الكبيرة التي تمثل قضايا المصير، أو إدخاله في نزاعات داخلية في أسلوب سياسة المحاور لتستنزف قوته من الداخل، وهكذا، حتى يتحول إلى مجرد شبح أو كيان ضعيف، لا يوحي بالاحترام فضلاً عن القوة.

فقدان الثورية الإسلامية

أما إذا حصل على بعض القوة والتماسك، فإنها تبقى قوة محاصرة لا تملك إلا أن ترفع الصوت لتسجل موقفًا، أو لتربح نقطة، أو لتثير جدلاً، ويبقى للنظام أن يأخذ كل شيء، ويمنعها من كل شيء، باسم القانون والدستور والديمقراطية؛ لأنها لم تستطع أن تربح أكثرية الأصوات التي يملكها النظام، أو القوى المضادة التي تدور في فلكه. وبذلك يستطيع النظام أن يضعفها تدريجيًّا، أو يحصرها في

دائرة ضيقة؛ لأنه يفرض عليها الصراع الدائم من أجل الدفاع عن مواقعها بعيدًا عن اكتشاف مواقع جديدة.

ويرى هؤلاء أن مثل هذه النظرة في العمل السياسي الإسلامي تُفقد الإسلام ثوريته، وحرارة المعركة في داخله، وتثير فيه الاستسلام للواقع، بالإيحاء الدائم بروح العقل والاعتدال والتوازن، ومحاولة الوصول إلى النتائج الحاسمة بالنفس الطويل؛ لأن أسلوب العمل في داخل النظام يختلف عن أسلوب العمل في خارجه؛ لأن العمل من الداخل، يظل محكومًا بأصول اللعبة، وقواعد التوازن؛ لأن وسائل النجاح في هذا الجو، محدودة بحدود خاصة، وضوابط معينة، تفرض الوفاء بالالتزامات، والمحافظة على الجو العام في إطار المحافظة على النظام، برموزه وشعاراته ومبادئه العامة.

٢- التغيير من خارج النظام

لا مشكلة توازنات

أما العمل من الخارج، فيستهدف الجذور في عملية اقتلاع، وينطلق نحو الجسور في عملية نسفٍ، ويواجه الأوضاع في حركة تغيير؛ لأنه يريد أرضًا خالية يغرس فيها الغراس الجديدة بعيدًا عن كل العوامل المضادة التي تمنع من حركة النمو والارتفاع. ولذلك، فإنه يملك الحرية في التحرك؛ لأنه لا يواجه مشكلة في قضية التوازنات المحلية، أو الإقليمية، ولا يحترم أي التزام لا يتناسب مع القضايا

المصيرية، ولا يجد في النظام أي شيء مقدس؛ لأنه يعمل من أجل تحطيم هذه القداسة، وذلك بتحطيم قواعد هذا النظام.

وفي ضوء ذلك، يمكن له أن يجعل الجذوة مشتعلة في الأفكار والمشاعر والمواقف لتبقى للحركة حيويتها وقوتها، وتبقى للإنسان ثوريته وحركيّته، فلا يستريح لعوامل التخدير، ولا يسترخي أمام دعوات الاسترخاء؛ لأن الثورة تأبى أن تتخدّر أو تسترخي أو تستريح، بل هي تبقى عنصر هدم من أجل البناء، وعامل تعب من أجل الراحة، ومصدر فوضى من أجل النظام على أساس المنطق القائل، ليس في الثورة شيء محترم أو مقدس، إلا مبادئ الثورة، فلا قيمة لأي شيء يخضع لمبادئ الآخرين.

سقوط الثورة أمام النظام

ويضرب هؤلاء المثل ببعض الحركات الإسلامية التي انطلقت لتكون الثورة الإسلامية في وجه كل الواقع اللاإسلامي على مستوى العالم كله، ولكنها وقعت في قبضة الأنظمة التي استغلت نقاط الضعف فيها، واستفادت من دعوات التعقل والاتزان والاعتدال المنطلقة من بعض قياداتها، فأوحت لها بأن بإمكانها أن تخدم الإسلام من الداخل، أكثر مما تخدمه من الخارج بأسلوب الثورة؛ لأن النظام يمنحها إمكاناته في الإعلام، وفي التربية، وفي المواقع السياسية، وفي العلاقات العامة، مما لا تستطيع أن تحصل عليه في مجالات أخرى، فاستسلمت لهذا المنطق الخادع الذي يوحي بالإخلاص خلف قناع من الخبث والمكر والخديعة، فتحولت

هذه الحركات، ببركة هذا المنطق إلى جمعيات إسلامية ثقافية، أو اجتماعية، أو خيرية بدلاً من أن تكون حركة إسلامية ثورية تغييرية، وسقطت الثورة أمام منطق النظام، وانطلقت اللعبة لتحتوي كل دعوات الخروج على أصولها.

اللمعان الثوري وتغيير الواقع

ويضرب هؤلاء المثل ببعض الشخصيات الإسلامية التي تملك بعضًا من عبقرية الفكر، وحركية الاتجاه، وفاعلية الموقع، فقد بدأت هذه الشخصيات في مواقع مختلفة من أجل التغيير من خلال الإسلام، وأعطت الفكر والحركة والموقف، وعانت الكثير الكثير في مواجهة التحديات، ثم بدأت تفكر في التغيير من داخل النظام، وانطلقت في حركة إصلاحية في نطاق المؤسسات الثقافية والاجتماعية والخيرية فيما تعتبره أسلوبًا من أساليب احتواء القاعدة الشعبية لمصلحة التغيير، ولكنها بدأت تغرق في التفاصيل، وفي التعقيدات الجزئية، حتى إذا بدأت العمل السياسي من الداخل، كانت اللعبة بانتظارها في خطة ذكية محكمة، فأعطتها بعض الانطلاق، وغذت ثوريتها، بالطريقة التي استطاعت أن تلهب بها الساحة حماسًا وانفعالاً، وتصل بها إلى ما يشبه القمة في الموقع السياسي، ثم بدأت عملية الاحتواء في الأجواء الداخلية والطائفية، حتى استطاعت أن تجعلها في أساليبها وعلاقاتها وامتداداتها تتحرك في أجواء اللعبة تمامًا، مع بعضٍ من اللمعان والشكل الثوري الذي يدعو إلى الاعتدال، ويحافظ على توازن النظام من خلال

توازن اللعبة الداخلية والإقليمية في الساحة. وهكذا جاءت هذه النماذج لتغيّر الواقع على أساس الإسلام، فاستطاع الواقع أن يغيّرها لمصلحة النظام.

وهكذا رأينا العمل الإسلامي يتجمّد، ويتجه إلى الجوانب الإصلاحية بدلاً من أن يتحرك وينطلق في اتجاه الجوانب التغييرية. وهذا هو الذي يؤكد النظرة القائلة بأن على الإسلام أن يبتعد عن الدخول في نطاق اللعبة السياسية للأنظمة غير الإسلامية، كوسيلة من وسائل العمل التغييري؛ لأن ذلك يؤدي إلى عكس المطلوب.

ردود على ما سبق

ولكن أصحاب الرأي الآخر يحاولون أن يسجلوا عدة نقاط حول هذه القضايا المثارة حول الموضوع في نقد رؤيتهم لحركة الإسلام في الساحة.

المشاركة بضوابط فكرية وعملية

إن مسألة إضفاء صفة الشرعية على النظام من خلال المشاركة فيه لا تخضع للتقييم الدقيق؛ لأن طبيعة المشاركة هي التي تحدد الموقف من النظام تبعًا لاختلاف الأسس التي ترتكز عليها الوسائل التي تستخدمها، والآفاق التي تتحرك فيها، فإذا كانت الخطة، متحركة في ضمن ضوابط فكرية وعملية، خاضعة للخط العام الذي تقوم عليه الحركة الإسلامية، في ظل الأجواء المتطلعة إلى التغيير، في تأكيدها على رفض الواقع من خلال الدعوة إلى تغييره بإظهار مفاسده،

وتحريك مشاكله، والتركيز على سلبياته، إذا كانت الخطة في هذا النطاق، فكيف يمكن أن يكون ذلك تثبيتًا للشرعية؟

إن النظام لا يمثل – في هذه الحالة- إلا إحدى ساحات العمل التي تمثل المنطلق الذي يتجاوز من أجل أن يغير الصورة والإطار معًا. وبهذا، فإن المسألة تمثل مرونة في التحرك، واستفادة من ظروف الساحة التي قد تضيق في بعض الظروف، وتتسع في ظروف أخرى.

المرونة ثمن الحرية

أما الحديث عن الربح الذي تحصل عليه الأنظمة من وجود الحركة الإسلامية في داخلها، فقد لا نستطيع إنكار سلبياته، ولكننا نعتبر ذلك حالة طبيعية في حركة العمل، ولكنها لا تمثل السلبيات التي تُسقط العمل وتحاصره وتحتويه، بل تمثل الثمن الذي قد تدفعه الحركة في سبيل الاستفادة من حرية الساحة من أجل الحصول على المزيد من حرية الحركة في ضمن الظروف الخانقة في بعض المراحل.. وقد يكون ذلك أمرًا حتميًّا في كل مرحلة، فقد يكون الثمن سجنًا واضطهادًا وتشريدًا، وقد يكون شيئًا يحصل عليه العدو.

ولكنه على أي حال لا يمثل مشكلة خانقة، إذا أحسن العاملون الاستفادة من محاولة تفتيت القوة المضادة بالبحث عن نقاط الضعف، والتعامل معها بمرونة ودقة وذكاء، مما لا يستطيع أن يحصل عليه في غير هذا الموقع.

إن المسألة، تتوقف على نوعية حركة العمل في احتواء الساحة، فذلك هو الذي يمنع من اللعب على الحركة في عملية الاحتواء، بالطريقة التي يستطيع أن يهدم فيه الملعب على رؤوس اللاعبين.

إن حركة الصراع في الداخل فيما يملكه المتصارعون من وسائل النصر والهزيمة هي التي تحدد نهاية المعركة في المدى الطويل.

الثورية داخل المعارضة

إن قضية إبقاء الثورية حيّة في وعي العاملين، لا تقتصر على البقاء بعيدًا خارج نطاق الأنظمة، بل يمكن تحريكها في ساحة المعارضة التي قد تسمح بها ساحة هذا النظام، أو ذاك، وذلك بتطوير أدواتها، وتوسعة ساحاتها، وتكثيف قوتها من أجل ممارسة الضغط الذي يحقق كثيرًا من عوامل الإثارة في الموقف.

ولابد لنا من أن نلاحظ في هذا المجال أن وجود الحركة في الداخل لا يعني أن الداخل يمثل كل ساحة الحركة، فقد يكون الثقل الأكبر موجودًا في الخارج على أساس من التخطيط الدقيق الذي يتوزع فيه العاملون الأدوار من أجل احتواء الساحة كلها ليلتقي الداخل والخارج في تحريك خيوط التغيير، وتجميع عناصر الثورة. وبذلك لا يشعر العاملون بالحصار المضروب عليهم من قبل النظام؛ لأنه إذا كان يملك أن يحاصرهم من الداخل، فإنهم يملكون محاصرته من الخارج، مما يمكنهم من فك الحصار من جهة، وإحكام الطوق عليه من جهة أخرى.

إن المسألة التي تفرض نفسها على الساحة هي أن القائمين على الحركة هل يغرقون في أحلام الاسترخاء لينتظروا النصر من الله قادمًا على أجنحة الملائكة بعيدًا عن الجهد الذاتي في المعاناة والمصابرة والمرابطة والمجاهدة، أو يتحركون من أجل أن يصنعوا للنصر وسائله فيما رزقهم الله من طاقات؟ ليأملوا – بعد ذلك– أن يفيض عليهم من لطفه ورحمته ورضوانه، فيعجل لهم النصر الذي صنعوا بعض مقدماته فيما يملكون أمره ليمنحهم ما لايملكون الوصول إليه بطريقة ذاتية.

النماذج السلبية وسقوط التجربة

أما حديث الحركات الإسلامية التي عاشت الاسترخاء في أحضان الأنظمة، أو الشخصيات التي فقدت حيوية الحركة الثورية في مواقعها الرسمية أو غير الرسمية، فلا يمثل التجربة الشاملة لكل الساحة، بل يمثل بعضًا من حالات الضعف والسقوط التي قد تصاب بها الحركات، ويضعف أمامها العاملون، وقد نجد في المقابل نماذج أخرى لا تزال تعيش في حالة تمرد ومعارضة وثورة، بالرغم من أنها لا تبتعد عن الساحة، ولكنها لا تخضع لكل وسائلها وأوضاعها.

إن التأكيد على المظاهر والنماذج السلبية، لا يعني سقوط التجربة، ولكنه يعني الحاجة إلى البحث عن إيجابياتها من جهة، ومحاولة البحث عن جذور هذه السلبيات في حركة الواقع من جهة أخرى. فقد نكتشف أن عملية السقوط لا تمثل الوقوع في أحضان الهاوية، بل تمثل بعضًا من مشاكل انخفاض المستوى

الذي قد يرتفع من جديد، إذا قدر له الظروف الموضوعية التي توحي له بالآفاق الروحية المتطلعة إلى الأعلى في انطلاقها مع الله.

وهكذا نجد أن من الممكن أن نتجنب الوقوع في فخ المشاكل الجانبية، والنزاعات الطائفية، والتعقيدات الذاتية، إذا استطعنا أن نعي آفاق النظام، ووسائل الثورة المضادة، وحاولنا أن نواجهها بالوعي والتعقل والاتزان في حالة صاعدة من حالات التوتر الروحي الذي يبعث في الإنسان الحركة الحيوية والاندفاع.

وبذلك لا يبقى هناك مجال للاستغراق في الضباب، أو الاندفاع في الفراغ، أو الاسترخاء في أجواء الأحلام الوردية الغارقة في أمواج العبير.

كيف نواجه قضية التغيير في الأمة؟ (د)

بين قائل:

- بالمقاطعة والرفض

  للنظام وعدم تأييده ودعمه.

- والتأكيد على المرونة

  والاستفادة من ضمن صيغ النظام.

- العمل في ساحة اللعبة السياسية

  قد يمنع سقوط الأمة.

- الخوف من تحول

  التخطيط الثوري إلى قفزات وأحلام.

كيف نواجه قضية التغيير في الأمة؟ (د)

رفض التعاون مع الظالم

قد يطرح بعض الناس المسألة من ناحية فقهية، وهي مسألة التعاون مع الظالم، سواء كان شخصًا أو مؤسسة أو نظامًا. فقد رفض الفقهاء ذلك واعتبروه جريمة وخطيئة دينية، يعاقب عليها الله، وأكدوا على أن الدخول مع الظالم في ولاية، أو مشروع، أو معاهدة يمثل لونًا من ألوان الركون إليه، مما يجعل ذلك مشمولاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود/ ١١٣]؛ لأن ذلك يعني الاطمئنان إليهم، والاستسلام لحكمهم، ولطريقتهم في الحياة والتعامل، ولتطلعاتهم في الأهداف فيما يعيشه المتعاملون معهم من مفردات حياتهم اليومية في علاقاتهم بالأجهزة المتنوعة التي تتحرك في مجالات نظامهم اللاشرعي.

وربما نجد في الأحاديث المأثورة، الكثير من الدعوة إلى رفض الارتباط بالنظام الظالم، أو الحاكم الجائر، حتى في الأمور التي لا تمثل محرّمًا في ذاتها، فقد ورد في بعضها عن رسول الله (ص) قوله: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين أعوان الظلمة ومن لاق لهم دواة أو ربط لهم كيسًا أو مدّ لهم مدة فاحشروه معهم». وجاء في الحديث عن الإمام جعفر الصادق (ع) أنه قال: «العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء ثلاثتهم».

مسؤولية الأمة

وقد نستوحي من ذلك أن المطلوب شرعًا مقاطعة هذا النظام، والوقوف منه ومن الحاكم الذي يشرف عليه موقفًا سلبيًّا؛ لأن أي موقف إيجابي يمثل لونًا من ألوان تقوية كيانه، وتأكيد سلطانه باعتبار ما يمثله من رضى به، ودعم لمسيرته، وتسهيل لأموره، مما يجعل الناس تطمئن له، وتستريح إليه في ترتيب أمورها، وقضاء حاجاتها، وحل مشاكلها بينما نلاحظ في المقاطعة تعقيدًا لأوضاعه ورفضًا لسلطته، وتهديمًا لمشاريعه، مما يؤدي إلى سقوطه في النهاية، عندما يفتقد الأعوان الذين يعينونه على بناء الدولة، وإقامة النظام. وهذا هو ما عبرت عنه الكلمة المأثورة عن الإمام جعفر الصادق (ع): «لولا أن بني أمية وجدوا لهم من يكتب ويجبي لهم الفيء، ويقاتل عنهم، ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقنا..»، فقد نستوحي منه أن الأمة التي تتعاون مع النظام الظالم مسؤولة عن إبعاد السلطة الشرعية عن ساحة الحكم بمقدار ما تساهم في تركيز ذلك النظام، ولو كان ذلك في نطاق الأمور العادية في حركة الحكم في حياة الناس.

الرفض النفسي للظالم

وقد نجد في بعض الكلمات المأثورة ما يوحي بأن التعاطف معهم من أجل انتظار وصول الإنسان إلى حقّه المشروع لديهم أمر مرفوض محرم.. فقد جاء في رواية صفوان الجمال قوله: دخلت على أبي الحسن «موسى الكاظم» (ع) فقال لي: يا صفوان، كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئًا واحدًا، فقلت:

جعلت فداك – بأي شيء، قال: إكراؤك جمالك من هذا الرجل، يعني من هارون، قلت: والله ما أكريته أشرًا ولا بطرًا، ولا لصيد ولا لهو، ولكن أكريته لهذا الطريق – يعني طريق مكة، ولا أتولاه بنفسي، ولكن أبعث معه غلماني، فقال لي: يا صفوان؛ أيقع كراؤك عليهم؟ قلت: نعم – جعلت فداك – قال: أتحب بقاءهم حتى يخرج كراؤك؟ قلت: نعم، قال: من أحب بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان وروده إلى النار.

فقد نفهم من هذه الرواية أن المطلوب هو الرفض الداخلي النفسي الذي لا يشعر معه الإنسان بأية حالة ذاتية شعورية متعاظمة معهم، حتى بهذا المستوى الطبيعي الذي يحب فيه حياتهم من أجل أن يقبض أجرته.

التغيير لا الاستسلام

ولكن هناك وجهة نظر أخرى تفسر هذه النصوص بوجه آخر، بحيث يبتعد المضمون الحقيقي لها عن النتائج المذكورة لدى هؤلاء الرافضين للدخول في حركة النظام من أجل التغيير.

وذلك على أساس أن الركون إلى الظالم الذي منعت منه الآية، يعني الاستسلام إليه في عملية تأييد وتعاطف، سواء كان ذلك من جهة ارتباطه به بأمر دنيوي أو من جهة إخلاصه له.. مما يجعل من حالة الإنسان الداخلية حالة حميمة منسجمة معه، ويؤدي – بالتالي – إلى الموقف الإيجابي الذي قد يتحول

إلى دعم وتأييد، كلما تطورت حاجات الإنسان عنده فيما يحاول أن يطوره ويكثره للوصول به إلى الارتباط العضوي الوثيق، كموقع من مواقع القوة التي يستفيد منها لنفسه. أما إذا كانت الخطة تتحرك من موقع الرفض والمعارضة للنظام وأهله في المواقع التي يعيش معها الإنسان الحاجز الداخلي الذي يوحي له بالانفصال الروحي والعملي من خلال إثارة نقاط التباين التي يفترق بها عنه في الوسيلة والهدف، وتحويل المسألة العملية من مسألة مرتبطة بالنظام إلى مسألة منفصلة عنه، ولكن بطريقة غير مباشرة تستهدف، فيما تستهدف، الاستفادة من حرية الحركة للساحة من أجل الوصول إلى إثارة نقاط الضعف في داخله للانطلاق بها في عملية إرباكٍ لأوضاعه، وتثوير للعناصر المضادة حوله.

أما إذا كان الأمر كذلك، فإن الأمر يختلف في الشكل والمضمون؛ لأن الموقع – في صورته – هو موقع المعارضة لا الموالاة؛ ولأن الفكرة التي تحكمه هي فكرة التغيير لا الاستسلام للأمر الواقع، فكيف يمكن أن يكون ذلك ركونًا واستسلامًا واعترافًا بشرعيته؟

اللعبة الديمقراطية ومصلحة الإسلام

وقد يكون نظر هذا البعض من الفقهاء إلى طريقة الحكم في العصور الماضية التي كانت السلطة فيها سلطة الشخص الذي يتبعه البعض. فيفسح لهم المجال في تسلّم زمام الأمور، ويعارضه الآخرون، فيطردون ويقهرون، ولا يفسح لهم أي مجال للحصول على أية فرصة للتحرك في داخل الساحة، فضلاً عن العمل

لتغييرها. وبذلك، فلا يستطيع الإنسان أن يفصل بين العلاقة بالحاكم وبين الارتباط بحكمه؛ لأن ذلك هو المظهر الطبيعي للتأييد والانتماء في مثل هذه الحالات فيما تمثله حركة العلاقات الإنسانية في مجالات الدعم والتأييد.

أما في طريقة الحكم في العصور الحديثة، فإنها لا ترتكز على الشخص من حيث المبدأ، بل ترتكز على المؤسسات الديمقراطية التي قد يملك فيها الإنسان فردًا كان أو جهة، إمكانات الدخول إلى داخلها، والحصول على حرية الحركة فيها من خلال الحصول على أكبر قدر ممكن من المقاعد في المجالس النيابية، أو من المواقع السياسية والاقتصادية التي تفسح المجال للوصول إلى الضغط على الحكم وإضعافه، أو السيطرة عليه في عملية احتواء له، كما قد يحدث – في بعض الحالات – من انتقال الحكم من حزب إلى حزب من المؤسسات الحزبية المتحركة في داخل اللعبة، مما يمكن حدوثه لدى المؤسسات التي تتحرك في مفاهيمها وتطلعاتها خارج نطاق اللعبة السياسية.

وهذا هو ما وصلت إليه الماركسية في أسلوبها الجديد في حركة الأحزاب الشيوعية في أوروبا، عندما تجاوزت النظرية الماركسية التقليدية التي كانت تعتبر الثورة أساسًا في الوصول إلى الحكم، وذلك عندما رأت أن مثل هذا الاتجاه ليس واقعيًّا في بعض البلدان التي اعتادت على طريقة معينة في أسلوب الحكم وطريقة التغيير، ولذلك فإنها ترفض العنف كأساس لتبديل الحكم، فاختارت الماركسية الأوروبية الأسلوب الديمقراطي الغربي في الوصول إلى الحكم، وبذلك فقد

استطاعت أن تقترب منه، وتضغط عليه في أكثر من بلد أوروبي، كما في فرنسا وإيطاليا وغيرهما، مما جعل قضية وصولها إلى مواقع السلطة هناك قريبًا من الواقع، ولولا الضغط الأميركي المضاد، لاستطاعت الأحزاب الشيوعية الوصول إلى الحكم في أكثر من مكان.

وفي ضوء ذلك، فإننا لا نجد أي مانع من اعتماد هذا الأسلوب من ناحية المبدأ، كأحد الأساليب الواقعية في الوصول إلى النتيجة المطلوبة في الوصول إلى مواقع الحكم، أو الاقتراب منه، أو التقدم – في بعض الخطوات في حركة التغيير، وذلك بالتأكيد على صفة المعارضة التي تعلن منهجها وأسلوبها في العمل، وتطلعاتها للتغيير، وتركيزها على إظهار سلبيات الحكم، ومواطن الضعف فيه في محاولة دائمة لتحويل الأنظار عنه إلى الإسلام في إيجابياته من خلال مواطن القوة فيه، والعمل على اعتبار المؤسسات الديمقراطية موقعًا متقدمًا من مواقع الإعلام والتحرك لمصلحة الإسلام في مواقعه التشريعية والسياسية على أكثر من صعيد.

رفض اللعبة الديمقراطية

وقد يثير بعض المفكرين الإسلاميين أكثر من علامة استفهام على هذا النهج، وذلك من خلال ما ألمحنا إليه في الحلقة السابقة من أن هذا النهج، يمثل اعترافًا شرعيًّا بالديمقراطية كعنوان سياسي للتحرك الإسلامي في السياسة والتشريع، مما لا يمكننا الموافقة عليه من ناحية المبدأ على أساس الخط الإسلامي

الذي يرتكز على أن حق التشريع هو لله – وحده- وللرسول – من خلاله- فلا يملك الشعب حق التشريع – من خلال ممثليه – كما توحي الديمقراطية، وبذلك يتحول الموقف إلى أداة تضليل وتحريف فيما تتحرك به الممارسة، ويوحي به الموقع، ولهذا فإن علينا الوقوف موقفًا سلبيًّا من عملية الانتخاب بالذات؛ لأنها غير إسلامية، والإعلان للأمة بأننا نرفض الدخول في اللعبة الديمقراطية للوصول إلى المجلس النيابي في أي بلد من بلاد المسلمين.

حق الشعب في التشريع

وقد يضيف هؤلاء أن هناك فرقًا بين ما هو الإسلام، وبين ما هي الماركسية في هذا المجال. فإن الماركسية لا ترفض المبدأ الذي يجعل للشعب حق التشريع، بل تؤكده، ولكنها تعتقد أن الثورة هي الطريقة الوحيدة للتغيير الجذري في المجتمع فيما كان يراه ماركس، فإذا جاء بعض مفكريها بالفكرة التي تفسح المجال للطريقة الديمقراطية في عملية التغيير لتكون الثورة ثورة في المضمون، لا في الشكل على أساس دراسة المسألة بطريقة واقعية من خلال الظروف الموضوعية المحيطة بالساحة، فإن ذلك قد يعني المناقشة في تفاصيل الأسلوب العملي للتغيير، ولكنه لا يحمل – في داخله – التنكر للأساس الفكري الذي يؤكد على أن التشريع للإنسان، لا لله؛ لأنه لا يؤمن بوجود الله.

أما الإسلام، فإنه ينكر المسألة من خلال الأساس الفكري، لا من خلال التفاصيل.

تحفظات على ما سبق

ولكننا نختلف مع هؤلاء من خلال عدة تحفظات في هذا الموضوع:

شرعية الموقف والموقع

إن مسألة الأشكال في الاعتراف بشرعية الخط الديمقراطي من خلال الممارسة فيما تمثله عملية الانتخاب من جهة، وفيما تعطيه صفة المجلس التشريعي من جهة أخرى يمكن أن تحل بالوسائل الإعلامية والتثقيفية التي تعمل على تفسير السلوك العملي للإسلاميين في اتخاذ هذا الأسلوب، كأداة للوصول إلى المواقع المتقدمة في حركة الواقع؛ من أجل السيطرة على عناصر القوة فيه ليعرف المسلمون طبيعة الموقف الذي يقفه الخط الإسلامي في هذه الساحة، مما يمكن لهم أن يروا فيه الأسس الفقهية الإسلامية لشرعية الموقف والموقع.

إفساح المجال للتشريع الإسلامي

إن من الممكن للإسلاميين أن يعبروا في داخل الندوة النيابية عن موقفهم الإسلامي في مجالات التشريع بالعمل على منع التشريعات المضادة للتشريع الإسلامي، ومواجهة المشاريع الظالمة والطاغية التي يراد من خلالها استعباد الأمة، واستغلالها واستعمارها، وتحويلها إلى أمة ضعيفة مستسلمة ذليلة فيما يخطط له ممثلو الحكم الفاسد والاستكبار الغاشم، ويعبرون – في الوقت نفسه– عن معارضتهم للتشريع كمبدأ فيما لا يملكون أمر الخوض فيه، ويمكن لهم – في

الوقت نفسه أن يفسحوا المجال للتشريعات الإسلامية أن تفرض نفسها على الساحة من خلال التحرك العملي من أجل إقرارها في القانون بطريقة وبأخرى، ويؤكد وجودها كحركة ضد الانحراف عندما توحي بأن شرعية وجودها في الداخل، منطلقة من مواقع الشرعية فيه، حتى في العمق العميق لقاعدتها الشعبية؛ لأن مسألة الالتزام الواقعي، لا يعني الالتزام من ناحية المبدأ، بل كل ما هناك هو أن هذه الوسيلة قد تكون في بعض المراحل الوسيلة الواقعية الأقرب للوصول إلى المواقع المتقدمة للاتجاه الإسلامي في الساحة.

وليست المشكلة هي في الشكل الذي يمارسه الإنسان في بعض الحالات، بل المشكلة هي في حركة المضمون في العمق التي تجمع في داخلها خط الالتزام الشرعي، وطبيعة المرونة في الحركة.

إمكانية الثورة وواجب الإصلاح

إن الإسلام دين يتسع للفرد كما يتسع للمجتمع، ويعمل على تنظيم الحالات الفردية في خط التشريع، عندما لا يكون تنظيم الحالات الاجتماعية ممكنًا في حركة الواقع؛ لأنه يريد للفرد أن يطيع الله، حتى في مجتمع الكفر والعصيان.

وعلى هذا الأساس، فإن التجزيئية في حركة الإصلاح، لا تبتعد عن خط الشرعية في التحرك الإسلامي على مستوى المرحلة.. فإذا لم تكن الثورة ممكنة، فإن الإصلاح واجب.. وإذا كانت الثورة مؤجّلة، فإن علينا أن نعمل على إيجاد

بعض الأجواء، والتشريعات، والأساليب الإسلامية للفرد والمجتمع ليعيش الناس الإسلام، ولو في بعض آفاقه، كوسيلة من وسائل التحضير للجو الكبير للثورة، أو كأداة من أدوات إبعاد المسلمين عن التأثر بالأجواء الكافرة — ولو بعض الشيء.

وفي ضوء هذا، ربما يكون الدخول في المؤسسات الديمقراطية، أو العمل في ساحة اللعبة السياسية للحكم الظالم مانعًا للأمة من السقوط في أحضان التيارات الكافرة بالكامل، عندما تفتقد اللون الإسلامي في حركة الواقع اليومي مفتقرة أمام الإيجابيات التي نستفيدها في النتائج العملية لمصلحة الإسلام والمسلمين.

شرعية الانتخاب والشورى

إن الحديث عن اعتبار الشكل الانتخابي حالة غير إسلامية هو كلام غير دقيق؛ لأن من الممكن اعتباره مظهرًا للشورى الإسلامية، مما يجعل الالتزام به، حتى في المجتمع الذي يرتكز على مضمون آخر في ممارسته له، ووعيه لمعناه، إيحاء بإمكانية اعتراف الإسلام به فيما يريد أن يخطط له في طريقة حكمه، ولكن بطريقة أخرى وبذهنية مختلفة، وذلك كما لاحظناه في الجمهورية الإسلامية في إيران التي انطلقت في شرعيتها من مبدأ «ولاية الفقيه»، ولكنها اعترفت بالطريقة الانتخابية في انتخاب أعضاء مجلس الشورى، وفي مجلس الخبراء، وفي اختيار رئيس الجمهورية، باعتبار أن ذلك يمثل المصلحة الإسلامية العليا في نظر الفقيه، مما جعله يمنحها الشرعية في نطاق الولاية للتشريع وللحكم، وذلك من خلال الشورى التي تتحرك ضمن رقابة ورعاية «الولي الفقيه».

ويبقى هنا الفرق بين مجلس يقوم على أساس الغطاء الشرعي الإسلامي، حتى في انتخاب الأمة له، وبين مجلس يقوم على أساس اللعبة الديمقراطية التي تخضع في شرعيتها للانتخاب وحده.

إنه فرق كبير، ولكن المسلمين الذين يمارسونه هنا وهناك، لابد لهم أن يؤكدوا على الوجه الشرعي للممارسة في هذا الموقع أو ذاك من دون إشكال.

أفكار للتأمل والمناقشة

إننا نريد أن نثير هذه الأفكار أمام العاملين للإسلام للتأمل وللمناقشة من أجل أن يكون تفكيرنا أكثر واقعية، عندما نريد إثارة التفكير والحوار في الخطوط الشرعية التي تحكم حركة التغيير للواقع الفاسد؛ لأننا في الوقت الذي نعبر فيه عن احترامنا للتحفظات التي يسجلها العاملون للإسلام على هذا الأسلوب التغييري الذي يتحرك داخل خط اللعبة السياسية للحكم اللاإسلامي، نريد أن نعبر عن خوفنا في أن يصل التفكير في أسلوب العمل إلى طريق مسدود في بعض المراحل وفي بعض الأماكن، بحيث يتحول التخطيط الثوري لدينا إلى ما يشبه القفز في الهواء، أو السباحة في بحار الأحلام والأوهام.

وهناك نقطة أخيرة نحب أن نثيرها وهي: إن طريقة فهمنا وتقييمنا للنصوص الواردة في هذا الموضوع في مسألة إعانة الظالم، أو الولاية من قبل الحاكم الجائر، وما إلى ذلك من مسائل، لابد أن تخضع للمحاكمة الدقيقة فيما تمثله حركة النصوص في الساحة التي تحيط بالحكم، وبطريقته في عصر النص، وفيما تمثله

ساحة الحكم، وطريقة الدخول فيه في عصرنا هذا، أو في العصور المقبلة، فقد يكون المبدأ واحدًا، ولكن التفاصيل قد تختلف هنا وهناك، ولعل من بديهيات الاجتهاد الفقهي الإسلامي أن الأحكام تختلف وتتغير، حسب اختلاف وتغير الموضوعات.

كيف نواجه قضية التغيير في الأمة ؟ (هـ)

- على الإسلاميين التمييز

بين التصريح الصحفي والخطاب الجماهيري وبين الفكر الهادف.

- الصراعات الإعلامية الإسلامية

تحركها الأنظمة كغطاء لإزالة الاحتقان الثوري.

- لا بد من صنع القوة

من خلال نقاط ضعف الآخرين.

- يجب أن نخضع التغيير لخطة متكاملة

على صعيد الزمان والمكان والأشخاص والوسائل والأهداف.

- الثورة هي الوسيلة الفضلى للتغيير

متى ما توافرت الإمكانيات العملية.

كيف نواجه قضية التغيير في الأمة ؟ (هـ)

التعليقات الانفعالية

قد يثير بعض العاملين بعض علامات الاستفهام حول طريقة الحديث عن التغيير فيما عالجناه من حديث في الحلقة السابقة التي أثارت الكثير من الجدل، والتعليقات الانفعالية، والأفكار السطحية فيما هي الفكرة، وفيما هو الفهم الدقيق للمعالجة، مما يوحي بأن الكثيرين يخلطون بين أحاديث الفكر في أسلوبها العميق الهادئ، وتحليلها الموضوعي للقضايا، وبين أحاديث العاطفة الملتهبة في حركة الشعارات في الساحة على مستوى المشاعر والأحاسيس.. ولذلك فإنهم لم يدققوا في مضمون الفكرة، ولم يناقشوا المسألة من ناحية علمية.

وإننا هنا لا نريد أن نطرح شيئًا جديدًا– في هذه الحلقة، بل كل ما نريده هو أن نوضح بعضًا من ملامح الفكرة بالمستوى الذي يبعدها عن الاستغلال، ويقترب بها من حركة الواقع الإسلامي في قضية التغيير.

التوقيت وإرباك المسيرة الإسلامية

ربما يتحدث البعض عن مسألة التوقيت في الحديث فيقول:

إن المرحلة التي نمر بها تتميز بأنها مرحلة مواجهة حادة حاسمة في وجه قوى الكفر والاستكبار، وأمام قوى الثورة المضادة التي تستغل الشعارات الإسلامية

لتطرحها بطريقة سطحية من أجل أن تربك المسيرة الإسلامية الثورية، العاملة في خط التغيير، فتستفيد من الأفكار الهادئة الموضوعية في المعالجة للتنفيس من حالة التوتر الجهادي تمامًا، كما هي كلمات الحق التي يراد بها باطل.

ويضيف هذا البعض أن إثارة أحاديث التغيير من داخل المؤسسات، ربما يعطي هؤلاء بعضًا من الفرصة الفكرية، إن صح التعبير في مخططاتهم المضادة بالإيحاء بأنهم يتحركون في الخط السليم من خلال ما يطرحه الحديث من أفكار. ونجيب على ذلك:

إن المعالجة المطروحة في الحديث، لا تخضع للظرف الزماني في طبيعتها الفكرية، بل هي جزء من بحث متكامل، لابد من أن يُدرس أوّله ليُفهم آخره؛ لأن ما أثير في حلقاته السابقة من قضايا وعلامات استفهام، بالإضافة إلى ما أثير فيه من تحفظات يفسر كثيرًا من الملاحظات المطروحة في الساحة، بما لا يدع مجالاً لأي غموض، ولا يسمح بأي استغلال من أية جهة سياسية قلقة، أو منحرفة.

وقد نضيف إلى ذلك أن مثل هذا الطرح لا يربك مسيرة الثورة في هذه المرحلة، لنقع في مشكلة التوقيت، بل ربما يغني تجربتها فيما يريد أن يثيره أمامها من بدائل على مستوى الحاضر في الساحات المغلقة – مرحليًّا – أمام عوامل الثورة، وعلى مستوى المستقبل فيما يتحرك فيه من مشاكل وحواجز ومتغيرات، الأمر الذي يمنحها حرية الحركة فيما هو المضمون من معنى الثورة، وفيما هو الإطار من أسلوب التحرك، ويجعلها أكثر واقعية في خططها العملية التي تطوّق كل

ثورة مضادة، بالتأكيد على المبادئ الأصيلة في حركة الثورة في الواقع، وبالملاحقة الدقيقة لكل عوامل الانحراف على مستوى النظرية والتطبيق.

احتواء الثورة وتدجينها

ربما يفهم البعض من المعالجة الفكرية في البحث السابق لونًا من ألوان التطبيق العملي الذي لا يريد البحث أن يثيره أو يوافق عليه فيقول:

إننا نفهم من هذا الطرح الذي يدعو إلى التحرك التغييري من داخل المؤسسات، أنه يفسح المجال للاستجابة للرغبة الكافرة، أو الطاغية، أو المستعمرة في دخول الإسلاميين معهم في الحكم ليمارسوا بعض الدور الذي يُراد لهم أن يمارسوه لاحتواء الثورة الشعبية في الأمة في عملية تدجين واقعي من جهة، وفي حركة التفاف على كل مشاعر الثورة، ووسائلها الرافضة للواقع العاملة على أساس التغيير من جهة أخرى.

وهذا ما لاحظناه من تجربة دخول بعض الإسلاميين في التحرك المشبوه الذي حاول فيه الحكم في السودان من خلال النميري المخلوع تطويق الثورة الإسلامية الشعبية في عمق الأمة، بالطرح السطحي للإسلام الذي يريد منه أن يكون أداة للتنفيس والاحتواء، لا وسيلة للتغيير، فقد لاحظنا أنه استطاع احتواء الكثيرين من قادة الحركة الإسلامية لينقلب عليهم بعد ذلك، وليحمّلهم مسؤولية كل السلبيات التي حدثت في هذه التجربة المشبوهة القلقة ليكونوا

في موقع الاتهام أمام الأمة بدلاً من أن يكونوا في مواقع الثورة الحقيقية ضد النظام الكافر الظالم المرتبط بالاستعمار في العمق وفي الشكل من خلال الماضي والحاضر.

جنة الحكم ونار المعارضة

وهذا ما قد نلاحظه في تجربة المعارضة التي لا تطرح الإسلام في مضمونه الفكري في بعض البلدان – ومنها لبنان – حيث استطاعت اللعبة السياسية الداخلية والدولية أن تنحرف بها عن خط المواجهة الحاسمة التي تعمل على أساس التغيير في العمق في الثورة على الحاكم، وعلى الحكم الطاغي المنحرف، وبذلك أمكن إبعادها عن خط الثورة لتبقى حائرة الخطوات بين جنة الحكم ونار المعارضة، مما أفقدها قوة الاندفاع، وأربك خطواتها في الساحة، وحول المسألة إلى التحرك في داخل اللعبة للحفاظ على معادلاتها الاستعمارية بدلاً من أن تكون ثورة على اللعبة لتغيير المعادلات.

ونحن لا نريد أن نناقش مسألة المضمون الدقيق للخلفيات السياسية العميقة لهذه المعارضة أو تلك لندخل في مسألة التقويم للطبيعة الجدية السياسية للطروحات الثورية في شعاراتها، أو في حركاتها لنخرج من ذلك بالنتيجة التي قد تقول بأنها كانت تتحرك على مستوى التكتيك السياسي الباحث عن فرصة للوصول إلى الحكم، أو إلى بعض الامتيازات الطائفية، أو الشخصية، أو الحزبية، أو أنها كانت على مستوى الإستراتيجية في حركة الثورة من أجل التغيير.

إننا لا نريد مناقشة ذلك كله؛ لأننا لسنا في موقع البحث في طبيعتها، بل نحن في مواقع البحث عن مدلول المشاركة في المؤسسات من أجل التغيير من خلال الشعارات المطروحة في الساحة بعيدًا عما هو العمق لحركة هذه الشعارات أو لأصحابها.

طموحات الزعماء وحسابات الدوائر

وقد نلاحظ ذلك في العلاقات التي قد تحصل بين الشخصيات أو الحركات الإسلامية، وبين بعض الحكومات المرتبطة بالخط الاستعماري من جهة، والمتحركة تحت واجهة إسلامية من جهة أخرى.. فقد يدور في تفكير هؤلاء أنهم قادرون على إحداث التغيير من خلال هذه العلاقات التي تتحرك في خط الدعم أو المشاركة؛ لأنهم ينفذون بذلك إلى داخل مؤسسات هذه الحكومات، أو مشاريعها الثقافية للاستفادة من ذلك في عملية التغيير الداخلي فيما يشبه حركة الالتفات عليها، أو الاتجاه بها إلى خط الإصلاح بعيدًا عن خط الإفساد والانحراف، ولكن النتيجة كانت في غير الاتجاه الذي يريده هؤلاء أو يعلنونه، فقد استفادت هذه الحكومات من هذه الواجهات الإسلامية التي يمثلها هؤلاء في إعطاء الصفة الإسلامية التي تدعيها لنفسها بعدًا جديدًا في الساحة السياسية قوةً مضاعفةً في تمثيلها للإسلام على مستوى التحرك في داخل الأمة من خلال رموزها الدينية والحركية، وإمكانات متنوعة في التأثير على أكثر من صعيد في الواقع السياسي والاقتصادي والثقافي لحساب طموحات زعمائها، ولحساب

الدوائر الاستعمارية المتحالفة معها في مخططاتها الاستكبارية ضد الشعوب المسلمة المستضعفة.

وهكذا نجد أن مثل هذه الفكرة لم تنجح في حركة التطبيق العملي على صعيد الواقع من خلال أكثر من تجربة فاشلة، مما يجعل منها فكرة مثالية، لا تصلح للتطبيق فيما تريد أن تحققه من أهداف، بل قد تتحول إلى الجانب المضاد من الفكرة كما لاحظناه فيما عرضناه من شواهد وتطبيقات.

ردود على ما سبق

ونجيب عن ذلك بأن الحديث الذي عالجناه لا يتسع لهذه النماذج، أو لا يلتقي بكل تفاصيلها، وذلك على أساس عدة نقاط:

بين الثورة والحركة

النقطة الأولى: إن المسألة التي يطرحها الحديث هي مسألة التغيير في الأمة على أساس الإسلام في صعيد الواقع. ولعل من الطبيعي أن تكون كل حركة في هذا الاتجاه خاضعة لعناصر التغيير في الأسلوب والمضمون فيما يجب أن يتوفر لها من أجواء وشروط، وفيما يمكن أن تتأثر به من عوامل وأحداث، وفيما يمكن أن يتحرك بها من قيادات وأتباع على مستوى المرحلة والهدف معًا؛ لأننا ندرك – جيدًا– أن التغيير لابد أن يخضع لخطة متكاملة على صعيد الزمان والمكان والأشخاص، والوسائل والأهداف. وبهذا لا يختلف أسلوب الثورة في عملية

التغيير عن أسلوب الحركة من داخل المؤسسات في مسألة الشروط الموضوعية التي يجب أن تتوفر في الحركة.. فإن الثورة، إذا لم ترتكز على أساس الخطة المتكاملة، لا تستطيع أن تحقق النجاح لفكرتها، أو الاستقامة لخطها، أو الوصول إلى النتائج الحاسمة لأهدافها؛ لأن المسألة في الثورة ليست أن تهدم واقعًا فاسدًا من خلالها، بل المسألة أن تبني واقعًا جديدًا يحمل فكرها وتطلعاتها وينفذ برنامجها ومخططها العملي في الحياة.

الحكم وركوب الموجة الإسلامية

النقطة الثانية: إن التجارب المذكورة في هذه الملاحظات، لا تسجّل أية نقطة سلبية ضد الفكرة؛ لأنها لم تستوف الشروط المطلوبة التي تطرحها الفكرة-الخط، ففي التجربة الأولى في السودان، كان من المفروض على الإسلاميين أن يعرفوا، أن مثل هذه الصرعة الإعلامية الإسلامية لا تتحرك من أية جذور «إسلامية» في حركة التغيير، بل تنطلق من حاجة الحكم الطاغي المنحرف إلى غطاء إسلامي يسيطر من خلاله على البسطاء الطيبين من المؤمنين هناك ليزيل «الاحتقان» الشعبي الثوري ضد حكمه من خلال الأزمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي حطّمت حياة الناس، وأثقلتهم بالمشاكل المتنوعة، وأرهقتهم بالقيود والأغلال، وليحوّل المسألة إلى ملهاة، تشغل الناس عن الجذور العميقة للنظام في مرتكزاته اللا إسلامية فيما يمثله من قواعد سياسية وفكرية، مرتكزة على المفاهيم والأسس الاستعمارية الكافرة.. ولهذا، فقد كان الأمر

واضحًا كل الوضوح منذ البداية أن المسألة لن تتعدى ركوب الموجة الإسلامية العاطفية للحصول على عطف شعبي للالتفاف بعدها على الإسلاميين لضربهم، وتحميلهم مسؤولية النتائج السلبية للتطبيق الجزئي الاستعراضي للحدود الإسلامية بعيدًا عن قاعدة الحكم الإسلامي الشامل لاستعمال ذلك أداة للضغط على خصومه الآخرين، وهذا هو ما حدث.

ولهذا، فإن الاقتراب من الحكم لا يحمل أية ضمانات، أو أية ظروف موضوعية للخط التغييري، بل كان مجرد استغلال رخيص من قبل السلطة لم تنتبه إليه القوى الإسلامية — فيما يظهر، هذا إذا لم يكن لهذه القوى هدف آخر مرحلي، أو نهائي من خلال ذلك فيما ننتظر أن تكشفه تطورات الأحداث التي بدأت تتلاحق بسرعة في الانقلاب الأخير، هناك.

المعارضة وجماعة المنتفعين

وفي تجربة المعارضة في لبنان لم يكن واردًا— فيما يبدو — أية خطة للتغيير، بل كل ما هناك، أن في الساحة مشاريع إقليمية أو دولية تفرض على الأشخاص والأحزاب والحركات أن تتحرك ضمن دائرة سياسية وأمنية معينة لتحقق حالة خاصة من خلال اشتراكها في الحكومة فيما يتعلق بالشخص، أو بالطائفة، أو بالمحور السياسي الخاص.

إنها جزء من حركة اللعبة المحسوبة بدقة فيما تتحرك فيه من واجهات، وفيما تنفذه من مشاريع، وفيما تثيره من أجواء استعراضية لحساب العواطف

الشعبية التي يثيرها الزهو بالحركات الانفعالية التي توحي بالشجاعة الكلامية المتفق عليها بين الأطراف في حروب الاستعراض السياسي الذي يراد من خلاله تخفيف الاحتقان الداخلي للساحة، وتنفيس الحالة الشعبية بعيدًا عن أي حل للمشكلة من قريب أو من بعيد.

وفي تجربة الشخصيات والأحزاب الإسلامية مع الحكومات المدعية للإسلام لا نجد هناك أي تخطيط لقضية التغيير على مستوى شمولية الإسلام في واقع الحكم والحاكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع، بل كل ما هناك أن هؤلاء بين من يعيش معهم عقلية الباحث عن مصدر للإثراء، أو عن موقع للسلطة، وبين من يعيش معهم ضمن مفهوم مختلف لا يجد في انحراف الحاكم مشكلة تدعو إلى الثورة، وتدفع إلى التغيير، ولا يجد في الارتباط بالاستعمار مسألة تدين الحكم وتبعد به عن الإسلام، ولا يفكر بالتطبيق الشامل للإسلام، بل كل ما هناك أن تكثر المساجد، وتطبع المصاحف، وتتحرك الدعوة للإسلام بطريقة تقليدية لا روح فيها ولا حياة؛ لأنها لا تتحرك من مواقع الإسلام الفكرية في خط التغيير الفكري والسياسي، بل تنطلق من المفاهيم العامة التي لا تلتقي بالمشاكل الحياتية للإنسان المسلم إلا من بعيد، بالمستوى الذي يلامس المشكلة بحذر، ولا يتعامل مع العمق الساكن في الأعماق.

ومن خلال ذلك نعلم أن هؤلاء لا يمثلون حركة الإسلام في الواقع من خلال الانتماءات والعلاقات بالحكم والحاكمين، بل يمثلون جماعة المنتفعين الذين

يريدون أن يعطوا الحكم غطاءً إسلاميًّا من دون أن يقدم لهم وللحياة أي إسلام ينفتح على قضايا الأمة ومشاكلها في الحياة.

وفي هذا الجو الذي عشناه في مناقشاتنا لهذه التجارب نستطيع أن نخلص إلى الفكرة التي نريد أن نؤكدها في هذا المجال وهي أن هذه التجارب لا ترتبط بالخط العملي الذي تثيره معالجتنا لقضية التغيير بالأسلوب الواقعي من قريب أو من بعيد.

رفض التحرك العشوائي

النقطة الثالثة: إن الفكرة المطروحة في هذه المعالجة ليست مطروحة على صعيد بلد معين، أو على أساس أن تكون الحل الأوحد لعملية التغيير، بل هي مطروحة على صعيد الساحات التي لا تملك الحركة الإسلامية فيها مجالاً للثورة، أو تكون الثورة فيها مصدرًا لكثير من السلبيات السياسية، أو الأمنية التي لا يتحملها الواقع، بشكل مطلق، أو على مستوى المرحلة، مما يجعل الأمر ضروريًّا للبحث عن بدائل للتحرك في اتجاه إيجاد مواقع متحركة من أجل الوصول إلى إمكانات أكبر في حركة الإسلام في الواقع. ولكن ليس معنى ذلك هو التحرك العشوائي الذي يفكر فيه العاملون بطريقة غير متوازنة، مما يتيح لهم الغرق في موجات الكفر والضلال في الوقت الذي يعملون فيه على الوصول إلى الإسلام في حركته الصاعدة نحو الانتصار والنجاح.

إن القضية ليست هي قضية الهرب من فكرة الثورة هربًا من نتائجها، بل القضية هي قضية الوصول إلى انطلاقة الإسلام في حكم الحياة من أي طريق شرعي، يملكه العاملون للوصول إلى هذا الهدف الكبير. فإذا كانت للثورة إمكاناتها العملية في أي ساحة من الساحات من دون سلبيات كبيرة صاعقة، فإن الثورة تصبح الوسيلة الفضلى للتحرك نحو الهدف، أما إذا لم يمكن ذلك، أو كانت السلبيات فيه أكثر من الإيجابيات، فإن الوسيلة المشروعة هي التحرك في طريق آخر يخضع للحكم الشرعي الذي يريد الله للحياة أن تخضع له في مستوى الوسيلة وفي مستوى الهدف.

الثورة والخيار الوحيد

ربما يطرح بعض الناس في هذا الاتجاه في خط السير، فكرة تقول: إن الذين يحرسون معادلات الاستكبار العالمي في صياغة الساحة على صورته، ومن خلال ما يملكه من مفاهيم ونظم وشرائع لا يمنحون الفرصة المعقولة لأية حركة إسلامية أن تنفذ إلى داخل المعادلة لتهدّمها من خلال مؤسساتهم ومشاريعهم السياسية والتنظيمية التي يملكون مفاتيحها، ويعرفون مساربها، ويسيطرون على مصادرها ومواردها، .. فإذا اجترأت على دخول الهيكل، وحاولت أن تعبث بمحتوياته، وقفوا أمامها بكل قوتهم، وعملوا على أن يعبثوا بكل مفاهيمها وقضاياها، وأن يحتووا ساحاتها من خلال ساحتهم؛ ليهزموها من حيث تريد النصر، ويسقطوها من حيث تريد النجاح، الأمر الذي يجعل من الثورة الخيار الوحيد الذي يملكه

الإسلام في الوصول إلى الحكم؛ لأنه يستطيع من خلالها أن يحاصر المعادلات الاستكبارية بضرباته المتلاحقة التي يكتشف فيها كل يوم أسلوبًا جديدًا للحصار، ووسيلة متقدمة للمواجهة، حتى يسقط الهيكل على رؤوس أهله وحرّاسه.

إن القضية هي أن تتحرك من حيث تملك الساحة، فتعيش حرية الحركة من موقع خطتك وإرادتك لا من حيث يملكها الآخرون فيما يحددون لها من حدود، ويخططون للسير عليها من خطوط.

مسؤولية صنع القوة وإيجاد البدائل

ونجيب على ذلك: إن مشكلة الإسلاميين العاملين في سبيل تغيير الواقع على أساس الإسلام ليست هي ما يفكر فيه المستكبرون، وما يعملون له، فإن من الطبيعي أن يعملوا على تهديم كل ما نبنيه، واحتواء كل ما نخطط له، وإسقاط كل ما نريد أن نحققه، بل هي: ماذا نريد أن نعمل في مواجهة ما يعملون، وماذا نريد أن نخطط في مقابل ما يخططون؛ لأن الساحة في كل أبعادها مفتوحة للصراع على أكثر من جهة، سواء في الآفاق التي نحاول أن نفتحها وننطلق بها في حركة الثورة، أو في المجالات التي نريد أن نتحرك فيها في حركة المؤسسات القائمة في الساحة.

وإذا كانوا يملكون ساحة مؤسساتهم، للعبث أو للتآمر أو الاحتواء، فإنهم يملكون الكثير من الفرص والأشخاص، والمؤسسات، والمصالح المرتبطة بهم في

ساحاتنا العامة، فيمكنهم أن يهزموا -من خلال ذلك- انطلاق الثورة، كما يمكنهم أن يهزموا حركة التغيير في نطاق المؤسسات، فإن علينا أن لا ننتظر في الثورة أن يجلس الاستعمار في انتظار أن ندخل عليه الهيكل لنهدمه على رأسه، بل سيعمل بكل جهده قبل انطلاقة الثورة في مواجهتها بأساليبه؛ لئلا تنطلق، وسيعمل بكل وسائله – بعد انطلاقتها – في مواجهتها بالثورة المضادة لكيلا تستمر تمامًا كما هو الحل في الأسلوب الآخر للتغيير.

وقد يكون الأمر مختلفًا بعض الشيء في هذا الأسلوب أو في ذاك الأسلوب، ولكنه لا يختلف في مسألة واحدة، وهي: أن عليك أن تخطط لمسيرتك، فلا تتركها للرياح القادمة من بعيد لتبقى في قبضة التمنّيات الغيبيّة، وإذا كنت تنتظر الغيب، فعليك أن تنتظره بعد استكمال عملك من خلال سنن الله.

وقد يكون من مسؤوليتك أن تفكر دائمًا في قوة الآخرين من خلال نقاط ضعفك، بل يجب أن تفكر في عملية صنع قوتك من خلال نقاط ضعفهم لتتوازن عندك المسألة، فلا تنهزم قبل الدخول في المعركة، بل تضع في موقع كل نقطة ضعف لديهم عنصر قوة في المواجهة، وبذلك يمكن لك أن تواجه قوتهم، بعد بناء قوتك الذاتية.

إن ما نريد تأكيده في كل هذا الحديث هو ضرورة التفكير في البدائل دائمًا في أي موقع من مواقع الحركة؛ لئلا تحشرنا الظروف المتغيرة المتنوعة في زاوية مغلقة لا نملك معها حراكًا لنظل نتحرك في أكثر من اتجاه في طريقنا نحو الهدف. وهذا

هو ما نفهمه من أسلوب الإسلام المتحرك في خط الرفق، وفي خط العنف، وهذا هو ما نلاحظه في سيرة النبي محمد (ص)، وفي سيرة الأئمة والصحابة والأولياء (ع)، في تنوّع الأسلوب مع وحدة القرار الحاسم والفكرة الثابتة.

وإذا أردنا دراسة البدائل، فعلينا أن لا نتجمّد أمام السلبيات، بل يجب أن نقارنها بالإيجابيات، والعكس صحيح أيضًا؛ لأن السبيل السوي هو الذي يحسب حساب القضايا من جميع الجهات، لا من جهة واحدة.

وربما كان من الضروري – في هذا الاتجاه – أن لا ندرس الفكرة في المطلق من خلال تجربة محدودة، في نطاق الزمان والمكان، بل علينا أن ندرسها من خلال أكثر من تجربة وأكثر من فرصة؛ لأن نجاح تجربة في زمان ما، أو مكان ما لا يعني نجاحها في كل زمان أو مكان، إلا إذا استطعنا أن ندرس التجربة بطريقة علمية موضوعية تحقق لنا القناعة الحاسمة بأن خصوصية الزمان والمكان لا تمثل أي تأثير في طبيعة النتائج العملية في ذلك.

مناقشة المصادر الإسلامية

وأحب في ختام هذا الحديث أن أوجه ندائي إلى كل العاملين للإسلام، أن يبتعدوا عن العاطفة في تقييم الأفكار، وأن ينطلقوا في قناعاتهم، أو رفضهم من خلال مناقشة المصادر الإسلامية لما يطرح من أفكار، وأن يفرقوا دائمًا، بين ما هو التصريح الصحفي، أو الخطاب الجماهيري، أو الشعار الانفعالي، وبين ما هو الفكر الذي يرسم للمستقبل طريقه الطويل من أجل أن يستقيم بقوة ووعي نحو الهدف.

من الذي يقود عملية التغيير
حزب الأمة أو أمة الحزب؟ (أ)

القائلون بالنظرة السلبية للعمل الحزبي يعتبرون أن:

- **الحزبية ليست أسلوبًا إسلاميًّا**

مسجلين مشكلة العصبية والعقلية وشرعية القيادة.

- **التغيير نتيجة طبيعية**

لقوة الأمة ووعيها وتنظيمها المنفتح الشامل.

من الذي يقود عملية التغيير
حزب الأمة أو أمة الحزب؟ (أ)

دور الحزب والأمة

كيف يتحرك خط التغيير في حركة الإسلام في الواقع؟ وما هو الإطار العملي الذي يتحرك العاملون في داخله؟ هل هو الحزب الذي تخضع فيه الحركة لتعليمات محددة، وتنظيم دقيق، ودرجات متفاوتة، وخطط مرحلية متدرجة في عملية الدعوة، وفي انطلاقة التغيير الواقعي السياسي والاقتصادي والاجتماعي، فيطبع الأفراد بطابعه المميز، فلا يتحركون إلا من خلاله كما يؤطر شخصية الأمة بإطار شخصيته؟

أو هو الأمة التي تمثل الساحة الواسعة لحركة التغيير من خلال حركة الإسلام في وجدانها الفكري والشعوري، وذلك في نطاق الأمواج البشرية التي تتدافع وتندفع لتكون التيار الذي يجرف أمامه كل التيارات الأخرى، بكل قوته واندفاعه؟

وبالتالي هل هو حزب الأمة أو أمة الحزب؟

هذه علامات استفهام، بدأت تتخذ لنفسها مكانًا في دائرة الصراع، في ساحة العمل السياسي الإسلامي التغييري تبعًا للأجوبة الحاسمة في هذه المسألة.

الحزب وقيادة الأمة

فهناك من يعتبر الحزب هو الإطار العملي الواقعي لعملية التغيير، ويرى في التنظيم الحزبي الخاضع لهيكلية معينة في أسلوب العمل أساسًا للنمو والتطور والوصول إلى نتائج حاسمة، فهو الذي ينظم للأمة طاقاتها، ويحدد شخصيتها، ويقود خطواتها إلى الهدف الكبير. وبذلك يحقق للساحة قيادتها الطليعية والواعية المتقدمة التي تعرف ما تريد، وتتحرك بخطى ثابتة نحو تحقيق ما تريد.

وهذا هو النهج الذي درجت عليه الحركات الإسلامية السياسية التي عملت على أساس المنهج الحزبي في تحركها السياسي، مثل «حزب الإخوان المسلمين»، و«حزب التحرير»، و«حزب الدعوة الإسلامية»، وغيرها من الأحزاب الإسلامية التي تأخذ لنفسها صفة الحزب، وقد تختار الحركة أو المنظمة.

التنظيم والجو الإسلامي ونشوء «حزب الله»

وهناك من يعتبر الحزبية حركة بعيدة عن الجو الإسلامي الذي يحمل صفة الدين في شخصيته، ويعمل على احتواء الأمة في فكره، فيتحول إلى عبادةٍ في إيمان الفرد، وحركةٍ في إيمان المجتمع، وانطلاقة تغيير شامل في مواجهة كل الأوضاع المنحرفة في حياة الأمة، مما يفرض على العاملين أن يخاطبوا الأمة ككل؛ لتكون الثقافة للمجتمع بشكل جماعي، ويكون التخطيط للكل بطريقة شاملة؛ لتنمو الفكرة العامة في ذهنية الأمة من موقع عمقها وشموليتها؛ فيحدث التغيير

من مواقع الأمة بدلاً من أن يحدث من خلال النخبة؛ لأن ذلك يعني حدوث انفصال في عملية الوعي التغييري بين ما هي الطليعة وبين ما هي القاعدة، وعندما تختزن النخبة كل مخططات التغيير ووسائل الحركة، ويبقى للأمة أن تنفعل بنداء الثورة وبدعوة التغيير من دون وعي للخلفيات الكامنة وراء حركة الثورة ودعوة التغيير.

وفي هذا الجو، برزت فكرة «حزب الله» أمام فكرة التنظيم الحزبي لتعتبر نفسها البديل له، حيث يحقق كل إيجابيات التنظيم بعيدًا عن كل سلبياته، ولكن من دون تنظيم، وذلك من خلال نجاح التجربة للتغيير من خلال هذه الفكرة، وفشل فكرة التنظيم فكيف نواجه المسألة؟

العقلية الحزبية والتفاعل

لعل من الأمور التي يثيرها خصوم فكرة «الحزبية التقليدية»، هو.. مسألة «العقلية الحزبية» التي تفصل شخصية الحزبي عن الأمة، وتحوله إلى عنصر معزول عنها فيما يوحي به لنفسه من الفكر الخاص والجو الخاص والشخصية المميزة، مما يفقد معه حالة التفاعل مع المجتمع في الأمة وأحلامه، بل ربما يتحول إلى شخص يعيش الاحتقار لمن حوله من غير الحزبيين؛ لأنهم لا يملكون الوعي الذي يملكه، ولا يحملون الفكر المميز الذي يحمله، فإذا كان يعمل على أساس اسميّ مثلاً، فإنه يرى في نفسه «المسلم الواعي»، بينما يرى في الإنسان الآخر «المسلم التقليدي»، وهكذا يفقد الحزب فيما يربي به شخصية أفراده إمكانية قيادة الأمة

نحو التغيير؛ لأنه لا يختزن – في داخله الانفتاح المتفاعل على الساحة كلها الذي يؤدي به إلى أن يفهم خلفياتها وامتداداتها وآفاقها في حركة الأمة.

إطار العصبية الحزبية

وربما كان من بين هذه الأمور «العصبية الحزبية» التي تؤكد فيها التربية على الأخص للحزب بالطريقة التي لا تقبل معها أي نقد أو مناقشة للأفكار الرسمية المتبناة من قبل قيادته، بحيث يتحول الأمر إلى تعصب للإطار بعيدًا عن حركة الفكرة في العقل أو في الواقع، وقد يصل إلى الحالة العدوانية فيما يستثيره من الحساسيات المضادة التي قد تؤدي إلى المواجهة النفسية والعملية ضد الحزب الآخر أو الفريق الآخر مما يجعل الأمة منقسمة على نفسها في قضاياها العامة فتبدد طاقاتها في صراعات سياسية تتعلق بالشكل وتبتعد عن المضمون. وهكذا تساهم العصبية الحزبية في إبعاد الحزب عن احتواء الأمة، وتوجيهها إلى الأهداف الموحدة في الساحة الواحدة.

شرعية القيادة الحزبية

وقد يتحدث البعض عن شرعية العمل الحزبي بطريقة سلبية؛ لأن النهج الذي سار عليه النبي (ص) والأئمة (ع) والصحابة والتابعين في العمل للإسلام يختلف عن هذا المنهج، فقد كان الخطاب للأمة بالمفاهيم الإسلامية كما كان العمل علنيًّا على مستوى شخصية القائد، أو على مستوى حركة العمل. وهذا

هو النهج الذي يحقق للإسلام امتداده في حياة الأمة، ويحقق له الروحية العميقة التي يلتقي فيها الجميع في الساحة العامة على كلمة الله وعلى اسم الإسلام من دون أية حواجز تنظيمية معقدة، ومن دون أية شخصيات طارئة، وهذا هو الذي نستوحيه من الأسلوب القرآني الذي يخاطب فيه الله المؤمنين كافة كأمة مسؤولة، وهو الذي يمكن أن يحول المسلمين إلى أمة بدلاً من أن يكونوا كجماعات.

وقد يتحدث البعض عن الشرعية من ناحية أخرى. وهي أن طريقة الإسلام في العمل تتمثل في القيادة المتمثلة بالنبي أو الإمام أو الأمير الذي يبايعه الجميع، ويلتقون عليه في نطاق المسؤوليات الشرعية للقائد وللقاعدة، وبذلك تتحرك شرعية العمل من خلال شرعية القيادة في إشرافها عليه، وفي التزامه بها، عندما يكون القائد مصداقًا لأولي الأمر، سواءً في ذلك على أساس نظرية الشورى، أو نظرية ولاية الفقيه. وهذا ما يفتقده العمل الحزبي الذي يخضع فيه نظام القيادة للطريقة التنظيمية التي تفرض القيادة من موقع التنظيم لا من موقع الشرعية الإسلامية لشخصية القائد.

ومن خلال ذلك، تتحرك قضية الالتزام فيما يصدر من أوامر ونواهٍ وتعليمات محددة، فقد لا يجد العمل الحزبي أساسًا ملزمًا للمؤمنين العاملين في إطاره إلا فيما يلزم به الإنسان من يمين أو عهد ونحوهما، مما يفسح المجال للكثير من إمكانات الانسحاب منه على أساس المبررات التفصيلية للخروج من إلزام

اليمين ببعض وسائل الرُّخَص الشرعية التي وضعها الفقهاء. وربما يساهم هذا الخط في إيجاد حالة من الإرباك والخلل على مستوى حركة التنظيم في داخل الحزب.

ولكن هذا لا يحدث في العمل الإسلامي المنفتح على الأمة ككل في نطاق القيادة الشرعية كالولي الفقيه، أو الذي تعينه الشورى، أو الذي يبايعه المسلمون، فإن الولاية والشورى والبيعة ونحوها تمثل حلة شرعية ملزمة للمسلمين في تنفيذ كل ما يراد لهم أن ينفذوه من تعليمات ومخططات.

السرية الحزبية والرقابة

وقد يتحدث البعض عن «العمل السري» كنقطة سلبية في العمل الحزبي؛ لأن ذلك يبعد الأمة عن الارتباط الوجداني بقيادتها، ويفسح المجال للكثير من أساليب اللعبة السياسية من خلال الأجهزة الخفية في إبعاد الكفاءات الشرعية عن مركز المسؤولية القيادية، وبتحريك الخلفيات المشبوهة لتنحرف بالخط إلى غير الاتجاه المستقيم بعيدًا عن الرقابة الشاملة للأمة؛ لأن رقابة التنظيم قد لا تكون بالمستوى الدقيق الذي يسمح بالاطلاع على خفايا الأمور، وقد لا يكون قادرًا على تنفيذ ما يراد تنفيذه لخدمة مسألة الإصلاح، وقد تملك القيادة السرية من الإمكانات الكثير من الوسائل التي تستطيع – من خلالها – السيطرة على كل حركة مضادة من دون أن يملك القائمون بهذه الحركة أية إمكانات قوية

في المستوى نفسه، بينما يستطيع هؤلاء في نطاق حركة الأمة في مواجهة القيادة العلنية المعروفة القيام بكثير من أوضاع التغيير.

الحزبية أسلوب غربي

وقد يتحدث البعض عن الطريقة الحزبية في العمل من زاوية أخرى، وهي أن مثل هذا الأسلوب ليس أسلوبًا إسلاميًّا فيما يعرفه المسلمون من أساليب العمل المفتوح الذي لا تعقيد فيه ولا التواء، بل هو أسلوب غربي خاضع للعقلية السياسية التي تتحرك بالطريقة الميكافيلية في ترتيب الأوضاع السياسية ضد الفريق الآخر الذي تتصارع معه دائرة النفوذ، وبذلك تلتقي الأساليب بالذهنية المعقدة الباحثة أبدًا عن انتصار، أي انتصار في حركة اللعبة السياسية التي لا تمنح الأمة حرية المعرفة للواقع إلا بالمقدار الذي تسمح به مصلحتها الفئوية الخاصة.

ويضيف هذا البعض إلى هذه الملاحظة أن مصلحة العمل الإسلامي في دائرته الفكرية أو السياسية أن ينطلق في أساليبه من داخل الروحية الإسلامية؛ ليلتقي الأسلوب بالفكرة، في عملية توازن وتكامل ليكون النمو الحركي للشخصية الإسلامية نموًّا طبيعيًّا متوازنًا، تتوفر فيه كل عناصر القوة الذاتية من الفكرة والروح والمنهج والأسلوب؛ لأننا إذا لم نتحرك في مثل هذا الجو، فإننا سنكون كمن يزرع النباتات الشتوية في أجواء الصيف، أو كمن يزرع نباتات الجبل في السهل من دون تحضير الأجواء الملائمة البديلة، مما يؤدي إلى ضعف

في النمو، وإلى فقدان الكثير من الخصائص الحية، أو إلى انعدام النمو من حيث الأساس.

منطلقات أمّة «حزب الله»

وقد يعتقد هؤلاء الذين يثيرون علامات الاستفهام حول التنظيم الحزبي أن مثل ذلك قد يكون حجة مقنعة في ترجيح الاتجاه الآخر، وهو العمل في نطاق «حزب الله» الذي يتبنى الأمّة كإطار للحزب، ولا يتبنى الحزب كإطار في الأمّة، فإن النقاط السلبية في الاتجاه الحزبي تتحول إلى نقاط إيجابية في الوجه الآخر في حركة الأمّة.

العمل بعقل مفتوح

فإذا كان العمل السياسي يتحرك في ساحة الأمّة، فلا يمكن أن يكون هناك فرز داخلي يفصل شخصية العاملين عن الأمّة؛ لأنهم يعملون في داخلها بالعقل المفتوح الذي يحتوي كل الناس في اهتماماته الفكرية والروحية والسياسية.

ظاهرة تنوع لا صدام

ومن الطبيعي أن لا تكون هناك عصبية على المستوى الفئوي الضيق؛ لأن العمل ليس عمل فئة في مقابل فئة، بل هو عمل الأمة كلها في مقابل التحديات الآتية إليها من فريق الباطل، وبذلك يكون الاختلاف في وجهات النظر من

خلال هذه الروحية اختلافًا في الدائرة الواحدة الواسعة، مما يعطي للظاهرة معنى التنوع بدلاً من معنى الصدام.

الوعي الشرعي والسياسي

أما مسألة «الشرعية»، فإن الأمة تتحرك في خط القيادة الفقهية المبدعة التقية العادلة التي تملك الوعي الشرعي الذي تستطيع من خلاله أن تعرف ما هو الإسلام في مفاهيمه وعقائده وأحكامه، فلا تنحرف بالناس عن الخط من الناحية الفكرية، كما تستفيد من ذلك في استقامة الخط من الناحية العملية فيما تمارسه من عمل قيادي على أساس إسلامي.

وتملك الوعي السياسي الذي يجعلها تفهم الساحة جيدًا في خلفياتها، وفي مشاريعها، وفي أوضاعها، وفي كل الأجواء التي تتحرك في داخلها، فتبعد بذلك عن السذاجة السياسية التي تتيح للآخرين أن يلعبوا بها في عملية الخداع والتضليل ليقودوها إلى بعض التحالفات التي لا تكون في مصلحة الأمة، أو إلى بعض المخططات التي تسيء إلى حاضرها ومستقبلها.

إن مسألة الوعي السياسي في القيادة بالإضافة إلى الإرادة القوية، والعدالة في الروح والسلوك هي الضمانة للانسجام مع المصلحة العامة للأمّة.

علنية القيادة ورقابة الأمة

أما مسألة النتائج السلبية للسرية، فإنها ليست بذات موضوع، ما دامت

القيادة تتحرك في مواقع المسؤولية بشكل علني، وما دامت المواصفات الشرعية للقائد هي التي تمنحه الموقع الشرعي القيادي على مستوى مسؤولية الأمة في العمل الإسلامي.

فإن ذلك لا يسمح بالأساليب الملتوية التي قد يسمح بها العمل السري؛ لأن فكره وسلوكه وأوضاعه العامة والخاصة، وماضيه وحاضره ليس أمرًا بعيدًا عن تجربة الأمة وعن رؤيتها، وملاحظاتها النقدية ورقابتها الواعية التي تنعكس إيجابًا على حركة القيادة فيما تواجهه من مسؤولية الالتزام والانضباط في خط الشريعة من خلال رقابة الله ورقابة الأمة. وبذلك تستطيع الأمة الحصول على معرفة شاملة لشخصية القائد وحركته، وأسلوبه في العمل القيادي، وأمانته في حفظ المسؤولية، وإخلاصه لله؛ لتقرر بعد ذلك فيما إذا كان الواجب الانسجام مع حركة قيادته، أو المواجهة لها، مما يمثل الضمانة القوية لحاضر الأمة ومستقبلها.

الأمة والقرار السياسي

وتبقى للإسلام أجواؤه الروحية والعملية في حركة الأمة عندما تتحول المساجد كما كانت إلى ساحات للعمل السياسي والجهادي والثقافي، كما هي ساحة للعمل العبادي، فيلتقي العاملون للإسلام بالأمة بطريقة مفتوحة، فيحدثونها بكل الأحداث التي تتحرك في الساحة، ويبلغونها الخطط الموضوعية من قبل القيادة في مواجهة التحديات، ويثيرون أمامها المشاكل المنتظرة التي تحتاج إلى استعداد وإلى حلول، ويعدون لها المواقف التي يجب عليها أن تقف

فيها، ويستمعون إلى وجهات نظر أفرادها، ويناقشونها بكل ما فيها من تفاصيل فيما تثيره من نقاط الضعف أو من نقاط القوة ليكون القرار الحاسم منطلقًا من القناعة القائمة على الفهم الواعي في حركة الأمة والقيادة.

ومن خلال ذلك، تحصل الأمة على الثقافة السياسية الواعية التي تجعل للأمة الرقابة على حركة الواقع السياسي من مواقع الرؤية الواضحة للأشياء، ومن موقع المعاناة الذاتية في ممارستها للموقف، ومن طبيعة المشاركة الفاعلة في ولادة القرار وفي صناعته، مما يزيد القرار السياسي قوة ومصداقية وفاعلية؛ لأنه لا يكون قرار النخبة أو الطليعة، بل يكون قرار الأمة.

التفاعل بين الأمة والفقيه

وإذا كانت نظرية ولاية الفقيه هي التي تحكم الساحة العامة للأمة، فإن القيادة للعلماء الفقهاء الواعين هي المؤهلة لتسلم زمام الأمور في انطلاقة العمل السياسي، كما كانت كذلك في العمل التبليغي والعبادي، فلا نقع في الازدواجية في شخصية العالم الديني المسلم بين ما هو الداعية وبين ما هو الإنسان المتحرك لنجمِّد فيه حركية الإنسان، ونحرك فيه جانب الدعوة فقط، بل ندرس شخصيته من خلال إمكاناته الفكرية والروحية والعملية لنعرف كيف نلتقي فيها بشخصية القائد الذي يملك وعي التخطيط ووعي التنفيذ، فنضعه في موقعه من موقع شرعية الكفاءة بعيدًا عن أية حالة تقليدية للقداسة والاحترام. وفي ضوء ذلك

يتم التفاعل بين شخصية العالم وشخصية السياسي والمجاهد لتتكامل للإنسان شخصيته من جميع الجوانب.

ولن يكون ذلك كهنوتًا– على كل حال – بل يكون نوعًا من أنواع المسؤولية الخاضعة للكفاءة فيما يراد للمسؤولية أن تخضع له من فكر وشريعة ومنهج، ويبقى للأمة دورها الكبير، في عملية التفاعل والتكامل والتخطيط مع القيادة، ومهمتها الكبيرة في التأييد والتنفيذ خلفها.

وبهذا فلن نحتاج إلى تغيير صيغة الوضع الاجتماعي العام للأمة، في أسلوب العمل الجماعي، ولن نعزل الأكثرية عن عالم التخطيط للمستقبل، بل نجعلها تتطور وتنمو وتتحرك وتجاهد، وتؤيد وتعارض من ساحاتها الواسعة، فتتحول إلى قوة كبيرة لحماية نفسها من التحديات الخارجية التي تتحدى عقيدتها وشريعتها ومنهجها في الحياة، كما تتحدى حريتها وكرامتها واستقلالها، ولحماية المستقبل من القيادة المنحرفة الضعيفة؛ لأنها تعرف خطورة دورها في عملية المواجهة، وفي عملية البناء، كدور أساسي وليس على الهامش.

وهكذا يتحرك التيار في اندفاعه الكبير من دون حاجة إلى الأشياء الصغيرة التقليدية التي تنظّم له انتسابه للحركة من بطاقات معينة وسمات خاصة؛ لأن ذلك هو شأن الزوايا الصغيرة لا شأن الساحة الكبيرة المنفتحة على كل الحاضر والمستقبل، فلا يحتاج الحركي في انتمائه إلى الأمة إلا إلى ارتباطه برسالتها، والتزامه بمنهجها، واستعداده للجهاد في سبيل الله، واستقامته على الطريق المستقيم فيما

يمثله ذلك كله من القيم الروحية للأمة التي إذا انتمى إليها الإنسان المسلم، كان منتميًا للأمة والحزب الذي يشمل كل ساحاتها الفكرية والسياسية.

وإذا استطاعت الأمة أن تصل إلى هذا المستوى من الوعي، ومن التنظيم المنفتح الواعي الشامل، فإن التغيير سيكون نتيجة طبيعية للقوة الكامنة في حركة الأمة التي ستتحول إلى تيار قوي جارف لا تستطيع المحاور الصغيرة أن تنال من قوته، أو تخفف من اندفاعه، أو تحول انطلاقته إلى الشاطئ الذي تتكسر الأمواج عليه لمصلحة الطغاة والمستكبرين.

هذه هي وجهة نظر الذين ينظرون نظرة سلبية إلى التنظيم الحزبي، ويرون أن عملية التغيير تحتاج إلى حركة الأمة لا إلى حركة الحزب.

فهل هي النظرة الواقعية للساحة؟

هذا هو الحديث الذي سنحاول إثارته في الصفحات التالية.

من الذي يقود عملية التغيير
حزب الأمة أو أمة الحزب؟ (ب)

- **الحاجة إلى الواقعية**

هي التي تحدد أسلوب العمل الإسلامي.

- **العمل الحزبي**

كالعمل الثقافي أو السياسي يخضع للحكم الشرعي.

- **مشكلة العمل الحزبي**

هي مشكلة العاملين للإسلام والسبب خلل في التربية.

- **التنظيم في العمل الإسلامي**

هو السبيل للوصول إلى الأهداف الكبرى.

من الذي يقود عملية التغيير
حزب الأمة أو أمة الحزب؟ (ب)

تحديد دائرة التحرك

قد يطرح «الحزبيون» و«دعاة العمل التنظيمي» سؤالاً يراد – من خلاله– تحديد الدائرة التي يتحرك فيها البحث لئلا يضيع الحديث في متاهات الافتراضات والاتهامات اللامسؤولة.

وقد نحتاج إلى تبسيط السؤال! في البداية؛ ليكون الخطوة الأولى في حركة المعرفة السياسية التي تنطلق لتحدد انطلاق التغيير مع القيادة وخط السير.

هل نحن بحاجة إلى التنظيم في العمل السياسي من أجل التغيير؟

وهل يمكن – لنا – الانطلاق إلى ساحة العمل الجماهيري في الأمة بعيدًا عن الأسلوب العملي الذي ينظم طاقات الجماهير، ويحولها إلى طاقة موحدة من أجل تحقيق الهدف الكبير للأمة؟

الأسلوب النبوي في مواجهة التحديات

ربما يكون الجواب بالإيجاب بتأكيد الحاجة إلى التنظيم كأسلوب عملي من أجل التغيير، ولكن قد يرى هؤلاء في الأسلوب النبوي الذي مارسه

النبي محمد (ص) في حركة الإسلام في الدعوة، وفي الممارسة والمواجهة في ساحة الصراع الأسلوب الوحيد الذي ينبغي للمسلمين السير عليه في عملهم السياسي الإسلامي؛ لأن ذلك هو الذي يمنح العمل صفته الإسلامية، ويبعده عما استحدثته الساحة من أساليب عملية في حركة الكفر والضلال، ويوضح هؤلاء أن من واجب المسلمين الالتزام بالإسلام في خط الوسيلة والهدف، وذلك من خلال الخطة التكاملية التي يريد الإسلام من خلالها أن يجعل التحرك خاضعًا في أخلاقياته للأجواء الأخلاقية في كل نشاطاته الفكرية والسياسية.

ولكننا نتحفظ أمام هذه الملاحظة؛ لأننا نلاحظ في الأسلوب النبوي في الدعوة وفي الحركة اختلافًا في الشكل تبعًا لاختلاف المرحلة التي كانت تحيط بالواقع، وذلك فيما نلاحظه من اختلاف الأسلوب المكي عن الأسلوب المدني، كما نجد تنوعًا في داخل كل منهما فيما كان تنوع ميزان القوى وطبيعة التحديات.

فقد نقرأ في بعض كتب السيرة أن النبي (ص) دعا إلى الله سبحانه وتعالى ثلاث سنين سرًّا، ثم أعلن الدعوة بصراحة بعد ذلك، وأنه لم يتعرض لآلهة قريش في البداية، بل كان دوره هو دور الدعوة إلى التوحيد في مواجهة الشرك العقيدي، مما كان لا يمثل المواجهة للمجتمع المشرك بشكل مباشر، ثم انطلق في خط التحدي في رفض عبادة الأصنام، وفي تسفيه أفكار المشركين، والتعرض للأصنام وجهًا لوجه، مما جعل الدعوة تواجه الصراع بشكل حاد، وأدى إلى الحصار التمويني والاجتماعي ضد المسلمين، وإعلان الحرب الإعلامية

والجسدية على النبي محمد (ص) بالذات، وعلى المسلمين معه، وهكذا تطورت المسألة، حتى بدأ النبي ينقل دعوته إلى خارج مكة، كما في موقفه في الطائف ومواجهة الآخرين له، حتى كانت قضية الهجرة.

الخطة العملية ومصلحة الرسالة

فإذا صح هذا العرض التاريخي الذي ذكرته كتب السيرة، فإننا نستوحي من ذلك، أن الموقف لم يكن خاضعًا لتعبد شرعي حاسم تخضع له المسيرة، بل كان منطلقًا من الأسلوب الواقعي في مواجهة التحديات، مما يجعل نوعية التحدي، أساسًا لنوعية الرد والتحدي المضاد على أساس الخط العام للدعوة.

وبذلك لا يكون هذا الأسلوب المتنوع حالة توقيفية شرعية لا مجال معها لحرية الحركة في العصور التالية فيما يريد العاملون أن يمارسوه من خطوات وأساليب، بل يمكن لهم أن يستوحوا منها الفكرة العامة التي يتحرك فيها الأسلوب تبعًا لطبيعة التحديات في الساحة، وللخطة العملية التي تفرضها مصلحة الرسالة في حركة الواقع.

فنستوحي من فترة العمل السري في الدعوة مثلاً، شرعية السرية على أساس المرحلة الضاغطة التي لا تسمح فيها الضغوط للرسالة أن تتحرك بالمستوى الواقعي ليكون العمل السري لونًا من ألوان الحماية للبذور الأولى التي يراد لها أن تنمو في جو طبيعي ملائم لا مجال فيه للعواصف، ووسيلة من وسائل تركيز القاعدة على أساس ثابت معقول، وذلك من خلال العمل على بناء قاعدة أولى

للعمل الإسلامي من أجل مواجهة المتغيرات من موقع ثابت قوي.

طبيعة المرحلة وشرعية الأسلوب

ثم قد يمكننا استيحاء الحاجة إلى بعض المواقف الصلبة المتحدية أمام كل تهويل الضغط، وآلام العذاب حتى الموت، كموقف شرعي في سبيل الرسالة فيما رأيناه من موقف الصحابة في بداية الدعوة فيما عاشوه من الضغوط والآلام، حتى استشهد بعضهم تحت التعذيب، كالشهيدين ياسر وزوجته سمية، وعاش البعض أشد العذاب، كبلال من دون أن يخضع أو يستسلم لما يريدونه من النطق بكلمات الكفر، وقد نجد من الموقف الآخر الذي وقفه عمار بن ياسر من النطق بكلمة الكفر من دون اختيار تحت ضغط التعذيب وجهًا آخر للصورة في الموقف الإسلامي الذي يمكن فيه للمسلم أن يتكلم بما يريد له الكافرون من كلمات لا يؤمن بها ليتخلص من العذاب الذي لا يطاق، أو من الموت.. فلا يجب عليه تحمل ذلك كله، فقد نجد في رضى الرسول (ص) عن الموقف الأول وعن الموقف الثاني أساسًا لشرعية اختيار المواجهة للباطل حتى النهاية، أو التخلص من الموقف الصعب بطريقة معينة من دون أن يجد أصحاب الموقفين انحرافًا عن خط الإسلام.

وهكذا نلاحظ في حركة الرسول (ص) في الدعوة، وأسلوبه في العلاقات، وطريقته في المواجهة، وانفتاحه الروحي في مواقف التحدي، وصبره أمام الكلمات القاسية الموجهة إليه، والأساليب التعسفية التي استعملت ضده.. فقد نلاحظ

في ذلك، وفي طريقته في التحرك الخفي، في انسحابه من ضغط الأعداء في عملية الهجرة..، أسلوبًا متنوعًا في موقف الداعية المتحرك أمام التحديات في المرحلة التي قد تحتاج إلى اللين والانفتاح والمرونة والصبر من أجل احتواء الساحة لمصلحة الرسالة من دون الوقوع في المشاكل الصعبة التي قد تسقط الواقع كله لفقدان القوة المادية التي تستطيع مواجهة ذلك بقوة مادية مضادة..، إلى غير ذلك من الأساليب الواقعية التي تتنوع تبعًا لتنوع الواقع من حول الدعوة..، مما يوحي إلينا بأن الداعية، أو العامل في سبيل الإسلام، في أي موقع من مواقع الدعوة والعمل يستطيع أن يملك حرية الحركة في اختيار الموقف الملائم لحركة التحدي من حوله، بشرط أن يدرس طبيعة المرحلة ليحدد شرعية الأسلوب من خلال ذلك.

تطوير الوسائل العملية

وفي ضوء ذلك، قد نستطيع الخروج بنتيجة عامة، وهي أن الإسلام لم يحدد أسلوبًا معينًا للعمل الإسلامي في سبيل الله على مستوى حركة الدعوة، أو حركة المواجهة للتحديات المضادة، بل يمكن تحديد الأسلوب تبعًا للحاجة الواقعية إلى ذلك.

وقد تكون دراسة أساليب النبي محمد (ص) بعد الهجرة، في معاهداته الداخلية والخارجية، وحربه وسلمه، كما قد تكون دراسة طريقة الأئمة من أهل البيت (ع)، سبيلاً لتأكيد هذه الفكرة التي ألمحنا إليها فيما تؤكده من إمكانية

تطوير الوسائل العملية، في سبيل الوصول إلى الهدف الكبير من احتواء الإسلام للحياة كلها، في مجالاتها العامة والخاصة..، بشرط عدم منافاة ذلك للأحكام الشرعية العامة.

الحاجة إلى التنظيم

وعلى هذا الأساس، يمكننا الجواب عن السؤال الذي يطرح أسلوب العمل في بداية الدعوة، أو في أجواء ما بعد الهجرة، كأسلوب وحيد للعمل، فإننا نتعامل معه على أساس استيحاء الفكرة العامة، المتحركة مع تطور وسائل العمل في الحياة لا على أساس الوقوف عند الوجه التاريخي، الخاضع لظروف معينة محدودة لنتجمد عنده، فلا نتعداه إلى غيره.

وبذلك نستطيع الجواب عن الحاجة إلى التنظيم في العمل الإسلامي على مستوى العمل الفكري في خط الدعوة، أو العمل السياسي في خط التغيير الواقعي؛ لأن ذلك هو السبيل للوصول إلى الأهداف الكبرى بطريقة حاسمة معقولة..؛ لأن العمل الذي لا يخضع للتنظيم يفتقد التخطيط الواقعي في مواجهة الواقع، مما يجعله خاضعًا للمؤثرات المعقدة والتغيرات السريعة، ويحوله إلى حركة ضائعة في الرمال المتحركة في متاهات الأجواء السحيقة، وفي جنون الرياح العاصفة، ويؤدي بالنتيجة إلى سيطرة التيارات الأخرى عليه فيما تخطط له من احتواء ساحاته، وبعثرة جهوده، واهتزاز خطواته.

الخطة الإسلامية المرنة

وهذا هو ما فعله الرسول (ص) في تخطيطه الواقعي لمواجهة خطط المشركين، بالخطة الإسلامية المرنة، المتحركة على أكثر من صعيد في حركة فعل من جهة فيما يريد أن يصل إلى أهدافه بشكل مستقل، وفي حركة رد فعل من جهة أخرى فيما يريد أن يواجه به الأعداء في خط المواجهة، وهذا ما يجب أن نواجهه، في عملية رسم الخطة من خلال طبيعة الظروف الموضوعية المحيطة بالمرحلة، ونوعية الأساليب المتحركة في الساحة، في عملية انسجام مع الواقع، في طريقة الحركة لئلا نعيش الغربة الموحشة عما حولنا، مما قد يؤدي إلى العزلة عن كل المؤثرات الفاعلة في حركة التغيير.

وليس معنى ذلك أن نكون صدى لما يثور حولنا من أصوات، أو صورة لما يتمثل في واقعنا من مشاهد، أو انعكاسًا لما يحدث في الساحة من تأثيرات لتكون ظلاً للشخصيات الأخرى التي تصنعها الأفكار المضادة، كما ينادي به البعض، ممن تأثروا بالطريقة الغربية للحياة في أفكارها وأساليبها، فاعتبروها الوجه الحضاري لأي نشاط إسلامي، بينما رأوا في الأساليب المغايرة وجهًا للتخلف الذي يريد أن يوقف حركة التطور في الحياة.

اختلاف أساليب العمل والتعبير

بل معنى ذلك، فيما نحاوله، أن لا نتجمد عند أسلوب معين على أساس حالة تاريخية محدودة، بل نعمل على الأخذ بالوسائل الجديدة التي استحدثتها

تجارب الإنسانية في شتى جوانب الحياة مما لا يختلف في منهجه مع الحكم الشرعي فيما نستفيده من المنهج الشرعي، القائم على حرية الحركة في العمل فيما نختاره مما حولنا من أساليب، أو فيما نستحدثه منه من خلال دراستنا للحاجات الواقعية للمسألة لنواكب حركة الحياة في مواقعها الطبيعية لنؤثر فيها من خلال التفاعل مع المؤثرات الواقعية التي تتحرك على أساس تغيير الواقع بأدوات الواقع، في أجواء الكلمة الحكيمة التي تقول: لا ينتشر الهدى إلا من حيث انتشر الضلال.

أو الحديث المأثور عن النبي محمد (ص): إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم. فقد نستوحي منهما أن ملاحقة الضلال في أساليبه، تمثل عملية حكيمة واقعية من عملية الاحتواء والتطويق، كما أن التحدث للناس بمقدار عقولهم، يعني مواجهة الأساليب التي تحكم طريقتهم في التفكير، وفي الحركة، وفي المواجهة؛ لأن ذلك هو ما يعنيه حجم العقل في مواجهة الأفكار فيما يتأثر به من الأوضاع المحيطة به على مستوى الأفكار والأساليب، الأمر الذي يجعل مخاطبته بالفكرة بعيدًا عن الأجواء الداخلية التي تحكم طريقته في التفكير شبيهًا بالتخاطب معه بلغة أخرى لا يفهمها.

وخلاصة الفكرة التي نريد إثارتها أن اختلاف أساليب العمل في التحرك، كاختلاف أساليب التعبير في الدعوة، فلا تقبل الوقوف عند نموذج معين، بل تخضع لتطور الحياة فيما تستحدثه من ذلك كله، مما ينعكس على الحركة الداخلية والخارجية للإنسان...، فلابد من الأخذ في ذلك، بما يتناسب مع حاجة

الواقع من دون الالتزام بنموذج واحد، أو نماذج محدودة إلا فيما تحدده أحكام الشريعة من حدود، أو من خطوط عامة.

مناقشة التفاصيل

ونطرح – بعد ذلك – سؤالاً ثانيًا، هل العمل التنظيمي في الإطار الحزبي، يتنافى مع الأسلوب الإسلامي للعمل من ناحية المبدأ، بحيث يكون مخالفًا للحكم الشرعي، أو للجو الإسلامي الذي يريد الإسلام إثارته في الحياة؟

أو أن المسألة تتعلق بالمناقشة في التفاصيل من خلال المصلحة الإسلامية العليا على مستوى المشاكل التي قد يخلقها للساحة من تأثيرات في روحية العاملين، أو في خطواتهم العملية في دائرة الممارسة الذاتية، أو العلاقات العامة والخاصة.

شرعية العمل الحزبي

قد لا يجد الإنسان حكمًا شرعيًّا منافيًا للعمل الحزبي، بحيث يوجب حرمته؛ ليكون الإنسان العامل على هذا الخط مرتكبًا لحرام شرعي إلا فيما قد يحدث من تفاصيل من الالتزام بما لا يجوز له الالتزام به من شعارات وممارسات، مما يصدر من جهة لا تملك شريعة الإلزام، أو لا تملك معرفة الأحكام، أو لا تعي طبيعة الواقع..، أو غير ذلك من الأمور التي لا تتصل بأسلوب العمل من ناحية الدائرة التي فيها، بل تتصل بالجهة المسؤولة التي لا تملك شرعية الموقع، أو شرعية

المعرفة، فهي تشبه في الدائرة العامة، الالتزام بفتوى غير المجتهد، أو المجتهد الفاسق، أو غير الأعلم، ممن لا يجوز تقليده، فهل يمكن أن نقول بأن أسلوب الخط الفتوائي، أو خط التقليد لا ينسجم مع الإسلام؟

إن العمل الحزبي يمثل شكلاً معيناً من أشكال العمل السياسي أو الثقافي الذي يخضع في مفرداته وتفاصيله للحكم الشرعي الذي يمثل الحزب الوسيلة العملية لتطبيقه في عمل الأفراد أو الجماعات، أو الأمة كلها. فمن الطبيعي أن يقف الحزبيون الإسلاميون موقفًا سلبيًّا من بعض التفاصيل التي لا تتناسب مع الخط الإسلامي الشرعي تمامًا كما يقف الآخرون من غير الإسلاميين نفس الموقف من المفردات التي لا تتفق مع خطهم الفكري، وكذلك فإن هذا ليس مطروحًا في مسألة شرعية العمل الحزبي، بل المطروح في الساحة هو شرعية الشكل العام كأسلوب للعمل.

استئذان الفقيه

قد يطرح البعض المسألة من ناحية أخرى، وهي أن شرعية أي عمل على مستوى الشكل والمضمون لابد أن تخضع للإذن من الفقيه الذي يملك الولاية العامة على المسلمين، مما يفرض عليهم أن لا يقوموا بأي نشاط سياسي أو اجتماعي إلا بعد الاستئذان منه.. فإذا لم يصدر منه الإذن في ممارسة العمل الحزبي فإن ذلك يعني فقدان العمل لشرعيته لا سيما في المجالات التي يؤدي فيها ذلك إلى إنهاك الساحة السياسية الإسلامية المتحركة تحت سلطة الفقيه

الولي، وبعثرة مواقعها، واهتزاز مواقفها فيما يمكن أن يحقق من التجاذب والتنازع الاختلاف في أجزاء العمل وخطواته، الأمر الذي يقف حائلاً بين الإسلام في حركته السياسية، وبين الأهداف المصيرية التي يريد الوصول إليها.

ولكن هذه المشكلة لا تمثل مشكلة- من ناحية المبدأ؛ لأنها تتصل بموقف الفقيه الذي قد يجد في أسلوب العمل الحزبي – ولو في بعض المراحل على الأقل - أسلوبًا شرعيًّا فيما يمثله من العلاقة بالمصلحة الإسلامية العليا، كما نجده في رأي بعض الفقهاء الواعين الذين أعطوا الضوء الأخضر للسير في هذا الاتجاه، أو قادوا العمل في بعض مواقعه، أو وافقوا عليه، فلم يعترضوا عليه، وقد يجد – في بعض المراحل- ضررًا فيه على الواقع السياسي كنتيجة لبعض الأوضاع، أو السلبيات، أو المواقف، فيرى ضرورة تجميده أو إلغائه.

ولذلك إن المسألة تدخل في صميم البحث الذي يتصل بشرعية هذا اللون من العمل من ناحية الداخل فيما يشتمل عليه من عناصر ذاتية.

حدود ولاية الفقيه

ثم إن موضوع الإذن من الفقيه في الحصول على الشرعية قد لا يكون ضروريًّا، إلا في الساحة التي يمارس فيها الولي الفقيه حركة ولايته، سواء كان ذلك في داخل الدولة التي يشرف عليها أو يحكمها، أو في خارجها، مما يتصل بالسياسية الإسلامية العامة التي يقودها، في نطاق خطة متكاملة، في حركة الشكل والمضمون، إذا كان يرى في هذا الأسلوب خطرًا على الواقع، أو على

الخطة، أو إذا كان يؤدي إلى الإرباك في عملية تنفيذ الخطة، بحسب طبيعة الأشياء.

أما إذا لم تكن في المجالات التي يعمل فيها ولايته، أو في المواقع التي لم يصدر فيها «حكمًا شرعيًا ولايتيًّا» بالمنع من ذلك، فلا نجد هناك أي أساس فقهي للمنع؛ لأن المسألة هنا ليست مسألة البحث عن مصدر الشرعية، بل عن المانع عنها؛ لأن العمل الإسلامي في أسلوبه العملي يخضع لقاعدة الإباحة فيما لا يشتمل على عناصر التحريم في داخله مادام منسجمًا مع الخط العام للدعوة، ولعملية التغيير الواقعي.

التخطيط العام للحركة الإسلامية

وقد يثير البعض – في هذا المجال مسألة «التعدد» في ولاية الفقيه، إذا لم يكن الوحدة لازمة بالعنوان الثانوي الذي قد يفرضها انطلاقًا من المصلحة الإسلامية العليا، فقد يمكن للفقيه في أي منطقة، أو أي موقع، أن يحكم بشرعية مثل هذا الأسلوب في العمل السياسي؛ لأن الظروف السياسية تفرضه، إذا لم يصدر من الفقيه العام حكم آخر بالتحريم، مما يفرض نظرية ولاية الفقيه، أو «نفوذ حكم الحاكم» الأخذ به. وقد يتحدث بعض آخر أن مسألة «ولاية الفقيه» ليست من المسائل المجمع عليها بين الفقهاء ليتحدث الناس عن ارتباط الشرعية لأي عمل بانسجامها مع حركة النظرية في الواقع، فهناك من لا يقول بالولاية المطلقة، وهناك من لا يرى نفوذ حكم لحاكم في الموضوعات، خارج نطاق القضاء، أو نطاق بعض الأشياء الأخرى التي تتنوع حسب تنوع الاجتهاد.

وقد يعتبر البعض الشورى، كنظرية إسلامية، في الأساس الإسلامي للشرعية في حركة الواقع السياسي على مستوى الحكم، أو الممارسة العملية للحركة السياسية..، وبذلك تخضع المسألة للتخطيط العام للحركة الإسلامية، في أساليبها وأهدافها.

وبذلك نعرف أن للمسألة – من ناحية نظرية – أكثر من مصدر فقهي، مما يجعل القضية تختلف باختلاف هذه الأبعاد، ولا يحاصرها في نطاق واحد ليجعل الشرعية دائرة مداره، سلبًا أو إيجابًا، فتدخل المسألة في دائرة المصلحة الإسلامية العليا التي يدرسها الفقيه من خلال أهل الخبرة فيما لا يملك خبرته، أو من خلال نظرته الموضوعية فيما يملك معرفته، أو تدرسه الشورى، أو يتحرك بحرية من خلال العاملين المنفتحين على الحكم الشرعي، باجتهاد أو تقليد فيما لم يكن للشورى أو الفقيه سلطة الولاية التنفيذية على صعيد الواقع، أو فيما لم يمارس دوره فيه لسبب أو آخر.

بحث المسائل

وإذا كان العمل الحزبي لا يتنافى من خلال هذا العرض – مع الشرعية الإسلامية، في دائرة التحفظات التي أثرناها في نطاق هذا الحديث، فلابد لنا من أن نواجه المسائل الأخرى التي تدخل في خط السلبيات العملية التي تحدث للإسلام وللمسلمين في العمل الحزبي فيما أثارته النقاط المذكورة في الحلقة الأولى من هذا الحديث.

١ مشكلة التربية الإسلامية

النقطة الأولى: «العقلية الحزبية» التي تضع الفرد الحزبي، أو مجتمع الحزب في دائرة مغلقة، أو في برج عال مفصول عن المجتمع، في ذهنية تشعر بالتعالي على الآخرين، وبالتميز عنهم في مستوى الوعي، أو في طريقة التفكير، مما يبعد «الحزبي» عن الانفتاح على واقع الأمة، وبالتالي عن التفاعل لآلامها، والوعي الواقعي لمشاكلها وقضاياها.

ولكننا نعتقد، أن مثل هذه النقطة لا تواجه «العمل الحزبي»، بل تواجه بعض تجاربه في بعض عناصره ممن يعيشون التخلف في ذهنيتهم، والبعد عن وعي المفاهيم الإسلامية الأخلاقية والروحية..، وينفصلون عن المجتمع على أساس العقلية التي تعتبر المستوى الثقافي، أو الموقع القيادي امتيازًا لصاحبه فيما يثيره في داخله من زهو الشخصية، وغرور الذات. بينما يؤكد الإسلام على اعتبار التميز في المستوى مسؤولية جديدة تضاف إلى مسؤوليات الإنسان التي يتحملها تجاه الآخرين، فيتواضع لهم، وينفتح عليهم، وينظر إليهم من موقع الإنسان المسؤول الذي يعيش القلق الروحي أمام المسؤولية بعيدًا عن أي زهو ذاتي بالموقع المميز.

وهذا من الأمور التي تتصل بالتربية الإسلامية التي يخضع لها الإنسان المسلم في بناء شخصيته على الأسس الإسلامية الصحيحة في العقيدة والأخلاق والتشريع، والمنهج العملي في حركة العلاقات العامة والخاصة، وفي النظرة إلى الواقع وإلى الناس من حوله.

تضخم الشخصية مشكلة عامة

ولا فرق في ذلك، بين الأشخاص الذين يعملون في داخل العمل الحزبي، أو في خارجه في الإطار العام فيما تتمثل في خط حزب الله؛ لأن المسألة تتصل في طبيعتها السلبية أو الإيجابية، بالجانب التربوي للإنسان، فقد رأينا في النطاق الحزبي، نماذج إنسانية مخلصة، في المستوى الأعلى من الروحية والإخلاص والتواضع والانفتاح على الناس من مواقع التقوى في الدعوة والممارسة، بحيث لا يشعرون بأي عنصر ذاتي في علاقتهم بالناس..، وقد رأينا في الدائرة العامة — إذا صح التعبير، نماذج إنسانية تحمل كل العناصر الذاتية في جو مشبع بالأنانية المعقدة التي تمنع الثقافة الإسلامية التي يحملونها أن تتحول إلى حالة روحية على مستوى الشعور والسلوك، فيتحولون إلى مجرد أشخاص يعيشون «تضخم الشخصية» بالطريقة التي ينفصلون فيها عن الواقع من حولهم، فلا يجدون إلا ذواتهم رموزًا للإسلام، وقادة للساحة فيما يجب على الساحة أن تواجه ذلك بكثير من ألوان الخضوع والاحترام.

وإذا كان للأسلوب الحزبي، أن يترك تأثيره السلبي على الذات من خلال طبيعة الدائرة التي يتحرك فيها الإنسان، بالإضافة إلى العوامل الأخرى، فإن ذلك قد يعود إلى طبيعة الحدود التي يمثلها هذا العمل تمامًا كما هي الحدود العائلية، أو الإقليمية، أو القومية التي تحمل بعض المميزات، في الموقع أو الخصائص الأخرى، ولكن الحل هو في الخطة التربوية التي تعمل على أن توحي للإنسان العامل

في هذه الدائرة أو تلك بأنها لا تمثل حدًّا يفصله عن الآخرين، بل تمثل موقعًا من مواقع الانفتاح عليهم، في نطاق المسؤولية الثقافية والسياسية، كأي شخص يحمل قوة مميزة أمام الآخرين الذين لا يملكونها، أو يحتاجون إليه فيها، مما يحولها إلى موقع للمسؤولية لا للذات فيما انطلقت به التعاليم الإسلامية التي أكدت أن مواقع حاجة الناس إلينا هي من مواقع النعم التي أغدقها الله علينا – فيما يجب علينا أن نشكره عليها.

إن التربية يمكن أن تترك أثرها الإيجابي في التخفيف من هذه الحالة الذاتية السلبية في أي مجال من مجالاتها على مستوى الحزبيين أو العلماء أو المفكرين أو الشخصيات القيادية في الموقع السياسي أو الاجتماعي.

٢ الحالة الانفعالية والتعصب الأعمى

النقطة الثانية: «العصبية الحزبية» التي تُحوّل الإنسان إلى عبد للحزب، أو أداة صماء، تتحرك بطريقة آلية تبعًا للجهاز الذي يحركها من دون أن يكون له رأي أو كلام أو اعتراض، كما تدفعه إلى التعصب له في كل شيء، فلا يقبل عليه أي نقد، أو أي مناقضة، بل ربما يعتبر الذي يختلفون معه في الإطار الآخر أعداء له وللإسلام، وقد يؤدي به الأمر إلى العدوان عليهم، مما يشكل عنصرًا سلبيًّا ضد الأمة.

ولكننا نجد في هذه النقطة، ما وجدناه في النقطة الأولى، حالة سلبية على مستوى الخلل في التربية الإسلامية للعاملين في هذا النطاق لا على مستوى

طبيعة الخصوصية في هذه الدائرة بالذات.

إن النقطة تثير أمامنا مشكلتين:

الأولى: هي مشكلة الحالة الآلية التي يتحرك فيها الحزبي أمام تعليمات القيادة، بحيث لا يجد مجالاً لأي اعتراض، بل قد يعيش معها حالة انفعالية تقديسية.

الثانية: مشكلة التعصب الأعمى الذي يجعل الإنسان رافضًا لأية مناقشة للقيادة من قبل الآخرين، ومعاديًا لأية حالة أخرى مخالفة لما يعيش فيه، أو يتحرك معه.

الطاعة الحزبية والثقة بالقيادة الشرعية

أما المشكلة الأولى، فلا نظن أن الحالة الحزبية هي التي تثيرها في وجدان الشخص، بل هي طبيعة الثقة بالقيادة بالمستوى الذي يجعلها تمثل في وعيه الجهة الشرعية التي تمنح كل أعماله الصفة الشرعية على أساس أنها تبرئ ذمته أمام الله من عهدة التكليف، وهذا هو ما نجده، في انفعال المقلدين بفتوى المجتهد الذي يرجعون إليه في أحكامهم، أو في السائرين على خط «ولاية الفقيه» فيما يصدره المجتهد من فتاوى، أو يحكم به الولي الفقيه من أحكام، فإن الإنسان المؤمن لا يجد مجالاً للاعتراض أو المناقشة، أو الرفض؛ لأن ذلك يعني نوعًا من أنواع التمرد على السلطة الشرعية.

بل ربما نجد أن الطريقة الحزبية تسمح لعناصرها التي تملك الفكر والرأي، والتحدث عن أفكارها المعارضة بكل حرية، وذلك على أساس طبيعة التنظيم القائمة على الشورى في نطاق عملية صنع القرار أو مناقشته؛ لأن مسألة الطاعة لا تتنافى مع عملية المناقشة.

ولعل المشكلة تكمن في النظر إلى بعض التجارب الحزبية التي قد تختزن في داخلها بعض التخلف، أو الضعف في قيادتها، أو في طبيعتها، مما يمنع من إعطاء الحرية في المناقشة؛ لأن ذلك قد يسيء إلى مصداقية القيادة، أو التنظيم في نظر القاعدة على أساس الفكرة التي تعتبر الخطأ دليلاً على السقوط لا مجرد حالة طارئة في حركة التجربة..، ونجد إلى جانب هذه التجارب لونًا آخر يتوزع فيه الحزب إلى أجنحة متعددة تمثل عدة تيارات، أو إلى جناحين لليسار أو اليمين، كما نجده في الكثير من الأحزاب السياسية في الغرب، أو في بعض التجارب الإسلامية المحدودة.

الحالة النفسية المعقدة والذهنية الضيقة

وأما المشكلة الثانية، فهي – كالأولى – ناشئة من ضعف الموقف، أو الثقافة الحزبية أو الفكرية التي قد يشعر فيها بأن المناقشة تظهر عجزه، أو عجز التنظيم، أو تسيء إلى هيبته، وتسقط مصداقيته.

وقد تكون منطلقة من حالة نفسية ضاغطة معقدة تتعقد من أي ملاحظة، كما في الكثير من الناس الذي يعتبر قناعاته بديهيات واضحة لا تحتمل المناقشة؛

لأنها كالشمس في رابعة النهار، مما يضع مسألة المناقشة أو الرفض، في دائرة التمرد أو إنكار الواضحات، أو يرى في ذلك إساءة لشخصه فيما يراه من أن النقد مظهر عداوة، باعتباره إظهارًا للعيب؛ لأن الخطأ يمثل لونًا من ألوان العيب للذات.

وليست هذه الحالة مختصة بالعاملين في النطاق الحزبي، بل هي موجودة لدى الذين يخلصون لبعض القيادات الدينية أو السياسية أو الاجتماعية، أو بعض الدوائر الخاصة التي تتمحور حول جهة أو شخص أو فكرة معينة، ويتعصبون لها، فلا يسمحون لأحد أن يوجه إليها أية كلمة نقد، أو أي حالة اتهام، وربما يتحول الأمر لديهم إلى حالة عدوانية ضد الآخرين. وإننا نلاحظ في التجربة الواقعية الموجودة في الساحة أن الناس يعيشون العصبية للمذاهب وللطوائف وللعلماء المراجع، وللشخصيات العامة، بنفس المستوى، مما جعل من هذه الحالة حالة محكومة بالذهنية العامة في طريقة التعامل مع الانتماء بالنظرة الانفعالية لا بالنظرة الموضوعية، الأمر الذي يجعل الموقف خاضعًا للجانب العاطفي للشخصية بدلاً من الجانب العقلاني.. بعيدًا عن خصوصية الإطار الحزبي كأسلوب عملي في الواقع السياسي.

ولعل من الطبيعي أن يعمل المخلصون على محاولة تغيير هذه الذهنية السلبية الضيقة لئلا تؤثر على الذهنية الموضوعية التي يريد الإسلام للناس أن يعيشوها في أية حالة انتماء، حتى حالة الانتماء إليه – بالذات؛ لأنها السبيل الأفضل للوصول إلى قناعات الناس المخالفة من أقرب طريق.

وقد لا يفوتنا التذكير بالملاحظة البارزة التي تشير إلى أن تجربة حزب الله التي تعتبر بديلاً عن الحزبية، قد بدأت تختزن هذه الحالة انطلاقًا من الذهنية العامة التي تحرك الشخصية بطريقة لا شعورية نحو النتائج السلبية، ضد كل مخالف للرأي، شخصًا كان أو جهة معنوية.

٣ السرية والظروف الضاغطة

النقطة الثالثة: «السرية» التي تطبع العمل الحزبي بطابع الضبابية في شخصية القيادة، وفي حركة التنظيم، مما يجعل الأمة تتحرك من خلال شخصية الأشباح الذين يصدرون التعليمات من دون أن يعرف الناس شخصيتهم وطبيعة كفاءتهم ونوعية عملهم، الأمر الذي قد ينعكس سلبًا على الحالة الشعورية الحميمة التي تربط الأمة بقيادتها فيما يحققه ذلك من نتائج إيجابية على مستوى العلاقة بين الأمة والقائد.

ولكن قد يلاحظ التنظيميون الحزبيون على هذه النقطة فيقولون: إن السرية ليست وليدة الطبيعة الحزبية، بل هي وليدة الظروف الضاغطة الصعبة التي قد تعمل على الضغط على الحالة الفكرية، أو السياسية، في عملية تصفية جسدية للقيادة، أو تجميد أو محاصرة للعمل كله، بطريقة تدفع الحركة إلى شلل كامل في أكثر من موقع، وهذا هو الذي جعل من «التقية» أسلوبًا عمليًّا واقعيًّا يفرض على العاملين الاختفاء وراء الكلمات التي تحمل أكثر من معنى، أو تتحرك في أكثر من اتجاه، أو تشير إلى أكثر من موقع، أو وراء المحاور التي قد تأخذ لنفسها أكثر

من صفة، وأكثر من واجهة، أو تختفي عن الساحة في حالة من الغياب الموقت، أو في طريقة تفسح المجال للتحرك «الشبحي» في حركة الأشباح أن تواجه الساحة بأكثر من أسلوب من وراء الستار.

ولا مجال للقول أبدًا بأن زمن التقية قد ولى؛ لأنه ربما كان ذلك صحيحًا على مستوى ما يفهمه بعض الناس خطأ بأنه يعني الاختفاء الدائم عن المسرح، وتجميد التحرك على مستوى القضية، والخضوع لعوامل الخوف الانهزامية من دون دراسة لعناصر القوة الموجودة في الواقع، والاستسلام للتهاويل التي تثيرها المعادلات السياسية للدول الكبرى، أو للقوى المسيطرة، بل إن كل عمل ثوري لابد أن يختزن التقية في تفاصيله، والسرية في كثير من تخطيطه.

سرية الإدارة السياسية

وليس من الضروري دائمًا أن تكون القيادة للأمة سرية، ولكن قد يكون من الطبيعي أن تكون الإدارة السياسية التي تدير الأمور خاضعة لبعض الأوضاع الأمنية التي تجعلها بمنأى عن الأنظار في مواجهة بعض الضغوط الصعبة، والتحديات الكبيرة التي قد تحطم كل العناصر الحية للحركة.. حتى إذا انتهت تلك الحالات الاستثنائية برزت للواقع بطريقة علنية.

إن المسألة في مثل هذه الأمور لا تخضع لضوابط تفصيلية على مستوى المفردات الجزئية للحركة، ولكنها تخضع لضوابط كلية على مستوى الخطوط العامة التي توزع التفاصيل على الظروف، تبعًا للحاجة التي تقتضيها الأوضاع،

وتفرضها مراحل العمل فقد تكون العلنية هي طابع التحرك حينًا، وقد تكون السرية هي الأفضل حينًا آخر، وقد يحتاج الموقف إلى حالة متوازنة متحركة بين الخط السري، وبين الخط العلني، حسب الحاجة.

ولعل من الطبيعي أن يكون تحديد نوعية الأساليب العملية في هذا المجال، خاضعًا للحكم الشرعي الذي يحدد للعمل طبيعته، وللحركة خطواتها ووسائلها ليكون العمل منسجمًا مع الشرعية الإسلامية في كل أوضاعه وتفاصيله.

الزوايا الضيقة والأفق المفتوح

وربما يثير البعض في هذا المجال أن السرية تمنع الأمة من الانفتاح على القضايا الكبرى؛ لأن العمل السياسي يجعل المواقف الفكرية السياسية في نطاق دائرة معينة، تحكمها نظرية الخلايا الحزبية التي ينقلها مسؤول إلى مسؤول في حركة سرية لا تسمح بأن يتسرب منها شيء إلى الجو، وبذلك تفقد قضية الأمة حيوية المشاعر الجماهيرية والمواقف الحاسمة التي تمثل الاندفاع الكبير في مواجهة الطاغوت على مستوى الشخص، أو النظام، وتتحول المسألة إلى عملية رتيبة تتحرك بهدوء في نطاق تقليدي لا يحقق إلا بعض النتائج البسيطة التي لا تكتفي بالتغيير الشامل..، وبذلك يبرز الفرق بين «العمل الحزبي» الذي يتحرك في الزوايا الضيقة المغلقة، وبين العمل الجماهيري المسجدي الذي يتحرك في الأفق المفتوح الواسع.

السرية ليست نصًّا منزَّلاً

ولكن مثل هذه الفكرة، قد تكون ناشئة من تجربة محدودة فاشلة لا من خلال مناقشة الفكرة على أساس المبدأ؛ لأن نظرية «الخلايا الحزبية» ليست ضرورية في العمل الحزبي، بل هي وسيلة من وسائل السرية في ضبط الأسرار وتنظيم الأسلوب الذي يمكن للخطة أن تتحرك في ساحة أمينة من ساحات العمل، وقد تكون أسلوبًا تربويًّا ينطلق في اتجاه تعميق الفكرة في ذهنية العاملين في عملية التثقيف السياسي الذي حاول أن يحافظ على وحدة الفكر والأسلوب.

وقد تفرض الأوضاع تجاوزها، والانتقال إلى أسلوب آخر في المرحلة العلنية، أو في الحالة السرية التي قد تكتشف فيها أسلوبًا يغذي الحالة الجماهيرية والمنفتحة، وذلك من خلال تنظيم الطاقات المثقفة لتستطيع تحريك الفكرة في الساحة العملية بشكل منظم دقيق..؛ لأنها ليست نصًّا منزلاً لنقف عندها بروح تعبيرية خاضعة، بل هي مجرد تجربة حملت بعض نتائج النجاح في بعض نماذجها الواقعية.

عقلية الطبقة وعقلية الرسالة

وهناك جانب آخر لابد من دراسته بأن مثل هذا الأسلوب «أسلوب الخلايا» لا يعني انغلاق المسألة السياسية عن الأمة، بل يعني بناء الطليعة الواعية من العلماء والمثقفين الذين يديرون الأمور، ويفكرون فيها بطريقة مدروسة ليتعرفوا كيف ينفتحون على الجمهور من موقع الحكمة والتخطيط لتكن الحركة أو الثورة سائرة في الاتجاه الصحيح، عندما يقودها الطليعيون الذين لا يعيشون امتيازات

الموقع الطلائعي المميز الذي يفصلهم عن الأمة من ناحية ذاتية، بل يعيشون مسؤولية ذلك ليلتقي في العمل الجماهيري الفكر المنظم الموحد والساحة المفتوحة المتحركة في اتجاه التغيير.

إن هناك فرقًا بين صناعة النخبة في عقلية الطبقة، وبين صناعتها في عقلية الرسالة والمسؤولية.. فإن الأولى تعيش في عزلة عن الأمة، ولكن الثانية تعيش في قلب الأمة لتحركها وتثيرها، وتوجهها إلى الآفاق الرحبة تمامًا كما هي قصة المدرسة التي يتخرج منها القادة لا ليجلسوا في الأبراج العاجية ليتطلعوا إلى الأمة من أعلى، بل ليجلسوا في مقاعد الجماهير ليعيشوا معهم كيف تكون التجربة حية واقعية على مستوى الممارسة والمعاناة، بعد أن عاشتها على مستوى الفكر والتأمل.

الحزبية ووحدة الثقافة والفكر

وهناك بعض النقاط التي قد يثيرها «التنظيميون»، كعلامات جيدة للعمل الحزبي، مما يقوّي العنصر الإيجابي الذي يجعل منه فرصة كبرى للنجاح. من هذه النقاط وحدة الثقافة والفكرة؛ لأن الذين يتولون عملية التثقيف لابد أن يكونوا خاضعين لدراسة منظمة واسعة، توحي تصورهم للمشكلة وتحليلهم للحل، وطريقتهم في العمل، وأسلوبهم في التبليغ والتنفيذ، حتى لا ترتبك الأمة أمام الطروحات المتنافسة التي قد يثيرها هذا «العالِم» الذي قد يكون خاضعًا لعوامل ثقافية ذاتية في اختزانه للفكرة، أو يقررها هذا المثقف الذي قد يواجه

المسألة السياسية أو الفكرية من تجربة معينة تختلف عن تجربة الإنسان الآخر... وهكذا يحدث الاهتزاز في حمل الفكرة، وفي ممارساتها، وفي طريقة الدعوة إليها.

وقد يحدث في بعض الحالات أن لا يكون هؤلاء الذين يتحملون مسؤولية العمل على أساس صفة معينة، ممن يملكون الثقافة التي تؤهلهم ليكونوا في الموقع المحدد في خط المسؤولية، أو ممن يملكون التجربة العميقة في ذلك كله، الأمر الذي يجعل الحركة غير ناضجة؛ لأنها لا تحمل في داخلها عمق التجربة وانفتاح الثقافة.

صعوبة اختراق العمل الحزبي

ولعل من هذه النقاط: «النقطة الأمنية» التي قد تضبط الوضع الأمني بالمستوى الذي لا يجعل اختراق العناصر المعادية أمرًا سهلاً، كما هو الحال – على العكس – في الحالة الجماهيرية المنفتحة التي لا تخضع لضوابط أمنية دقيقة نظرًا للانفتاح الواسع في مثل هذه الحالة؛ لأن الطريقة الحزبية تجعل الدخول في الحركة السياسية في مواقعها القيادية والعملانية، خاضعة لتنظيم دقيق يشبه التنظيم العسكري، ولشروط قاسية لا تتوافر في الكثيرين، مما يصعب على الآخرين اختراقه إلا في دائرة محدودة، الأمر الذي قد لا يلغي الاختراق أساسًا، ولكنه يعرقل أكثر خطواته.

ولا يزال الذين يعملون بعيدًا عن الطريق الحزبي يشعرون بالحاجة إلى البحث عن سبيل عملي للوصول إلى الضمانات الأمنية الدقيقة، في نطاق هذا

العمل، في الحالات التي لا يكون فيها العمل خاضعًا لحماية دولة، بل كان حالة جماهيرية تعيش في ظل دولة معادية، كما في أكثر الحالات المعاصرة.

الصيغة المثلى!!

هذه هي بعض الأفكار التي يثيرها دعاة الحزبية في أسلوب العمل السياسي، ويسجلون فيها الملاحظات على الوجه الآخر للعمل.

فهل هي الصيغة الوحيدة المثلى في حركة التغيير؟

وهل تمنع قيام صيغة أخرى منفتحة على الحالة الإسلامية الجديدة، أو أن هناك نوعًا آخر من العمل، يجعل لكل صيغة موقعًا لا تلغيه الصيغة الأخرى، بل تنطلق الصيغتان في عمل إسلامي متكامل، يحمل في داخله إمكانات التجديد للصيغة الحزبية، كما يحمل في داخله – أيضًا – إمكانات التنظيم للصيغة الجديدة التي تطرح الأمة كواجهة للتغيير؟

أين هي الصورة الحقيقية.. بين هاتين الصورتين؟

من الذي يقود عملية التغيير
حزب الأمة أم أمة الحزب؟ (ج)

- **الأحزاب الإسلامية**

صنعت قاعدة وقدمت الإسلام كمشروع متكامل.

- **الحزب المتطور والمنفتح**

يمثل الدور الطليعي في تحريك الأمة.

- **ضرورة تكامل المرجعية**

مع الحزب والتقاء الحزب بالأمة.

- **لا بد من**

تبلور فكرة حزب الله في صيغة واضحة ودقيقة.

من الذي يقود عملية التغيير
حزب الأمة أو أمة الحزب؟ (ج)

دور الحزب ودور الأمة

قد يكون الحديث عن وجود صيغتين شاملتين متعارضتين في حركة العمل الإسلامي، بحيث يكون الموقف هو رفض إحداهما، وقبول الأخرى. قد يكون مثل هذا الحديث ناشئًا من نوع من الالتباس بين مهمة الحزب في الأمة وبين حركة الأمة في خط التغيير، مما يوحي بأن الحزب يريد أن يأخذ دور الأمة، فيحاول أن يحشرها في زاويته، أو يسلبها فاعليتها، ويجعلها مجرد تابع للنخبة، أو أن الأمة في حركتها تلغي دور الحزب، وتعمل على تصفيته، وإبعاده عن مواقع المسؤولية، لا سيما في أجواء «ولاية الفقيه» التي تتسع في حركتها لكل ساحات الأمة، فلا تترك فراغًا لأحد، ولا تسمح لأي موقع بأن يتدخل في حركة القيادة ليكون بديلاً عنها؛ لأنها هي التي تعطي الشرعية للساحة، فلا شرعية لأية حركة بدونها.

خصوصية الإسلام الدينية

ربما كان للإسلام خصوصيته المميزة أمام التيارات الأخرى التي تريد أن تتحرك في الساحة العامة كمشروع سياسي، في ما يحتوي من أفكار ومناهج، في ما ينطلق فيه من أساليب وأجواء.

وتلك هي الخصوصية الدينية التي يعيش الإنسان فيها ذاته في أجواء الروح، في عمق المعنى الروحي لحركتها في دائرة الإيمان بالله والارتباط به والخضوع له، ومن خلال ذلك، فإنه يبحث عن الامتداد في الجانب الفكري والشعوري والعملي، في عمق الفرد وفي حركة الأمة في داخل الحكم وخارجه، مما يجعله يمنح لأي فرد صفة الانتماء إليه، ولو في المستوى الشكلي، فيكفي في الشخص المسلم أن يتلفظ بالشهادتين، مع احتمال جديته، أو إمكانية وصوله إلى حالة الجدية في المستقبل.

ولذلك كان هناك تفريق بين الإسلام والإيمان، فالإسلام بالمعنى القرآني هو الالتزام بالمعنى الظاهري بالعقيدة وبفروعها، حتى لو لم يكن ذلك منطلقًا من الوعي الداخلي لمعانيها في التزام الفكر والروح. أما الإيمان فهو الالتزام القلبي والعقلي بالإسلام بالإضافة إلى الالتزام الظاهري.

ولهذا كان النبي (ص) يقبل الذين يدخلون في الإسلام رغبة أو رهبة كما يقبل الذين يدخلون فيه عن قناعة، بل كان يفرض لبعض الناس نصيبًا في الزكاة لتأليف قلوبهم، ولتقريبهم إلى الإسلام بالتأثير على مشاعرهم من ناحية سد احتياجاتهم المالية.

وقد كان الهدف من ذلك إخراج الناس من أجواء الكفر، وإدخالهم في أجواء الإسلام ليكون ذلك بمثابة الإعداد الفكري والروحي للاقتناع به، أو تحييدهم – على الأقل – في معركة الكفر والإسلام لئلا يبقوا في الموقع المضاد، وليقتربوا من هذا الموقع.

النداءات القرآنية

وربما كان مثل هذا الاتجاه، في احتواء الناس في الساحة الإسلامية، بكل وسيلة سببًا في انفتاح الإسلام على الواقع كله بعيدًا عن التحفظات الأمنية، والفكرية في امتداد الأمة ليلتقي الجميع على صعيد واحد في المسجد، وفي غيره من المواقع الهامة، في الحرب والسلم، فليست المسألة مسألة النفاذ إلى العمق، بل هي مسألة الاجتماع على الكلمة والموقف.

وهذا هو الذي يجعل التوجه إلى الأمة في النداءات القرآنية بشكل مطلق من دون الدخول في الأساليب التنظيمية المعقدة، مما يجعل الأمة بكل فئاتها معنية بالنداء، ومسؤولة عن تفاصيله، فعلى النبي أو الداعية أن يطلق الكلمة ليسمعها الجميع، وعلى السامعين أن يفهموا ويلتزموا وينفذوا من موقع الملازمة بين الإيمان والتسليم العملي ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء/٦٥].

تفاعل الأمة مع الموقف

إن هذه الخصوصية التي يملكها الإسلام في طبيعته وهي الخصوصية الدينية، تفرض عليه أن يتحرك بطريقة مغايرة لما تتحرك به التيارات الفكرية السياسية الأخرى التي تريد أن تمتد في الأمة على أساس التخطيط للمسألة الاجتماعية

بعيدًا عن المسألة الفردية، مما يجعل الاهتمام مرتكزًا على حركة الأمة لا على حركة الفرد من الناحية الذاتية. ولذلك كان أسلوب الحركة السياسي في الإسلام هو الأسلوب الذي يعتمد على إفساح المجال للفرد أن يدخل في الأمة ليستفيد من الأجواء الروحية التي تحكمها في العمق، ولينمو في داخلها بعفوية وبساطة من دون تحفظات عامة وخاصة فيما يتحرك في رحابها من عبادة وحركة وإيمان.

ولهذا، فلابد أن تكون لدينا ساحة مفتوحة لا حدود لها في حركة التوعية الإسلامية في الدائرة الفردية وفي الدائرة الاجتماعية من أجل الوصول إلى ثقافة عامة على جميع المستويات على الطريقة التي انطلق منها الأسلوب القرآني في مخاطبة المؤمنين كافة، ومن النداءات الموجهة إلى الناس جميعًا في عملية توزيع شامل للمضمون الفكري والروحي والعملي للرسالة الإسلامية ليعيها الجميع من دون أن يكون هناك ثقافة خاصة لفريق دون فريق لتشعر الأمة بالمساواة بين أفرادها فيما يراد لهم من اختزان الفكرة واحتضان التجربة ومواجهة المشكلة، والتفاعل فيما بينهم فيما يتفقون في فهمه، وفيما يختلفون فيه، وحتى المواقف السياسية والجهادية لابد من إثارتها في حياة الناس، وإعلانها للجميع، وتحويلها إلى فكر عام، في عملية تعبوية عميقة، بحيث تحمل الأمة هموم الموقف ومشاكله، وسلبياته، وإيجابياته من موقع الوعي الكامل لكل جذوره وامتداداته، فلا يكون الالتزام به خاضعًا لحالة انقيادية تعبدية، منفعلة بروح الطاعة للقيادة، بل يكون

منطلقًا بالإضافة إلى ذلك من موقع الالتزام الواعي بالموقف على أساس القناعة به، والمعرفة بكل جوانبه، وملامحه الداخلية والخارجية.

ومن خلال ذلك، تحصل للأمة المناعة من التأثر بالتيارات المضادة في الساحة السياسية والجهادية؛ لأن المسألة هي أن التحدي المضاد يمثل التحدي للفكر الذي تحمله وتؤمن به، مما يجعل من مسألة الدفاع عنه حالة ذاتية مقاومة، كما في أية قضية تتحول إلى رأي عام.

الأسلوب الجماهيري وتحريك القضايا

إننا نؤكد على الاتصال المباشر بين القيادة والجماهير لتحويل الحالة الفكرية السياسية إلى حالة وجدانية تمامًا كما هي الحالة الشعبية التي تتحول إلى تيار جارف، تصعب مواجهته بشكل مباشر، ولكن ذلك يحتاج إلى الكثير من المتابعة والدقة والتركيز في احتواء الجوانب النفسية والروحية، والتحرك بلباقة في التعرف على نقاط القوة والضعف لدى المجموعات الشعبية، ولعلنا نستذكر في وعينا الإسلامي، كيف استطاعت الأفكار العامة لدى الأمة أن تصمد أمام مختلف التيارات المضادة زمنًا طويلاً، حتى إننا نلاحظ بعضها الذي سقط بفعل الضغوط القوية، كيف ترك رواسبه في العمق الداخلي للأمة حتى الآن.

إن ذلك كله يدل على أن الأسلوب الجماهيري الذي ينفتح على الأمة بشكل مباشر هو الأكثر تأثيرًا في تحريك القضايا الكبيرة في حياتها من خلال

عناصر الإثارة المتنوعة، المتصلة بالعمق الداخلي للجماهير لا سيما في المواقع التي تملك فيها القيادة امتدادًا كبيرًا في حياة الناس انطلاقًا من الصلة الشرعية العضوية التي تربطها بهم، كما نلاحظه في مركز المرجعية الرشيدة المتفاعلة مع قضايا الأمة، حيث تلتقي المسألة السياسية بالمسألة الشرعية، فتحول الموقف السياسي إلى حالة دينية مقدسة في خط الطاعة لله تمامًا كما هي الصلاة والصوم في تأثيرها الروحي في أعماق الذات. وبذلك لا تكون الكلمة الثائرة أو الموجهة أو المحللة مجرد كلمة مثيرة أو منبهة، أو مفسرة، بل تكون كلمة تأخذ صفة القانون والشريعة في خط الفتوى أو الحكم، مما يجعلها تفقد الصفة الاستهلاكية لتتخذ صفة الكلمة المنتجة في حركة الذات والواقع.

أطروحة حزب الله

ولعل التجربة الرائدة التي قام بها الإمام الخميني «قده»، في ثورته الإسلامية التي حولت الشعب الإيراني المسلم إلى شعب ثائر من موقع الوحدة المرتكزة على أساس الوعي الشرعي للثورة في الخطوط السياسية المستقيمة.. لعل هذه التجربة أبلغ دليل على قيمة الأسلوب المنفتح على الأمة في تجميع قواها من أجل التحرك بقوة في مواجهة القوى المضادة، وتحريك كل العوامل المؤثرة في هذا الاتجاه، في الوقت الذي لم تنجح كل القوى الأخرى المنظمة في الوصول إلى بعض هذه النتائج، مهما تحدث القائمون عليها في عملية مشاركتهم في صنع الثورة، أو في تحضيرهم الأجواء العامة لها، مما يوحي بأن التنظيم الحزبي ليس هو

العنصر الأمثل في تنوير الأمة وإسقاط الطاغوت، الشخص، أو النظام، وتلك هي أطروحة حزب الله، بالمعنى القرآني الذي يتسع لكل أفراد الأمة الذين يلتزمون فكر الرسالة الإسلامية، وينفذون أحكامها..

وخلاصة الفكرة: إن صفة الإسلام كدين ينطلق في حياة الناس بالجانب الروحي والفكري والعملي، ويرتكز على حركة القيادة المتصلة بالأمة في عملية وعي وتفاعل وانفتاح تفرض على العاملين فيه في خط الدعوة، وفي خط الحركة، أن ينفتحوا على الواقع كله ليحققوا الحالة الجماهيرية المنفعلة بالفكر، الخاشعة بالروح، المتحركة بالثورة من دون حواجز ولا قيود، بل هو القلب المفتوح الذي يلتقي بعقول الناس وقلوبهم بالكلمة الشاملة في المسجد والشارع والمدرسة والنادي في المناسبات العامة والخاصة.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه: هل يلغي هذا دور الحزب، أو يؤكده؟ وكيف يكون دوره– إن وجد في التخطيط الإسلامي الشامل للحركة على صعيد الحياة في موقع القيادة؟

الفكرة الحزبية والخط القيادي

هذان هما السؤالان اللذان ننتظر الإجابة عليهما فيما نثيره من حديث.

أما الجواب عن السؤال الأول، فهو أن الفكرة الحزبية تعني في مفهومها – الشكل التنظيمي الذي يخطط لحركة الفكرة في عملية توزيع مدروس للمفردات التفصيلية للواقع ليضع كل واحدة في موقعها الملائم، بحيث تتكامل حركتها

في الساحة، ويثقف الطليعة بالفكر الإسلامي الشامل في جوانبه إلى البحث عن الوسائل العملية التي تدفع الأمة إلى التحرك، وتقودها إلى خط التغيير، ولكن ليس بالمعنى الذي تتحول فيه الطليعة إلى طبقة مميزة مفصولة عن الشعب بروحيتها، وتفكيرها، وأبراجها العاجية، وامتيازاتها الطبقية النخبوية، بل بالمعنى الذي يجعل منها الخط القيادي على مستوى التوعية والتوجيه وإدارة الحركة؛ لأن الأمة لا تستطيع أن تتفرغ بأجمعها لذلك، وهذا هو ما عبرت عنه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة/١٢٢].

فإننا نفهم من ذلك الدعوة إلى إعداد فئة متفقهة في الدين للقيام بمهمة التوعية الفقهية على الصعيد الشعبي، وليس من الضروري أن يكون التفقه بالطريقة التقليدية، بل قد يكون سبيله هو دراسة كل ما تحتاجه الأمة في إدارة أمورها العامة في قضاياها الثقافية الشرعية، وحركتها السياسية؛ لأن التفقه قد يتحرك في الجانب النظري من الواقع، وقد يتحرك في الجانب العملي منه، مما يفرض الوعي الشامل لحركة النظرية في نطاق التطبيق.

وقد لا يكون من المفروض أن تتجمد طريقة الإعداد في صيغة معينة، بل قد تتنوع في أكثر من صيغة تبعًا لتطور الوسائل التربوية والعملية. قد يكون نظام الحلقات المغلقة في المراحل السرية التي تضغط على الحركة في عملية حصار

ضاغط يجمد الموقف ويشل التقدم. وقد يكون نظام الحلقات المفتوحة في دائرة ضيقة تارة وواسعة أخرى، وربما تقتصر على الجانب الفردي في بعض الحالات.

ثم تبدأ الطليعة في التحرك نحو توسيع نموذجها في الأمة في المواقع المتدرجة، في خط الصعود والنزول في المسؤولية لتتسع القاعدة وتتمدد تبعًا للحاجات المتطورة في ساحة الدعوة والصراع. وتكفل للقضية كل عناصر القوة الفكرية والسياسية، وتوحد لها نظرتها في رؤيتها للأمور، فلا تتباعد المسافات بين الأفكار، ولا ترتبك المواقع في مناهج التربية وأساليب التحرك عندما يتخذ فريق لنفسه موقعًا في خط هذا المنهج، ويتخذ الفريق الآخر موقعًا آخر في خط منهج آخر؛ لأن النجاح في أية حركة لابد من أن يخضع للتكامل بين المواقع والمواقف في الطريق العملي نحو الوحدة.

وهكذا يتحدد دور الطليعة في تموين الأمة بالعناصر القيادية في مختلف مراكز المسؤولية من أجل إدارة الخطة وتحريكها في العمق والامتداد في مواجهة قضية البناء الذي يبني للأمة كيانها الإسلامي، في ملامحها الفكرية والعملية وفي مواجهة قضية الهدم الذي يرصد التحديات الداخلية والخارجية؛ ليدرسها بطريقة دقيقة واقعية في خلفياتها السياسية، وفي خصوصياتها الأمنية، وفي حجم تأثيرها على حركة الإسلام في الحاضر والمستقبل من أجل إثارة فكر الأمة نحو التعامل معها بقوة وتخطيط لإرباك مخططاتها وهزيمة مواقعها وإسقاط مشاريعها في إضعاف الأمة في قضاياها المصيرية الكبيرة، وذلك بتوزيع الأدوار على صعيد

الرصد والتخطيط، والمواجهة بالتحدي، ورد التحدي بمثله، وحماية التحرك المضاد في وجه القوى التي تثير التحديات.

حاجات الأمة الخاصة والعامة

وفي هذا الجو التنظيمي لابد من دراسة الحاجات الخاصة والعامة للأمة، وطبيعة الظروف المحيطة بها لمعرفة السبيل الأفضل للصيغة التنظيمية في نطاق إعداد الطليعة وتربية القاعدة، وتخطيط الحركة في خط إدارة الواقع وتوزيع المسؤوليات، فقد يختلف الأمر في ذلك، بين المرحلة السرية التي تخضع فيها الحركة لضغوط قوية لا يمكن تجاوزها إلا بالعمل السري الذي يحصر التنظيم في دوائر صغيرة مغلقة تركز العمل وتحمي حركته، وبين المرحلة العلنية التي تتمتع فيها الأمة بظروف طبيعية ممتازة من حيث ساحة العمل وحرية التحرك الثقافي والسياسي، مما يجعل للعمل التنظيمي حرية واسعة في الحركة، في نطاق الدوائر الواسعة المفتوحة التي قد تستوعب قدرًا أكبر من القاعدة.

وقد يطرح في هذا المجال التثقيف الخاص الذي لا يعزل الثقافة عن الأمة لتكون هناك ثقافة للنخبة وأخرى للأمة، بل يتحرك في مستوى معين من أجل أن تقوم النخبة التي تستوعبها في اختيار أفضل الأساليب لإيصالها إلى أفراد الأمة بطريقة تدريجية في نطاق الخطة الثقافية العامة.. فهي الثقافة التي تتجمع في هذه الدائرة لتنطلق في الدائرة الواسعة لتغذي أكبر عدد ممكن من الناس، وبذلك

تلتقي الثقافة الخاصة، بالفكرة التي يثيرها التفقه والإنذار في مدلولها العملي في مسألة الاستيعاب الذاتي الذي يمتد في حركة استيعاب الآخرين.

ويبقى الطوق الأمني الذي يؤكده التنظيم في دراسة للضرورات الأمنية في حماية الأمة من المندسِّين في صفوفها للتخريب ومن المخترقين لساحاتها من أجهزة المخابرات الكافرة والطاغية، ثم في اختراق صفوف الآخرين، وإرباك مواقعهم الأمنية من أجل إضعاف قدرتهم السياسية والعسكرية.

دور الحزب المتطور

وخلاصة الجواب عن السؤال: إن الحزب المتطور في صيغته، المتجدد في تفكيره، المتحرك أبدًا في خط قضايا الأمة وحاجاتها يمثل الدور الطليعي الرسالي الذي يقوم بعملية التحضير لتثوير الأمة من خلال الانفتاح عليها، ولإيجاد الأجواء العامة التي تجعل الرسالة حالة جماهيرية شاملة، وتحصن الساحة من الأخطار القادمة إليها من الداخل والخارج.. ولذا فإن الدور الحزبي لا يذهب، بل يتأكد من خلال الحاجة إلى الضوابط العامة والخاصة لتكون عملية الانفتاح على الأمة كلها خاضعة لخطة دقيقة وتنظيم واسع. فإن الشمولية في الدعوة لا تلغي التخطيط، وإن الجماهيرية في العمل لا تبعد التنظيم؛ لأن البديل عن ذلك هو الفوضى في الحركة، والضياع في الطريق.

ومن خلال ذلك، نستطيع أن نوفق بين عمل الحزب وبين عمل المسجد، فيعطي الحزب للمسجد العناصر المثقفة، أو يساعد الذين يتحركون فيه، واللجان التي تشرف عليه بالدراسات وبالأفكار التنظيمية للعمل، وبالتخطيط المدروس لكثير من نشاطاته من دون أن يحصره في الدائرة الحزبية، ويعطي الجو المسجدي، والأسلوب العلمائي للحزب، الروحيةَ والانفتاحَ والشموليةَ، والاندماجَ في مجتمع الأمة، ومرونة التحرك في العلاقات، مما يحقق التكامل بين الطريقتين والمنهجين.

بين الحزب والشورى

أما الجواب عن السؤال الثاني، وهو: كيف يكون دور الحزب – إن وجد – في التخطيط الإسلامي الشامل للحركة على صعيد الحياة في مواقع القيادة؟

فقد يحتاج إلى مقدمة، وهي: إن هناك نظريتين في مسألة القيادة الشرعية، فهناك نظرية الشورى التي ينطلق الحكم فيها من موقع آراء الطليعة أو الأمة أو الفقهاء، أو أهل الحل والعقد، أو نحو ذلك، فهي التي تعطي لأي حكم ولأي عمل شرعيته. وهناك نظرية ولاية الفقيه التي تنطلق شرعية الواقع كلها من رأي الفقيه العادل الجامع للشروط الشرعية.

وفي كلا الحالين، قد تفرض المسألة في الظروف التي يحكم الإسلام في دولة إسلامية، وقد تفرض في خارج نطاق الحكم الإسلامي.

ففي خط الشورى، ربما يكون الحزب بقيادته المشتملة على بعض أهل الفكر، أو أهل الحل والعقد، أو بعض الفقهاء، وبأجهزته العاملة في أكثر من حقل، المتحركة في أكثر من موقع، جزءًا من الشورى، أو يكون هو الشورى عندما تتوفر فيه الطاقات المستوعبة للساحة حسب الشروط الشرعية، وبذلك يكون في موقع القيادة جزءًا أو كلاًّ، ويكون ملزمًا في قراراته من خلال الشورى التي تخطط للواقع، وتدفع الموقف إلى خط التنفيذ في داخل الحكم أو خارجه.

بين الحزب والمرجعية

وفي خط ولاية الفقيه يتحرك الحزب ليقوم بإعداد الساحة للفقيه من خلال الخطة الموضوعية من قبل مفكريه وأجهزته في العلاقات العامة والخاصة فيما يحتاج إليه من خبرة بالواقع، ومن مساعدة على تنفيذ الولاية ليكون العين التي يبصر بها، والأذن التي يسمع بها، والعقل الذي يفكر فيه، واليد التي يضرب بها فيما يتميز به الحزب من خبرة ودراية بالفكر والتجربة، فيكون الجهاز الذي يملكه أداة بيده فيما يريده من أعمال الولاية في شؤون الناس، وفي توزيع المسؤوليات على الساحة، سواء في ذلك في داخل الدولة عندما يريد الفقيه رعاية الحكم فيها، أو في خارجها عندما يريد تثوير الناس ضد الواقع الجائر، وتنظيم العمل الثقافي والسياسي والاجتماعي والأمني من أجل الإسلام. وذلك في المرحلة التي يتحرك فيها الفقيه في هذا الاتجاه ممن يرى الولاية العامة على الناس، إذا لم تكن المرجعية مؤسسة منظمة شاملة على مستوى الأمة، تحتوي كل شيء من

حولها، وبذلك يمكن أن تتكامل المرجعية كجهاز محدود، مع الحزب كمؤسسة تدير الواقع في الأمة من أجل تنميته وتطويره وتثويره ورعايته، ويبقى للمرجعية أسلوبها ودورها، وحركتها التوجيهية في حياة المؤمنين في نطاق الواقع المسجدي الذي يتحرك فيه العلماء والوعاظ والمرشدين في دائرة التثقيف العام أو التثقيف الخاص بالطرق التقليدية أو بالوسائل المتطورة، بالتنسيق الكامل في المجالات السياسية مع الحزب الذي ينال ثقة الفقيه.

لقاء الحزب بالأمة

إن خط «حزب الله» الذي يعني الأمة الواسعة المتحركة في خط الإسلام لابد أن يبقى هو الدائرة الواسعة التي تحتوي الجماهير بإدارتها وتنظيمها والتخطيط لها في معاركها وصراعاتها السياسية والأمنية، وحمايتها من الاختراقات المعادية.

ولكن لابد أن يكون لهذا الخط جهاز واسع شامل في داخل جسم الأمة ليمارس شؤون الإدارة في حركتها، وليستثير بخطته كل طاقاتها، وليحفظ وحدتها الفكرية فيما يثيره في ساحتها الفكرية من فكر، وليحمي لها مسيرتها الأمنية فيما يحركه فيها من وسائل الأمن.

ولابد من إنشاء هذا الجهاز بطريقة منظمة تلتقي بالتنظيم الحزبي في أكثر من موقع وخط مما قد يحول حزب الله إلى حزب منظم بالمعنى المصطلح، إذا احتوى كل الساحات، وقد يبقيه في نطاقه الواسع إذا كان يتولى عنصر قيادته في مركز

الطليعة القائدة من الأمة ليدفع بالأمة إلى أهدافها من الأبواب الواسعة التي تنفتح على الجميع.. وبذلك يلتقي الحزب بالأمة في عملية قيادة وتكامل، فلا تلغي الأمة دور الحزب، ولا يأخذ الحزب مكانها في حركة الواقع.

ويبقى الدين في حركته الواسعة التي تدعو إلى الانتماء إليه، حتى في المواقع الشكلية والسطحية من التزام الإنسان عباداته ومعاملاته وسياساته واندفاعاته الثورية والحماسية، ويتحرك الحزب في خط القيادة وبحركتها من وراء ذلك كله، أو أمام ذلك كله ليحفظ التجربة، وليوزع الأدوار، وليصون المسيرة من الخلل والسقوط والضياع.

الأحزاب والقاعدة السياسية

وربما كانت المشاكل التي حدثت، أو لا تزال تحدث بين فكرة قيادة المرجعية وبين قيادة الحزب، أن المرجعية – في أكثر أدوارها ونماذجها لم تتحرك في الخط السياسي الذي يدفع الأمة إلى التحرك نحو قضاياها المصيرية على أساس الخطة الكاملة الشاملة في مواجهة التحديات لتملأ الفراغ في كل المجالات العامة.

ولذلك بقيت ساحة العمل السياسي فارغة بشكل هائل، بحيث كانت فرصة للتيارات الكافرة أو الضالة أن تملأها لتزرع الكفر والضلال في قلب الأمة وحياتها من خلال الحركة السياسية فيما كانت تطرحه من الفكر المتكامل الذي يطرح السياسة من قلب الفكر الأمر الذي دعا الفئة الواعية من العلماء ومن المثقفين،

أن يبادروا إلى الأخذ بالتنظيم، كأسلوب يواجه الحاجة إلى حركة إسلامية تدخل الصراع من أجل أن تكون البديل عن الآخرين من تيارات الكفر والضلال.

وهكذا دخلت الأحزاب الإسلامية ساحة التجربة، واستطاعت أن تنجح في إيجاد قاعدة إسلامية في الدائرة الجامعية، وفي أوساط الطلاب والمثقفين في أكثر من صعيد، ولكنها لم تستطع أن تمتد إلى الأوساط العمالية والفلاحية والجماهير الشعبية العامة بشكل واسع. وقد بقيت بعض هذه الأحزاب في الظل، وتحرك البعض الآخر في دائرة الصراع السياسي في ظل المرجعية تارة، وبشكل شبه مستقل أخرى في أجواء انفعالية لم يتمكن القائمون عليها من حفظ المواقع في حالة من التوازن في دائرة التخطيط الهادئ، مما أدى إلى نوع من الاستعجال، أو الإعجال من قبل الدوائر المعادية، الأمر الذي سهل محاصرتها وإرباكها وضرب قيادتها وقاعدتها في النهاية.

إننا لا نستطيع أن ننكر أن الأحزاب الإسلامية قد استطاعت أن تصنع قاعدة إسلامية ممتدة في الدائرة السياسية التي قدمت الإسلام كمشروع متكامل يختزن الجانب السياسي إلى جانب الدوائر الأخرى، وذلك في غياب حركة المرجعية في هذا الاتجاه بالنظرة الشاملة؛ لأن ما كان يحدث بين آونة وأخرى من نشاطات سياسية أو فورات ثورية ضد بعض الأوضاع أو القوانين أو الأحداث والأشخاص، لم يكن متحركًا من مواقع التخطيط للوصول إلى الحكم ليكون البديل للأنظمة القائمة؛ لأن ذلك لم يكن واردًا في الحساب من خلال

الذهنية التقليدية التي كانت تواجه المسألة بالكثير من التحفظات الشرعية التي كان يثيرها الاجتهاد القائم على الخط الفردي الذي يدرس المسائل من ناحية الأوضاع التي يعيشها الفرد في حركته نحو أهدافه وقضاياه لتثير أمامه مسألة الخط الأمني الذي يمنع من إلقاء النفس في التهلكة، أو تعريض الساحة للأخطار بعيدًا عن الدائرة الواسعة في حركة الأمة نحو أهدافها وقضاياها الكبيرة التي لا يمكن أن تتحقق إلا بالتضحيات الكثيرة.

الحزبية والخصوصية الدينية

وهكذا كانت الأحزاب الإسلامية، لا سيما في الساحة العربية، منطلق يقظة وحركة بناء وتركيز في مواجهة الأحزاب الأخرى الكافرة التي كادت أن تسيطر على الساحة الإسلامية كلها من خلال الفراغ السياسي الهائل الذي كان يسيطر على الواقع العام بالرغم من التحديات الكبيرة القادمة من الاستعمار، ومن الأنظمة المتحالفة معه.

وقد لاقت هذه الأحزاب صعوبة كبيرة في حركتها من خلال الجانب المعادي المتمثل بالحكومات والأحزاب والقوى الاستعمارية، ومن خلال الجانب المتدين، المتمثل ببعض خطوط المرجعية التي ترى في حركة السياسة في النطاق الإسلامي خطرًا يتهدد الإسلام والمسلمين تبعًا للمفهوم الضيق الذي يحمله بعض القائمين عليها أو المرتبطين بها، وبالواقع المتخلف الذي يختزن في داخله مسألة الفصل بين الدين والسياسة.

هذا إلى جانب الخبرة المحدودة التي كان يملكها القائمون على هذه الأحزاب، والنظرة الضيقة الجامدة التي لم ينفتحوا – من خلالها – على التجارب الأخرى لشكل العمل الحزبي التي تختلف عن الشكل المألوف في الساحة العربية على خط الشكل الحزبي الذي تعيش فيه الأحزاب الماركسية، ولم يعملوا على تطويره في نطاق التطورات الجديدة، ولم يحاولوا التوفيق بين الخصوصية الدينية للإسلام، وبين طبيعة العمل التنظيمي، فاستغرقوا في المسألة التنظيمية، حتى أدى إلى نوع من الانغلاق عن الأمة في امتداداتها الواسعة، ولم يدرسوا مسألة المرجعية في علاقة التنظيم بها، أو علاقتها به بشكل عضوي متكامل، مما جعل الجو بعيدًا عن الواقعية وقريبًا إلى التنظير المثالي.

تبلور فكرة حزب الله

أما فكرة حزب الله التي ترتبط بالمرجعية في خط ولاية الفقيه، فإننا نعتقد أنها لا تزال غير متبلورة في صيغة واضحة محددة الملامح والمعالم، بل تحتاج إلى دراسة واسعة لحركة الفكرة في الواقع، وطبيعة التجربة الموجودة على الأرض، ومدى ما أعطت من نجاح في مسألة الثورة، وفي مسألة التخطيط السياسي، ثم معرفة نوعية الأجهزة الفكرية والسياسية والأمنية التي تتحرك في دائرة القيادة مع الولي الفقيه فيما تملك من خبرة ودراية وإخلاص، وكيف تكون صلتها بحركة الأمة، سواء في نطاق الدولة أو في خارجها؛ لأن نجاح التجربة في ظل الإمكانات الهائلة للدولة، لا يعني نجاحها في ظروف أخرى. وإذا كانت بعض التجارب

السابقة على الدولة، قد حققت بعض النجاح أو الكثير منه، فإن علينا أن ندرس الظروف الموضوعية التي كانت محيطة بالتجربة لنحدد أسباب النجاح في طبيعة الصيغة، أو في العناصر الأخرى المحيطة بها.

إنها فكرة جديرة بالاهتمام؛ لأنها استطاعت أن تثوّر الشعب بطريقة أكثر حرارة من الطريقة التي مارستها الأحزاب، ولكنها مع ذلك تنظر إلى الأمور من زواياها الظاهرة بعيدًا عن العمق الضارب في الجذور.

علامات استفهام«؟»

إننا نريد في هذا البحث أن نثير أفكارًا وعلامات استفهام حول التجارب المطروحة في الساحة، سواء فكرة التنظيم الحزبي، أو فكرة أمة حزب الله لندرس المسألة من غير مواقع الانفعال، بل ندرسها من موقع الفكر والتأمل لنعرف كيف نجعل الأسلوب الإسلامي في العمل قريبًا من الواقعية وبعيدًا عن المثالية في أجواء التفكير بالمطلق.

الحركة الإسلامية بين الانفتاح والانغلاق (أ)

- **بين سياسة الانفتاح والانغلاق:**

أين تكمن السلبيات والإيجابيات؟

- **الانغلاق يؤدي**

إلى عزلة التيار الإسلامي واستغلال الآخرين لأعماله.

- **الانفتاح انطلاقة إسلامية**

لإبراز أهداف الإسلام وإبعاده عن الدائرة الطائفية.

الحركة الإسلامية بين الانفتاح والانغلاق (أ)

الإسلام والتيارات المختلفة

كيف يواجه الإسلام الحركي التيارات الفكرية والسياسية الموجودة في صعيد الواقع؟ فهناك تيارات دينية غير إسلامية تتحرك في خط سياسي من أجل ما يسمى بحرية الوجود المسيحي في الشرق، أو من أجل تحول المفاهيم المسيحية إلى دائرة سياسية متحركة تتخذ الديمقراطية المسيحية عنوانًا لها، كما نلاحظ في الأحزاب الديمقراطية المسيحية في الغرب.

وهناك تيارات غير دينية قد تقترب من الإسلام في بعض ملامحها وخطوطها، وتختلف عنه في الكثير من ركائزها وأفكارها، كما في الأحزاب القومية العربية المتنوعة الأسماء والخلفيات والدوائر فيما تختزنه من انفتاح على الإسلام من خلال التاريخ أو التراث، وفيما تستحدثه من نظريات وآراء على مستوى الفكر والسياسة والاقتصاد.

وهناك تيارات لا دينية، ملحدة في تفكيرها الفلسفي، ثورية في التفكير السياسي والاقتصادي، بعيدة عن الإسلام من حيث الركائز الفكرية، وقد تلتقي مع حركته في بعض المواقع السياسية كما في الأحزاب الماركسية المتنوعة في دوائرها المختلفة في الواقع السياسي العالمي.

وهناك تيارات سياسية محلية وإقليمية، لا تنطلق من حالة فكرية في العمق، بل تنطلق من واقع محلي أو إقليمي في مستوى القضايا المحلية والإقليمية على خط القضايا الحياتية والاجتماعية التي تتحرك من موقع سياسي سلبي أو إيجابي، وربما تأخذ بعدًا طائفيًّا أو شخصيًّا أو فئويًّا.

أسئلة لا بد من الإجابة عليها

هذه هي العناوين العامة للتيارات الموجودة في الساحة على مستوى حركة الواقع السياسي في العالم الإسلامي، فكيف يقف التيار الإسلامي الأصيل منها في حركته السياسية؟

هل يقف بعيدًا وينعزل عنها ليمارس خطته وحده، ويحاول أن يحقق أهدافه بمفرده؟

أو يعمل على دراسة التيارات، فيلتقي بالتيار الذي يقترب من بعض ملامحه وخطوطه، ويبتعد عمن يختلف معه في الأساس والتفاصيل ليحفظ للقاعدة توازنها في الأساسيات، ويتصرف بمرونة في القضايا المتفرعة عنها؟

أو يواجه الموقف بطريقة واقعية، تضع في حسابها مواطن اللقاء ومواطن الخلاف مع هذا التيار أو ذاك، ثم تدرس حاجة الأهداف المرحلية أو النهائية إلى اللقاء لتحدد الجهة التي تلتقي معها في الطريق إلى تلك الأهداف سواء بالمواجهة لتيار آخر مضاد مشترك في الداخل، أو بالتحرك معه بعيدًا عن مواجهة الداخل، أو بالانطلاق نحو الهدف الخارجي المعادي، أو بالاكتفاء بالتواجد على

ساحة الصراع السياسي في المواقف المتحركة للصراع التي قد تتداخل أو تتقاطع أو تتباين تبعًا لما يفرضه الواقع، أو تؤكده الحاجة من حركية التيار الإسلامي ووجوده الفاعل على الساحة كقوة واقعية، بين القوى الأخرى في مشاريعها وخططها المتحركة نحو الأحداث؟

هذه علامات استفهام يواجهها العمل الإسلامي في موقفه من التيارات السياسية الفاعلة المخالفة على مستوى الواقع الحركي الحزبي بعيدًا عن صفة الدولة كإطار يحيط به.

وقد يواجهها على صعيد الحكومات التي تختلف أفكارها وشعاراتها وتشريعاتها وخطوطها السياسية عن الإسلام في فكره وشريعته وخطه السياسي، كما يلتقي بعضها مع بعض الملامح الإسلامية في بعض ذلك.

وربما كان بعضها في مواقع الدول المستضعفة، كما في دول العالم الثالث، بينما يقف البعض الآخر في مواقع الدول المستكبرة، كما في الدول الكبرى وما يلحق بها.

فكيف يتصرف معها التيار الإسلامي كحركة، وكيف يتحرك معها عندما يتحول إلى دولة؟

هذا ما نريد أن نبحثه وندرسه كدراسة تستهدف تركيز التحرك الإسلامي السياسي في التحالف والتخالف على قاعدة إسلامية ثابتة، وعلى نهج محدد المعالم والخطوات والأهداف.

خياران أمام التيار الإسلامي

أولاً: الانغلاق السياسي

(أ) الانفصال الحاسم: ربما يجد بعض المفكرين الإسلاميين أن الموقف الإسلامي يفرض على العاملين المقاطعة التامة لهذه التيارات الكافرة أو الضالة؛ لأن أي شكل من أشكال العلاقة يمثل لونًا من ألوان «الموادة» و«الموالاة» اللتين أكد القرآن الكريم على المؤمنين الابتعاد عن تقديمهما للكافرين وللخائنين والمنحرفين فيما جاءت به الآيات الكريمة كما في قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران/٢٨].

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة/٢٢].

وقد انطلقت أمثال هذه الآيات في أكثر من سورة لتركز هذه الفكرة كقيمة إسلامية عامة.. فيما يجب أن يعيشه المجتمع المؤمن من انفصال حاسم عن أية حالة كافرة أو ضالة، فلا مجال لأية علاقة عاطفية أو سياسية أو اجتماعية من قريب أو من بعيد؛ لأن ذلك يعني معنى من معاني المودة والموالاة.

(ب) رفض الاعتراف: ويضيف هؤلاء – إلى ذلك – أن العلاقة السياسية مع هذه التيارات تمثل اعترافًا بشرعيتها كفريق سياسي في الساحة الإسلامية فيما يوحيه ذلك بأن له الحق في المشاركة في تخطيط مستقبل البلد وإدارة شؤونه.. وهذا أمر غير جائز شرعًا؛ لأن الاعتراف بالخط الكافر أو المنحرف لا يمثل أية شرعية إسلامية، بل هو النقيض البديهي لذلك.

(ج) الحاجز النفسي: وقد يثير هؤلاء – فيما يثيرونه من ملاحظات – أن مثل هذه العلاقات، تفسح المجال للنفاذ إلى داخل التيار الإسلامي في عملية اختراق أمني أو سياسي، مما يهدد حركته بالخطر، ويعرض أسراره للظهور، ومواقعه للاهتزاز، كنتيجة طبيعية لما يمكن أن يؤدي إليه انفتاح الآخرين على الساحة الإسلامية من خلال علاقتهم التحالفية بالحركة المهيمنة عليها.. بينما تمثل المقاطعة حاجزًا نفسيًّا يمنع من الانفتاح، وسدًّا سياسيًّا يمنع من الاختراق، وحركة مضادة تدفع إلى المواجهة وتؤكد التحدي وتفرض الحذر، ولعل هذا – فيما يقوله هؤلاء – هو ما تشير إليه الآيات الكريمة التي تعمل على توعية المؤمنين على الواقع الداخلي الذي يتمثل فيه المنافقون والكافرون من أعداء الإسلام ليحذروا منهم وليبتعدوا عن جو الاستسلام إليهم، وليمتنعوا عن الحالات الاسترخائية التي يفرضها الجو الحميم الذي يوحي بالاطمئنان، كما في قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ

ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران/١١٨-١٢٠].

قد نفهم من هذه الآية رفض الإسلام لإقامة العلاقات العامة والخاصة مع غير المسلمين ممن يختلفون معهم في الفكر والخط والاتجاه انطلاقًا مما يفرضه الاختلاف من المشاعر المعادية والخطط المضادة، وما تؤدي إليه العلاقة من تسهيل وصول هؤلاء إلى غاياتهم المشبوهة.

وقد نستوحي منها تحذير المسلمين من السذاجة العاطفية التي تجعلهم يستسلمون لمشاعر الحب الساذجة تجاه الذين لا يحبونهم، غير المدركين للأخطار المترتبة على ذلك فيما يمارسه هؤلاء من مشاعر سلبية وأوضاع شريرة... وكأن الآيات تقول لهم إن اتخاذهم بطانة في إطار العلاقة الحميمة يعتبر عملاً خاطئًا ساذجًا لا بد لهم من التراجع عنه.

(د) الخوف على الجماعة المسلمة: وقد يتحدث هؤلاء المعارضون عن مبررات معارضتهم بطريقة أخرى.. وهي أن العلاقة مع هذه التيارات قد تساهم في إضلال الجماعة المسلمة فيما يفرضه ذلك من إسقاط الحواجز النفسية التي تحجز المسلمين عن التأثر بهم، وإفساح المجال للأجواء الحميمة التي قد يعيشونها

من خلال الأساليب الخادعة الساحرة التي يستخدمونها معهم، وتوجيه الأنظار إلى الإيجابيات المثيرة فيما تمثله مواقع اللقاء بهم، مما يؤدي – بطريقة وبأخرى– إلى إمكانية النفاذ إلى قناعاتهم وإلى نجاح عملية التضليل والاحتواء الفكري والعملي لأوضاعهم ومواقعهم الخاصة والعامة.

هذه هي أهم الملاحظات التي يطرحها القائلون بضرورة مقاطعة التيار الإسلامي الأصولي للتيارات الأخرى غير الإسلامية، واعتبار أسلوب الانغلاق السياسي هو الأسلوب الأمثل.

ولكن هناك رأيًا آخر لا يلتقي بهذا الرأي، بل يجد الأسلوب الأفضل هو أسلوب الانفتاح السياسي على الآخرين، ولكن لا بشكل عشوائي مطلق، بل بشكل مدروس غير معقد، مما يفرض علينا دراسة التحفظات لمعالجتها، ومواجهة السلبيات في محاولة لتخفيفها، أو تحويلها إلى إيجابيات.

ثانيًا: خيار الانفتاح السياسي

ويتحدث هذا الفريق الإيجابي في موقفه المنفتح عن الملاحظات التي أثارها الفريق السلبي المنغلق بإثارة الملاحظات الاعتراضية حولها.

(أ) اللقاء على أرض وأهداف مشتركة: أما حديث الموالاة والموادة المرفوض إسلاميًّا مع غير المسلمين فلا موقع له في مجال إثارة الحديث عن الانفتاح عليهم؛ لأن مفهوم الموادة يعني العاطفة القلبية الحميمة العميقة المتمثلة بالإخلاص

الروحي النابع من اللقاء الداخلي في الفكر والروح والعاطفة، كما أن مفهوم الموالاة يمثل الصلة الواقعية المتحركة في خط الطاعة والاتباع والاندماج بالآخر على مستوى الانتماء والإخلاص وهذا أمر لا نريد إثارته في ساحة العلاقات الواقعية السياسية بين الإسلام وبين التيارات الأخرى، بل كل ما نريده هو العمل على إيجاد مواقع عملية للقاء على أهداف مشتركة فيما يهم الإسلام والمسلمين مما يستهدفه الآخرون في خططهم المرسومة، بحيث يكون الجانب العملي في حركة العلاقات الخارجية هو القاعدة التي يلتقي عليها الجميع من دون أي تأكيد على أية حالة عاطفية في الشعور أو أية حالة سياسية في الانتماء أو أي شكل من أشكال الذوبان والاندماج في الحالة الأخرى وبالشخص الآخر.

وعلى ضوء ذلك نعرف أن الموادة شيء وأن الارتباط في علاقة عملية شيء آخر. كما نفهم أن الموالاة تختلف عن معنى اللقاء على أرض مشتركة في بعض مراحل الطريق؛ لأنهما يتصلان بحركة العلاقة من الداخل، بينما يتمثل التحالف أو التلاقي بحركة العلاقة من الخارج.

(ب) الاعتراف بالوجود لا بالشرعية: أما حكاية الاعتراف بشرعية التيارات اللاإسلامية التي لا شرعية لها في حساب الفكر الإسلامي وشرعية الإسلام ومنهجه في الواقع وفي الحياة، فهذه حكاية لا معنى لها؛ لأن هناك فرقًا بين الاعتراف بوجود الفريق الآخر على الأرض، كفريق فاعل في الساحة فيما تفرضه الظروف له من موقع مما يفرض على الآخرين الصراع معه في مواقع

الصراع، والتنسيق معه فيما لا يضر بالساحة، أو فيما يلتقي مع مصلحتها لحساب المسلمين في مجالات التنسيق، وبين الاعتراف بشرعية وجوده فيما يحمل من مضمون فكري وخط عملي وحركة هادفة.

إن اللقاء في موقع تحالف مرحلي، أو تنسيق عملي موضعي، لا يعني إلا الاعتراف بالوجود كأي حقيقة موجودة على الأرض مما نحبه أو لا نحبه فيما قد تلتقي به أو تنفصل عنه، ولا يعني أبدًا أي نوع من أنواع الاعتراف بشرعية الخط والفكر والاتجاه، وهل نستطيع اعتبار معاهدة الرسول (ص) مع اليهود في بداية الهجرة اعترافًا بشرعيتهم؟ وهل يمكن اعتبار صلح الحديبية الذي عقده الرسول (ص) مع المشركين اعترافًا بشرعية الشرك الذي يعتنقونه كعقيدة ومنهج حياة؟

(ج) الانفتاح والحذر العملي: أما سلبيات هذه العلاقات على الواقع الإسلامي فيما تمثله من خطر على أسراره ومواقعه وحركته، وفيما تؤدي إليه من اختراق من جهة، وابتعاد عن الحذر ومواجهة التحدي من جهة أخرى، أما هذه السلبيات فإن من المفروض الانتباه إليها عند إقامة العلاقات، وذلك بدراسة المسألة على أساس إثارة التحفظات الفكرية والواقعية في مضمون الاتفاق، وتخطيط الانفتاح على النهج الذي يلتقي بالواقع الموضوعي الذي يعرف كيف يغلق الساحة بحساب، وكيف يفتحها بحساب، وكيف يوجه اللقاء ليكون أساسًا لتثبيت الساحة وتأكيد المواقف بدلاً من العمل على اهتزازها وزلزلة المواقف.

إن القضية مطروحة من ناحية المبدأ، لا من ناحية التفاصيل؛ لأن مسألة التفاصيل تدرس دائمًا من زاوية الفكرة العامة التي أوحت بالمبدأ بعيدًا عن أية حالة عاطفية ارتجالية، أو أية حركة انفعالية سريعة.

أما تفسير الآيات، فإنه يلتقي بالمفهوم الذي تثيره كلمة «البطانة» التي تعني الحالة الداخلية العميقة كمثل بطانة الثوب التي تلتصق به وتقويه وتحميه، في عملية التصاق محكم لا انفصال فيه ولا افتراق. وهذا هو ما تفيده الآيات في مشاعر الحب العميقة التي يحملها المسلمون لهؤلاء الأعداء الحقيقيين من موقع السذاجة العاطفية فيما تؤدي إليه من اطلاعهم على الأسرار واستسلامهم للأجواء الحميمة والمظاهر الخادعة والأساليب الملتوية.

وقد يكون هذا كله مرفوضًا لدى الذي يتبنون سياسة الانفتاح فيما يؤكدونه من ضرورة التركيز على حالة الحذر فيما يترقبه من المفاجآت وفيما يختزنه من التحفظات، وفيما يثيره من ملاحظات على الأشخاص والمواقع والمواقف والكلمات ليكون الانفتاح الواقعي مقرونًا بالحذر العملي.

(د) تحصين الساحة الداخلية: أما موضوع إضلال المسلمين فيما قد تفتحه العلاقة من نوافذ لهؤلاء على الجماعات الإسلامية، فهذا موضوع لا تفرضه طبيعة المسألة، بل يفرضه التساهل في تحريكها، وعدم الحذر في تطبيقها؛ لأن من الأمور البديهية في العمل السياسي لأية حركة إسلامية أن تقوم بتحصين الساحة الداخلية بالإيمان والوعي والمعرفة للأساليب الخادعة، والخطط المعقدة،

والحركات المشبوهة، والشخصيات القلقة، والظروف الخطرة، وما إلى ذلك، مما يساهم في عملية التضليل واهتزاز المواقع.. وإذا استكملت الحركة الإسلامية ذلك كله، فلا مجال بعدها لأي تضليل أو تحريف، أو لا أقل من تخفيف الخطر في حدوث ذلك كله.

سلبيات الانغلاق: عزلة التيار الإسلامي واستفادة الآخرين

وقد نحتاج إلى دراسة المسألة من جهة أخرى.. وهي دراسة السلبيات المتمثلة بالانغلاق عن الواقع السياسي والاكتفاء بإثارة السلبيات من حوله، والابتعاد عن التنسيق مع القوى الفاعلة فيما يريد التيار الإسلامي إثارته مما يتفق مع ما يريده الآخرون من أهداف. فإن ذلك يوجب عزلة هذا التيار عن حركة الأحداث بشكل مباشر، وعدم الاطلاع على كثير من خلفياتها التي قد يتوقف عليها الوصول إلى بعض النتائج العملية على صعيد الهدف، كما أن الآخرين سوف يستفيدون من كل النشاطات الجهادية والسياسية التي تتحرك في الخط السياسي الذي يتحركون عليه؛ لأنهم هم الذين يحركون الساحة فيما يوحون به، وهم الذي يجنون ثمارها، بينما يبقى التيار الإسلامي بعيدًا عن مجرى الأحداث، وهذا هو ما لاحظناه في بعض الأحداث الكبيرة التي أبلى فيها المجاهدون المسلمون بلاءً كبيرًا في مواجهة القوى الاستعمارية والصهيونية. ولكن النتائج السياسية كانت في مصلحة قوى محلية وإقليمية ودولية أخرى،

حاولت أن تطرح الشعارات المضادة لتلك القوى، مما جعلها تعرف كيف تستفيد من جهاد المجاهدين من دون أن تقدم شيئًا ذاتيًّا في هذا الاتجاه.

وقد يؤدي هذا الواقع إلى أن يتحول التيار الإسلامي إلى أداة ناجحة للتيارات الأخرى في سبيل تحقيق كثير من الأهداف العامة من دون أن يحصل على شيء منها تمامًا كشرطي المرور الذي يوحي للجميع بالتقدم ويظل واقفًا مكانه، كما يقول بعض الظرفاء.

إن المشاركة في النشاط السياسي هو الذي يمكن أن يحقق الكثير من المواقع المتقدمة في الساحة بشكل منفرد، أو بشكل مشترك؛ لأن الخطة السياسية المتحركة في صعيد الواقع، لابد أن تقود إلى الكثير من النتائج الإيجابية لمصلحة الإسلام على أكثر من مستوى.

إيجابيات الانفتاح: إبراز أهداف الإسلام ومعرفة الكواليس

وعندما ندخل في دائرة الإيجابيات، فقد نلاحظ إمكان الحصول على الكثير منها لمصلحة التيار الإسلامي، يمكن أن نلخص بعضها في عدة نقاط.

أ- الاطلاع على حركة الواقع السياسي من الداخل لا من الخارج، وفي العمق لا في السطح، فإن من الملاحظ أن الدخول إلى النادي السياسي الذي تتحرك فيه الأحزاب والهيئات المتنوعة، يجعل إمكانية الاطلاع على خلفيات اللعبة السياسية، وآفاق العمل السياسي أكثر واقعية، ويحقق للعاملين ثقافة

عميقة شاملة؛ لأن الكثير مما يثار في داخل الكواليس لا يسمح بالإعلان عنه في الخارج، وبذلك يمكن التحقيق لأية عملية سياسية ثورية من موقع العمق الواقعي للخطة، لا من مواقع السطح الظاهر للأشياء.

ب- إمكانية النفاذ إلى عمق التيارات الأخرى من خلال الساحات المفتوحة التي يفرضها اللقاء على أكثر من صعيد، مما يسهل عملية الاحتواء لدوائرها المتحركة من جهة، أو التأثير على قراراتها من جهة أخرى، أو التخفيف من مشاكل سلبياتها من جهة ثالثة، وذلك من دون الدخول في أية معركة حادة غير مأمونة العواقب. إن العاملين في هذا الاتجاه سيتحركون بعيون مفتوحة تعرف مواقع الثغرات، وتكتشف حركة الزوايا، وتتلمس كل مواطن الخطر، بينما يكون الاتجاه الآخر متحركًا بعينين غائمتين أو ضبابيتين لا تعرفان كيف تلمعان في آفاق النور القادم في الساحة.

جـ- توجيه الأنظار إلى الأهداف الإسلامية الكبيرة من خلال حركة الشعارات المشتركة في الساحة التي تجعل من الإسلام عنصرًا حيًّا فاعلاً يتقدم المسيرة بشعاراته المتقدمة أو يتحرك فيها كعنصر أصيل من موقع مميز، مما يدفع بالأمة التي يعمل الكفر والضلال على إبعادها عن الإسلام أن تكتشف حيوية الأهداف الإسلامية من مواقع المقارنة فيما تحمله الحركة من شعارات، وفيما يحمله الآخرون منها، وفي طبيعة حركة الشعار هنا وهناك، وفي عمق الحيوية الثورية التي يتميز بها الإسلاميون في ذلك كله.

إن الحضور في الساحة مع الآخرين، يفسح المجال لذلك كله، ويفوت الفرصة على الخطة التي تعمل على عزل الإسلام عن الساحة.

د- إبعاد الإسلام عن الدائرة الطائفية التي يراد حبسه في داخلها، وتحويله إلى حالة عشائرية مختنقة بالمشاعر والأحاسيس العدوانية الضيقة بعيدًا عما هو الفكر، وعما هو التشريع والمنهج الواقعي الذي يخطط للحياة بعقلية واعية منفتحة من أجل التغيير، واعتبار المنطق الوطني هو المنطق الذي يمكن له أن يحقق الوحدة الجماهيرية في حركة الأمة نحو الوحدة، وهذا هو الذي يعمل له الكثيرون من حملة الشعارات العلمانية التي ترى في الطرح الديني نوعًا من أنواع إرباك مسألة الوحدة والحرية والعدالة والانفتاح في المجتمع... فيما يمثله من تمزيق وتفريق وتعصب واستسلام للقوى المستغلة في العالم.

الانفتاح انطلاقة، والانغلاق جمود

إن دخول الإسلام إلى الساحة التي تنفتح على الواقع السياسي من خلال إيجابياته السياسية، وخططه الواقعية يفوت الفرصة على هؤلاء، ويفسح المجال للفكرة الإسلامية الشاملة التي تؤكد الوحدة من خلال الفكر، والتفاهم من خلال الحوار، والتسامح من خلال الانفتاح، والحرية والعدالة من خلال الخطة السياسية الاجتماعية الواسعة. وهكذا نجد في الانفتاح على الحركات السياسية والواقع السياسي، والنفاذ إلى عمق الساحة انطلاقة إسلامية في ساحة الحياة لا تختزن من السلبيات، بقدر ما تختزن من الإيجابيات.

ويبقى السؤال كيف تتحرك مسألة الانفتاح؟ وما هي ملامح الصورة في ذلك كله؟ وكيف نفهم الآيات القرآنية الحاسمة في المباينة مع الآخرين؟ وهذا ما سنجيب عنه في الصفحات التالية.

الحركة الإسلامية بين الانفتاح والانغلاق (ب)

- **المرونة في التواصل واللقاء**

  هي الأساس في المجتمع المتعدد الانتماءات.

- **ضرورة العمل**

  لضمان العقيدة الإسلامية وحفظ الوجود.

- **الحوار والعلاقات**

  يتمّان في دائرة المصلحة العليا للإسلام.

- **ضرورة مواجهة دعوات التسامح**

  بحذر وعدم الاهتزاز أمام الأعداء.

الحركة الإسلامية بين الانفتاح والانغلاق (ب)

كيف نفهم الآيات القرآنية الحاسمة في المباينة مع الآخرين؟

لقد أشرنا – فيما تقدم من حديث – إلى أن الآيات تؤكد على رفض الموالاة والموادة بالمعنى الذي يغيب فيه الجانب الفكري العقيدي عن دائرة الاهتمام الذاتي في حركة العلاقات ليكون مجرد حالة جانبية في المسألة فتتقدم عليه بقية الجوانب ليكون الأثر البارز لها في القاعدة النفسية للعلاقة بين الإنسان المسلم والآخرين.. مما قد يؤثر سلبًا على عمق الارتباط الداخلي بالعقيدة، ويؤدي إلى نوع من استسلام للعنصر العاطفي الحميم الذي يجعل الإنسان غافلاً عن كثير من الأوضاع السلبية التي تدبر له في الخفاء، وقد تطعنه في الصميم من حيث لا يشعر فيما يتعلق بالفرد أو بالأمة.

إثارة الفواصل الفكرية: من أجل اللقاء والوفاق لا التعصب والانفصال

ولذلك كانت المسألة تؤكد على حركية العقيدة في إثارة الفواصل الفكرية والنفسية بين المسلم والآخرين لتوحي بالأهمية للجانب العقيدي من جهة، وبالحذر في الجانب العملي من جهة أخرى، بحيث يشعر بأن هناك شخصيتين في الساحة هي شخصية المؤمن بالإسلام وشخصية المؤمن بغيره، مما يمنع من أية عملية اندماج وذوبان، ويثير في الوعي نوعًا من التأمل والقلق فيما يمكن أن يقوم به الفريق الآخر ضده أو ضد فريقه.

وليست المسألة مسألة إيجاد حالة من التعصب أو الانفصال، أو إثارة جو من انعدام العلاقة الاجتماعية في المجتمع المتنوع، بل هي مسألة إيجاد حالة من الواقعية في تحديد الفواصل الفكرية، بطريقة جدية مسؤولة في مواجهة حالات التمايز والاختلاف.. وذلك كي يكون اللقاء من موقع التمايز، ويكون الوفاق من خلال عناصر الخلاف؛ لتنطلق العلاقات من موقع القاعدة في الفكرة والعقيدة، لا من موقع الهوى والمزاج، أو من موقع الرغبة والرهبة، مما قد يؤدي إلى تأثير القوى المضادة على سلامة المجتمع كله. ولعل هذا هو ما أثارته الآية الكريمة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة /٥١-٥٢].

فنحن نلاحظ التأكيد على النظرة الواقعية للمسألة من خلال دراسة المجتمع الآخر الذي قد يعيش التنوع في داخله، ولكنه يعيش الوحدة في مواجهة الإسلام ومجتمعه، مما يفرض على المجتمع المسلم أن يكون واعيًا بالمستوى الذي يحتفظ لنفسه بالمسافة التي تحميه من إمكانات التآمر عليه فيما إذا فكروا بذلك، لاسيما في الظروف المعقدة التي تعيش حالة المواجهة المفتوحة فيما بين المجتمعين في حرب معلنة أو خفية، فيكون الواقع هو دافع التصرف المتصل بالعنصر الأمني الدقيق. ولهذا يعتبر الموالاة خروجًا من مجتمع الإسلام إلى المجتمع الآخر.

كما نلاحظ التأكيد على الفكرة التي تدفع الذين في قلوبهم مرض إلى تقديم التنازلات وتغيير الشعار فيما يعيشونه من خوف غلبة أولئك على المسلمين فيريدون أن يأخذوا لأنفسهم الأمان ولو على حساب مواقعهم الإسلامية، فأرادت الآية أن تنذرهم بخلاف ما أسروه في أنفسهم.

وهكذا نجد أن المسألة تعالج الجانب السلبي من خلال الأوضاع الخارجية التي قد تحدث نتيجة بعض النوازع الذاتية.

حصانة الأمن العقيدي والمجتمعي أولاً

وقد نستطيع استيحاء الفكرة التي ألمحنا إليها في اعتبار الموقف القرآني منطلقًا من حماية العقيدة من الانحراف، وحماية المجتمع من الخلل أو من الخطر، مما يجعل من هذه المسألة مسألة خاضعة لعنصر الأمن العقيدي والاجتماعي تمامًا كأي فكر أو دين يريد أن يمنح فكره ومجتمعه حصانة ضد السقوط أو الانحراف والضياع أمام فكر الآخرين أو مجتمعهم من خلال التأكيد على الشخصية المميزة، والمجتمع الحذر.

وفي ضوء ذلك، يمكن للعلاقات المتنوعة في المجتمع المتعدد الانتماءات أن تعيش المرونة العملية في التواصل على أكثر من خط، واللقاء في أكثر من موقع، وفي إشاعة الأجواء الحميمة البعيدة عن الميوعة والذوبان وفي تحريك العنصر الأخلاقي في البر والرحمة والعدل المنفتح على الآخرين بكل رحابة وإخلاص وذلك من خلال القيم الإنسانية التي تقود الإنسان المسلم إلى التعامل مع الناس

كلهم من موقع أخلاقي شامل منفتح على أساس أن القيمة الأخلاقية الإنسانية، لا تمثل حركة طارئة في حياة المسلم، بل تمثل عمقًا في حركة الإيمان المتصل بالله تعالى في رعاية عباده، مما يمنع من تجزئة المواقف، ومن التمييز بين الناس، ولذلك أراد الإسلام من المؤمنين أن يعدلوا بين الناس، حتى لو كانوا من خصومهم، أو من أعدائهم؛ لأن العدل حق لجميع الناس، وأراد لهم أن يعيشوا الرحمة مع الجميع، حتى للحيوان.

ولكن لذلك شرطًا واحدًا، وهو ضمانة أمن العقيدة الإسلامية والمجتمع المسلم وهذا هو ما نلاحظه من قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران / ١٤٩].

وفي قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة /٥٧].

ضبط الشخصية والبعد عن العُقد

وهكذا نلاحظ أنه في الآية الأولى، كان النهي لحماية العقيدة في نفس المسلم من الارتداد إلى خط الكفر من خلال السير في خط الطاعة لأعدائها لئلا يخسر الإنسان مصيره أمام الله.

وفي الآية الثانية، كان النهي لحماية الدين من الامتهان والإهانة والابتذال ليعيش المسلم بكرامة دينه، فيبتعد عن الذين يمتهنونه ويحتقرونه تمامًا كما يعيش الشعور الذاتي بكرامته الشخصية، فلا يوالي الذين يهينونها. وهكذا نجد أن الإسلام لا يريد أن يعقد المسلم تجاه الآخرين من موقع طبيعة الاختلاف في العقيدة، بل يريد أن يجعل في داخل ذاته الضوابط القوية من أجل تماسك الشخصية الإسلامية في داخله، أو في واقعه أمام حالات الاهتزاز الداخلي أو الخارجي.

رفض موالاة الأعداء

وإذا كانت القضية هي قضية الأمن العقيدي والمجتمعي، فإن الإسلام يفتح للمسلمين المجال بشكل واسع للتعاطف والتواصل مع الذين لا يتحركون بشكل عدواني ضد الإسلام والمسلمين بالقتال أو بالتهجير أو بالفتنة عن دينهم وذلك هو قوله تعالى:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الممتحنة / ٨-٩].

فنحن نرى في الآيتين التحديد الدقيق للسلوك الإسلامي مع الذين يختلفون مع المسلمين في العقيدة لتكون القضية هي: من هو الفريق الذي قاتل المسلمين لفتنتهم عن دينهم، ومنعهم من حرية الدعوة إليه، وإخراجهم من ديارهم بدون حق، ومعاونة الآخرين على ذلك؟ ومن هو الذي لم يقاتل المسلمين، ولم يناصر الآخرين على الاعتداء عليهم؟ فإن الفريق الأول هو الذي ينبغي أن يقاتل ويقاطع ويبعد عن أي لون من ألوان التعاطف والموالاة.

أما الفريق الثاني المسالم، فهو الذي لا يمانع الإسلام أن يقوم المسلمون برعايته وبالبر به، وبالعدل في التعامل معه في كل شؤون الحياة، وفي كل حركة العلاقات ومن خلال ذلك يمكن قيام علاقات تعاون بين المسلمين وبين هؤلاء أو لقاء على أكثر من قضية، أو تعاهد على أكثر من ميثاق.

مشكلة السلوك المنحرف والعقلية العنصرية

ولعل دراسة الآيات القرآنية التي تتحدث عن عداوة المؤمنين لليهود، وتدعو إلى مقاطعتهم والابتعاد عنهم، تؤكد لنا الفكرة المطروحة في هذا البحث، وهي أن مجرد الخلاف لا يلغي اللقاء على الموقع المشترك، وذلك لأن الكثير من هذه الآيات يركز على السلوك المنحرف لهؤلاء، وعلى العقلية العنصرية التي تشعر بالفوقية تجاه الآخرين، وعلى الممارسات العدوانية ضد الأنبياء والأولياء والصالحين، وعلى إفسادهم في الأرض، وعلى اتّجارهم بالدين وبالكتاب وعلى غرورهم وأمانيهم الكاذبة، وعلى استحلالهم أموال غيرهم بدون حق، وعلى

خيانتهم للمجتمعات التي يعيشون فيها وطغيانهم ونقضهم للمواثيق التي يعطونها على أنفسهم للآخرين، وعلى تحريفهم لكتاب الله.

وبذلك كانت الروح العدوانية هي التي تعيش في وجدانهم وعقليتهم وشعورهم في نظرتهم إلى الآخرين، الأمر الذي أراد الله فيه للمسلمين أن ينفتحوا على وعي هذا الواقع من موقع المستوى الكبير من العداوة الذي يعيشه هؤلاء ضد الذين آمنوا وذلك هو قوله تعالى:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ [المائدة /٨٢].

فلم يكن الخلاف العقيدي هو الذي أكد العداوة الواقعية في حركة العلاقات، بل الواقع العدواني الذي مارسوه عمليًّا ضد المؤمنين.

مسألة قيم وقضية دعوة

ولعل مما يؤكد لنا الفكرة هو الحديث الذي أثارته هذه الآية في الفقرة التالية في الحديث عن النصارى، في قوله تعالى:

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ .وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة/ ٨٢-٨٣].

فقد انطلقوا من خلال القيم الروحية التي جاء بها السيد المسيح- عليه السلام، مما يجعل من قضية اللقاء بهم قضية تخضع للأجواء في تصورها لله، وفي حركة العبادة له، بالرغم من الاختلاف في تفاصيل ذلك كله. ولهذا كانت الآيتان تؤكدان على هذا الجانب الروحي بعيدًا عن الجانب الذاتي. فليست المسألة مسألة فئة تلتقي بفئة على أساس النطاق البشري الذي تمثله هذه أو تلك. ولكن المسألة مسألة قيم يعيشها ويؤمن بها هؤلاء ليكون اللقاء على أساس ذلك. وقد اعتبرت الآية وجود القسيسين والرهبان ظاهرة إيجابية في هذا الاتجاه فيما يمثله هذا اللون من الناس من انقطاع للعبادة وابتهال لله، وتواضع للناس، وابتعاد عن الاستكبار.

وتحدثت عن التجربة الأولى للقاء في الوقت الذي لم يكن فيه المجتمع النصراني قد عاش عقدة الصراع ضد الإسلام والمسلمين نظرًا إلى أن القضية كانت قضية الدعوة في بداياتها الأولى. فقد تلقى هؤلاء الذين استمعوا إلى آيات الله، تلك الآيات بروح منفتحة واعية، تتفتح على الخير من كلمات البر، وتعي عمق الروح الإيماني من كلمات الإيمان، وتعيش الفرح الروحي فيما تعيشه من روحية الوحي الإلهي فتنفعل بالحقيقة الصافية في صفاء التأمل، وإشراقة الإلهام، وتنساب الدموع التي تفيض من العيون في انفعالات الخشوع أمام الكلمات الإلهية التي توحي بالخشوع، وتنطلق بالمحبة والرحمة، وتتفايض كالينبوع المتفجر في أعماق النفس سلامًا وانطلاقة حية تفتح على القلب آفاق الروحانية في رحاب الله.

وهكذا نستوحي من هذه الآيات أن المشكلة التي يعانيها أصحاب الديانات السماوية فيما يختلفون فيه ليست مشكلة الفكر الذي يتنازعون في صحته وفساده، وليست مشكلة الشريعة التي يختلفون في صوابها وخطئها، بل هي مشكلة الروحية التي يواجهون بها بعضهم البعض. فقد ينطلق البعض من موقع العقدة التي تحاول أن تدخل بسلبياتها الخانقة في كل فكر، وفي كل أسلوب لتنحرف به عن مساره الطبيعي في حالة المواجهة الفكرية. فيتحول الأمر إلى حرب بين العواطف والتشنجات بدلاً من أن يكون حوارًا في الصراع بين الأفكار، ويشد الموضوع إلى منطقة الضباب النفسي الذي يمنع الجميع من وضوح الرؤية، مما يؤدي إلى التشاحن والتباغض والحرب الجسدية في نهاية المطاف.

الحوار والصداقة الفكرية

وقد ينطلق البعض من موقع الفكرة التي تتطلع إلى الوضوح، فتواجه الفكر بالفكر الذي يناقش ويحاور من أجل أن يكتشف المناطق المجهولة لديه، أو يكشف للآخرين المناطق المجهولة عندهم ليقف الجميع من خلال ذلك على أرض الحقيقة التي يلتقي عليها الناس الذين يعيشون الشوق الروحي إلى المغفرة. وهذا هو ما يهدف إليه الإسلام في أسلوبه الفكري، في الدعوة إلى الحوار بالروحية التي لا تتحرك من خلفيات العقدة، بل تعيش انطلاقات الفكرة الباحثة عن الوضوح في رحلة البحث عن الإيمان، فلا يتحول الاختلاف إلى عداوة تتعمق بالممارسات السلبية، بل يتحول إلى تجربة حية صادقة قد تفتح الطريق إلى صداقة فكرية تتأكد بالكلمات والمواقف الإيجابية.

وقد يكون من الأفكار التي نستوحيها من هذه الآية أن هذه المودة القريبة التي يقررها القرآن الكريم في موقف النصارى من المسلمين، كانت بسبب هذه الروحية المتواضعة المنطلقة التي يعيشها القسيسون والرهبان فيما يستلهمونه من تعاليم الإنجيل، وفيما يستوحونه من ابتهالات التأمل بين يدي الله، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنها تعود إلى الانفتاح على آيات الله، فلا يواجهونها بالرفض السريع، بل بالتأمل الدقيق والفكر العميق.

اللقاء في أجواء المعاني الروحية: لا مجاملة ولا هروب، بل حذر وواقعية

وفي ضوء ذلك نستطيع أن نشير إلى عدة نقاط في الموضوع:

١- إن ذلك يدفعنا إلى أن نفسح المجال - دائمًا- للانطلاق بالواقع إلى هذا الجو، فنعمل على إثارة المعاني الروحية في أخلاقيات النصرانية المستمدة من الإنجيل من أجل اكتشاف مواطن اللقاء فيما يلتقي فيه الإسلام والنصرانية من مفاهيم في الإيمان والحياة ليكون ذلك أساسًا لاحتواء كل السلبيات التي تتحرك في الساحة فتدفعها إلى التعقيد والارتباك. وبذلك يمكن للعاملين أن يبدؤوا في عملية الإعداد لإيجاد الأرضية الصلبة التي تؤدي إلى الوقوف المشترك في موقف الاتحاد والتفاهم.

٢- إن هذه الفكرة توحي لنا بالابتعاد عما تعارف عليه الناس من أساليب المجاملة الخادعة التي تحاول أن تتغافل عن كل السلبيات بطريقة سطحية مائعة تواجه

المشكلة في مستوى اللحظات السريعة لتنطلق إلى الدراسة الهادئة الدقيقة التي تعمل على التعامل مع الموقف من خلال المعطيات الواقعية الموجودة في الساحة فتثير الإيجابيات في بعض المواقع، وتشير إلى السلبيات في بعض آخر، وقد تغفلها في مواقع أخرى لتوجه الحالة إلى النتائج الطيبة.

إن الابتعاد عن مثل هذه الدراسة الواقعية الهادئة، والسير في خط الأساليب العاطفية، يحول الموقف إلى موقف مائع لا يوحي بالجدية، بل يوحي بالهروب من الواقع بالاختفاء خلف الألفاظ البراقة، والعودة من جديد إلى تعقيدات الواقع الصعب – بعد اكتشاف السراب في لحظة الوصول إلى الأفق البعيد.

٣- إن هذا الجو الإيجابي في الآيات الذي يؤدي إلى النتائج الإيجابية على صعيد اللقاء يدفعنا إلى اكتشاف المسألة على مستوى الأرضية التي نقف عليها لنتعرف الملامح الحقيقية للواقع؛ لأن العوامل التاريخية والسياسية المعقدة، قد تركت آثارًا عميقة في داخل القلوب والعقول والأفكار، وخلفت جروحًا في الأعماق، مما جعل الجو يختلف كثيرًا عن أجواء هذه الآية، فكانت العقدة موضع الفكر، وعاش الحقد في مواقع المحبة، وارتفعت الحواجز أمام فرص اللقاء.

وبدأت الساحة في بعض الحالات تتكشف عن نصرانية يهودية في حقدها وعداوتها للإسلام والمسلمين، الأمر الذي يوحي بالحذر الذي يدفع إلى الواقعية ولا يدعو إلى الشلل، لئلا يجرنا التساهل في مثل هذه الأمور إلى الوقوع في الفخ

المنصوب لنا تحت تأثير الشعارات الخادعة الداعية إلى المحبة في الوقت الذي تعمل فيه بكل جهد للتخطيط الدقيق للسير في خط الحقد والعداوة.

٤- إن التأكيد على استخدام صيغة التفضيل في عداوة اليهود والذين أشركوا للمسلمين يجعلنا نواجه الموقف في علاقتنا مع اليهود والجماعات الملحدة والمشركة من خلال هذا الخط. فنعيش معهم كما يعيش الإنسان مع عدوه؛ لأن اليهود يخططون لإضعاف الإسلام والمسلمين، وبالتالي للقضاء على وجوده ووجودهم؛ لأن الملحدين والمشركين يعملون على نسف كل قواعد الإيمان في الحياة، مما يجعل من مسألة العداوة أمرًا طبيعيًّا؛ لأن الذي يرى أن رسالته وعقيدته يفرضان عليه القضاء على فكرك، أو القضاء عليك، لا يمكنك أن تعتبره صديقًا، أو تتعامل معه معاملة الصديق إلا إذا كنت ساذجًا لا تفهم الأشياء بوضوح.

المحافظة على الوجود

وفي ضوء هذا، ينبغي لنا أن نواجه الدعوات الداعية إلى التسامح في هذا المجال بحذر فيما نواجهه من شعارات التسامح الديني ورفض التعصب، وما إلى ذلك من شعارات الساحة، فقد يكون المقصود من ذلك كله، تخفيف حالة التوتر الفكري والروحي والعملي التي يعيشها الإنسان المؤمن المسلم للمحافظة على خط الثبات في مواقعه الإسلامية، وعدم إفساح المجال للاهتزاز والتزلزل أمام هجمات الأعداء؛ لأن الإنسان كلما اقترب من حالة الاسترخاء في مواقع

التحدي، كلما اقترب من الهزيمة أمام مخططات الأعداء.

ربما يكون من المصلحة أن يحافظوا على نسبة عالية من درجات التوتر والالتزام بالخط لئلا يستغل العدو حالة الاسترخاء التي يعمل لإيجادها، فيهزمنا بالضربة القاضية.

ولكن، ليس معنى ذلك أننا نواجه الموقف بأساليب الانفعال المثيرة التي تملأ الجو بكل عناصر الإثارة لتخلق حربًا هنا، وحربًا هناك، وتثير الفوضى والخلافات الطائفية الحاقدة في كل مكان؛ لأننا لا نجد في ذلك مصلحة للمسيرة الإسلامية، بل كل معنى ذلك أننا نواجه الموقف بأساليب الوعي التي تتحرك في الساحة بطريقة واقعية تتعامل مع المعطيات والظروف الموضوعية من موقع المحافظة على الوجود أمام الآخرين الذين يعملون على تصفية هذا الوجود أو هزيمته.

وقد يفرض علينا الواقع أن ندخل مع هؤلاء في علاقات عامة أو خاصة في المجال العلمي أو السياسي أو الاقتصادي، فليس في ذلك أي حرج من ناحية إسلامية، في حدود المصلحة العليا للإسلام والمسلمين؛ لأن الإنسان قد يجد أن الخير أن يتعامل مع عدوه في حالات الهدنة والسلام، ولكن الحذر في جميع ذلك يبقى السيد الحاكم في علاقات الساحة، وفي حركة الموقف السلبي أو الإيجابي في نهاية المطاف.

تلك هي بعض ملامح الصورة في حركة النظرية في علاقة المسلمين بالآخرين وفي حركة التطبيق، وتبقى للحديث مجالات أخرى في الجانب الواقعي الحركي في أساليب الانفتاح مع أهل الأديان والعلمانيين في حركة الواقع السياسي والثقافي في المسيرة الإسلامية في الحياة.

الحركة الإسلامية بين الانفتاح والانغلاق (ج)

- **العلاقة مع العلمانيين**

لمواجهة القوى الاستكبارية..

- **الانفتاح على اليهود**

يواجه مشكلة القومية العنصرية والطريقة العدوانية.

- **النصارى موقع مؤهل**

للانفتاح في مجالات الحوار الفكري والقضايا المشتركة.

- **من الطبيعي الانفتاح**

على المسلمين بمذاهبهم ومحاورهم.

الحركة الإسلامية بين الانفتاح والانغلاق (ج)

الانفتاح على أهل الكتاب

كيف نتحرك مع أهل الكتاب من خلال سياسة الانفتاح الإسلامي على الآخرين؟ لابد لنا أن نحدد في الجواب النصارى كطرف مؤهل للحوار وللتعاون على صعيد القضايا المشتركة؛ لأنهم هم الذين يمكن البحث عن مواطن اللقاء معهم في الساحة الدينية العامة في مواجهة التيارات اللادينية، وهم الذين يتحركون على صعيد التبشير، في حركة الدعوة إلى النصرانية فيما قد نلتقي فيه، أو نختلف أو نتصارع تبعًا للأجواء المختلفة في مواقع الوفاق والخلاف، وهم الذين تحدث القرآن الكريم عنهم بإيجابية.

هل ننفتح على اليهود؟

أما اليهود فإن المشكلة عندهم أنهم لا يتحركون من موقع الدعوة كدين ينفتح للحوار، بل يتحركون كقومية عنصرية تختزن – في داخلها – الشعور بالفوقية على الآخرين، وتحرك مواقعها في مواجهة الإسلام بطريقة عدوانية في المواقع الثقافية والسياسية والأمنية، لاسيما بعد ولادة إسرائيل التي قامت على أنقاض الشعب الفلسطيني، مما جعل المواجهة بينهم وبين المسلمين على مستوى العالم– في معركة الوجود واللاوجود، الأمر الذي جعل الحوار أو التعاون يعني اعترافًا بالمواقع السياسية العدوانية، وانسحاقًا تحت وطأة المخططات المستقبلية في

السيطرة على مواقع الإسلام والمسلمين على جميع الأصعدة... وبالتالي لونًا من ألوان الانهزام أمام الشخصية اليهودية– الإسرائيلية.

ولهذا لم تكن مسألة الامتناع عن الحوار معهم في المرحلة الحاضرة منطلقًا من مبدأ سلبي من خلال طبيعة اليهودية كدين، أو اليهود كأتباع لهذا الدين، بل كانت منطلقة من خلال بعض المفاهيم المعقدة التي يختزنها اليهود في نظرتهم إلى الآخرين، مما يعقد الأمور ويحول الموقف إلى حالة من الاستغلال بدلاً من أن يكون حالة من الانفتاح. كما أن المسألة السياسية المتعلقة بالقضية الفلسطينية، تجعل القضية في موقع الصراع لا في موقع الحوار؛ لأن اليهود ليسوا مستعدين للدخول في حوار حول شرعية وجودهم هناك، بل كل ما هناك أنهم مستعدون للحديث، بطريقة المناورة، في تفاصيل الأمر الواقع الذي يتمتع بشرعية دولية وتاريخية، الأمر الذي يؤدي للاعتراف بوجودهم السياسي العدواني على حساب حقوق المسلمين.

جبهة المؤمنين أمام جبهة الملحدين: الحذر من استغلال الخط العام لمصلحة الحالة الخاصة

وهكذا نجد الموقع النصراني هو الموقع المؤهل للانفتاح في مجالات الحوار الفكري فيما هي النصرانية، وفيما هو الإسلام فيما يتفقان فيه، وفيما يختلفان، في دراسة لاهوتية فكرية للوصول إلى الاقتناع، أو التفاهم المتبادل كأي حوار ينتهي إلى القناعة المشتركة من خلال الحجة، أو إلى التفاهم من خلال توضيح الصورة،

ثم في التخطيط للعمل المشترك في مواجهة العدو المشترك من الموقع الفكري فيما يلتقيان عليه من الإيمان بالله الواحد، وباليوم الآخر، وبالرسالات السماوية على سبيل الإجمال، وبالغيب كعنصر أساسي في مسألة الإيمان، وذلك في مواجهة الإلحاد فيما يحمله الفكر المادي لأي منهج فكري يلتقي بالروح وبالغيب وبالإيمان بالله لتكون هناك جبهة المؤمنين في مواجهة جبهة الملحدين في المواقع الفكرية بعيدًا عن المسألة السياسية التي قد تتخذ للصراع وجهًا آخر يبتعد به عن الجدية ليحوله إلى حالة من تسجيل النقاط السياسية في مواقع التجاذب السياسي على أكثر من صعيد، كما قد نلاحظه في الصراع السياسي بين الشرق والغرب، حيث تتحرك أساليب الإعلام الغربي، ولا سيما الأميركي، لاستغلال الدين كعنصر حيوي في مواجهة الاتحاد السوفياتي على أساس القادة الإلحادية للنظام للاستفادة منه في الحصول على بعض المواقع السياسية، في هذا البلد أو ذاك، من خلال التهويل بخطورة الموقف الشيوعي على العقيدة الدينية. وربما ينعكس ذلك سلبًا على بعض المصالح الحيوية للشعوب المستضعفة المتدينة.

إننا لا نمانع من الاستفادة من ذلك في التخطيط المضاد للإلحاد في مواجهتنا الفكرية والعلمية؛ لأنك لا تستطيع أن تحرم نفسك من أي موقع قوة تحصل عليه في التأثير على نقاط الضعف ضد خصمك. ولكن هناك فرقًا بين أن يستفيد من ذلك عدو آخر لك ضد مصالحك وبين أن تستفيد منه مواقعك الإسلامية لخدمة مصالحك الحيوية.

إننا لا نجد هناك أي مانع من إيجاد جبهة دينية مع النصارى في مواجهة الإلحاد في نطاق تخطيط فكري دقيق يؤكد على مواطن اللقاء في القضايا العقيدية والأخلاقية؛ لأن ذلك هو الذي أكده القرآن في البحث عن مواقع اللقاء معهم، وفي واقع التعايش بيننا وبينهم. ولكن ذلك يحتاج إلى وعي كامل للحركة ودراسة لمفردات المواقف حتى لا يتحول الموضوع إلى استغلال الخط العام لمصلحة الحالة الخاصة.

اللقاء في بعض المواقع لا يلغي الصراع في المواقع الأخرى

وإذا كنا نؤكد على مسألة اللقاء في مواجهة الإلحاد، فإن ذلك لا يلغي مسألة الصراع في المواقع الأخرى، فقد يجد الداعية المسلم من واجبه الإسلامي أن يدعو النصراني للإسلام، كما يعمل للدخول إلى ساحات الوثنيين ليدعوهم إلى الإسلام، وليؤكد الحواجز أمام الآخرين للنفاذ إلى هذه الساحات، كما قد يجد المبشر النصراني مسؤوليته التبشيرية أن يمارس نفس الدور في الموقع النصراني. وقد يستخدم كل فريق الأدوات الفكرية والاجتماعية والسياسية كي يركز مواقعه في مراكز القوة.

إن النظرة الواقعية لمواقع الاختلاف والاتفاق تفرض التخطيط لصراع لا يمنع اللقاء من جهة أخرى، أو لقاء لا يمنع من الصراع في مجال آخر؛ لأن ذلك هو ما تقتضيه طبيعة الواقع، ولكن قد تكون الإيجابيات التي تفرضها المواقع المشتركة في مواجهة العدو المشترك تخفف بعض حالات التشنج والتعقيد وتمنع من تحول

الصراع إلى معركة حادة على مستوى القتال الذي يحرق الأخضر واليابس، ويهدم الهيكل على رؤوس الجميع.

كيف نواجه الصراع السياسي مع النصارى؟ البعد عن الأجواء الطائفية والحرب العشائرية

وقد نلتقي ببعض المواقع التي يتحول فيها الموقف إلى صراع سياسي، يتخذ نفسه واجهة طائفية، تتحرك فيها الأوضاع على أكثر من صعيد إقليمي أو دولي على مستوى الضغط على الوجود الإسلامي هنا وهناك لمصلحة الوجود النصراني السياسي من خلال شعارات حرية الوجود المسيحي، أو ضمانات هذا الوجود التي قد تتحول إلى امتيازات، أو هيمنة، أو وسيلة لتدخُّل القوى الاستعمارية، أو الصهيونية، باسم الحماية للنصارى، أو للأقليات. وهذا هو ما يعيشه الواقع السياسي اللبناني الذي يأخذ فيه الصراع صفة الخلاف النصراني – الإسلامي الذي يتحرك في معركة مسلحة مدمرة وذلك في دائرة الصراع حول المسألة المسيحية، وموقعها من الواقع السياسي في المنطقة الإسلامية التي يسكنها النصارى.

إننا نعتقد أن مثل هذه المسألة قد أخلَّت بأبعاد سياسية على مستوى القضايا السياسية الكبرى في المنطقة فيما يتمخض عنه الصراع الإقليمي والدولي من مشاكل وتعقيدات. ولذلك فلابد أن تدرس في هذه الدائرة الواسعة بعيدًا عن الاستغراق في المسألة الداخلية لينطلق التخطيط الواعي في موقع الوجود

الإسلامي السياسي الشامل الذي يبحث في كل مكان في العالم عن مركز قوة في مشروعه الثقافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي فيما يمثله ذلك من مصلحة الإنسان، حتى الذي لا يدين بالإسلام. ولهذا فإن المشاريع المطروحة في دائرة الحلول لهذه المشكلة، لابد أن تكون جزءًا من هذا التخطيط؛ لأن ذلك هو الأفق الواسع الذي يمكن أن نطل منه على كل ساحة من ساحات الصراع على مستوى المرحلة، أو على مستوى الهدف الكبير النهائي ما قد يختلف فيه الموقف تبعًا للظروف الموضوعية المحيطة بالمشكلة فيما تفرضه من صيغ للسلم أو للحرب، أو للتعايش والتعاون تمامًا كأية مسألة أخرى من المسائل التي تلتقي بالخطوط العامة للسياسة الإسلامية الشاملة.

وربما كان من الضروري أن نبتعد بالمسألة عن الأجواء الطائفية التي تختزن المشاعر السلبية المعقدة، وتبتعد عن النظرة الموضوعية للواقع؛ لأن هناك فرقًا بين أن تعيش العصبية في مواقع الصراع، وبين أن تعيش الفكرة العقلانية الباحثة عن حقائق الواقع على صعيد المبادئ. فإن الموقف الأول يحول الساحة إلى حرب عشائرية تبحث عن عناصر الإثارة بينما ينطلق الموقف الثاني ليتحول إلى صراع فكري/سياسي يبحث عن حركة الحق والباطل في ميدان الصراع.

وبذلك تنطلق مسألة الانفتاح لتؤكد القضايا المشتركة التي يمكن أن يلتقي عليها الجميع في ميزان القيم الروحية والسياسية المشتركة كما تثير القضايا

المختلفة لتحدد لها مواقع الصراع السياسي في موقف الغالب والمغلوب، أو مواقع الحوار الذي يحاول أن يبحث عن القناعات الفكرية التي تغلق أبواب الخلاف.

التعايش هو القاعدة لا المواقع القتالية

إننا نريد أن نثير – في هذا المجال مسألة مهمة، وهي أن موقف المسلمين من أهل الكتاب لا يتحرك في المواقع القتالية المسلحة، وفي مجالات المشاعر المعقدة المتشنجة، بل يمكن له أن يجد أكثر من أفق للتعايش والتعاون والحوار والواقعية من دون أن يعني ذلك تنازلاً عن موقع إسلامي على صعيد الإستراتيجية أو ابتعادًا عن موقع التخطيط الشامل للحركة الإسلامية في خط الواقع والإنسان.

وإننا نستوحي ذلك من إقرار الإسلام للتعايش مع أهل الكتاب في دائرة الحكم الإسلامي للحياة، مما يعني إمكانية تحريك هذا المبدأ خارج نطاق الحكم عندما يفرض الواقع الموضوعي على المسلمين أن يعيشوا بعيدًا عن حكم الإسلام.

أما كيف يكون هذا التعايش، وكيف نضع تفاصيله، وما هي الحدود التي يمكن للمسلمين أن يقفوا عليها، وما هي الخطوط التي يجب أن يتجاوزوها، فهذا مما لا يملك تقريره بطريقة تفصيلية؛ لأنه يخضع للظروف الموضوعية في علاقتها بالمصلحة الإسلامية العليا للواقع وللإنسان.

الانفتاح على العلمانيين تحدده المصلحة الإسلامية

كيف يمكن لنا أن نحدد مسألة الانفتاح مع العلمانيين ممن ينكرون الدين في فلسفتهم، أو ممن لا ينكرونه من ناحية فلسفية ولكنهم لا يجعلونه أساسًا للواقع؟

إن الجواب على ذلك ينطلق من دراسة المبدأ العام للمسألة وهو معرفة صلة أية قضية من قضايا الانفتاح بالمبادئ الإسلامية الكبيرة، أو بالقضايا الإسلامية المصيرية المتصلة بالواقع على صعيد المرحلة، أو على صعيد الهدف النهائي؛ لأن الإسلام يريد لكل قيمة من قيمه أن تأخذ مكانها الطبيعي في حياة الناس، سواء بطريقة منفردة أو متصلة بالحل الإسلامي الشامل، بقطع النظر عن الأداة التي تشارك في ذلك كما يريد للمصير الإسلامي أن يقوى ويتأكد ويأخذ دوره الفاعل في صنع الواقع، سواء قام به المسلمون من خلال جهدهم الخاص، أو شاركهم به غيرهم.

ولعلنا نستوحي ذلك من تقييم النبي (ص) لحلف الفضول، ودخوله في اتفاقات ومعاهدات مع المشركين من قريش، ومن غيرهم من خلال المصلحة الإسلامية على صعيد المرحلة الزمنية المعينة، فإن المسألة ليست خصوصية الحادثة، بل هي خصوصية المبدأ الذي يحكم كل الحوادث المماثلة.

وعلى ضوء هذا فقد يكون الفرق بين العلمانيين من حيث التزامهم بالدين كفلسفة أو إنكارهم إياه سببًا في سعة المواقع التي يمكن الالتقاء عليها أو ضيقها؛ لأن الذين يؤمنون بالدين، كالقوميين العرب غير الملحدين، يمكن أن تتعاون

معهم في بعض المسائل الفكرية المتصلة بالإسلام في الأمور العقيدية أو الحضارية بالإضافة إلى الأمور السياسية التي تلتقي فيها القضايا العربية بالقضايا الإسلامية فيما تلتقي فيه الصفتان، أو الأمور المتصلة بهذه القضايا من بعيد أو من قريب.

ولذلك فإننا نرى ضرورة التدقيق في دراسة علاقة العروبة بالإسلام، وعدم التسرع في اتخاذ الموقف السلبي منها على أساس النظرة السطحية التي تختزن الانفعال، ولا تلتقي بالعقل في حركة الفكر؛ لأن البعض قد لا يطرحها بطريقة منافية للإسلام، وقد يطرحها البعض الآخر بصيغة لا تبتعد كثيرًا عن خصوصياته، كم قد نجد هنا اتجاهًا متطرفًا مضادًّا للإسلام في طبيعته وفي فلسفته الفكرية والعملية.

اللقاء مع التيارات العلمانية لمصلحة الإسلام

إن مسألة الانفتاح قد تثير أمامنا اللقاء حول المواجهة الصلبة للتحديات السياسية والأمنية التي تواجه الواقع كله فيما يتحرك به المستكبرون ضد المستضعفين من المسلمين وغيرهم، كما في مسألة الموقف من الاستعمار، أو الصهيونية، أو التمييز العنصري، أو الظلم السياسي في الداخل، مما قد تختلف الأيديولوجيات في تفسيره في موقعه من هذه النظرية أو تلك، ولكنها لا تختلف في طبيعة الموقف العملي منه، ولو على صعيد المرحلة.

كما نجد ذلك في المشكلة الفلسطينية السياسية التي قد يفهمها البعض في موقعها الإقليمي من حيث هي قضية الشعب الفلسطيني، وقد يفهمها البعض

الآخر من حيث هي قضية القومية العربية، أو من حيث هي قضية تحرر من الاستعمار، كأية مسألة من مسائل التحرير وقد يراها البعض– كما نراها– قضية إسلامية، ذات صلة بحركة الحرية في دائرة الإسلام والمسلمين.

وقد تتعدد النظرة في الموقف من إسرائيل بين الذين يعترفون بها من ناحية المبدأ كأمر واقع مفروض دوليًّا فيما تملكه من الشرعية الدولية، مما يجعل الحديث عن إزالتها من الساحة السياسية حديثًا عن خيال متطرف في الغلو والبعد عن الواقعية، ولذلك فإن البحث يبقى في التفاصيل، في حدودها، هل هي خطوط التقسيم، أو هي خطوط ما قبل حرب ١٩٦٧م أم ماذا؟! وبين الذين لا يعترفون بها من ناحية المبدأ. إن ذلك يعني اعترافًا بشرعية الظلم الذي لا تملك الشرعية الدولية أن تمنحه غطاء إنسانيًّا فيما يمثله الكيان الإسرائيلي من وجود على أنقاض شعب آخر. أما مسألة التطرف والواقعية، فهي مسألة لا ترتبط بالمرحلة الزمنية الحاضرة، بل هي مرتبطة بالمستقبل الذي يتسع لقضايا الحرية، بما لا تتسع له المرحلة الحاضرة؛ لأن الذين يحاصرون طموحات الأمة الآن، لا يملكون محاصرتها على مستوى الزمن كله.

إن من الممكن أن نتفق على قتال إسرائيل ومواجهتها في نطاق جبهة موحدة، أو خطة واحدة على صعيد المرحلة التي يلتقي عليها الجميع، فإن ذلك يحقق لنا بعض الخطوات المتقدمة في سبيل التحرير، حتى لو انفصل الآخرون عنا بعد ذلك.

وهكذا نجد في مسألة الصراع مع الاستعمار، أو مع بعض مواقعه، عنصر لقاء مع التيارات السياسية العلمانية التي قد تصادمه في مرحلة لتحقق بعض النتائج لحسابها، أو لحساب بعض المحاور الإقليمية أو الدولية المرتبطة معها برباط تحالفي، أو تنسيقي، أو في المطلق، فلا نعتقد هنا؛ لأن هذه الجهة غير حاسمة على مستوى الامتداد، أو لأن تلك الجهة تتحرك ضد جهة استعمارية لخدمة جهة استعمارية أخرى، أو لأن المسألة لا تؤدي إلى نتائج حاسمة على هذا الصعيد أو ذاك؛ لأن القضية المطروحة هي تحقيق النتيجة في هذه المرحلة، أو في هذا الجانب الجزئي أو تحريك المبدأ للوصول إلى تحضير الواقع لنقلة نوعية أخرى من خلال جهدنا وجهد الآخرين، فالمهم هو أن تتقدم خطوة في الاتجاه السليم إلى الأمام، بقطع النظر عن الجهة التي تتعاون معها في الوصول إلى الهدف.

وليست المشكلة في نوعية هذه العلاقة، أو في شكل هذه الصلة، فقد تكون نوعًا من التعاون، وقد تكون حالة من التحالف، وقد تتمثل في جبهة، فلابد من دراسة حاجة القضية إلى هذه الصيغة أو تلك في نقاط المرحلة، أو على صعيد الامتداد في الهدف. ولكن هناك شرطًا واحدًا يحكم الصيغ كلها، ويحتوي حركة الواقع، وهو الوعي الكامل لما نريد– كمسلمين– في نطاق المصلحة الإسلامية العليا، ولما يريده الآخرون، ودراسة الساحة التي نلتقي فيها بهم، والتي نختلف فيها عنهم لنحدد مواقع اللقاء ومواقع الفراق بطريقة دقيقة لنحمي أهدافنا وخطواتنا من الاستغلال فلا نسيء من حيث نريد أن نحسن، ولا ننحرف من حيث نريد

أن نستقيم، بل يبقى الهدف الكبير أمام أعيننا لنحدد– من خلاله– ما نريد وما لا نريد وكيف نستخدم وسائلنا العملية بطريقة سليمة.

الانفتاح على المسلمين مع اختلاف المذاهب من أجل الوحدة ومواجهة القضايا المصيرية

وإذا كنا نؤكد على الانفتاح العملي في علاقتنا بالآخرين الذين نختلف معهم في العقيدة، ونلتقي معهم في بعض التفاصيل، أو في بعض المواقف السياسية أو الاقتصادية، فمن الطبيعي أن يكون الاهتمام الكبير بالانفتاح الواسع على المسلمين الذين نختلف معهم في التفاصيل المتعلقة بمفردات العقيدة، أو مفردات التشريع، أو أساليب العمل، فلا نغلق الأبواب بيننا لمجرد أن هناك بابًا مغلقًا بيننا وبين هذا الفريق أو ذاك على مستوى المذاهب المختلفة، أو على مستوى المحاور المتنوعة في العمل السياسي الإسلامي، بل نحاول أن نفتح الأبواب المغلقة بروحية الأبواب المفتوحة – لنتحرك – في كل ذلك – في الساحة الإسلامية الواسعة؛ لأن ما يجمع المسلمين أكثر مما يفرقهم فيما يجتمعون عليه من أصول العقيدة، وفرعيات الشريعة؛ ولأن القضايا المصيرية التي تحكم الواقع الإسلامي لا تختص في خطورتها بمذهب دون مذهب، بل تمتد لكل المواقع الإسلامية على جميع الأصعدة، مما يفرض على المسلمين تجميد خلافاتهم، أو تغيير الروحية التي ينطلقون منها في تحريك هذه الخلافات أو تبديل الأسلوب الذي يريدونها به للوصول إلى شاطئ الأمان.

وعلى ضوء ذلك، فإن للانفتاح دورًا كبيرًا في إثارة الروح الإسلامية في حياة المسلمين الفكرية والشعورية والعملية ليتخلصوا من تغليب الروح المذهبية المغلقة على الروح المنفتحة؛ لأن البديل عن ذلك هو تذويب الشخصية الإسلامية في داخل الشخصية المذهبية بحيث تتحول المسألة إلى ما يشبه الأديان المتعددة التي تنتصب الحواجز النفسية بين أتباعها، مما يلغي العمق الإسلامي في الحس الداخلي.

إننا لا نريد إلغاء المذهبية كمضمون فكري في فهم الإسلام بأصوله وفروعه على أساس حركة الاجتهاد، بل كل ما نريده هو أن تتحرك المذهبية في داخل الإسلام كوجهة نظر فكرية، لا في خارج الإسلام كبديل عنه؛ لأن ذلك هو الذي يؤدي بنا إلى الوحدة الإسلامة فيما تتلاقح فيه الأفكار وتتمازج من خلال الحوار القائم على العلم والإيمان.

الانفتاح قضية الحياة وكسر الجمود والتعقيد النفسي

وختامًا، إن الانفتاح هو قضية الحياة التي تنفتح في كل يوم على شيء جديد وليس هناك أية فائدة من انغلاق الناس على بعضهم فيما ينطلقون فيه من فكر، وفيما يثيرونه في حياتهم من خطط ومشاريع، وفيما يتحركون نحوه من أهداف لأن ذلك يجمد الخطأ في النفس، ويحوله بالتالي إلى حالة مقدسة، ويمنع العقل من تطوير الفكرة في حركة الحوار، ويؤدي– بالتالي– إلى تجميد الحياة.

وإذا كان بعض الناس يرون في الانغلاق حماية للفكرة من الانحراف وابتعادًا عن التأثر والذوبان في الأفكار الأخرى، ومحافظة على أصالتها ونقائها وصفائها من التلوث والتشويه، فإن بعضًا آخر يرى فيه لونًا من ألوان الخوف من الآخرين، ومظهرًا من مظاهر الضعف أمام التحديات الفكرية التي تواجهه؛ لأن الإنسان الذي لا يسمح لنفسه بالانفتاح على الآخرين هو إنسان ضعيف الحجة في رحاب الفكرة.

إننا نعلم أن حماية الفكرة لا تتحقق بالهروب من التحدي، بل تكون بالمواجهة القوية لكل ما يثيره الآخرون حولها من شبهات وإشكالات؛ لأن ذلك هو الذي يؤكد نقاط القوة، ويبعدها عن الاستسلام لمواقع الضعف.

وقد نرى أن الانفتاح هو السبيل الوحيد لانفتاح الآخرين على الجوانب المشرقة من الفكرة، وبالتالي على قناعتهم بها؛ لأن إثارة الخلافات من موقع الوحدة يختلف عن إثارتها من موقع الافتراق فيما يثيره ذلك من أجواء حميمة روحية، قد تكسر الكثير من الجمود والتعقيد النفسي في مواجهة الفكرة وإدارة التفكير من حولها.

الانفتاح لا يلغي التحفظات

وأخيرًا إننا نثير المسألة من ناحية المبدأ، ولكن ذلك لا يمنعنا من إثارة التحفظات، والتدقيق في مواقع الانفتاح، ودراسة طبيعة القوة والضعف في

حركة الساحة، ومعرفة الظروف الموضوعية المحيطة بالواقع لنحمي الفكرة من الاستغلال من الجانب الآخر الذي قد يرى في الأجواء القلقة سبيلاً للعب وللدس والتضليل؛ لأننا نريد الانفتاح لخدمة الموقف، فلابد من تحصين الموقف في داخله من كل وسائل اللعبة الشيطانية التي يحركها أكثر من شيطان في أكثر من موقع، وبذلك نبتعد عن أجواء السذاجة إلى أجواء الفكر، ونقترب من روحية الحذر بعيدًا عن روحية الاسترخاء والاستسلام.

الحركة الإسلامية بين الانفتاح والانغلاق (د)

- انفتاح الحركة الإسلامية

يربك مخططات الاستكبار ويحقق المكاسب.

- انفتاح الدولة حاجة ضرورية

ولا خوف من الانحراف الفكري أو السياسي.

- تقديم التنازلات في الحركة والدولة

لمصلحة القضايا الإسلامية الكبيرة.

الحركة الإسلامية بين الانفتاح والانغلاق (د)

الخط الأحمر والضوء الأخضر

ربما يثير البعض مسألة الانفتاح والانغلاق ليضع خطًّا أحمر أمام الانفتاح فيما يتصل بعلاقات الأشخاص والأحزاب في الدائرة الإسلامية بالجهات الأخرى غير الإسلامة من دول وأحزاب وشخصيات، بينما يعطي الضوء الأخضر لعلاقة الدولة الإسلامية بها.

١ من سلبيات انفتاح الحركة الإسلامية في النطاق الواقعي: المحاصرة والافتراق والسقوط

ويعلل هذا البعض رأيه بأن الحركة الإسلامية تتميز بروحية عميقة في تكوين الشخصية، وأخلاقية ظاهرة في حركة الواقع، وفهم مميز في طريقة التعامل مع الأحداث، مما يفرض عليها في جو نظيف طاهر بعيد عن الإغراءات والالتواءات؛ لأن الأجواء الأخرى قد تطوق الإنسان الحركي ببعض الضغوط الخارجية والداخلية التي قد تفسد عليه روحيته وأخلاقيته وفهمه بطريقة لا شعورية، فتؤدي به إلى الانحراف في الفكر والموقف.

ولذلك، فقد يكون من الضروري أن نجنبه خطر الوقوع في التجربة القاسية الصعبة، لا سيما وأنه يعيش مرحلة النمو والتكامل في بيئة بعيدة في جوها

ومفهومها عن الإسلام؛ لأن هذه المرحلة من أصعب المراحل التي تمر على الإنسان، في حاجته إلى الثبات والتوازن والقوة التي تحميه من عوامل السقوط. ويتابع هذا البعض فيطرح الفكرة في صعيد الواقع الآخر الذي يتميز بالألاعيب الأخلاقية، والأحابيل السياسية، والمخططات الانحرافية، والإغراءات المتنوعة مما يجعل المسألة مسألة فن متخصص يتقن إدارة الحركة في الاتجاه المضاد ويعرف كيف يستخدم وسائل التضليل من خلال أكثر من شعار للحق يختفي الباطل في داخله، مما قد يتدخل بطريقة إيجابية، في تشويه الروح، وتضليل العقل، وإضعاف الإرادة. وقد تتوضح الصورة أكثر إذا لاحظنا أجهزة المخابرات المتعددة التي تعمل من أجل محاصرة الحركة الإسلامية، ومحاولة اختراقها من الداخل من خلال سياسة الانفتاح على الدوائر غير الإسلامية فيما قد تثير من مشاعر وأفكار بطريقة ذكية، وفيما تحققه من علاقات ومواقع بأسلوب حميم.

وهكذا قد نصطدم بالانحراف فيما يشبه أن يكون خط الاستقامة، وبالضلال فيها قد يبدو حالة هدى. فكيف لحماية الحالة الإسلامية من ذلك الخطر الداخلي، إذا سمحنا لها أن تنفتح على الأجواء المنحرفة بهذا المستوى.

وفي ضوء ذلك يرى هذا البعض في الانغلاق والانكماش ضمانة للاستقامة على الخط الأصيل. كما ألمحنا إلى ذلك في الأحاديث السابقة.

٢ من إيجابيات انفتاح الحركة في نطاق الدولة: تركيز الوجود السياسي

ولكن المسألة تختلف عنده، إذا تحولت الحركة إلى دولة إسلامية. فيرى أن من الممكن للدولة أن تنفتح على الدولة الأخرى التي لا تدين بالإسلام أو تقف موقفًا مضادًّا له، أو تتخذ سياسة مختلفة عن سياسته. سواء بالدخول في علاقات صادقة سياسية، أو تحالف عسكري، أو معاهدات اقتصادية وثقافية وأمنية؛ لأن ذلك هو الذي يركز وجودها السياسي ويدعم قوتها الاقتصادية والعسكرية. فيما تفرضه حاجتها إلى تلك الدول من منتجاتها الصناعية والزراعية وإمكاناتها العملية. في مقابل احتياجها إلى تصدير منتجاتها الزراعية أو ثرواتها البترولية والمعدنية، وإدارة أوضاعها الأمنية في نطاق التحديات الإقليمية والدولية. بينما يؤدي الانغلاق إلى عزلة خانقة تفقد فيها قدرتها على النمو والتحرك والامتداد في الأفق السياسي والثقافي والاقتصادي الدولي وتتحول إلى وجود جامد لا مجال فيه لأي حركة أو حياة.

ويضيف هذا البعض موضحًا الصورة في أن الانفتاح يمثل الحاجة الضرورية الحيوية للدولة في هذا العالم الذي تتنوع فيه المحاور السياسية وتتعقد فيه الحاجات الإنسانية التي تفرض تعقيدات متنوعة في العلاقات الدولية. ولا خوف على الدولة من الانحراف الفكري والسياسي، مادامت تملك أكثر من موقع للقوة التي تؤكد المناعة الذاتية ضد التأثر بأفكار الآخرين ومواقعهم فيما تملكه من عناصر الضغط الاقتصادي والسياسي والأمني. مما يجعل مسألة الصراع في أي

موقع مسألة تخضع لحركة القوة المتنوعة التي تجعل الساحة متحركة في أكثر من اتجاه لتحقق التوازن بين نقاط الضعف والقوة، فإذا التقت بموقف ضعف في هذا الجانب، فإنها تلتقي بموقف ضعف آخر في مواقع الفريق الآخر. ليكون ضغط القوة عندها في مواجهته سبيلاً للتخفيف من ضغط القوة لدى الآخر على مواقع الضعف عندها.

وقد يحدث أن يختل التوازن لديها في بعض الظروف، كنتيجة للضغوط الصعبة التي تواجهها وتطبق عليها أو تحاصرها من أكثر من اتجاه، ولكن طبيعة القوة الذاتية في خصوصية وجودها، كدولة، تحفظها من السقوط وتمنحها الفرصة للتماسك والقيام من جديد.

وهذا هو الفرق– فيما يقوله هذا البعض– بين الحركة في نطاق الدولة وبين الحركة في نطاقها الواقعي الحركي بعيدًا عن ساحة الدولة؛ لأن الحركة لا تملك الكثير من مواقع القوة التي تحمي ذاتها من الاحتواء أو الانحراف أو السقوط، لا سيما إذا كان الفريق الذي تنفتح عليه دولة صغيرة أو كبيرة؛ لأن ذلك يحولها إلى تابع لهذه الدولة فيما يخيل إليها أنها في موقع الحليف أو الصديق؛ لأن إمكانات الدولة لا تسمح للحركة أن تقف على أرض صلبة معها أو تتحرك في ظروف متوازنة في علاقتها بها تمامًا كما هي كل حالة يتم فيها التحالف بين القوي وبين الضعيف حيث تتحول المسألة إلى حالة ابتزاز للضعيف من قبل القوي من خلال عوامل الضغط المتعددة تحت واجهة عنوان التحالف السياسي بينهما.

هذه هي بعض ملامح الفكرة التي تمنح الدولة شرعية الانفتاح على الآخرين، سواء كانوا في نطاق الدول أو الأحزاب، وتمنع الحركة من هذه الشرعية على أي مستوى من التحالف أو التنسيق، أو الحوار في بعض الحالات، فهل نوافق على هذا الرأي؟ وهل يملك الحجة القوية التي تفرضها على حركة الواقع؟

٣ الانغلاق ليس خيارًا وحيدًا لاستقامة الحركة الإسلامية

ربما كان لبعض هذه الأمور التي أثارها هؤلاء نصيب من الواقعية فيما هو الفرق بين طبيعة الدولة وبين طبيعة الحركة في حجم القوة، وفي مستوى القدرة على التخلص من الضغوط التي تتحرك في خط الانحراف. ولكن ذلك لا يصلح أن يصل بنا إلى النتيجة الحاسمة في التأكيد على حرية الدولة في الانفتاح، ومنع الحركة من ذلك؛ لأن الحركة قد تملك في بعض مراحل نموها وتطورها الكثير من مواقع القوة التي تمكنها من التمرد على الضغوط التي تعمل على تحويلها إلى عنصر تابع، أو ذيل عميل أو خط منحرف. وذلك بالقفز على مواقع الضغط في أكثر من اتجاه ومواجهة المواقف من خلال البدائل التي تضعها أمامها في التحالفات في أكثر من خط، سواء بالتوافق مع بعض الحركات الأخرى التي تواجه هذه الدولة الضاغطة أو تلك، أو بالتحول من مواقع الوفاق إلى مواقع الصراع باستحداث الوسائل المتعددة التي تصلح كعنصر ضغط يواجه عناصر الضغط.

وقد نجد أن الحركة قد تملك من وسائل الضغط في أجواء الثورة ما لا تملكه الدولة التي قد تخضع لبعض القيود أو الاعتبارات الدبلوماسية التي تفرض عليها الكثير من المواقع التي تحول بينها وبين الأخذ بالوسائل الضاغطة ضد الواقع السياسي تجاه هذه الدولة أو تلك. بينما تجد الحركة نفسها أكثر حرية في اعتماد الأساليب المتنوعة التي قد تربك الكثير من المخططات وتحقق الكثير من المكاسب وتساهم في تحقيق التوازن في حركتها الإيجابية أو السلبية في دائرة الانفتاح أو الانغلاق.

٤ الانفتاح حاجة وضرورة للحركة الإسلامية:

أ- الحاجة إلى التفاعل مع تجارب الآخرين:

وإذا كانت الدولة تحتاج إلى الانفتاح في وجودها السياسي والاقتصادي في الوضع الدولي؛ لأن الانغلاق يمثل لديها عنصر اختناق وموت وسقوط، فإن الحركة الباحثة عن إمكانات الوصول إلى أهدافها السياسية والفكرية تحتاج إلى الآفاق المنفتحة التي تطل بها على ساحات الآخرين لتستفيد من تجاربهم وخبراتهم، ولتتكامل معهم في بعض الأهداف المرحلية التي لا تستطيع الوصول إليها بعيدًا عن ذلك، ولتنفذ إليهم من خلال الانفتاح الذي يفتح قلوبهم وعقولهم وحياتهم على أفكارها وخططها وأهدافها من خلال ما تملكه من وسائل القوة الفكرية التي تساعدها على الوصول إلى داخل شخصياتهم في أكثر من موقع.

إن الانغلاق يعني عدم التكلم مع الآخرين، أو عدم التواصل معهم إلا من خلال خط المواجهة التي قد تربح جولة أو أكثر، ولكنها لن تربح حربًا على مستوى قضايا الفكر والروح والحياة؛ لأنها تحتاج إلى الظروف الملائمة أو الحميمة التي تنضِّج النتائج الإيجابية في عملية الوصول إلى القناعات وتساهم في الوصول إلى الأهداف بطريقة واقعية.

ب- الحاجة إلى تأكيد الذات:

إن الحركة الإسلامية تبدأ دعوة في الفكر فيما تريد به أن تخاطب عقول الآخرين، فلابد لها من الانفتاح عليهم، سواء كانوا من الفريق البسيط الذي لا يقف في الموقف الآخر من خلال التضاد بل من موقع الجهل، أو كانوا من الفريق المعقد الذي يتخذ موقف العناد في خط المواجهة وبذلك فلابد من الانفتاح عليهم جميعًا. ثم تتحول إلى حركة لتؤكد مفاهيمها ومناهجها في خط الواقع، ولتدفع بقضاياها في ساحة الصراع، ولتتحول من خلال ذلك إلى قوة في دوائر أصدقائها وأعدائها، ولن يتحقق ذلك إلا من خلال الانفتاح على الأعداء والأصدقاء في عملية صراع سلمي يعتمد على المرونة الأكثر حركة ووعيًا في الساحة، وصراع عسكري أو سياسي، يرتكز على طبيعة القوى المؤيدة أو الحليفة أو الصديقة في الساحة نفسها.

ثم ننطلق في خط الثورة التي تعمل على تغيير الواقع في عملية انقلابية تحتاج إلى دراسة كل الأوضاع السياسية الداخلية والخارجية، وإلى معرفة كل القوى

الموالية والمعادية للقاء معها، أو الالتفات عليها من أجل الوصول إلى النتائج الحاسمة.

وبذلك، فإن الحركة لن تستطيع السير وحدها في الدائرة المغلقة التي تحبس نفسها في داخلها؛ لأن ذلك يعني أنها تنفصل عن سنن الله في الكون التي تفرض على كل حركة صغيرة أو كبيرة أن تكون خاضعة للعوامل الطبيعية المحيطة بها التي تتكامل معها في عملية صنع الواقع خلقًا أو تغييرًا.

٥ الحركة الإسلامية أمام بعض التنازلات لخدمة الموقف الأساسي

وإذا كانت عملية الانفتاح– لدى الحركة– في تنسيقها أو تكاملها مع الآخرين تفرض عليها تقديم بعض التنازلات من مواقفها التفصيلية لخدمة الموقف الأساسي، مما قد يعتبر لدى البعض موقفًا انحرافيًّا يؤدي إلى التنكر للمفردات الشرعية الإسلامية في حالات معينة، ولذلك فإنه يرى ضرورة الابتعاد عنه للحفاظ على نقاط الفكرة واستقامة الخط.

إذا كانت المسألة هي قصة الحاجة إلى تقديم التنازلات من قبل الحركة الإسلامية لحساب الحركات أو الدول اللاإسلامية، فإن ذلك لا يعني أن الحركة في نطاق الدولة لا تضطر إلى ذلك، بل الموقف هو نفس الموقف؛ لأن أية دولة لا يمكن أن تحقق مكسبًا للدولة الأخرى في مجالاتها السياسية أو الاقتصادية أو الأمنية إلا من خلال ما تحصل عليه من تلك الدولة – من مكاسب تمامًا على

أساس عمليات التبادل بين الأفراد والجماعات؛ لأن العلاقات الدولية لا ترتكز على المجانية أو على المبادئ الإنسانية أو العمليات المجانية، بل ترتكز على قانون التبادل القائم على حسابات الربح أو الخسارة فلابد في أي موقع للأخذ من أن تقدم بدلاً منه موقعًا للعطاء.

ولن يقتصر الأمر بالدولة على تقديم التنازلات لدولة أخرى، بل يمتد ذلك إلى تقديمها لحركة سياسية أخرى فيما إذا كانت مصالحها الدولية تفرض عليها ذلك.

إن المسألة قد تختلف في حجم القوة بين الدولة والحركة، ولكنها لا توجب اختلافًا في نتائج الانفتاح من خلال المبدأ، بل قد توجبه من ناحية الطبيعة الكمية أو النوعية في مفردات النتائج السلبية أو الإيجابية.

الانفتاح في موقع القوة لا الضعف

وقد ينبغي أن لا يغيب عن الفكر أننا نتكلم في مسألة الانفتاح والانغلاق في المجالات التي نملك فيها القوة على أن يحقق الانفتاح بعض النتائج الإيجابية للحركة أو الدولة، ولو على حساب النتائج السلبية التي تخضع لها من جهة أخرى. وليس من المعقول، أو المقبول، أن نفكر بالانفتاح في مواقف الضعف التي لن تقودنا إلا إلى السقوط والتوقيع على العبودية أو الانسحاق تحت إرادة الآخرين.

وفي ضوء ذلك، لابد لنا من أن نفكر في القاعدة الشرعية الإسلامية التي تبرر لنا تقديم التنازلات للآخرين لمصلحة القضايا الإسلامية الكبيرة ليكون الموقف الذي نقفه شرعيًّا في خط الاستقامة. ولعلنا لا نبتعد عن الإسلام إذا انطلقنا من القاعدة الأصولية الكلامية التي تؤكد «إن الأحكام تابعة لمصالح ومفاسد في متعلقاتها» أو «في أنفسها» مما يجعلنا ننطلق من الموقف الذي تتحرك فيه الأحكام من موقع الأهمية في المصلحة وفي المفسدة. فإذا كانت هناك مصلحة من جهة، ومصلحة من جهة أخرى، ولم نتمكن من الحصول على المصلحتين معًا؛ لأن الظروف الموضوعية لا تسمح بذلك، فإننا لابد من أن نقدم الأكثر أهمية لنجعل الحكم على صورته بدلاً من الأقل أهمية؛ لأن ذلك هو الحكم العقلي القطعي فيما يكتشفه- بطريقته الخاصة- من أحكام الشرع.

وفي ضوء ذلك، يملك الخط السياسي الإسلامي المرونة في الحركة في حال تزاحم المصالح العامة للإسلام والمسلمين أو في حال تزاحم المصالح والمفاسد عندما يملك الفقيه الخبير بالإسلام وبالواقع وضوح الرؤية في فهم المسألة العملية من جميع جوانبها ليختار موقفًا في هذه المرحلة، قد يختار الموقف المضاد له في مرحلة أخرى.

الانفتاح حالة أصيلة

إننا نجد الانفتاح حالة إسلامية أصيلة تفرض على الداعية المسلم، والحركي الإسلامي، والدولة المسلمة الانطلاق في الحياة من القاعدة الفكرية التي تؤكد

أن الوصول إلى ساحات الآخرين، وقناعاتهم ومواقفهم وتأييدهم، يفرض اللقاء معهم على أرض مشتركة، والانفتاح عليهم من خلال المفاهيم المشتركة، أو الآفاق المشتركة التي تختلف فيها الاتجاهات، ولذلك فإن الأصل أن تواجههم ويواجهوك، وتتكلم معهم ويتكلمون معك، وتتنازل لهم ويتنازلون لك. ولكن بشرط واحد، وهو أن تكون في موقع القوة التي تتيح لك أن تثبت أقدامك في مواقعك عندما تريد أن تقارن بينها وبين مواقع الآخرين، أن تفكر كيف تقودهم إلى الوقوف معك في مواقعك من منطق الحوار أو منطق القوة، أو منطق الواقع المتحرك الذي يجمع لك الحياة بين الحوار، وبين القوة، وذلك هو خط الإسلام الذي أراد للإنسان أن ينطلق إلى الإنسان، وإلى حركة الحياة من حوله ليحرك الفكر الذي يدعو إلى الحوار ويقوده في يدٍ، وحرك القوة التي تعمل على أن تربح ساحة الصراع في يد أخرى لتحقق التوازن بين مواقع الفكر الإنساني، وبين مواقع القوة في حركة الإنسان من أجل تحقيق الفكر كقوةٍ قائدةٍ للحياة في مواجهة القوة التي تقود الحياة نحو الموت والسقوط والضياع.

٦ التجربة الإسلامية الرائدة في نطاق الحركة والدولة

وقد نلاحظ في هذه المسألة أن أمامنا في الواقع المعاصر تجربة حية رائدة في حركة الانفتاح في الحركة الإسلامية في نطاق الحركة والثورة، وفي نطاق الدولة، وذلك في التجربة الإسلامية في الثورة التي تحركت كحركة إسلامية واسعة في مواجهة الحكم الإيراني المنحرف المتمثل بنظام الشاه، فقد انفتحت الثورة الإسلامية على

الكثير من الأنظمة والأحزاب والحركات التي لم تتخذ من الإسلام عنوانًا لها، ولكنها تلتقي معها في المعارضة لذلك النظام، سواء في ذلك المحاور التي كانت في داخل إيران من أحزاب وطنية أو يسارية، ومن شخصيات سياسية فاعلة، أو المحاور السياسية من الدول والأحزاب والمنظمات في خارجها، وقد استفادت من علاقتها السياسية بها وانفتاحها عليها وتعاونها معها، حتى استطاعت إسقاط ذلك النظام لتحقق إستراتيجيتها في الحكومة الإسلامية التي لم تستسلم لتلك العلاقات السابقة لتقدم تنازلات متنوعة لها، بل واجهت الموقف إزاءها من موقع المصلحة الإسلامية، مما جعل علاقاتها تتخذ أوضاعًا جديدة تبعًا لحاجة الدولة الإسلامية، في حركة الصراع السياسي والأمني والثقافي.

ثم انطلقت الدولة لتنفتح على دولٍ لا تلتقي معها في الخط الإسلامي، وربما تختلف معها في خطها السياسي، فهناك الدولة اليسارية أو اليمينية، أو الدول التي تمتلك لونًا ماديًّا في هذا الاتجاه أو ذاك.

وتحركت في الوقت نفسه لتنفتح على بعض المنظمات أو الأحزاب التي تتبنى حركة التحرر في مواجهة القوى الاستعمارية في العالم، وأعلنت في هذا المجال الدعوة إلى جبهة المستضعفين في الأرض كقوة جديدة في حربها مع الاستعمار في هذا الاتجاه أو ذاك.

وذلك من جهة وجود أكثر من قاعدةٍ سياسيةٍ مرحليةٍ بينها وبين هذه الدول أو المنظمات، في بعض حاجاتها الذاتية، أو حركتها في ساحة الصراع الإقليمي أو الدولي.

وربما امتدت تجربة الانفتاح إلى تعقيد علاقة الدولة الإسلامية ببعض الحركات الإسلامية السياسية انطلاقًا من طبيعة الأولويات في مواجهة القضايا الإسلامية المصيرية على مستوى التحديات الخاصة للدولة، أو على صعيد التحديات العامة للأمة الإسلامية في قضايا المصير.

الانفتاح أثبت نجاحه وواجه العزلة

وما زالت سياسية الانفتاح تتحرك على الأسس الفكرية الإسلامية في سياسة الدولة الخارجية في علاقتها مع الآخرين من خلال العمق الحركي للإستراتيجية الإسلامية في تأكيد الوجود الإسلامي في الواقع السياسي الإقليمي والدولي في العالم في مواجهة عملية العزلة التي يحاول الفريق الاستكباري أن يحاصر بها التيار الإسلامي المتمثل بالدولة الإسلامية الوليدة، وبالحركة الإسلامية الجديدة في الساحة الإسلامية.

ولم يحصل من هذا الانفتاح في صعيد حركة الثورة وحركة الدولة، أي وضع سلبي ضاغط فيما يمكن أن يؤدي إلى السقوط الفكري والروحي والسياسي؛ لأن حركة القوة التي تحمي الثورة، لم تواجه الموقف بطريقة الخوف أو الانبهار ولم تحركه بطريقة الانفعال، بل عملت على إدارة كل مفردات القوة بعقلانية وانفتاح وتركيز.

وقد أثبتت سياسة الانفتاح في كلا المجالين نجاحها السياسي، في وصول الثورة إلى واقع الدولة وفي ثبات الدولة أمام الحصار الشامل الذي تفرضه قوى الاستكبار العالمي حولها، وما زالت التجربة تصنع النظرية في حركة الواقع، في أكثر من أسلوب، وفي أكثر من موقع.

وأخيرًا: إن الذين يتحدثون عن الانغلاق كخيار وحيد في حركة الثورة أو في تجربة الحركة، لا ينطلقون من قاعدة فكرية أو سياسية واقعية، بل ينطلقون من تجربتهم الذاتية التي يحكمها الخوف من الواقع الآخر، والهروب من مواجهة الموقف بوسائل متطورة في مجابهة التحديات بالخطة الإيجابية التي تأخذ وتعطي بدلاً من الخطة السلبية التي تجد في الانغلاق راحة تصنع للحركة دائرتها في الصراع على قياس الخطة التي لا يريد لها الخائفون أن تثقل أوضاعهم ومواقعهم لتدفعها إلى المسؤوليات الكبيرة على مستوى الأمة في صعيد المستقبل.

الحركة الإسلامية بين السرية والعلنية (أ)

بين قائل بأن:

- السرية تفقد الثقة بالحركة

  وتهدد بخرقها فكريًّا وأمنيًّا.

- والعلنية تحمل خط

  الطموحات الشخصية والعقليات المتخلفة.

- قوة القاعدة الإسلامية

  هي التي تحدد أسلوب العمل.

الحركة الإسلامية بين السرية والعلنية (أ)

شبهات مطروحة

قد يطرح البعض مسألة السرية والعلنية كعنوانين للجدل الدائر حول الطابع العملي للحركة الإسلامية فيما هي الشرعية من جهة، وفيما هي النتيجة الواقعية من جهة أخرى، وفيما هو الانسجام مع العمق الديني المتمثل في طبيعة الحركة من جهة ثالثة، وذلك من خلال بعض علامات الاستفهام التي تخطر في البال وتثير الجدل على أساس ما قد يثيره الغموض من مشاكل، وما قد يثيره الوضوح من قضايا في عدة نقاط:

١ فقدان الثقة

إن السرية تدفع إلى فقدان الثقة بالفكرة، وبالخط وبالحركة؛ لأنها تجعلها تتحرك في جو غريب من الغموض الذي يحيط بها، مما تفقد معه الفكرة ملامحها في دائرة الوعي، ويهتز الخط أمام احتمالات الخوف من المجهول، وتستسلم الحركة للمشاعر القلقة، والأفكار الحائرة.. لأن العاملين لا يملكون الأساس الذي يوحي بالثقة، لا سيما في الدائرة التي لا يعرفون فيها الأشخاص الذين يقودون المسيرة، أو يحركون المواقف.

٢ عزل الحركة

إن طبيعة العمل السري تفرض وجود الدوائر الصغيرة الضيقة التي يتحرك فيها العاملون في نطاق الخلايا المحدودة مما يجعل من الحركة حالة معزولة عن الدائرة الواسعة في حياة الأمة، فلا تسمح لها أوضاعها بالنفاذ إلى الساحات الكبيرة، والمجتمعات المنفتحة، فيؤدي ذلك إلى عدم التأثير على الأجواء العامة، بل يقتصر تأثيرها على الأشخاص المعنيين الذين تكسبهم الحركة، وتتحرك في نطاقهم المحدود.. وعلى ضوء ذلك، فإن مفاهيمها لن تدخل في وعي الأمة بشكل عام، ولن تتحرك بشكل فاعل في عقليتها الواسعة وأوضاعها المتنوعة، بل تبقى أفكارًا تتفاعل في الشخصية الإنسانية بهدوء، وتتحرك في خطواتها العملية بهدوء بعيدًا عن حركة الثورة في خط التغير الكبير.

٣ فقدان التفاعل مع القيادة

إن العمل السري يفقد التفاعل الحي بين القيادة وبين القاعدة؛ لأن الناس لا تتحرك مع شخصية البطل القائد الذي يتحرك فكره في حياتهم ليكون الفكر الذي يشعرون بقيمته ومصداقيته من خلال الشعور بقيمة الشخص القائد ومصداقيته في مواقع إيمانهم، وتنطلق حركته أمام عيونهم لتكون خطواته التي تتحرك أمامهم موضع ملاحظة دقيقة وملاحقة دائمة لتتحرك خطواتهم معه في مواقع الثقة والوضوح.. فيما يعرفون من طبيعة خط السير، وشخصية القيادة.

وقد نلاحظ في هذا المجال أن العنصر العاطفي الذي يكمن في عمق الحالة الشعورية بين القائد والقاعدة الشعبية يؤثر تأثيرًا كبيرًا على طبيعة العلاقة الحركية المتصلة بالعلاقة الروحية فيما يمثله ذلك من الأجواء الحميمة والمشاعر المحببة التي تؤكد الوحدة الشعورية المتفاعلة مع الكلمة والحركة بالإيحاءات الذاتية النابضة بالإحساس.

وقد لا يتحقق ذلك إلا من خلال المعرفة الشخصية التي تتأثر بالصورة والنظر وحركة الخطاب السياسي والفكري في ملامح الشخص وحركته في المعاناة اليومية والعلاقات المباشرة.

٤ فراغ المسؤولية

إن الخط التاريخي المتصل بالخط العقيدي فيما هي النبوة أو الإمامة أو الخلافة، يفرض على الساحة أن يكون القائد معلومًا لدى الأمة سواء أكان نبيًّا أو إمامًا، أو خليفة.

وقد نستفيد ذلك من الحديث المشهور «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» مما يعني أن معرفة الإمام التي هي الشرط في الارتباط به والعمل بأوامره ونواهيه تمثل الخط الفاصل بين موقع الجاهلية لشخص وبين موقع الإسلام.

ولهذا لم تكن هناك أية فترة زمنية في التاريخ الإسلامي لم يعرف فيها المسلمون إمامهم أو خليفتهم الذي يلتزمون «شرعيته» ويتحركون معه. فقد كانوا يبادرون إلى الفحص عن الإمام أو الخليفة فور وفاة سلفه من دون أن تكون هناك

حالة فراغ في مركز المسؤولية في وعي الأمة، ولا يسمحون ببقاء المسألة سرية في التزامهم العقيدي أو العملي، مما يوحي بأن السرية ليست هي الأسلوب الإسلامي في حركة المواقع السياسية في الأمة.

٥ الاختراقات الفكرية والأمنية

إن السرية قد تفسح المجال للكثير من الاختراقات الفكرية المشبوهة، عندما يدخل بعض الأشخاص المنحرفين في الحركة السرية من خلال الأوضاع الملائمة التي يملكون حرية النفاذ من خلالها إلى داخل الحركة بفعل الخطوط التنظيمية والعلاقات الشخصية، فيتخذون لأنفسهم مواقع متقدمة تتيح لهم السيطرة على الخط الفكري، والموقف السياسي لحساب تيارات فكرية أو سياسية منحرفة من دون أن تملك الأمة الرقابة على طريقتهم في إدخال أفكارهم إلى الحركة، أو في إدارة حركتها في الحياة العامة.

كما أن السرية قد تفسح المجال لبعض الاختراقات الأمنية التي تنفذ منها أجهزة المخابرات إلى الداخل بعيداً عن الفرص الواسعة التي تكفل للأمة الحماية من ذلك.

هذه هي بعض النقاط التي قد يثيرها الرافضون للعمل السري في الحركة الإسلامية وهناك نقاط مماثلة قد يثيرها الرافضون للخط العلني في التحرك السياسي الإسلامي.

١ العلنية والعبث القاتل

«إن العلنية» قد تتحرك في الظروف الطبيعية التي تمر بها الأمة في غياب أية ضغوط عامة أو خاصة من قبل القوى المضادة التي تملك السلطة، أو تملك مواقع القوة في داخل الساحة، وقد تتحرك في الظروف الصعبة القلقة التي تطبق فيها القوى الكافرة والضالة على الأمة، فتمنعها من الحرية الفكرية أو السياسية بالمستوى الذي لا تملك فيه تقديم الطروحات الإسلامية في حركة الواقع الثقافي أو السياسي، مما يجعل من الإعلان عن أية حركة إسلامية فرصة للقوى المضادة أن تدمرها وتسحقها منذ البداية من دون أن تملك هي الفرصة للدفاع عن نفسها وعن مواقعها.

ولعل من الطبيعي أن لا تكون الطريقة العلنية حالة واقعية، أو عقلانية في الظروف السلبية؛ لأن نتائجها الطبيعية سقوط الحركة في بدايتها، تحت تأثير الضغوط القاسية التي لا تستطيع أن تتحملها في مرحلة النمو البدائية، بل قد تكون لونًا من ألوان العبث، أو نوعًا من أنواع إعطاء الآخرين الفرصة في السيطرة على الناس في ظروف سياسية ملائمة لهم من دون فائدة، بينما تكون السرية فرصة للحماية، ولتربية القوة بطريقة واقعية خالية من الضغوط الصعبة.. للالتفاف على القوى المضادة من مواقع أخرى في عملية إرباك لمشاريعها، وتعقيد لأوضاعها، وتحريك لنقاط ضعفها من أجل إيجاد حالة اهتزاز متنوع دائم في حركتها العامة في أكثر من موقع.

٢ التخريب الداخلي

إن الطريقة العلنية المفتوحة لا تتناسب مع الأوضاع الأمنية المعقدة التي تتحرك فيها أجهزة الاستخبارات المحلية أو الإقليمية أو الدولية التابعة لبعض الدول أو الأحزاب المناهضة للإسلام في الخط الفكري أو السياسي، أو المعادية للمسلمين في مواقعهم ومصالحهم السياسية والاقتصادية، وتطلعاتهم المستقبلية في الحياة. وذلك من خلال قدرتها على التعرف على خصائص المشاريع المطروحة والوسائل المتنوعة، والشعارات المعلنة، والعلاقات المختلفة التي تتحرك في الهواء الطلق أو في داخل الغرف المفتوحة والنوافذ والأبواب، مما يسهل على هذه الأجهزة إمكانات التخريب أو الإرباك، أو النفاذ إلى الداخل في عملية احتواء وتحريك.

ويمكنها – في نفس الوقت – من إثارة المشاكل حولها، وفي داخلها من خلال ما يبرز عندها من نقاط الضعف المتنوعة التي تتحكم في العلاقات العامة والخاصة، بينما تتكفل طريقة العمل السري بإغلاق كثير من المنافذ التي تطل على ساحة العمل الإسلامي لحمايته من كل السلبيات الأمنية من أكثر من جانب.

٣ الطموحات الشخصية

إن الطريقة العلنية في العمل الإسلامي قد تفسح المجال لبعض الناس الذين يملكون خصائص ذاتية في دائرة التأثير الشعبي، بالمستوى الذي

يستطيعون فيه أن يحصلوا على المواقع المميزة بالوصول إلى مراكز القيادة بعيدًا عن الضوابط الإسلامية في خط العقيدة والتقوى، وذلك فيما يتميزون به من أساليب الإثارة والانفعال، في الكلمة والحركة والعلاقة بالآخرين.. مما يجعل الخط العملي مشدودًا إليهم، ومربوطًا بخطوطهم، وخاضعًا لطموحاتهم التي قد تكون طموحات شخصية، لا إسلامية، بينما تعمل الطريقة السرية على تربية القيادات على أساس الخط الرسالي، وتحريكها في هذا الاتجاه، والمحاولة الدائمة للضغط عليها لإبعادها عن خط الانحراف، في دائرة الضوابط الأخلاقية والحركية التي تعمل على إدخال القيادة في داخل الظل، إذا حاولت الأضواء التي تتسلط عليه أن تبهر روحه، وتجذب عقله بعيدًا عن الخط المستقيم.

٤ العقليات المتخلفة

إن الطريقة العلنية قد تجعل الساحة خاضعة للمؤثرات العامة التي تجتذب الجماهير، في الدائرة المذهبية أو الطائفية التي تؤكد ثوابتها الانفعالية، تحت تأثير الضغوط العاطفية المجنونة المعادية لكل طرح فكري يناقش مفاهيمها الخاطئة، وخطوطها المنحرفة، وأساليبها المتخلفة فيما عاشته من مراحل التخلف الفكري والروحي، والسقوط السياسي، بحيث لا يملك المصلحون أن يناقشوها أو يتحدثوا عنها بطريقة سلبية أو يرفضوها؛ لأن العامة تثور عليهم انطلاقًا من انفعالاتها وعقلياتها المتخلفة، أو تأثرًا ببعض القوى التي تريد استغلال مواقع الرفض لهذه الأمور للحملة على هؤلاء المصلحين وعلى ما يطرحونه من أفكار إصلاحية؛

فتبقى هذه الأمور في الدائرة البعيدة عن مواقع التغيير مما يمكنها من الاستمرار في تأثيرها على عقلية الأمة في مدى الزمن، بينما تملك طريقة العمل السري أن تأخذ حريتها في المناقشة العملية التي تدير الحوار حولها لتهذبها إذا كانت تحتاج إلى تهذيب، ولترفضها إذا كانت في مواقع الرفض، أو لتثبتها إذا كانت في مواقع الإثبات؛ لأن السرية تكفل للفكر الهدوء، وللحوار العمق والشمول، وللمفكر التركيز من جهة، والحماية من جهة أخرى.

٥ الرياح المتقلبة

إن الطريقة العلنية قد تؤثر سلبًا على مسألة تعميق الالتزام بالانتماء الإسلامي؛ لأن طبيعة التربية العامة للناس لا تسمح لهم بالأخذ بالقضايا بطريقة فكرية عميقة، وأسلوب مركز، بل تهيئ لهم الأخذ بها بطريقة سطحية خفيفة على أساس الأجواء المتحركة بين خط الانفعال وخط الفكر، والأساليب التي تعالج الأمور بطريقة عامة، لا مجال فيها للتدقيق، وللتركيز على جوانبها الخفية وجذورها العميقة مما يؤدي إلى سرعة الابتعاد عن الخط والانتقال إلى خط آخر تبعًا للأجواء المتحركة التي قد تنتقل فيها الرياح من أفق إلى آخر.. أو بشكل وبآخر.

هذه هي بعض النقاط السلبية التي يثيرها الرافضون هنا، والرافضون هناك، فأين موقع الحقيقة من هذين؟

هذا ما نحاول أن نراه في هذا الحديث.

العمل في الظروف الضاغطة

قد يكون من الضروري أن نؤكد على نقطة مهمة جدًّا وهي: إن الحديث لا يدور حول المبدأ في المطلق، فليس هناك فريق يعالج المسألة في نطاق العمل السري كأساس للعمل في جميع الظروف، وليس هناك فريق يعالجها في النطاق العلني على ذلك الأساس، بل الحديث يدور حول العمل السياسي الإسلامي في الدائرة التنظيمية التي تعتمد على السرية في بعض الظروف الضاغطة على صعيد مواقع الحكم الظالم أو الكافر في نطاق البلاد الإسلامية فيثبت البعض شرعيته وينفيها الآخر من خلال النقاط السابقة، مع التزام هذا بشرعيته السرية في بعض مواقع التفاصيل، والتزام ذلك بشرعيته العلنية في بعض المواقع.

وربما نحتاج إلى أن نثير سؤالاً حاسمًا في المسألة ليكون الجواب النهائي هو الذي يحدد النتائج حول الموضوع.

كيف يفعل العاملون، إذا كانت هناك ظروف صعبة تحيط بالعمل وبهم من كل الجهات، أو كان هناك حكم ظالم يترصد مواقعهم، ويلاحق خطواتهم، في كل المجالات العامة.. بحيث يعمل – بكل وسائله – لتدميرهم وتصفية كل مواقعهم؟

هل يواجهونه بصراحة في مواقع الضوء التي تسلطه على كل شخص منهم، أو كل مكان في أمكنتهم، أو كل خطة من خططهم، وكل مشروع من مشاريعهم، أو يعملون في مواقع الظل أو الظلمة، للاختفاء هنا والاختباء هناك، والتستر خلف

بعض الأمور التي لا حقيقة لها، أو إخفاء بعض الحقائق، وإبعادها عن الضوء؟

ثم نضيف إلى هذا السؤال سؤالاً آخر، وهو: ما هو الهدف من العمل الإسلامي؟ هل هو التأكيد على شجاعة الموقف الإسلامي وصلابته في مواجهة التحديات، بقطع النظر عن النتائج الإيجابية أو السلبية في الوصول إلى الهدف، أو في الوصول إلى الهدف الأساس، وتحقيق الغايات المرحلية أو الأساسية في المسألة الإسلامية؟

وكيف نواجه القضية؟ هل نتحرك في دوائر الحكم الشرعي؟ أو في دوائر الانفعال السياسي العام؟

المعطيات الفكرية الشرعية للسرية والعلنية

بين السرية والعلنية: قوة القاعدة الإسلامية هي الأساس

قد يكون الجواب الحاسم في هذا المجال هو اختيار السرية في مثل هذه الظروف في مواقع الانطلاق، وتحريك بعض مواقع الساحة نحو العلنية من خلال ذلك، وملاحقة بعض الفرص الواقعية التي تطل على مواقع الضوء من أجل تحقيق النتائج الإيجابية لمصلحة الإسلام في دعوته وحركته، عندما تفرض المرحلة مواجهة الواقع بالتصدي لتحدياته في ساحات الشهادة، بحيث يكون جانب التضحية أكثر فائدة من جانب السلام فيما يمكن أن يحققه من القوة للقاعدة الإسلامية في العمق والشمول.

أما كيف نستخلص ذلك من المعطيات الفكرية الشرعية الإسلامية، فهذا ما نحاول أن نثيره في عدة نقاط:

١ السرية «تحريك البطولة لا البطل»

إن حركة الرسالة في الدعوة والموقف لا تريد تقديم الإنسان البطل في نطاق التجربة الإنسانية على أساس تقديم النموذج الإنساني في معرض النماذج الإنسانية، بل تريد تحريك البطولة في الذات من أجل قضية الرسالة، وتوجيه الحياة إلى أهدافها، وتربية الإنسان على أن يتحرك في هذا الاتجاه من أجل أن تكون بطولته في خدمة رسالته.

وإذا كانت القضية كذلك، فإن من البديهي أن ندرس مصلحة الرسالة في الموقف لا مصلحة القيمة البطولية في الذات، وذلك من خلال ما يعمق تأثيرها في حركة الواقع، ويحفظ وجودها في الحياة على مستوى الحاضر والمستقبل.

٢ السرية «تقية شرعية»

إن «السرية» من حيث المبدأ، تملك الشرعية من حيث الرخصة في إخفاء الإيمان فيما تحدث به القرآن عن مؤمن آل فرعون الذي «يكتم إيمانه»، أو النطق بكلمة الكفر في حالة الإكراه، كما في قصة عمار بن ياسر الذي أنزل الله فيه آية، عندما نطق بكلمة الكفر تحت تأثير التعذيب الشديد في قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ

﴿مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل/١٠٦]، أو في اتخاذ الكافرين أولياء من حيث الظاهر والشكل، تحت تأثير الضغوط القاسية التي قد تؤدي إلى إزهاق الروح أو الحرج الشديد، أو الضرر الكبير وذلك قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران/٢٨].

مما يوحي بأن إخفاء الإيمان وإظهار الكفر، وإعلان الموالاة- في بعض الحالات- للكافرين جائز شرعًا في الظروف الضاغطة الصعبة التي توحي بالخطر، الأمر الذي يلتقي بالرخصة في السرية في الإيمان، وفي الموقع السياسي للفرد والمجتمع وقد نلتقي بالأحاديث الكثيرة المتواترة عن أئمة أهل البيت (ع)، في وجوب التقية في بعض الموارد، وشرعيتها على سبيل الرخصة في أخرى. وهذه نماذج منها: «التقية في كل ضرورة»، و«التقية في كل شيء يضطر إليه ابن آدم فقد أحله الله له»، و«التقية في كل ضرورة وصاحبها أعلم بها حين تنزل به»، و«لا دين لمن لا تقية له». أما حدود التقية، ومواردها التفصيلية وعلاقتها بالأسلوب السري في العمل السياسي، أو بالمرونة العملية، فقد يحتاج إلى بحث طويل قد نعالجه بشكل مستقل إن شاء الله.

٣ التقية بين المؤيد والمعارض: اتفاق في المبدأ واختلاف في التفاصيل

إن الجانب التطبيقي للخط الشرعي العام قد تختلف فيه الاجتهادات تبعًا لاختلاف النظرة إلى مدى الأهمية في الأهداف المرحلية، أو النهائية الأساسية

فيما هي المصلحة الإسلامية، ومقارنتها بالحدود الشرعية في دائرة النتائج السلبية في مواجهة الخطر الذي يؤدي بالإنسان إلى الهلاك، أو يعرّض الحركة الإسلامية للخطر في النطاق المرحلي. فقد يذهب بعض المجتهدين إلى أن السعي إلى إقامة حكم إسلامي، فرض واجب على المسلمين، باعتباره الأساس لقوة الإسلام في ساحة الصراع بينه وبين تيارات الكفر، ولإسقاط الظلم على صعيد الحكم والممارسة العامة؛ ولأنه السبيل الوحيد لتطبيق حكم الله على الناس في الحياة.. بل هو الهدف الأخير لكل الصراع الذي دخل فيه. وفي ضوء ذلك، فإن الوسائل التي تتحرك بها القيادة الإسلامية المرجعية في مواجهة الحكم الظالم، وفي التحضير لإقامة حكم إسلامي على أنقاضه لا تتوقف أمام احتمال الخطر، أو ضخامة التضحيات، أو شدة الضغوط القاسية على صعيد واقع الفرد والمجتمع. وقد يضيف أصحاب الرأي إلى ذلك أن الحروب التي خاضها المسلمون في عهد النبي محمد (ص) وفيما بعده لم تكن أكثر أهمية من الحروب التي يثيرها المسلمون المجاهدون ضد الحكم الفاسد المرتبط بالاستعمار الظالم الكافر من أجل إفساح المجال للإسلام ليأخذ دوره في تقرير المصير الإسلامي للأمة.

قد يرى بعض المجتهدين أن السعي إلى حكم الإسلام على صعيد السلطة ليس من الواجبات المطلقة التي يجب القيام بها بشكل مطلق، بل هو من الواجبات المشروطة بالقدرات المحددة بحدود شرعية لا تصطدم ببعض المحرمات الخاصة والعامة، كإلقاء النفس في التهلكة، وقتل الآخرين الذين يعارضون هذا

الهدف من الحكام المسلمين أو من أتباعهم.. ولهذا فقد يتوقف هؤلاء الذين يرون هذا الرأي أمام كثير من المشاكل التي قد تحدث للعمل الإسلامي السياسي مما تثيره الأجهزة من أمور، وما تهدد به من أخطار، في دائرة الأسلوب العلني في الحركة، الأمر الذي يجعل للسرية الهادئة المتوازنة دورها الكبير في حماية العمل الذي لا يتحرك نحو الأهداف بشكل سريع، بل ينتظر الظروف الملائمة التي يصنع كثيرًا من مقدماتها، ويهيئ بعض مواقعها وأوضاعها، وفي ضوء ذلك قد يختلف العاملون في النظرة الواقعية للعمل السياسي في الخط الإسلامي، بين رأي لا يرى للتقية دورًا في حركة العاملين؛ لأن الظروف التي تتحرك في الواقع لا تسمح بالاختفاء خلف بعض الممارسات والوسائل التي تتمثل في المناطق الخلفية، بل لابد من التحدي الذي يصدم الواقع هنا، والواقع هناك، مهما كلف ذلك من تضحيات ومشاكل؛ لأن هذا هو السبيل إلى أن يكون للإسلام موقع متقدم في مجالات التحدي، وأن يكون له دور كبير في عملية التغيير، وبين رأي يرى في التقية خطًّا عامًّا في العمل الحركي فيما تمثله المرونة الواقعية التي تدرس الأمور باتزان، وتعالجها باعتدال، وتعمل على أساس تفادي الأخطار المحدقة بالشخص أو بالعمل أو بالساحة لتستمر الحياة في حركتها الطبيعية، وليتركز العمل، ولتتوازن الساحة، ولهذا فلابد من الابتعاد عن أسلوب الصدمات؛ لأن الحصول على النتائج المثيرة لا يعني النجاح، إذا لم يقدر لها أن تلتقي بالضمانات الضرورية للاستمرار والبقاء، ويرى هؤلاء في سلوك الأئمة من أهل البيت – عليهم السلام– أساسًا لشعرية هذا الاتجاه.

ولكن اختلاف النظرة إلى الخط الحركي في الواقع لا يمنع من الالتقاء حول شرعية النهج السري في العمل الإسلامي، في المبدأ والتفاصيل، إذا لم يكن هناك ظروف ملائمة في النهج العلني فيما قد يواجه الموقف من الأخطار التي قد تتجاوز الحدود الطبيعية للخطر الذي تفرضه المسألة العامة للتحرك.. مما يعني أن هناك اتفاقًا في المبدأ، واختلافًا في التفاصيل.

ويبقى للحديث عن النقاط السلبية التي أثارها هذا الفريق ضد ذاك أو ذاك الفريق ضد هذا، مجال آخر في الصفحات التالية.

الحركة الإسلامية بين السرية والعلنية (ب)

- **لا سرية مطلقة**

بل سرية منفتحة على الواقع.

- **السرية والعلنية**

تتحددان في إطار المرحلة الإستراتيجية.

الحركة الإسلامية بين السرية والعلنية (ب)

كيف نعالج السلبيات التي أثارها الحديث في الحلقة السابقة حول السرية في العمل السياسي الإسلامي؟

١ السرية: غموض الأجهزة لا الحركة

هل يوحي الغموض الذي تثيره السرية في النفس، وفي أجواء العمل بفقدان الثقة، بالفكرة، وبالخط والحركة؟

الجواب: إننا لا نجد هناك علاقة دائمة بين الأمرين؛ لأن مسألة الثقة ليست من المسائل المحدودة بوسائل معينة، بل هي خاضعة لأكثر من وسيلة تتصل بالواقع في حركة الأشياء، فقد نلاحظ في هذا الاتجاه أن معرفة الأشخاص الذين يقودون الحركة ليست هي الأساس الوحيد للثقة، فقد يكون البديل عن ذلك مراقبة الحركة في مواقعها وطروحاتها المتحركة في الساحة، وفي مواقعها السياسية في الدائرة التي تحكمها حركة الحرية، أو في الدائرة التي تحكمها حركة الاستعباد، وفي طبيعة الاضطهاد الذي تواجهه من قوى الشر والظلام؛ لأن السرية لا تعني غموض الحركة في مسيرتها وخطوطها العامة، بل تعني غموض الأجهزة التي تحركها وتتحرك في داخلها.

وفي ضوء ذلك، لا نجد أي موقع للحديث عن اهتزاز الخط أمام احتمالات الخوف من المجهول على اعتبار أن العاملين لا يملكون الأساس الذي يوحي بالثقة لا سيما مع عدم معرفة الأشخاص الذين يقودون المسيرة؛ لأن المسألة لا تتحرك في أجواء المجهول، بل في أجواء الواقع المتحرك من خلال الأحداث التي تواجهها، والاعتقادات التي تقوم بها السلطة في أوساطها.. كما أن الرموز البارزة في بعض الساحات، يمكن أن تعطي للعاملين انطباعًا بالشخصيات القيادية التي يمثلها هؤلاء.

أما الفكرة، فإن ملامحها تظل متحركة في أكثر من موقع للوضوح على أساس المفردات المطروحة في الأدوار السرية المطلة على أكثر من صعيد في ملامحها العامة المطروحة بشكل علني.. لأننا لا نتحدث عن سرية مطلقة، بل نتحدث عن سرية متحركة منفتحة على الواقع، كما هو المضمون الحي للعمل السياسي السري في العمل الإسلامي.

وقد تكون دراسة التجربة الواقعية للثقة بالحركة الإسلامية في كثير من مواقعها في العالم الإسلامي فيما تملكه على صعيد الأمة من مواقع متقدمة دليلاً على صدق الفكرة التي نعالجها، فإن مثل هذه الدراسة قد تلغي كثيرًا من علامات الاستفهام التي يثيرها البعض في الفكر التجريدي.

٢ السرية: انطلاقة من الخلايا إلى الأمة

هل يمثل العمل السري في دوائره الصغيرة التي يفرضها ويحددها نظام الخلايا الضيقة، حالة معزولة عن الأمة، فلا تمتد إلى الساحات الكبيرة، بل تظل محصورة في أشخاص معينين، فلا تدخل في وعي الأمة بشكل فاعل.. ولا يؤدي بالنتيجة إلى التأثير في حركة التغيير؟

والجواب: إن الدوائر الصغيرة لن تبقى معزولة عن الدائرة الكبيرة، وهي الأمة في امتدادها الإنساني الواسع، بل إنها تتوسع في نطاق هذه الدوائر لتكون ساحاتها المحدودة مدخلاً للساحة العامة تمامًا كما هي الدعوة عندما تتحرك مع الواحد والاثنين والثلاثة لتصل بعد ذلك إلى وضع جماهيري كبير يفسح لها المجال للوصول إلى الأسلوب العلني الصارخ.

وإذا كانت أفكارها لا تمتد بفعل الأشخاص المحدودين الذين ينتمون إليها، فإنها تستطيع النفاذ إلى الساحة العامة في أكثر من موقع، وأكثر من أسلوب، بحيث تندفع الجماهير إلى أهدافها من خلال اتصالها بالشخصيات المنفتحة على الساحة، كما أنها تملك أكثر من نافذة تطل على الأوضاع الإسلامية العامة لتطلق فكرها في آفاقه، مما يفسح المجال للنفاذ إلى عقلية الجماهير.

ولعل التجربة التي عاشتها الحركات السياسية غير الإسلامية في العمل السري فيما وصلت إليه من نتائج إيجابية كبيرة على مستوى انتصار الثورة في

الساحات الجماهيرية، أبلغ دليل على عدم دقة الأطروحة السلبية التي يثيرها السؤال المطروح.

وقد لا نحتاج إلى التأكيد على أن المسألة لا تختلف بين الحركة الإسلامية وغير الإسلامية؛ لأننا نتحدث عن الأسلوب، ولا نتحدث عن المضمون.

٣ السرية: ربط المسلمين بالفكرة لا بالشخص

هل يكون الغموض الذي يفرضه العمل السري على شخصية القائد سببًا في فقدان التفاعل بين القيادة والقاعدة، مما تفقد معه الحركة الجو الحميم الذي يشيع في أجوائها ليؤكد الوحدة الشعورية المتفاعلة مع الحركة والكلمة بالإيحاءات الذاتية النابضة بالإحساس؛ لأن الفكر الذي لا يتحول إلى معاناة روحية حقيقية في شخصية القائد ليتحرك في وعي الجماهير، كصورة مشرقة للفكرة، نابضة بالروحية والحياة لا يمكن أن يفرض نفسه على الواقع.

إن شخصية البطل هي القوة التي تجتذب الجماهير للفكرة، وتدفعهم إلى الحركة وتقودهم إلى الثورة، مما يجعلها في العمق من مسألة التغيير، ويفرض حضورها في الذهنية العامة، وفي الشعور العام، مما يجعل من تجهيله أمرًا سلبيًّا في خط التحرك الكبير للأمة؟

والجواب: إن التأثير العميق لشخصية البطل في حركة الأمة من الأمور الواضحة التي لا ينكرها أحد، ولذا رأينا الإسلام يربط الناس بالرسول (ص)

وبالإمام (ع) وبالفقيه، أو الخليفة – حسب اختلاف الرأي الإسلامي في مسألة الحاكم – ولكن ذلك لا يعني أن المسألة تتوقف على ذلك بحيث لا مجال لأية عملية تغييرية بعيدًا عن ذلك من ناحية واقعية، بل قد نستوحي من الآية الكريمة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[آل عمران/١٤٤] بعض ملامح الفكرة التي ألمحنا إليها، فإنها توحي بأن غياب القيادة التي هي في مستوى النبي (ص) لا يعني الابتعاد عن الاستمرار مع الفكرة وتحريكها في الواقع، بقطع النظر عن الشخص الذي يأتي بعده.

إن الإسلام يريد أن يربط المسلمين بالفكرة الإسلامية بشكل جذري ليكون الارتباط بالشخص من خلال الارتباط بالفكرة فيما يمثله من علاقة بها من رسالة أو إمامة أو ولاية ونحو ذلك، مما يعني أن الرسالة هي الأساس في المسألة، حتى لو كان الإيمان بالشخص جزءًا من الجانب الفكري للرسالة كالرسول والإمام.

وعلى ضوء ذلك، فإن من الممكن ارتباط الأمة بالعمل الإسلامي السري الذي يتحرك من موقع الرموز البارزة في صلب العقيدة الإسلامية باعتبارها القيادة الشرعية فيما تخطط له من أساليب العمل ومضامينه ليكون منطلقًا من شرعية الفكرة والأسلوب، مع ملاحظة ارتكازه على الأسس الشرعية الفقهية للقيادة السرية الحاضرة.

أما مسألة التفاعل العاطفي بين القيادة والقاعدة، فقد تصيب العمل ببعض الجفاف الشعوري الحميم، ولكن يمكن إيجاد أجواء حميمة بديلة في ربط القاعدة بالقيادات الروحية التاريخية على مستوى الرسول (ص) والأئمة (ع)، أو الصحابة (رض)، أو الانفتاح على بعض القيادات الفقهية التي تقف في خط المرجعية فيما تلتقي به مع خط العمل السياسي الإسلامي، أو في التأكيد على بعض الجوانب العاطفية المأساوية في العمل السياسي، مما يجعل الارتباط بالحركة عاطفيًّا، بالإضافة إلى الارتباط الفكري، ولعل التجربة التي تعيشها كثير من شعوب العالم في ارتباط العمل السياسي بالمؤسسة لا بالشخص تدل على إمكانية نجاح العمل السياسي الإسلامي الذي يربط الأمة بالفكرة، بقطع النظر عن الشخص.. مع ملاحظة مهمة، وهي أن المسألة تحتاج إلى مزيد من التربية الإسلامية في البلاد الشرقية التي لا تزال شخصية البطل فيها طاغية على شخصية الفكرة، مما يحول المشاريع إلى مشاريع أشخاص لا إلى مشاريع مؤسسات.

وقد نلاحظ في هذا المجال أن الأئمة من أهل البيت (ع) كانوا يعملون في بعض المراحل بطريقة سرية لا تجد فيها اسم الإمام واضحًا لدى الكثيرين إلا بشكل خاص، تبعًا لما تقتضيه المصلحة العامة.

ولعل مسألة غيبة الإمام الثاني عشر (ع) التي يعتقدها الشيعة الإمامية تطل ببعض الشيء عن المعنى غير السلبي للمسألة، إذ لا فرق بين الجهل بالقائد

بالاسم، وبين معرفته بالاسم مع عدم حضوره كليًّا، مع وجود رموز تتحرك من خلال تمثيله بشكل عام.

٤ الاختراق الأمني والفكري: أمر مشترك بين العمل السري والعلني

وأخيرًا، هل يعتبر العمل السري فرصة للاختراقات الفكرية المشبوهة من خلال الأشخاص الذين ينفذون إلى الحركة السرية من خلال التدرج التنظيمي، أو للاختراقات الأمنية المخابراتية من خلال غياب الإمكانات المضادة القادرة على اكتشافها بطريقة حاسمة؟

والجواب: إن الاختراقات الفكرية والأمنية أمر مشترك بين العمل السري والعلني، بل ربما يكون العمل العلني أكثر تعرضًا لذلك من خلال غياب الأجهزة الدقيقة القادرة على الضبط، لا سيما إذا كان هذا العمل بعيدًا عن الصيغة التنظيمية التي تمارس نوعًا من الرقابة على الفكر والحركة والأشخاص.. ولا نزال نشاهد الكثيرين من الذين ينتمون إلى التفكير المنحرف أو المضاد في الدائرة الإسلامية، ويملكون في الوقت نفسه موقعًا ثقافيًّا أو اجتماعيًّا متقدمًا، فيستغلون ذلك النفاذ إلى فكر الجماهير للسيطرة عليه في عملية انحراف وتضليل من دون أن يستطيع الآخرون الوقوف ضدهم إلا بجهد كبير.. كما أن الاختراق الأمني يمارس حريته الواسعة في الدخول إلى الأمة من الباب الواسع.

إننا لا ننكر إمكانية سيطرة بعض الأجهزة المضادة على بعض المواقع القيادية في العمل الإسلامي السري، كنتيجة لاستغلال بعض الأوضاع التنظيمية، ولكننا نعتقد أن المسألة لا تنشأ من سرية العمل، بل تنشأ من العوامل الذاتية، والعناصر المعقدة في الساحة العامة.

السرية والمرحلة الصعبة

وخلاصة الفكرة، إن كثيرًا من هذه السلبيات تنطلق من النظرة إلى المسألة بطريقة تجريدية مطلقة، لا بطريقة واقعية خاضعة للظروف المحيطة بالمسألة التي قد تختلف من تجربة إلى أخرى، ومن بلد إلى آخر، ومن قيادة إلى قيادة ثانية، كما أن البعض يتحدث عن العمل السري المطلق الذي يمثل الطابع الدائم المستمر له، لا عن العمل المرحلي الذي تفرضه ضرورات المرحلة الصعبة التي تسيطر عليها القوى الطاغية التي لا تسمح لأحد أن يتحرك بعيدًا عن سياستها، ولا تفسح المجال في نوع من الحرية السياسية الفاعلة التي تنمو فيها المواقف الثورية أو الإصلاحية، مما يفرض البحث عن ساحة سياسية بعيدة عن مواقع الضغط، سواء كان ذلك بالاختفاء خلف بعض المواقع الخفية، أو بالانتقال إلى مكان آخر كما جاء في قوله تعالى عن المستضعفين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء/ ٩٧]، فقد نستفيد منها أن الضغط في موقع يفرض على المستضعفين الاستسلام يدفع

الموقف إلى الانطلاق بعيدًا عن هذا الموقع إلى أرض أخرى باعتبار أنها الوسيلة الموجودة الجاهزة لديهم، ولكن ذلك لا يمنع استعمال وسيلة أخرى تتفادى الخضوع للضغط في موقع آخر في الشوارع الخلفية للواقع.

دراسة الظروف والمرحلة

وربما كان الحديث عن النقاط السلبية في العمل السياسي العلني بصوره المتعددة يشبه الحديث عن العمل السري في انطلاقه من بعض التجارب أو بعض المواقع أو بعض الظروف، أو بعض الملاحظات التي تنظر إلى الأمور من زاوية واحدة معينة.

ولذلك، فلا نجد هناك كبير فائدة في الوقوف عندها في ساحة المناقشة؛ لأنها قد تكون حقيقية، ولكن بطريقة جزئية محدودة بلحاظ بعض الأوضاع المعينة الخاصة، وينبغي أن نشير إلى حقيقة واقعية في أساليب العمل السري والعلني، وهي أن أية إيجابيات في أسلوب معين تلتقي بسلبيات في نفس الموقع؛ لأننا لا نجد أي عمل يملك إيجابيات مطلقة، كما لا نجد أي عمل يملك سلبيات مطلقة، فلابد من دراسة المسألة فيما هو الأكثر إيجابية، أو الأكثر سلبية، كما لابد من ملاحظة الموضوع في نطاق ظروفه العامة والخاصة، في النطاق المرحلي أو الإستراتيجي.

وربما كانت مسألة إثارة هذه الأمور في بعض الأوساط الإسلامية المتحركة في صعيد العمل السياسي، ناتجة عن بعض التعقيدات الخاصة في ساحة الصراع، أو

عن بعض الحسابات الذاتية أو الفئوية التي لا تعتمد الموضوعية في دراسة طبيعة العمل وأسلوبه، ولا تتوقف أمام الحقيقة الواقعية الممتدة في الزمن كله بأن هناك ظروفًا صعبة تفرض العمل السري؛ لأن العمل العلني لا يملك أية فرصة حقيقية، حتى على مستوى المواجهة الانتحارية، كما أن هناك ظروفًا تسمح بالعمل في مثل هذه الأجواء إلى جانب الظروف الطبيعية التي تحمل بعض الصعوبات المعقولة التي يمكن أن يعيشها الأسلوب العلني في العمل السياسي.

الحركة الإسلامية بين التطرف والاعتدال (أ)

- **الطرح الشامل للإسلام**

يفسره الآخرون تطرفًا.

- **اللجوء إلى القوة**

والعمليات الاستشهادية يعتبره الغرب إرهابًا.

- **شعار «لا شرقية ولا غربية»**

غير واقعي بالنسبة للعالم.

- **«الاعتدال» يعني التحرك**

ضمن المعادلات الدولية والإقليمية المرسومة؟!

الحركة الإسلامية بين التطرف والاعتدال (أ)

ضجة قوية

في الوسط الثقافي والاجتماعي والسياسي ضجة قوية حول الحركة الإسلامية في مضمونها الفكري وأسلوبها العملي وطروحاتها السياسية فيما يثيره البعض من حديث عن التطرف الذي يطبع كل محتواها في مجرى الحياة العامة، مما قد لا يتوافق مع خط الاعتدال المعروف عن الإسلام في انفتاحه وتسامحه ومرونته وواقعيته وقد يؤدي إلى ابتعاد الناس عنه وخسارته لجماهيره في نهاية المطاف.

فهل هو كذلك؟ وكيف نفهم الحدود الفاصلة بين التطرف والاعتدال؟ هذا ما نحاول أن نثيره في هذا الحديث.

١ التطرف مرونة وواقعية أم غلو وانحراف؟!

هل هو الخط الذي لا يتناسب مع الأوضاع المألوفة للناس فيما اعتادوه من قضايا حياتهم وأوضاعهم وأساليبهم العملية، بما يفرضه عليهم من التزامات قاسية، ومواقف حادة، وقيود شديدة، وشعارات متوترة، وعلاقات محددة تتحرك في دائرة ضيقة لا مجال فيها للمرونة والواقعية، اللتين ترتكزان على تقديم التنازلات العملية لمصلحة اللقاء على قاعدة مشتركة توفر للجميع التواصل والتفاهم؟ أو أنه الخط الذي يلتقي بالتجاوز عن الحدود المرسومة للعقيدة والتشريع في دائرة

الغلو والانحراف، بحيث يبتعد عن التوازن الطبيعي في النظر إلى الأشخاص أو الأحكام في عالمي النظرية والتطبيق؟

ربما نجد بعض الكلمات التي تتحدث عن المفهوم في الخط الأول كما نجد البعض الذي يتحدث عن الخط الثاني، وما دامت المسألة نسبية في حركتها في الواقع فقد نجد من يختارهما معًا على أساس أن كلاًّ منهما يقف في الطرف الأقصى للأشياء مما يجعل الجو متواترًا أمام حافة السقوط في الوادي السحيق من أخطار النتائج القاسية المترتبة عليه ويؤدي إلى أن يبقى الناس في حالة صعبة من القلق والحيرة والتوتر الذي يثير الأعصاب ويبعد الساحة عن التوازن والهدوء، فكيف نواجه الموقف على الصعيد الواقعي للمسألة؟

شمولية الإسلام والآراء المختلفة حول التطرف

قد يطرح البعض المشكلة في دائرة الطرح الشامل للإسلام كخط فكري وتشريعي يحمل في خطوطه ملامح الشمول للسياسة والاقتصاد والاجتماع والحرب والسلم إلى جانب العبادة والأخلاق والجوانب الذاتية للفرد، وذلك في مواجهة التيارات الفكرية السياسية العامة التي تحاول احتواء الحياة كلها بمفاهيمها العامة والخاصة في دائرة اللون الواحد من الناس حيث يتحرك الطرح الإسلامي ليمتد في كل مواقع التحرك الإنساني، فلا يسمح لأي تيار أن يدخل إلى الساحة الإسلامية من موقع التسويات الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تعطي بعض المجالات للإسلام في دائرة معينة ليتنازل للتيارات الأخرى

في مجالات أخرى في دائرة أخرى من خلال حركة التطور التي قد لا تلتقي مع بعض المفاهيم الإسلامية في قضايا الحياة في تفصيلاتها المعقدة المتنوعة، مما يفسح المجال للتعايش بينها وبين الإسلام ليبقى للإسلام دوره العبادي والأخلاقي، وتأخذ التيارات الأخرى الدور السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

المغالاة في تفسير النصوص

وقد نجد البعض الذي يرى هذا الطرح للإسلام متطرفًا في المجال الفكري ينطلق من الذهنية التي تحصر الإسلام في المجال الديني العبادي والتشريعي الفردي الذي يخاطب الإنسان في مفردات حياته الخاصة بعيدًا عن المفردات المتحركة في الحياة العامة، فينكر على الفكر الإسلامي أن يكون لديه مشروع كامل في الواجهة العملية، أو مشروع اقتصادي متكامل في إطار مذهب اقتصادي مميز... ولذلك فإنه يرى في الطرح الشامل للإسلام نوعًا من المغالاة في تفسير النصوص وفهم القواعد التشريعية وتطرفًا حادًّا في حركة الإسلام على صعيد الواقع.

٢ ابتعاد الواقع عن الطرح الإسلامي

وقد يطرح البعض مسألة في هذا الاتجاه على صعيد آخر، فهو لا ينكر على الإسلام شموليته لجميع جوانب الحياة في خطه الفكري والتشريعي ولكنه يجد ابتعاد الواقع عن هذا الطرح؛ لأن انحسار الإسلام عن حركة الحياة السياسية

والقانونية، وتطور الواقع في اتجاه الأفكار الأخرى، وسيطرة القوى المضادة للإسلام على المجرى الفكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي بطريقة شاملة ساحقة.

إن هذه الأمور قد تجعل من طرح الإسلام بهذا الشمول قضية خاسرة على مستوى الواقع، كما تؤدي إلى خلق أكثر من مشكلة في حياة الناس وتجلب الكثير من الأخطار إلى مصالحهم، وتمنع الاستقرار والهدوء عندهم، وتعقد أوضاع الساحة بشكل غير معقول، وتفرض عليها الاهتزاز الدائم الذي قد يفسح المجال للأعداء الذين يتربصون الدوائر بالمسلمين للسيطرة على مقدراتهم، والاستيلاء على مواقعهم، ثم لن تصل بالحركة الإسلامية إلى ما تريده من الهدف الأصيل في إقامة حكم الإسلام على الأرض وتحويله إلى نظام شامل للحياة لأن للقوى والمعادلات الدولية مرتكزات وأسس فكرية معينة قد توحي بالقوة.

حواجز ومواجهة

وقد يضيف هذا البعض إلى ذلك ملاحظة أخرى، وهي: إن التعقيدات الثقافية الغربية التي فرضت نفسها على الذهنية العامة لدى المسلمين قد أعطت مفهومًا سلبيًّا عن الدولة الدينية والاتجاه الديني في المسألة السياسية وأفسحت المجال للمفهوم الحديث القائل بالفصل بين الدين والدولة وابتعاده عن السياسة، وبالتضاد بين نتائج العلم ونتائج الدين في حسابات الفكر والبحث، الأمر الذي خلق عقدة متأصلة ضد حركة الدين في اتجاه تفاصيل الحياة والواقع، ورفضًا ذاتيًّا

للمسألة الدينية على الصعيد السياسي، مما يؤدي إلى وجود حواجز كبيرة ضد الطرح الشامل للإسلام؛ لأنه يحتاج إلى نزع الجيل المعاصر أولاً، ثم المواجهة بين القوة الدينية الوليدة من جهة وبين القوى العلمانية المسيطرة على الواقع من جهة أخرى.. ولن يكون الربح للإسلام في نهاية المطاف لأنه سيبقى في دائرة محاصرة ضاغطة بين حصار الذهنية المعقدة ضد الدين وبين حصار القوة المهيمنة ضده.

٣ الإسلام في الدائرة الثقافية

وعلى ضوء هذا يمكن وضع هذا الطرح في دائرة التطرف؛ لأنه بعيد عن الواقع وقريب إلى المثالية والخيالية، مما يفرض على الإسلاميين إبقاء الإسلام في الدائرة الثقافية ليبقى حيًّا في هذا الجانب من الشخصية الإنسانية. وتحريكه في الدائرة العبادية الأخلاقية ليعطي للواقع شيئًا من روحية الإسلام وأخلاقيته، وتبقى الحياة في أجواء الروح وفي آفاق الله تمامًا كما هي المسيحية التي استطاعت أن تعقد صلحًا بينها وبين الواقع العلماني فتركت ما لله لله وما لقيصر لقيصر، وأبقت النشاط الديني في مواقع الإيمان وفي مراكز الثقافة، وأعطت الحق للآخرين لكي يدبروا الحياة بطريقتهم الخاصة بعيدًا عن الدين، ولم تتدخل في شؤونهم إلا من بعيد.

دائرة تنوع الأديان

وقد يطرح البعض المسألة في اتجاه آخر، ولكن في مواقع معينة في البلدان التي يتنوع فيها الناس في أديانهم، أو تتنوع فيها الطوائف في نطاق الدين الواحد

فيبحث الناس فيها عن موقع اللقاء التي يلتقي فيها الجميع على قاعدة واحدة للتعايش كما هو الحال في المجتمعات الإسلامية التي تحتوي مذاهب متعددة في الدائرة الإسلامية وطوائف متنوعة في الدائرة النصرانية.. مما يجعل هناك عقدة لأي فريق تجاه طروحات الفريق الآخر في خصوصياته الفكرية والتشريعية والسياسية، لا سيما إذا لاحظنا حساسية المشاعر الدينية في ساحة الصراع، وتعقيد المواقع السياسية في هذه الدائرة.

٤ المشروع الإسلامي وإلغاء الآخرين

فقد ينطلق الإسلاميون ليطرحوا الإسلام كمشروع سياسي شامل يتطلع إلى الحكم الإسلامي الملتزم على مستوى فكرة الخلافة، أو فكرة الإمامة الممتدة في خط ولاية الفقيه، أو فكرة الشورى التي قد تتقاطع مع الفكرتين في بعض المراحل ويعملون على الدعوة إلى أن يكون التشريع الإسلامي هو القانون الذي يتحرك في داخل النظام كصيغة إلهية مقدسة لا مجال للنقاش فيها، وإلى أن تكون المواقع القيادية الكبرى للمسلمين - وحدهم - دون غيرهم، مما يجعل وجود غير المسلمين وجودًا هامشيًّا، ويؤدي بالتالي إلى التمايز في المواطنية وإلى تعدد المواطنين - على أساس الفواصل الدينية التي يؤكدها النظام - في داخل الوطن الواحد، ويقود إلى نوع من أنواع التعددية التي تمنع من الاندماج، وتفتح أكثر من ثغرة للخلافات التي تهدد الكيان كله، وتسيء إلى الاستقرار العام.

إن هذا الطرح يمثل التطرف في أقصى حدوده؛ لأنه لا ينطلق من مواقع التوازن في مسألة الحكم الذي لا يمكن أن يعيش إلا في نطاق توافق الإرادات الشعبية على صيغة معينة.. ففي المجتمع الموحد الانتماء، يمكن الحديث عن فكر واحد في خصوصياته ودوائره المحددة ذات اللون الواحد، وفي المجتمع المتعدد الانتماء لابد من التحدث عن فكر توافقي تتوازن فيه الطروحات في القواسم المشتركة التي يلتقي عليها الجميع ويتوازن فيها الاعتراف بالخصوصيات في ضمن حصص متساوية أو متقاربة في عملية التوزيع ليخلص الجميع له عندما يرى كل واحد فيها الملامح العامة في صورته ويرى صورة الآخر في مرآة واحدة إلى جانب صورته.

خلافات دموية أو تقسيم للحصص

وقد يستدعي هذا الطرح المتطرف طرحًا آخر من الجانب الآخر الذي يجد في تأكيد المسلمين على خصوصيتهم التي لا يتنازلون عن شيء منها من القمة إلى القاعدة فرصة في الدعوة إلى ذاتيته وخصوصيته في صيغة تختزن كل مفاهيم الحكم المميز والتشريع الخاص لديه. وتبدأ مسألة التجاذب فيما هو الطرح من هنا، والطرح المضاد من هناك، وتكون النتيجة أن يعيش البلد في خلافات دموية خطيرة لا تقف عند حد؛ لأنها لا تملك قاعدة مشتركة يلتقي عليها الجميع.

وفي ضوء هذا تبتعد المسألة – في هذا الطرح – عن الواقعية على صعيد حركة التطبيق – وبذلك تفرض على الإسلاميين أن يقارنوا بين الواقع الذي

لا يحصلون منه على شيء أو يخسرون فيه أكثر مما يربحون، وبين الواقع الذي يحصلون منه على بعض التوازن في حقوقهم، أو في مصالحهم البشرية، أو في بعض مواقعهم الشرعية مما تكفله سياسة التوزيع الطائفي في عملية تقسيم الحصص، أو تفرضه الصيغة الموحدة التي تتجاوز كل خصوصيات الساحة لتجعل القضية في دائرة الجميع.

الأصولية والإرهاب وحشر الآخرين

وقد يكون من العقل أو من الحكمة، أن يختاروا الحل الثاني الذي يفسح لهم المجال للاستقرار والطمأنينة والهدوء، والحصول على حصة الشريك بدلاً من واقع اللاحصة واللااستقرار.

وقد يطرح البعض المسألة في الوسائل التي يحركها الإسلاميون نحو الأهداف فقد تميزت الحركة الإسلامية المعاصرة فيما يطلق عليها الغربيون اسم «الحركة الأصولية» باللجوء إلى العنف في وسائلها السياسية، فهي تعتمد الطريقة العسكرية في مواجهة خصومها، وفي الوصول إلى المواقع المتقدمة في الطريق إلى أهدافها بحيث تتحول في بعض الحالات إلى حركة إرهابية تتميز بالقسوة والوحشية والشراسة، وتعمل على القيام بالعمليات التي يسقط فيها الأبرياء، كالخطف والتفجير والاغتيال، وتحويل أتباعها إلى قنابل بشرية متفجرة في مواقع أهدافها البشرية وغير البشرية في أسلوب «العمليات الانتحارية» كما يعبر عنها البعض، أو «العمليات الاستشهادية» كما يعبر عنها أصحابها.

وبذلك تتحول الحركة الإسلامية في هذا الجو العنيف الإرهابي إلى عنصر ضاغط على الواقع بالطريقة التي لا تسمح بالتقاط الأنفاس، أو بإدارة اللعبة السياسية بشكل متوازن، وتحول الموقف إلى إرهاب فكري يخنق حرية الناس في اختيار قرارهم، ويحاصر المسألة الثقافية في دائرة الحرية، ويبقي لها وحدها – الهيمنة على الساحة من موقع الاقتناع.

إن الحركة الإسلامية تدخل الواقع بأسلوب الصدمات الكهربائية التي لا تترك مجالاً للتوازن في الموقف، والهدوء في الملاحظة، بل تظل في مواقع الاهتزاز العنيف، مما يجعلها تفقد عنصر العقلانية والموضوعية والواقعية في موقع الإنسان في حركة الحياة، وتبقى مجرد حالة طارئة سريعة في قبضة الظروف الطارئة التي لن تتعمق التجربة في داخلها، بل تمر بها مرورًا سريعًا قد يضيع في غمرة التطورات والمتغيرات؛ لأنها تضغط على الجسد فتقهر مقاومته في لحظات ضعفه، ولا تملك احتواء الفكر في مواقع قوته؛ لأنه يرفض الضغط بقدر إيمانه بالحرية.. وانفتاحه على احترام إنسانية الإنسان في عقلنة القرار.

إن هذا الاتجاه يمثل التطرف بأعلى مراحله؛ لأنه لن يترك فرصة للآخرين ليختاروا اللقاء به أو الافتراق عنه لأنه يحشرهم في الزاوية عندما يحاصرهم فيها، فلا يملكون إلا أن يخضعوا له، لا أن يختاروه؛ ولذلك فإنه لا يستطيع الانفتاح على الواقع، بل سيواصل– بطريقته المعقدة– تجميع الخصوم ضده، وتعقيد الموقف حوله. وقد يؤدي به هذا الأسلوب القائم على العنف والتدمير والإرهاب

إلى الانحراف عن مبادئه، والوقوع في مخالفة القواعد الشرعية الإنسانية التي لا تلتقي ببعض أساليبه العملية، ولن تكون الساحة له في نهاية المطاف؛ لأن إنسانية الإنسان قد تخضع للعنف بعض الشيء، ولكنها لا ترتاح له، ولا تتعاطف معه، ولذلك فإنها سوف تثور عليه لتدفعه بعيدًا عن المواقع المتقدمة للحياة.

وفي ضوء ذلك قد يكون من المصلحة للحركة الإسلامية أن تنبذ العنف كأسلوب وحيد في العمل، وتتحرك في أسلوب الرفق على الطريقة الواقعية التي يعتمدها الناس في الوصول إلى الأهداف، فإن ذلك قد يؤخر لحظة الوصول، ولكنه يضمن سلامتها في نهاية المطاف.

٥ واقعية الطرح وحدته في المعادلات السياسية

وقد يطرح البعض مسألة التطرف في نطاق الطروحات السياسية المتحركة في شعارات الحركة الإسلامية بعيدًا عن الحديث عن الحل الشامل في نطاق النظام الإسلامي، أو الدولة الإسلامية أو ما إلى ذلك، بل في طبيعة المواقف الحاسمة ضد الواقع السياسي في المواقع الإقليمية، أو في المواقع الدولية.

فقد أصبح من المعروف أن هناك شيئًا مطروحًا في الساحة السياسية يطلق عليه اسم المعادلات الثابتة في اللعبة الإقليمية أو الدولية التي يلتقي الجميع على حمايتها ورعايتها والحفاظ عليها؛ لأنها تمثل قاعدة التوازن في المصالح الدولية، حيث يجدون في اهتزازها نوعًا من اهتزاز الاستقرار الدولي الشامل الذي يجعلهم يواجهون خطر الهلاك المحقق.

وقد نجد في حركة القوة المتنوعة المتنامية نوعًا من الثبات والتوازن فيما هي مراكز القوى في العالم، وفيما هي طبيعة القوة الكبرى الضاغطة على موازين القوى في أكثر من موقع، مما يفرض الخضوع لها والعمل على إدارة الحسابات المتحركة من خلالها؛ لأن مجابهتها ومواجهتها بالقوى المتواضعة التي يملكها المعارضون لها، يشبه مجابهة الصخرة الكبيرة الصلبة التي تكسر كل الرؤوس التي تناطحها دون أن تتفتت منها ذرة واحدة؛ لأن مسألة القوة والضعف في طبيعة الأشياء لا يخضع للطموحات الذاتية، بقدر ما يخضع للموازين الطبيعية في تقدير الأمور في مصادرها ومواردها وعلاقاتها الطبيعية في صعيد الواقع.

وعلى ضوء هذا، فإن الملحوظ أن الحركة الإسلامية لا تنطلق من النظرة الواقعة إلى الأمور فيما هي المسألة السياسية أمام المعادلات الإقليمية والدولية وفيما هي القوة الأمنية والعسكرية أمام القوى الكبيرة الضاغطة على الواقع، بل تنطلق من طموحات خاصة تتحرك في المطلق من دون خطة مدروسة كاملة، وفيما هو الموقف المتوازن من المعسكرات الدولية.

فهناك الموقف الإقليمي الذي تتخذه الحركة الإسلامية من الوجود الإسرائيلي فيما تلتزمه من رفض المسألة الإسرائيلية بالمطلق، ودعوتها إلى دعوة الفلسطينيين إلى فلسطين، وعودة اليهود الذين جاؤوا من أقاصي الأرض إلى بلدانهم الأصلية لتبقى فلسطين بلدًا إسلاميًّا يحكمه المسلمون من خلال الإسلام.

فكيف يمكن أن يكون هذا الموقف واقعيًّا في الوقت الذي نجد فيه إسرائيل تملك القوة العسكرية التي تستطيع من خلالها السيطرة على أي بلد في المنطقة، والقوة الأمنية التي تتحرك مخابراتها لتتدخل في أكثر من موقع سياسي وأمني لتحركه كما تشاء في خدمة مصالحها الأمنية والسياسية، والقوة السياسية التي تمتد جذورها إلى كل المحاور الدولية والإقليمية، وتستطيع من خلالها أن تدير لعبة الصراع في كثير من مفاصل الواقع الدولي، لا سيما فيما يتصل بالتحالف الإستراتيجي بينها وبين أمريكا، والتواصل السياسي مع أوروبا. هذا مضافًا إلى القوة البشرية المتنامية في داخل إسرائيل، والمتحركة المنظمة في خارجها، هذا بالإضافة إلى المواقع المتقدمة للإمكانات الاقتصادية والعلمية في دول العالم. الأمر الذي يجعلها محاطة بألف سور وسور من الحماية السياسية والعسكرية والأمنية والاقتصادية والعلمية، مما لا يملك الإسلاميون أية قدرة كبيرة وصغيرة في ذلك كله، بل يمكن أن نقول أن نقاط الضعف تحاصرهم في وجودهم الحركي من كل جهة فيما يحيط بهم من تحديات وفيما يواجههم من عقبات، وفيما يعترض وجودهم الداخلي من مشاكل.

وكيف يستطيعون تحقيق هذا الهدف الكبير الممكن وهو إزالة إسرائيل من الوجود، وتحرير القدس؟

وقد نجد في المحور الدولي أن الإسلاميين يقفون موقفًا عدوانيًّا من الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفياتي، ودول أوروبا الغربية والشرقية وكل مواقع

الاستكبار العالمي، تحت شعار الموت للظالمين، وللمستكبرين، ولأمريكا ولروسيا، وما إلى ذلك.. مما يوحي بأن القوة الإسلامية الوليدة تقف موقفًا حادًّا ضد قوى العالم كله، بطريقة عنيفة متوترة، وبعقلية سياسية ترفض أنصاف الحلول، وتتعقد من كل طروحات التسويات. ويرى بعض ممثليها بأن إقامة العلاقات السياسية والدبلوماسية والاقتصادية معها يمثل الانحراف والخيانة والسقوط في فخ الاستكبار والمستكبرين. ويبقى شعار «لا شرقية ولا غربية» الذي يرفض الشرق والغرب معًا، ويقاومهما معًا يمثل الذهنية السياسية الحادة التي يتمثل فيها السلوك السياسي الإسلامي في صيغته الأصولية الحاضرة.

فكيف نواجه الضغوط الكبيرة التي يمكن أن تحاصر وجودنا كله من أكثر من جهة في مواقعها الإستراتيجية، وفي إمكاناتها العسكرية والأمنية والاقتصادية والعلمية؟

وماذا نملك من ذلك كله؟ وهل نستطيع إدارة ثرواتنا الطبيعية وتسويقها في العالم، بعيدًا عنها؟ وهل نملك القدرة على الوصول إلى سياسة الاكتفاء الذاتي من دون مساعدتها؟ وكيف نستطيع محاربة واحدة منها من دون التحالف مع الأخرى؟

هل يمكن أن يكون الموقف واقعيًّا؟ وما هي الإمكانات الحقيقية التي تتيح لنا تحقيق بعض أهدافنا المطروحة من خلال هذا التصور؟ وهل نستطيع إبعاد صفة التطرف واللاواقعية عن مثل هذا التفكير؟ وهل يمكن أن تكون بعض

الانتصارات ضد هذا المعسكر في بعض المواقع أو ضد ذاك المعسكر في بعض آخر أساسًا للحديث عن العمق الواقعي لهذا التصور في الوقت الذي نجد فيه مثل هذه الانتصارات جزءًا من اللعبة الدولية التي تفسح المجال لذلك التحرك فيما تحركه من مفردات الصراع في ساحة التجاذب الدولي.

وهكذا يمتد الموقف اللاواقعي في السلوك السياسي الحاد في داخل الأنظمة اللاإسلامية في بلاد المسلمين في الوقت الذي تعمل فيه الأنظمة على محاصرة النشاط الإسلامي بكل وسائله القمعية التي لا يملك الإسلاميون إمكانات المواجهة الحقيقية لها حتى في المواقع الصغيرة.

التحرك في دائرة المعادلات الدولية

ربما يجد «الواقعيون» و«المعتدلون» ضرورة لإعادة النظر في مثل هذه النظرة، وفي مثل هذا السلوك، بالتركيز على دراسة المسألة في نطاق التعامل مع الأمر الواقع في سياسة توافقية على أساس ترتيب الأوضاع بما قد يتلاءم مع بعض المصالح الإسلامية في ظل هذا الواقع، أو بالتحرك في دائرة المعادلات الدولية أو الإقليمية التي تتسع لبعض إمكانات التغيير في حركة الساحة للنفاذ إلى بعض المواقع الصعبة، في عملية مواجهة وتغيير، وللحصول على إمكانات الدخول في مفردات الصراع في داخل المعادلة بالاستفادة من بعض الفرص المتاحة للآخرين في إدارة اللعبة في مواجهة ذاك الفريق أو هذا في دائرة الخطوط المرسومة.

إن مثل هذا التصور المعتدل الواقعي لا يعطل الحركة، ولا يسقط المبادئ ولكنه يمنحها بعدًا واقعيًّا في المجالات العملية المتناسبة مع سنن الله في الكون، وفي الأوضاع الاجتماعية الخاضعة للقوانين الإنسانية في حركة الإنسان.

إن ذلك أفضل بكثير من السقوط تحت تأثير الأفكار الخيالية التي تصدم الإنسان عندما يواجه الواقع من دون نتائج إيجابية لمصلحة المستقبل.

هل هذه التصورات صحيحة؟

وهل يمثل الطرح الإسلامي، في مثل هذه المفردات حالة تطرف؟

وهل يعتبر التطرف حالة في الخيال، أو حالة في الواقع؟

وهل المقياس في التطرف والاعتدال، الظروف الحاضرة التي تحاصرها اللحظة في حسابات الزمن، أو الظروف المتغيرة في آفاق المستقبل؟ وكيف نتصور الغيب في حركة الإسلام في الحياة وفي الإنسان؟

وهل يمكن أن نحسب حسابه في بعض مواقع التحرك الإسلامي؟ هذه علامات الاستفهام التي نجيب عنها فيما نستقبل من حديث.

الحركة الإسلامية بين التطرف والاعتدال (ب)

- **الإسلام يطرح مشروعه**

الفكري والسياسي بالوسائل الحضارية.

- **مخابرات الدول الكبرى**

تلجأ للإرهاب، والإسلاميون يفرض عليهم استعماله.

- **الساحة للأقوى**

والفكر يصارع الفكر والقوة.

- **لا بد من هجمة مضادة**

للحرب النفسية ضد القوى المستكبرة.

- **التمييز بين المعتدلين والمتطرفين**

لتحييد الشخصيات الإسلامية.

الحركة الإسلامية بين التطرف والاعتدال (ب)

١ شمولية الإسلام والتطرف

هل الحديث عن شمولية الإسلام للحياة في جميع مجالاتها العامة حديث تطرف؟

هذا ما نحاول الإجابة عليه بسؤال آخر وهو: من أين هذا التصور للإسلام الذي يحدد له الدائرة الأخلاقية العبادية، ويفصله عن الدوائر الأخرى في الحياة ليكون التزام الشمولية في مضمونه تجاوزًا عن الحد المعقول الذي يضعه في دائرة التطرف؟

لو درسنا الإسلام في امتداده الفقهي لرأينا أنه يختزن في داخله العبادات والمعاملات والقوانين الجنائية والجزئية والعلاقات العامة مع غير المسلمين، إلى غير ذلك، مما لا يترك في الواقع الإنساني الفردي والاجتماعي دائرة إلا واحتواها بحكم شرعي يحدد لها حركتها وحركة الإنسان فيها، مما جعل المسلم يعيش تحت تأثير الإحساس الشامل بأن للإسلام حكمًا في كل واقعة من وقائع حياته الخاصة والعامة، بحيث يبادر تلقائيًّا إلى السؤال عن تكليفه الشرعي في كل قضية من القضايا التي تعرض له في يومياته المتكررة على جميع المستويات، سواء في ذلك الإنسان الذي يحمل الإسلام في وعيه من خلال النظرة التقليدية التي لا تحمل الشمول في فهم الواقع الحركي في قضية الإسلام في مواقع حركة الحكم

في ساحة الصراع، أو الإنسان الذي يستوعب الإسلام في ذهنه في نظرة شاملة للحياة كلها.

لهذا نرى الإنسان التقليدي يسأل دائمًا عن شرعية علاقاته بالحكم القائم في بلده، وكيف يمكن له أن يوافق بين التزامه الإسلامي والتزامه القانوني، وكيف يكون موقفه من الحاكم غير المسلم أو الحاكم المسلم الذي لا يلتزم بالإسلام في حركة حكمه، كما يسأل عن شرعية الانتخابات النيابية وعن طبيعة الموقف السياسي هنا تمامًا كما يسأل عن أحكام الصلاة والصوم بعيدًا عن كل الصراع القائم في وجود نظرية إسلامية خاصة للحكم في الإسلام أو عدم وجود مثل هذه النظرية؛ لأن المسألة عنده هي أن الإسلام يفرض عليه تحديد موقفه من الحكم والحاكم أيًّا كان ليحصل على براءة الذمة أمام الله في عمله.

وإذا كان للإسلام هذا الشمول في أحكامه في الفقه الإسلامي، فما الذي يجعل من التزام شخص ما، أو جهة ما، بحاجة التشريع الشامل إلى حكم ينظم له مواقعه وينفذ له خططه، ويحدد له اتجاهات الحركة في الواقع كحاجة طبيعية لأية شريعة، أو أي قانون تطرفًا وذلك من خلال الفكرة القائلة بأن وجود القانون الشامل يختزن في داخله فكرة الدولة التي تحمل في عنوانها نظرية الحكم التي لابد من استنباطها من طبيعة القانون إذا لم يكن فيها نص معين؟

الاجتهاد وخط الاعتدال

وقد نجد بعض الناس يناقش في دينية الفقه الإسلامي وإسلامياته على

أساس أنه فكر الفقهاء ورأي الرجال، وليس وحي الله وكلام الرسول، فلا يمكن أن نحمله للإسلام كدين فيما يلتزم به الناس من الدين؛ لأن المجتهدين يخطئون، والوحي لا يخطئ وكلام الرسول في التبليغ لا يقترب من الخطأ.

ولذلك فقد يكون من المعقول أن نتقبل الدين ونرفض الشريعة ليتحقق لنا من ذلك خط الاعتدال الذي يلتزم فيه الإنسان بالحقيقة الإلهية المعصومة، ويتحفظ في الالتزام بالشريعة الاجتهادية المتحركة بين الخطأ والصواب.

وقد يضيف هؤلاء أن الاجتهاد الفقهي لم يكن دائمًا وليد نصوص يجتهد فيها المجتهدون، بل ربما كان الأساس في ذلك بعض الأفكار والآراء الذاتية، والاستحسانات والقياسات العقلية التي تخضع لقاعدة إسلامية قطعية، مما يجعل من الاجتهاد قناعة شخصية لا رأيًا إسلاميًّا.

ولكننا نلاحظ على هذا الرأي أن إسلامية الفقه ودينيته لا تعني قطعية النسبة إلى الإسلام بالطريقة التي تمثل حركة الحقيقة في الوجدان الإسلامي، بل إن معنى ذلك أن يكون المصدر في النتائج الفقهية الاجتهادية إسلاميًّا من خلال النص الثابت، السالم من الوضع والكذب، أو من خلال القاعدة الإسلامية المستمدة من النص على ضوء القواعد العلمية في فهم النصوص في اللغة العربية، أو القواعد العقلية في استنتاج الحكم الشرعي في الموارد التي يكون فيها للعقل طريق للمعرفة.

الحوار مع القائلين بالتطرف

ولم ينطلق المجتهدون في اجتهاداتهم، حتى في موارد الاستحسان والقياس من منطلقات ذاتية مجردة، بل انطلقوا من مواقع النصوص الشرعية، وليست القضية في عمل الناس في الخط الذي يرتبطون به، أو ينتمون إليه هي قضية النتائج القطعية، بل القضية هي قضية النتائج الاجتهادية المقنعة في إثبات الحقائق، بحيث تكون حجة في دائرة الصواب، وعذرًا في دائرة الخطأ، ولو كانت المسألة تقتصر على القطع في وسائل الإثبات، وفي النتائج لتجمدت حركة العلم فيما لم يكن للقطع إليه سبيل بما كان للاجتهاد فيه مجال.

وعلى ضوء ذلك كله، فإن الحديث عن التطرف في الحديث عن شمول الإسلام للحياة لا يستند إلى أساس معقول وليس لنا مع هؤلاء إلا أن ندعوهم إلى الدخول في حوار علمي إسلامي في القضايا المثارة في هذا المجال.

٢ الواقعية وتطرف الفكر التغييري وانطلاقة المستقبل

وإذا كان التطرف لا يلتقي مع الحديث عن شمولية الإسلام لقضايا الحياة، فلابد لنا أن نواجه المسألة التي تتحدث عن لا واقعية تحريك الإسلام في الساحة المعاصرة التي ازدحمت فيها المفاهيم الحديثة البعيدة عن الإسلام على مستوى العقيدة والشريعة والمنهج والحياة، هذا بالإضافة إلى الذهنية الرافضة لدخول الدين إلى واقع الحياة من خلال فكرة الفصل بين الدين والدولة، أو بين الدين

والقانون فيما هو الفكر العلماني، أو المادي، مما يجعل من الطرح الإسلامي حالة غريبة عن حركة الإنسان في الحياة، ويحمل الكثير من التعقيدات للعاملين في هذا الاتجاه، ويعطل الحركة في الوصول إلى الهدف، وينعكس سلبًا على الالتزام الثقافي والروحي للإسلام، هذا هو التطرف الذي تبتعد فيه الحركة عن الواقع.

ولكن هل هذا كله يعني ابتعاد الطرح عن الواقعية من حيث المبدأ في المطلق، أو يعني الحاجة إلى وسائل جديدة متحركة في أكثر من اتجاه، وإلى فترة زمنية طويلة، وإلى ظروف ثقافية وسياسية واجتماعية محددة ليمكن للفكرة أن تجتاز العقبات التي تقف في وجهها، وتحل المشاكل المعقدة التي تحيط بها، وتغير الذهنيات المادية إلى ذهنيات روحية، ولتحتوي الفكر العلماني بالفكر الإسلامي، ولتحرك الأمة في وجدانها السياسي نحو الإسلام في مشروعه السياسي الممتد في حياة الإنسان العامة؟

إن مثل هذا التفكير يحمل في داخله معنى السقوط لأية فكرة تغييرية، والإحباط لنشاط أي مصلح في سبيل التغيير؛ لأن الواقع لن يكون في مصلحة الفكرة، ولن يكون في اختيار المصلح، فلابد من التخطيط والتحرك والصبر والمعاناة وتحديد المراحل وانتظار الزمن الذي يصنعه العاملون في دوائره الحركية، وتنسجم معه الظروف والأوضاع في خصوصياتها الواقعية. فإذا كانت العقبات تحيط بالهدف في حدود الحاضر، فإن كثيرًا من الحواجز والحدود قد تسقط أمام انطلاقات المستقبل.

وهكذا تحتاج الأهداف إلى خطوات المستقبليين الذين يرصدون آفاق المستقبل في مطالع الشروق، لا إلى خطوات العاجزين الذين يراوحون أقدامهم في زوايا الحاضر.

الواقعية في الوسائل لا الطروحات

وإذا كان الإسلام قد انتصر على كل الذهنيات المتخلفة والمعقدة، وعلى كل الأفكار المضادة في الماضي حتى ساد وتحدى كل قوى الكفر والشرك والاستكبار، حتى أصبح قوة عالمية من مواقع المعاناة والآلام والتضحيات في حركة التحدي من جهة، ومواجهة التحدي من جهة أخرى من دون أن تكون حركته بعيدة عن الواقع؛ لأن واقعية الحركة ليست في انسجامها مع الطروحات المتحركة في الساحة، بل في الوسائل العملية والمراحل المتعددة والظروف الموضوعية التي تتكامل بأجمعها من أجل الوصول إلى الهدف الذي يحمل في داخله عوامل التغيير.

إن القوة تصادم القوة وقد تصرعها إذا استكملت عناصر المواجهة، وإن الفكر يصارع الفكر وقد يتغلب عليه عندما يملك الوسائل الفكرية التي تسقط كل أطروحاته وتهزم قواعده، وإن الذهنيات المضادة قد تغيرها ذهنيات أخرى على مستوى العوامل التي تملك مواقع التغيير في دائرة العقل والشعور.

إن الساحة للأقوى وللأشد صبرًا وثباتًا وتحملاً للآلام. فأين التطرف من هذا كله؟

وإذا كنا نتحدث عن التجربة في ميزان الواقعية والتطرف، فإن نجاح الثورة الإسلامية في إيران، يعطي الأمثولة الحية على ما يحمله الإسلام من إمكانات التغيير في حركة الواقع على صعيد حركة الجهاد الإسلامي، ثم هناك ناحية أخرى مهمة على هذا الصعيد، وهي أن الواقع الإسلامي يحمل في داخله العناصر الحية لانطلاقة الحركة الإسلامية في حياة المسلمين؛ لأنهم يعيشون أفكار هذا الدين ومفاهيمه، ويتحركون في عباداته وتقاليده، ويلتزمون بأحكامه وشرائعه، ويتنفسون الهواء الطلق في ماضيه وحاضره، مما يجعل من دعوتهم إلى العودة إلى مواقع الحكم في ساحته وإلى إحياء معالمه وفتوحاته دعوة لا تبتعد عما يعيشونه من أجواء، وما يفكرون فيه من مفاهيم، وما يتطلعون إليه من أهداف.

إن الإسلام هو الحالة الشعورية التي يتحسس الناس بنبضاتها في قلوبهم وعواطفهم، وهو الحالة الفكرية الضبابية التي يتحرك فيها فكر الناس من ناحية إجمالية عامة، وهو العمق الداخلي للشخصية الإسلامية الإنسانية الراقدة في رواسبهم وخلفياتهم التاريخية. ولذلك فإن إمكانات الإثارة السياسية والفكرية في دائرته تختلف عن أية دائرة أخرى فيما يختلف الناس فيه من مواقع الفكر والسياسة. فأين الحديث عن التطرف في ذلك كله؟

٣ تنوع الأديان والتطرف: الإسلام يدعو للحوار بعقل بارد وقلب مفتوح

إذا كان لنا أن نناقش التطرف في طرح الإسلام كحل شامل في البلاد التي يغلب على طابعها البشري اللون الإسلامي الواحد، فكيف نواجه المسألة في

البلاد التي تتنوع فيها الأديان في طوائفها المختلفة ومواهبها المتعددة، مما لا يفسح المجال لأي طرح إسلامي شامل في البلد كله؛ لأنهم لا يمكن أن يتفقوا معه أو يلتقوا عليه؟

ولكن هل تطرح المشكلة بهذه الطريقة؟ وهل يكون التنوع مانعًا من طرح الفكرة المخالفة؟ وهل أن مهمة الفكرة أن تتناسب مع الميول العامة للناس، فلا تصدم أي جانب من جوانب قناعاتهم؟ وهل نستطيع أن نقدم فكرة في العمق من قضايا الحياة من دون أن تصطدم ببعض التناقضات؟

والجواب: إن الإسلام عندما يطرح نفسه في الساحة المتعددة الآراء، فإنه يريد أن ينقل الانتماء من موقع العصبية إلى موقع الفكر، ويحرك الدين من زاوية العشائرية الطائفية التي لا تختزن إلا الحقد والتخلف إلى أفق الحالة الفكرية التي تثير التفكير، وتطرح المشروع، وتدعو إلى الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، ويحرك المشروع السياسي من خلال النظرة الإسلامية لتحل مشكلة المسلمين وغيرهم في نطاق حركة الحياة من حولهم لتحل مشكلة التعددية الغارقة في ضباب الجهل بالفكر الواحد الذي يدعو الجميع إلى الاقتناع به من خلال العلم الباحث عن الحقيقة.

وإذا كان الطرح الإسلامي في تقديمه للمشروع الفكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي المتكامل، يثير الحساسيات الطائفية لدى غير المسلمين، فإن الخطة الموضوعة لدى الإسلاميين أن يتعاملوا مع هذه الحساسيات

بأسلوب هادئ، يتعامل معها على أساس العقل البارد والقلب المفتوح والصبر على السلبيات ليحل العقل محل العاطفة، ولتنطلق المسألة من مواقع اللقاء ولتصل إلى مواقع الافتراق من خلال الروح المنفتحة على الحق وعلى عقل الآخرين.

النصرانية لا تحمل منهجًا سياسيًّا

وإذا كانت المشكلة هي مشكلة الدين الآخر كالنصرانية مثلاً، فإن القضية هي أنها لا تمثل مشروعًا مضادًّا للمشروع الإسلامي التشريعي والسياسي؛ لأن النصرانية أو المسيحية في وعي أتباعها ومفكريها لا تحمل في داخلها خط الشريعة ولا نهج السياسة، بل هي فعل إيمان. فليست هناك ساحة صراع بينها وبين الإسلام في هذا المجال، بل كل ما هناك تفاصيل فكرية في مسائل اللاهوت، وفي مسائل الأخلاق وطريقة العبادة، مما يكفل الإسلام الحرية فيه في ساحته السياسية فيما وضعه من تنظيم الحياة على أساس التعايش مع أهل الكتاب هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن النصارى يجدون في حكم الإسلام بعض القيود التي قد يرون فيها امتهانًا لإنسانيتهم، وحدًّا لطموحاتهم في الوصول إلى مواقع الحكم الأولى في أي حكم آخر غير الإسلام لأن الإسلام لا يسمح للذين لا يؤمنون به أن يكونوا في مواقع القيادة التي تصنع القرار.

بين العصبية والعقلانية

ولكن هذه النقطة قد تحتاج إلى التعمق في المناقشة، وذلك بالدخول في المقارنة بين الإسلام عندما يحكم وبين الفكر المادي العلماني الملتزم بخط معين عندما يتسلم الحكم، فإن هذا الفكر لا يمنح الناس الذين لا يلتزمونه من موقع الانتماء أن ينطلقوا إلى مراكز القيادة وما دونها، بينما يمكن للإسلام أن يمنحهم بعض المواقع المتقدمة في الدرجة الثانية، مع الاحتفاظ بإنسانيتهم؛ لأن ذلك لا يعني امتهاناً لإنسانيتهم، بل يمثل الاحتفاظ بسلامة حركة الفكرة في خط القيادة، وهذا أمر يلتقي به الإسلام مع كل الأفكار الأخرى كالماركسية ونحوها من الأفكار التي لا تلتقي بالدين من قريب أو من بعيد.

وإذا كان النصراني مستعداًّ للخروج من نصرانيته إلى الماركسية من خلال قناعته بأفكارها فيما يفرض عليه ذلك حتى الخروج من النصرانية أساسًا، فإن خروجه إلى الإسلام قد يكون أكثر سهولة من ذلك؛ لأن الإسلام لا يخرج النصراني من كثير من تعاليمه وأجوائه.

إن المسألة هي مسألة النظرة إلى الإسلام من موقع العصبية إلى موقع العقلانية، واعتبار ساحته ساحة صراع للفكر القائم على العقل ليقتنع به الآخرون فينتموا إليه أو لا يقتنعوا به ليفهموه ويتعرفوا مواقع اللقاء ومواقع الخلاف، وليكون الحكم للأقوى على الساحة فيمن يملك الانتماء الأكثر والحصول على تأييد في حياة الأمة أكثر.

إن من حق الإسلام أن يطرح نفسه كبديل لكل الطروحات الأخرى بالوسائل الحضارية من فكرية وسياسية تمامًا كما يجد الآخرون من حقهم أن يطرحوا فكرهم بطريقتهم الخاصة. وإذا كان البعض يجد فرقًا بين ما هو الدين الذي يوحي بالفروق مع الآخرين، وبين ما هو الفكر العلماني الذي يمثل قاسمًا مشتركًا بين كل الفئات الوطنية في البلاد، فإننا نجد مثل هذا الحديث ينطلق من اعتبار العلمانية فكرًا يلتقي الانتماء عليه من خلال أنه الحل الشامل للساحة. ولكننا لا نوافق على ذلك، بل نرى العلمانية ضدًّا للإسلام فيما هو الفكر وفيما هو المنهج، أو فيما هي الشريعة، وفيما هي النظرة العامة للإنسان والحياة، مما يجعل منه فكرًا مضادًّا لا فكرًا موحدًا.. ولذا فإن الإسلام يطرح مشروعه الفكري والسياسي بالوسائل الحضارية من فكرية وسياسية في مواجهة أي فكر آخر واحدًا أو متعددًا من دون أن يجد في ذلك أية بادرة تطرف في الشكل والمضمون، ويرى أن حريته في الساحة هي جزء من حرية الآخرين.

٤ التطرف الإسلامي يدعو إلى الرفق لا العنف

أما الحديث عن العنف، كوجه من وجوه الحركة الإسلامية فيما تعتمده من أسلوب الصدمات القوية في تعاملها مع الأشخاص والأحداث، ومن العمليات الإرهابية في مواجهة الصراع الأمني والسياسي، فهو حديث غير دقيق؛ لأن الإسلاميين لا يرون أن العنف هو الأسلوب الوحيد للصراع، بل يرون – بدلاً عن ذلك – أن الرفق هو الأصل في مواجهة المشاكل في اتجاه الحل، ويروون

الحديث الشريف: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف».

ويعتبرون الأسلوب العملي الناجح في العمل السياسي هو الأسلوب الذي يحول الأعداء إلى أصدقاء، وذلك من خلال الآية الشريفة ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت/ ٣٤-٣٥]. ولكنهم يرون أن العنف أسلوب طبيعي تفرضه طبيعة الحياة في صراعاتها وتحدياتها التي تلقي عليك بثقلها بالمستوى الذي قد يلغي وجودك أو يسقط قضيتك أو يصادر حريتك من دون أن يفسح لك المجال في التماسك لتفكر، أو التوازن لتناقش أو لتحاور، فلا يبقى أمامك إلا أن تقوم بعملية وقائية لتربك وضعه، ولتهز مواقعه، وتسقط خططه، أو عملية دفاعية تحفظ بها موقعك وموقفك، وتملك بها قرارك. وهذا أمر لا يختص بالإسلاميين، بل يؤمن به كل الناس الذين يملكون بعض مواقع القوة في الحياة.

أما العمليات الإرهابية، كالتفجير وخطف الأشخاص والطائرات، فليست من الوسائل المتنباة للحركة الإسلامية في طريقة عملها السياسي، ولكنها من الوسائل التي قد تعتمدها بعض المنظمات الإسلامية الأمنية، وتشجعها بعض المحاور السياسية وتتعاطف معها أو مع بعضها، بعض التنظيمات أو الشخصيات الإسلامية مع التحفظ على بعض التفاصيل هنا أو هناك، وذلك في نطاق ظروف

سياسية ضاغطة، قد تبرر للقائمين على هذه الأمور أو للأجهزة التي تحركها مثل هذه الأمور انطلاقًا من القضايا العامة التي قد تسقط تحت ضغط الدول المستكبرة أو القوى الغاشمة المسيطرة إذا لم تشعر هذه الدول أو القوى بالضغط المضاد على أمنها ومصالحها السياسية والاقتصادية. وبذلك كانت هذه الأمور خاضعة للظروف القاسية الصعبة التي تعيشها بعض المواقع أو الدول أو المحاور السياسية الإسلامية في مواجهة الدول الكبرى أو القوى العظمى.

الإرهاب دعاية عالمية ضد الإسلام

ولعلنا لا نتجاوز الحقيقة إذا أكدنا - في حديثنا هذا على أن أكثر الدول في العالم، لا سيما الدول الكبرى - تعتمد مثل هذه الوسائل بطريقة رسمية في بعض الحالات تحت شعارات أمنية معينة، أو بطريقة غير رسمية من خلال النشاطات الخفية التي تقوم بها أجهزة المخابرات التابعة لتلك الدول، ولذلك فإن الجميع يعتبرون هذه المسائل من قبيل الاستثناء للقاعدة العامة في العمل السياسي والأمني نظرًا للحاجة الملحة التي تفرضها المصلحة العليا لحماية الأمور والمشاريع التي يراد حمايتها؛ لأنها ترقى إلى المستوى الكبير من الأهمية التي يتضاءل أمامها أي شيء آخر.

ويضيف هؤلاء أن الحروب تختزن الكثير من النتائج السلبية التي تترتب على هذه «الأعمال الإرهابية»، مما يوحي بأن المبدأ معترف به مع الاختلاف في التفاصيل.

ولسنا هنا لندخل في تقييم شرعي حول هذه المسائل والأعمال فيما يمكن أن يكون عنصرًا مبررًا أو مخففًا، أو يكون عنصرًا متحفظًا، انطلاقًا من دراسة طبيعتها في خصائصها الذاتية المأساوية على مستوى الحالات الفردية الإنسانية، أو من دراسة عناصرها على مستوى الحالات العامة التي تحيط بها الظروف الحيوية فيما تمنحها من عناوين في دائرة «العناوين الأولية» التي تختزن الأحكام الأصلية، أو دائرة «العناوين الثانوية» التي تختزن الأحكام الطارئة.

وبذلك نستطيع أن نتساءل عن موقع التطرف المميز الذي يميز الحركة الإسلامية عن غيرها من الحركات في العالم ليكون الجواب أن ذلك مجرد وسيلة من وسائل الدعاية المضادة التي لا تعتمد على أساس.

٥ المعادلات الدولية والتطرف

ونقف في نهاية المطاف أمام الموقف الحاسم الذي تقفه الحركة الإسلامية من المعادلات الإقليمية والدولية ليكون موقعها في الموقع المضاد والمواجه لكل الدول والمعسكرات والمحاور السياسية في العالم، مما يجعل التطرف صفة متواضعة في هذا الاتجاه، حتى لا نمنحها صفة الجنون واللاعقلية، ولكننا نلاحظ على الأمور التي أثيرت في هذه النقطة الخامسة الأخيرة وذلك من خلال بعض الملاحظات.

الملاحظة الأولى: الطرح الحاسم: إن الحركة الإسلامية تعمل على تأصيل الفرد المستقل في نطاق الشخصية الإسلامية في حياة الأمة، وتربية المسلمين على أساس الإسلام بكل عمق الصفاء في فكره وروحه من فكرية وسياسية، بحيث

تبرز الفواصل الفكرية والعملية بين الإسلام وبين التيارات الأخرى، فلا تسمح بأي انحراف أو تداخل أو ضلال.

ولابد في مثل هذا الخط من الدقة في تخطيط الخطوط، وتعميق الأفكار، حتى لا تختلط الأمور، وتضيع الملامح العامة للإسلام أمام الشبهات والإشكالات والاحتمالات المضادة، مما يفرض ملاحقة الكلمات لتكون دقيقة، والأساليب لتكون واضحة، والمفاهيم لتكون محددة؛ لأن هناك فرقًا بين ضياع المفاهيم وانحرافها وبين ارتباك الخطى في الطريق باعتبار أن انحراف الخطوة أقل خطورة من انحراف الفكرة؛ لأن الثاني يخضع للوضوح في الرؤية وعدمه، بينما يخضع الأول للخطأ في التطبيق.

وعلى ضوء هذا فلابد أن يكون الطرح حاسمًا دقيقًا أمام كل هذه الضوضاء الفكرية التي تضيع معها كل الملامح الدقيقة للفكر الإسلامي في صفاته ونقائه.

الملاحظة الثانية: حالة طوارئ: إن الواقع السياسي يخضع في حركته لأساليب التمييع للقضايا، والتسوية للمشاكل على أساس أنصاف الحلول واللف والدوران في مواجهة الأوضاع الصعبة، مما يجعل من النهج الأخلاقي نهجًا خاضعًا للانحراف تحت عنوان الواقعية في السلوك، والمداراة في حركة العلاقات، والتقية في معالجة التحديات، وما إلى ذلك من المفاهيم القلقة التي قد تملك بعض الشرعية في المبدأ، ولكنها لا تملك الكثير منها في التفاصيل من حيث الظروف والمواقع والوسائل الخاصة.

وعلى ضوء ذلك، فإن المرونة العملية في البداية قد تصل بالموقف إلى مستوى الميوعة فيما يمكن أن يضغط عليه الواقع، بينما نجد في التطرف، أو في الموقف الحاد، حركة في اتجاه المرونة عندما تصل القضية إلى مستوى التطبيق، وذلك في الجو الذي يضع المبدأ في مكانه الطبيعي ويحميه من الانحراف.

ولهذا كانت المراقبة والمحاسبة وملاحقة الساحة بأساليب الإيحاء بالاتهام من الوسائل العلمية للانضباط الحاسم في منهج التوازن السياسي والفكري، بحيث يلاحق القائمون على الأمر، والسائرون في الخط الإسلامي كل حالة توحي بالانحراف أو بالخيانة ملاحقة دقيقة تحيط بالدوائر الشعبية العامة بطريقة توحي الرقابة، ولكنها لا تعقد الموقف.

إن عوامل الإغراء وعناصر التخويف التي تحيط بالأوضاع الإسلامية العامة، وتخاطب الشخصيات المتنوعة في مركز القيادة، أو في موقع القاعدة من الناحية المادية والمعنوية، تفرض علينا الاحتياط الدائم الدقيق لمواجهة كل إمكانات الانحراف واحتمالاته تحت تأثير ذلك كله، مما يجعلنا نعيش فيما يشبه حالة الطوارئ للحفاظ على سلامة خط السير للحركة الإسلامية.

الملاحظة الثالثة: التخطيط المرحلي والمصلحة: إن الواقعية في التحرك في القضايا الإسلامية السياسية ليست بعيدة عن الإسلام، وذلك من خلال الطبيعة المرحلية المتمثلة في التخطيط المرحلي للوصول إلى الأهداف، ومن خلال الظروف الموضوعية التي قد تجمد بعض المخططات لمخططات أكبر، وتحرك

بعض العلاقات التي كانت تحمل معنى سلبيًّا لمصلحة علاقات إيجابية أقوى، مما يحقق نوعًا من المرونة التي لا تبتعد فيها الوسائل عن الشرعية عندما تقترب من الواقعية. لأن القاعدة الشرعية العقلية في مسألة التزاحم بين المصالح والمفاسد تفرض تقديم المصلحة الأكثر أهمية على المصلحة التي هي الأقل من حيث الأهمية، وهكذا تسقط المفسدة التي توحي بحرمة متعلقها أمام المصلحة الكبرى التي تجمد الحرام لتحوله إلى حلال في النطاق العملي الذي تنظف فيه الغاية قذارة الوسيلة.

وعلى ضوء ذلك، فإننا نستطيع تأكيد الحقيقة الواقعية في حركة الإنسان السياسي في ساحة الصراع التي تتجاذبها التيارات المختلفة وتحيط بها الأجواء العاصفة، مما يمنحه حرية الحركة في المواقع المتنوعة فيما يلتقيه من مشاكل ومحاور وحواجز، فلا يشعر بأن الزوايا الضيقة تحاصره، بل يجد أمامه الساحة الواسعة التي يملك فيها السير في أكثر من طريق، وفي مواجهة الزمن المستقبلي إذا كان الحاضر يحاصر الحركة الآن.

الملاحظة الرابعة: اختراق الجدار الدولي: إن هناك أولويات في طبيعة علاقات الحركة الإسلامية على مستوى الدولة أو على مستوى الحركة بالآخرين، في مجالات التقارب أو التباعد، أو في أجواء التجميد أو التحريك، كما أن هناك ثغرات متعددة في هذا الجدار الدولي الذي يمكن اختراقه في صراع المصالح، أو في تجاذب السياسات، مما يمكن للإسلام أن ينفذ منه إلى حيث يستطيع معه التأمين على مصالحه ومواقعه.

وقد نجد هناك أكثر من تقاطع بين الدول في عملية اللقاء في المصالح الاقتصادية والسياسية، مما قد نستطيع النفاذ منه إلى كثير من مصالحنا ومواقعنا، فيمكننا الحصول على بعض التنازلات هنا، وعلى بعض الأرباح هناك.

وهكذا يبقى للإسلام أن يحافظ على خطه المستقيم في الوقت الذي يملك فيه الواقعية في أكثر من موقع ليكون دوره منفتحًا على الواقع، ومنسجمًا مع خط الرسالة.

منطق الرسالة بين اللين والعنف

وهكذا نجد السلوك الإسلامي للحركة الإسلامية السياسية يتصف بهذه الخصائص في أساليبه وأهدافه ومناهجه وعلاقاته، فيحدد تصوره للحلول على أساس من النظرة الواقعية للمشكلة، ويؤكد شمولية هذه النظرة حتى تتسع لجميع جوانب الحياة، ويركز وسائله على منطق الرسالة والواقعية، فيلين حيث تلمس الحاجة إلى اللين، ويعنف حيث تقتضي الحالة العنف، ويقيم علاقاته سلبًا أو إيجابًا على أساس المصلحة الإسلامية العليا في حركة الإنسان في الواقع من خلال الدراسة الدقيقة التي تفرض عليه أن يقطع أو يصل على ضوء الحدود التي ينبغي الوقوف عندها أو يتجاوزها، ويثير المسألة ما بين الحسم والمراوحة والمرونة، والحدة، تبعًا للظروف الموضوعية التي تحيط به فيما هي طبيعة الأشخاص والأزمنة والأمكنة.

الحملات الإعلامية وحرب الأعصاب

ولم تكن الحركة الإسلامية بدعًا من الحركات الفكرية والسياسية في العالم، بل هي في طبيعتها لا تختلف عن أية حركة سياسية أخرى، مع بعض الخصوصيات التي تختلف فيها الحركات في عناصرها الذاتية فيما هي الجوانب الروحية والمادية، وفيما هي الوسائل والأهداف والمناهج مما يوجب تنوعًا في المواقع، ولكنه لا يمنع التشابه في الأجواء العامة.

ولكن الإعلام الكافر المستكبر يعمل على أن يشوه صورة هذه الحركة في وجدان الرأي العام الإسلامي من جهة، وفي ذهنية الرأي العام الدولي من جهة أخرى، وذلك بالتقاط المفردات التي تحمل بعض السلبيات أو توحي ببعض الانحرافات، أو تثير بعض المشاعر العاطفية الإنسانية المضادة، وذلك في ضمن خطة مدروسة، كجزء من أجزاء الحرب المفروضة على الإسلام وأهله، حتى لا ينطلق التيار الإسلامي في اندفاعه نحو الحياة ليصنع الواقع الجديد للعالم، وليجعل الإسلام في حركته معادلة جديدة في حركة السياسة الدولية كبديل عن السياستين العالميتين من الماركسية والرأسمالية.

التمييز بين المعتدلين والمتطرفين لتحييد الشخصيات الإسلامية

ولذلك فإن علينا أن لا نسقط أو نضعف أمام هذه الحملات الإعلامية التي هي جزء من حرب الأعصاب، بل لابد لنا من أن نثبت في مواجهتها

بقوة وصمود، ثم نعمل على ملاحقتها بما نملك من أساليب الملاحقة والمواجهة والتطويق لنتفادى الأوضاع السلبية القلقة التي تعمل على إثارتها في مواقعنا، لا سيما فيما تحاول أن تميز فيه بين المعتدلين والمتطرفين لتوحي للمعتدلين بأنهم الذين يحملون مسؤولية الساحة ويمثلون عقلانيتها، ثم تتابعهم بالتخويف من هذا الموقف الحاد في هذه القضية المعينة؛ لأن فيها نوعًا من التطرف، أو من هذه النظرة المعينة في المسألة الثقافية؛ لأنها تمثل لونًا من إثارة الحساسيات. وهكذا حتى يضمنوا التزامه بحدودهم وقواعدهم وثوابتهم وأساليبهم، فيحبسوه في دائرة ضيقة لا يخرج منها إلى أية ساحة للانطلاق بعيدًا عنهم. فإذا خرج عنها في وقت ما تحت تأثير بعض الظروف الحادة، أعادوه إلى قواعدهم خاضعًا؛ لأن القصة عندهم أن يبقى معتدلاً ولا يوضع في دائرة التطرف.

وفي هذا الجو، استطاعوا تحييد عدد كبير من الشخصيات الإسلامية الفاعلة التي كانت قادرة على القيام بدور كبير في العمل الإسلامي في خط الدعوة والجهاد، انطلاقًا من الإيحاءات التي كانوا يثيرونها بين وقت وآخر في وعي هؤلاء وحياتهم.

وقد نحتاج إلى التخطيط للقيام بدور كبير في مواجهة هذه الهجمة الإعلامية، بالقيام بهجمة مضادة في داخل الوسط الإسلامي وخارجه للبحث عن كلمات مثيرة للوقوف في وجه الحرب النفسية من جهة، وللدخول في حرب نفسية ضد القوى المستكبرة من جهة أخرى لإبطال مفعولها في الفكر والحياة وفي الناس.

الحركة الإسلامية بين منطق الثورة ومنطق الدولة

- **الدولة والثورة مصطلحان**

غريبان عن الأجواء الإسلامية.

- **الثورة تتكامل**

مع منطق الدولة ولا تختلف معه.

- **الدولة والثورة**

يمثلان حركة الدعوة نحو الواقع.

- **قاعدة التزاحم في المصلحة**

تحكم التحرك بين الدولة والثورة.

- **الدولة تحقق مواقع**

قوة للثورة وتخفف من صعابها.

- **الدولة قمة الثورة**

في برامجها الرسالية ولا يتغير إلا الانفعال

الحركة الإسلامية بين منطق الثورة ومنطق الدولة

أساليب العمل الحركي

قد يطرح الكثيرون من العاملين في الحقل السياسي التغييري مسألة الثورة كأسلوب في العمل الحركي في مواجهة الدولة كأداة لتنظيم المجتمع بطريقة مقننة، ويثيرون الحديث عن هذه المسألة، كمشكلة صعبة في حركة التغيير، عندما تتحول الثورة إلى السير في خط الدولة، فتفقد روحيتها وعنفها وصفاءها وطهارتها واندفاعها الشعبي. ولذلك فقد يطرح البعض البقاء في ساحة الثورة بعيداً عن التنظيم والتقنين. وقد يخالفه بعض آخر، فيتحدث عن خطورة هذا الطرح؛ لأنه يؤدي إلى الفوضى السياسية والأمنية في حياة المجتمع، فكيف نواجه المسألة في المنظور الإسلامي؟

ربما يثير البعض المسألة في الفكر الإسلامي بأن الإسلام قد جاء من أجل تغيير الفكر والحياة من الخط الجاهلي إلى الخط الإيماني ليتحرك التغيير في داخل الإنسان؛ لأنه هو الذي يصنع التغيير في الواقع، باعتبار أنه القوة التي تحركه وتديره وتدفعه في هذا الاتجاه أو ذاك، سواء في ذلك الاتجاه الإيجابي أو الاتجاه السلبي.

القلق والأسلوب القرآني

وقد لا نحتاج إلى التأكيد على الخط الثوري الذي يحيط بالإنسان من الداخل والخارج فيما يحمل من فكر، وفيما يثير من حركة، وفيما يخطط من عمل، كعنصر حيوي لانطلاقة التغيير التي تحتاج إلى العنف والحركية والاندفاع؛ لأن المسألة تعني انقلاباً في الذات لمصلحة الرسالة على الذات في خط الانحراف، مما يفرض الكثير من عوامل الاهتزاز التي تهز الأفكار القديمة لتخرجها من داخل الثبات المتحجر، كما يفرض لوناً من ألوان إثارة القلق الفكري والروحي الذي يدفع الإنسان إلى البحث عن الفكر الجديد والخط الجديد وصولاً إلى إدارة الحوار بينه وبين الفكر القديم ليلتقي بالنتيجة الحاسمة في قراره الجديد لمصلحة التغيير.

إن هذا القلق المتحرك في أكثر من دائرة هو الذي يبدع للإنسان حركة الثورة في حياته، وهو الذي ينفض عنه كل الغبار المتراكم على روحه وعقله وحياته من أوضاع التخلف في التاريخ السحيق.

ولهذا رأينا الأسلوب القرآني في مواجهة الأفكار المتحجرة التي يحملها الكفار والمشركون يعمل على إثارة القلق الروحي في مسألة العقيدة في مختلف الأساليب، فنراه يواجه الذين يلتزمون عقيدة الآباء والأجداد في إنكارهم لله أو لوحدانيته، بالتوجه إليهم، بمناقشة المضمون الذاتي للثقة بهؤلاء، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة/ ١٧٠] ليدخلهم في جو التأمل الذي يبدأ بإعادة النظر في الأسس الفكرية

والنفسية التي ارتكزت عليها هذه الثقة، أو بإثارة الفكر الآخر أمام الفكر الذي يحملونه ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف/ ٢٤] ليعيشوا معه كما عاشوا مع ما قبله من موقع الصدمة القاسية بأنه أهدى منه، أو بالطريقة الهادئة التي تطرح الفكرتين معًا على صعيد واحد، وللإيحاء بأن الذي يطرح الفكرة مستعد لمناقشتها تحت احتمالات انتقاله إلى الفكرة الأخرى من موقع الشك الذي يقدمه الأسلوب أمام الحوار. وهكذا كان الأسلوب القرآني المتنوع، حركة علمية من أجل إثارة القلق الذي يوحي بأكثر من احتمال للثورة على الواقع التقليدي في حياة الإنسان؛ لأنه الشرط الأساس للتمرد وللرفض للأمر الواقع.

الأمة والثورة المتحركة

وإذا كانت المسألة على هذا المستوى في الحالة الفردية في ثورة الإنسان على موروثاته الفكرية التقليدية التي تجدد فيه نظرته إلى الحياة وإلى الفكر الذي يتبناه، فإن المسألة تحتاج إلى دائرة أوسع من الإثارة في الحالة الجماعية الثورية التي تريد أن تهدم نظامًا لتؤسس نظامًا آخر على أنقاضه ليثور الإنسان على التخلف السياسي في تفكيره، كوسيلة أولية للوصول إلى الثورة على الانحراف السياسي في الأمة على مستوى القيادة والقاعدة في مواجهة التحديات الاستعمارية فيما تحاوله الدول الكبرى من السيطرة على مقدرات الشعوب المستضعفة الفقيرة، الاقتصادية والثقافية والسياسية، أو فيما تحاوله الأنظمة الجائرة المسيطرة على

بلاد المسلمين بفعل الإشراف الاستكباري على رموزها أو حركتها في خط الواقع السياسي. إننا نحتاج إلى أن نحرك هذا الإنسان في عملية تواصل مع انفجارات الواقع ومع تحدياته لنخرج من معركة إلى معركة، ونحرك ثورة هنا، وثورة هناك من أجل أن يظل هذا القلق الثائر في نفسه، الباحث عن الحرية في حركة حياته وحياة الآخرين، ليتحول إلى حركة ثائرة تهدم.. وتهدم.. وتهدم، حتى لا يبقى في الساحة أي أثر لقوة الاستكبار في العالم فيما تقوم به الثورة من تشويه الصورة أمام الأمة، أو من خلخلة قواعد الاستقرار في الواقع، أو من إثارة الرعب في داخل النظام ليهتز بفعل الخوف المدمر من الداخل لتستطيع الضربات القادمة من الخارج أن تعمل على إسقاطه في نهاية المطاف. إن الوصول إلى هذا الهدف يحتاج إلى أن تعيش الأمة في ثورة متحركة مستمرة، وتصل إلى أعلى درجات التوتر النفسي الذي يضع الواقع في قبضة الانفجار الكبير، ويدفعه إلى الوصول إلى الأهداف الكبيرة للإنسان.

بين الثورة والدولة

وفي ضوء ذلك، قد يجد هؤلاء الذين يتنبون هذه الفكرة أن من الضروري أن لا تتحول الثورة إلى دولة منظمة في قوانينها وعلاقاتها مع الآخرين؛ لأن ذلك يعني الاستسلام بروحية النظام، وطبيعة الاستقرار التي يفرضها، وواقعية الحلول الهادئة التي يضعها للمشاكل، مما يؤدي إلى المحافظة على كثير من الخطوط الهادئة، مع هذا الفريق أو ذاك، وإلى التدقيق في نظام العلاقات التي قد تسيء

إلى الدولة، أو قد تحسن إليها، مما ربما لا ينسجم مع المبادئ الثورية التي انطلقت منها رسالتها التغييرية؛ لأن للدولة حقوقًا وخطوطًا وشروطًا لابد من رعايتها فيما إذا أريد لها أن تعيش وتثبت وتقوى وتفرض نفسها على الواقع. ويتابع هؤلاء الذين يفكرون بهذه الطريقة فيقولون: إن مسؤولية الثورة قد تتضاعف، إذا كانت آفاقها تمتد في حجم العالم، أو في حجم الدائرة الواسعة التي قد تتسع لأكثر من ساحة، مما يجعل القيود التي تخضع لها الدولة سببًا في سقوط كثير من المواقع السياسية في غير منطقة الدولة تحت تأثير هذه القيود، كما في الثورة الإسلامية التي تتحرك من أجل تثوير العالم الإسلامي كله ضد الأنظمة الكافرة التي تلتزم بغير الإسلام من أجل إخضاعها للحكم الإسلامي، وتحريك العالم المستضعف حتى غير الإسلامي منه من أجل مواجهة قوى الاستكبار العالمي فيما تفرضه من مشاريع سياسية وإستراتيجية واقتصادية وأمنية مضادة لمصلحة الشعوب المستضعفة. قد لا يكون من المألوف أن تتحرك الدولة لتتبنى كل هذه الأهداف والخطوط، مع محافظتها على علاقاتها الدولية، ومصالحها العامة، بل لابد لها من الدخول في دائرة الاختيار الصعب بين ما هو مصلحة الدولة في حدودها القانونية، وبين ما هو مصلحة الثورة في الدائرة الواسعة في حركة المستضعفين.

وقد يلاحظ هؤلاء أننا نرى بعض الدول التي قد تتبنى الماركسية في نظامها الدستوري، وتضعه واجهة لتحركها الأيديولوجي في الوقت الذي قد تدخل في علاقات مع بعض الدول التي تقف ضد الحركة الماركسية عندها بحيث تؤثر

تأثيرًا سلبيًّا على تلك الحركة، وقد تتطور المسألة بطريقة وبأخرى إلى حالة من السكوت على اضطهادها من قبل تلك الدولة، بل قد يتحول الموقف إلى حالة من التشجيع غير المباشر، كما ربما تقع في ذلك بعض الدول التي قد تتبنى الإسلام في خطها الفكري والعلمي ونظامها الدستوري، وقد لا يعدم هؤلاء تبريرًا لهذا الموقف بأن المسألة هي مسألة المصلحة العليا للماركسية أو الإسلام، مما قد يتقدم على بعض الأضرار التي قد تصيب الحركة الماركسية أو الإسلامية في بعض مواقفها، ويعود – بالتالي – بالنفع على هذه الحركة من موقع آخر.

واقعية الثورة ومنطق الدولة

وقد يثير البعض الآخر الذين يبررون منطق الدولة المسألة بأسلوب آخر، مما ربما يعني الابتعاد عن منطق الثورة، ولكنه يعطيها بعدًا آخر في حركة النظام الإنساني في الواقع.

فيؤكد هؤلاء بأن التغيير هو الأساس في العقيدة والتشريع في تخطيط الإسلام للإنسان وللحياة، ويوافقون– الثوريين- على أن من الضروري خلق الأجواء الملائمة التي تصعد درجة التوتر، وتعمق الثورة في الداخل الفكري والروحي والشعوري، كقاعدة للتغيير في الخارج. ولكنهم يطرحون المسألة على أساس سؤال حاسم في العمق الفكري للثورة؛ ليتحدد مسارها في الخط المستقيم الذي يربطها بالهدف من ناحية واقعية.

هل الثورة حركة في المطلق، أو هي حركة في الواقع الذي تحكمه الحدود والقيود؟

والجواب: إنها حركة الإنسان في الأرض التي تتحرك في ضمن الشروط الطبيعية فيما تحيط بها من ظروف موضوعية، أو فيما تنتصب أمامها من حواجز طبيعية، أو فيما تحاصرها من حدود الزمان والمكان، أو فيما يصادمها من حركات مضادة، مما يفرض على القائمين عليها أن يواجهوا ذلك كله بالدراسة والتفكير، وأن يضعوا الخطط الدقيقة الواقعية التي تتعامل مع هذه الأمور كلها بطريقة عملية، فتصنع ظروفًا ملائمة في مواجهة الظروف المضادة، وتهدم هذه الحواجز المنتصبة في الطريق لتقيم حواجز أخرى أمام الحركات الأخرى، وهكذا تتواصل الحركة في خط السير لتلتقي ببعض الهزائم في الطريق، فتتراجع في خطواتها قليلاً أو كثيرًا، أو لتتجمد في مكانها بفعل ضغط التحديات الصعبة، أو الحصار الشديد المفروض عليها، أو لتلتقي ببعض الانتصارات التي تدفعها خطوات إلى الأمام، فلابد لها من أن تضع ذلك في حسابها، انطلاقًا من حركة السنن الكونية في طبيعة الكون وفي وجود الإنسان؛ لتتحرك في تخطيطها من منطق الواقع الذي يتغير بحساب، ويتجمد بحساب، مما يفرض عليها التواضع في طموحاتها، والواقعية في بعض مخططاتها.

السنن الإلهية والعناية الغيبية

وقد يتحدث البعض في مناقشة هذا الجواب عن الإمدادات الإلهية، أو العناية الغيبية التي قد تخرق الكثير من القوانين الطبيعية التي يخضع لها الواقع،

وذلك فيما يوحي به التوكل على الله أو «نصر الله لعباده المؤمنين»، وما إلى ذلك من المفاهيم الروحية التي تختزنها العقيدة بالله الواحد، ولا يحس بها إلا الذين انفتحوا على الله من خلال المعاناة الروحية والجهاد الإيماني.

وقد نلاحظ على هذه المناقشة، أننا لا ننكر مسألة الإيمان بالغيب، كقاعدة ثابتة من قواعد الإيمان، بل نؤكد على مستوى النظرية والممارسة فيما حدثنا الله عنه من فيوضات ألطافه الغيبية على النبي والمؤمنين معه في معركة بدر، وفي غيرها من المواقف التي نصر الله بها نبيه محمد (ص) في ليلة الهجرة حيث أنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها، وأعد له كل الأجواء التي تولت حمايته من الأعداء وفيما وعد به عباده المتقين بأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون فيما ورد في القرآن الكريم من ذلك أو بأن يحرسهم من حيث لا يحترسون فيما ورد به الدعاء... ونحو ذلك، وفيما رأيناه في أنفسنا وفي الناس الآخرين معنا، أو قبلنا في المواقع الفردية أو الجماعية من تدخل الأسرار الغيبية في النصر والنجاح والإنقاذ، مما لا يملك الإنسان له تفسيرًا ماديًّا بالمعنى المحدود للجانب المادي في حركة الواقع.

إننا نؤكد ذلك، ولكننا لا نعتبر ذلك في مستوى القاعدة العامة للقانون الإلهي للإنسان، بل إننا نعرف من خلال القرآن الكريم ومن سنة الرسول، في كلامه في فعله، أن الخط العام الذي كان يحكم المسيرة هو الأخذ بالسنن الإلهية في الإعداد والاستعداد، ودراسة كل الشروط والظروف والساحات والأشخاص

في وضع الخطة التي تهيئ للهجوم أو للدفاع، والانطلاق بعد ذلك لاستلهام القوة، والاندفاع نحو آفاق المجهول الذي قد يحمل الكثير من المفاجآت غير المنتظرة.

لقد كان الغيب هو الروحية العميقة التي تدفع الإنسان للانفتاح على المستقبل من أوسع الآفاق، فهو لا يتجمد أمام الحدود المنتصبة أمامه كالحواجز التي تقيد خطواته، وتربك مسيرته، بل يمتد مع الآفاق الغيبية التي لا تطوف مع الخيال الذي لا يهتدي طريقه، بل مع الله الذي يهديه سواء السبيل، فيعطي الحياة في عقله وفي روحه وفي حركته قوة وحيوية واندفاعًا إلى الأمام.

وهذا هو الذي ينبغي للتوعية الإسلامية أن تثيره في وجدان الإنسان المسلم لتؤكده، كحقيقة إيمانية تحلق به في رحاب الله الممتدة في أعماق الغيب الكامن في أسرار علمه، ولكنها لا تلغي السنن التي أودعها الله في حركة الإنسان والكون من حوله ليتوازن الفكر في داخله كشرط لتوازن الخطوات في مسيرته.

الثورة الواقعية والخيالية

وإذا كانت الثورة حركة الإنسان في خط الواقع، لا حركة المطلق، فإن من الطبيعي أن يتلمس الثائر بحسه الثوري، كل الساحات التي يمكن أن يتحرك فيها بواقعية، أو يعمل على توسيعها ليكفل لها ذلك، بعيدًا عن الحواجز التي تجمد حركته، أو تجعل من التقدم حالة مستحيلة في نطاق الظروف الموضوعية،

ولو على مستوى المرحلة الحاضرة، مما يجعل الساحة ساحة الثورة الواقعية، لا ساحة الثورة الخيالية أو المثالية الباحثة عن الأفكار المزروعة في المطلق.

في ضوء ذلك يبرز أمامنا سؤال آخر وهو: إذا كانت الثورة حركة في الواقع، فهل يعني هذا أن تبقى مجرد حركة منطلقة إلى خط اللانهائية؟ أو أن معنى ذلك هو أن تستقر مفاهيمها وخططها في دائرة نظام معين يختزن كل معانيها، ويحمل كل أفكارها، ويستوعب كل برامجها، حتى يكون الصورة المتجسدة لكل شعاراتها وواجهاتها، والامتداد العملي لكل خطها المستقيم؟

إن من الطبيعي أن يكون الجواب هو اختيار الشق الثاني من السؤال؛ لأن الثورة هي للإنسان لتكون التمرد الثائر على الواقع الفاسد من أجل أن تبني واقعًا جديدًا على أنقاضه ليتمكن الإنسان من الاستقرار في ظل نظام ثابت على قاعدة صلبة من فكر الثورة فيما يتحول منه إلى مفردات قانونية على مستوى الوسيلة والهدف في نطاق العقيدة والشريعة.. وإلا فإنه يبقى مع الفراغ الباحث عن أرض ينغرز فيها، أو يقف عليها.

ولهذا، فإن النظام في خط الثورة هو النتيجة الطبيعية لحركة الإنسان فيها، مما يجعل منه الهدف لكل مشاريعها وخطوطها وخطواتها؛ لأن الله يريد للحياة أن تعيش في ظل النظام بعيدًا عن كل أوضاع الفوضى العملية ليتكامل الإنسان مع الكون الذي خلق الله فيه السماوات والأرض بالحق ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الدخان/ ٣٩] الذي هو تعبير حي عن النظام المتوازن الحكيم الذي

ترتكزان عليه كما يرتكز عليه واقع الإنسان.

حركة الثورة نحو الدولة: السلبيات والإيجابيات

ولكن، هل معنى ذلك أن تقف الثورة فتكف عن العطاء وعن الحركة في اتجاه التغيير؟ والجواب: إن الذين يحركون الثورة في اتجاه الدولة، يتحركون في خطين:

الحرية في الثورة والدولة

الخط الأول: إبقاء الروح الثورية في عمق التقنين الذي تخضع له الدولة، وإدخالها إلى كل المواقع المتحركة في حياة الإنسان، حتى لا تبتعد الروح عن الجسد، أو تنفصل النهاية عن روحية البداية.

وقد يكون ذلك صعبًا في الجانب التطبيقي منه؛ لأن الروحية التي تحكم حركة الثورة، كانت تملك الحرية في الساحة الواسعة التي قد لا تملكها في ساحة الدولة التي تضيق كثيرًا فيما يفرضه التقنين من حدود وقيود؛ لأن طبيعة التقنين تفرض الحدود التنظيمية لأية فكرة، وتدفع بالعلاقات إلى ضوابط معينة في نطاق مصلحة الدولة، فقد تقدم بعض التنازلات من التزامها لحساب هذه العلاقة أو تلك فيما تفرضه من توازنات المواقف السياسية أو المصالح الاقتصادية أو الأوضاع الأمنية.

وهكذا تدخل المسألة في أجواء جديدة، قد لا ترضي زهو المتحمسين في الثورة، أو السائرين في الخط الثوري المتحرك في امتداد الرياح العاصفة.

إن هناك فرقًا في حرية الفكرة في حركة الثورة، وفي حريتها في حركة الدولة، وهو اختلاف المساحة التي تتحرك فيها الفكرة في دائرة الثورة التي تملك أرضًا واسعة تقل فيها الحواجز، .. أما في دائرة الدولة، فهناك أرض خاضعة لأكثر من هندسة مدنية وسياسية واقتصادية لا يمكن التحرك فيها إلا ضمن خطوط الخريطة الموضوعة.

وبهذا يمكن لنا القول أن هناك ثورة في الروح في كلا المجالين من أجل تحقيق الهدف، ولكن المسألة هي أن الثورة- في الثورة هي: الحركة التي تنطلق من أجل التحضير للهدف، بينما هي في الدولة: النتيجة الطبيعية لذلك. إنه الفرق بين المطلق والمقيد.

الدولة قاعدة للثورة

الخط الثاني: تحريك الثورة في المواقع الأخرى البعيدة عن أرض الدولة، وذلك بالاستفادة من مواقع القوة في حركة الدولة لتحقيق انتصارات جديدة للثورة في تلك المواقع؛ لأن ذلك هو من فوائد وجود الدولة التي تعمل على تغذية الكثير من النشاطات الثورية في العالم، وبهذا تكون الدولة في موقع قاعدة للثورة في موقع آخر.

وقد لا تلتقي الدولة بإيجابيات كبرى في حركتها تلك، وذلك بالحصول على مواقع قوة مزدوجة، فهي في الوقت الذي تحقق فيه امتدادًا واسعًا للثورة في خط الرسالة أو القضية، فإنها قد تمنح الدولة بعض مواقع القوة لحساب وجودها أو التزاماتها، أو الشروط القوية التي تفرضها على دولة أخرى، أو قد تحقق لها بعض التخلص من الضغوط المفروضة عليها من خلال بعض القوى الدولية أو الإقليمية، أو التخفيف من الأوضاع الصعبة التي تحيط بها، وبذلك فإنها قد توسع ساحتها في تحقيق مشاريعها الثورية في الداخل من خلال الثورة في مكان آخر من الخارج.

وقد تلتقي بعض السلبيات عندما تكتشف القوى الأخرى التي تتحرك الثورة في ساحتها أن دولة الثورة تمثل القوة الكاملة خلف ذلك كله، مما يوجب تعقيدًا في علاقاتها بها، أو في إرباك أوضاعها المتصلة بها من ناحية سياسية أو اقتصادية أو أمنية، أو في تعريض وجودها للخطر من خلال المؤامرات التي تدبر لها في الخفاء من خلال اكتشاف الدور القوي الذي تختفي خلفه بمختلف الأقنعة والأغطية التي تشف عما تحتها.

العلاقات بين الثورة والدولة

وعلى ضوء هذا، فإن المسألة قد تختلف في بعدها الحركي، في علاقة الدولة بالقوى المضادة للثورة، بفعل الانعكاسات الإيجابية أو السلبية للنتائج الحادة على صعيد الواقع، كما تدفع بالثورة إلى أن تنكمش في بعض امتداداتها للمحافظة

على توازن الدولة في جودها أو في مصالحها العامة، مما يجعل من الثورة خادمة للدولة في بعض المواقف فيما تمنحها من تسهيلات كبيرة، بفعل ما تملكه من امتيازات واسعة لتسريع حركتها وتقوية مواقعها، وربما تتحول إلى مشكلة لها في مواقف أخرى، عندما تضغط عليها أو تثور عليها للحفاظ على المصالح الحيوية لوجودها.

هذان هما الوجهان البارزان للمسألة، في حسابات العاملين في هذا الاتجاه أو ذاك، فكيف يكون موقفنا الحاسم أمامها؟

وهل نختار منطق الثورة؟

أو نختار منطق الدولة؟

غرابة المصطلح

إننا نلاحظ أن هذين المصطلحين غريبان عن الأجواء الإسلامية العامة بحسب العمق الفكري لما هو الخط الإسلامي في حركة الدعوة على صعيد النظرية أو التطبيق، فإن الدولة والثورة هما حركة الدعوة في مسألة التطبيق، كما أن الدعوة هي النظرية في خط الثورة والدولة في حركة الإنسان في الواقع، ويبقى الفرق بين الدولة والثورة أن الثورة تعني التحرك نحو تحقيق الشروط الموضوعية لتحضير الأرض، وتنقيتها من كل العوامل المضادة للتغيير، وتهيئة الأوضاع الملائمة في الجوانب السلبية والإيجابية لحركة الدولة في تنظيم الأوضاع الإنسانية والحياتية على أساس الواقع الرسالي الجديد.

ولذلك فإن الثورة لا تعبر في طبيعتها عن منطق مخالف لمنطق الدول؛ لأنهما يمثلان المنطق التكاملي في تحويل الدعوة في خطها النظري إلى حركة حية في الواقع التطبيقي فيما هي المقدمات والنتائج، مما يجعل من الدولة قمة الثورة عندما تصل إلى تحقيق برامجها الرسالية على صعيد الواقع، مما لا يبقي في الساحة فراغًا لأي هدف آخر في نطاق المرحلة أو في نطاق الهدف الكبير، بل كل ما هناك أن الأجواء المتحركة المتوترة المتصاعدة فيما يشبه الانفعال والحماس التي يعيشها الإنسان في أجواء الدولة، كما هو معلوم.

وقد يخطر في البال أن الذين يتحدثون عن صراع بين المنطقين قد يريدون بذلك منطق الدولة في الموقع الذي يتحرك فيه القانون الذي يحدد التشريعات والعلاقات فيما ينعكس سلبًا على الموقع الآخر الذي يبحث عن حركة الثورة في داخله، فيؤدي به منطق الدولة إلى سيل من التحفظات التي قد تصادر حرية الثورة في حركتها المتحدية التي قد تسقط الكثير من مشاريع الدول التي ترتبط بها الدولة المعنية، بأكثر من علاقة ليكون الحفاظ على الدولة أساسًا لإسقاط مصالح الثورة في المناطق الأخرى، فيحاولون في كلامهم هذا أن يتحدثوا للدولة بأن لا تبتعد عن روح الثورة لتكون الأهمية عندها هي الحفاظ على مصالحها على حساب الثورة لمصلحة المستضعفين الآخرين.

وقد نلاحظ على هذا الطرح أن المسألة لا تعالج بهذه الطريقة، بل قد يكون الأولى بنا أن ندرس قضية الأهمية في مقام التزاحم بين الطرفين على أساس ما

هو الأفضل أو الأقرب للمصلحة الإسلامية العليا التي تخضع لها كل المشاريع العملية سلبًا أو إيجابًا لتكون عملية الاختيار منطلقة من النتائج الحاسمة الحاصلة من عملية المقارنة الواضحة، فقد يكون ثبات الدولة في مرحلة وحمايتها من الاهتزاز هو الأولى بالملاحظة؛ لأن سقوطها يعني سقوط القاعدة التي يمكن أن تستند إليها الثورة في مرحلة أخرى فتكون التضحية ببعض مكاسب الثورة الآن موجبًا لتحقيق بعض المكاسب لها في صعيد آخر، أو في مرحلة أخرى، وبذلك فلن تكون هناك خسارة مطلقة في هذا الاتجاه.

وإذا كان ذلك يعني تقديم التنازلات لحساب القوى المضادة، فإنها حاصلة على كل حال سواء على حساب سقوط الدولة لمصلحة الثورة، أو سقوط الثورة لمصلحة الدولة، الأمر الذي يوحي بضرورة التخفيف منها من خلال الظروف الملائمة والمضادة في كلا الاتجاهين؛ لأن إبقاء الدولة على حساب إسقاط بعض مواقع الثورة في بعض المراحل، قد يهيئ لمستقبل ثوري يحقق دولة جديدة من خلال الثورة المستمرة.

إن دراستنا للمرحلة الرائدة القائدة التي مثلت حركة الرسالة في خط الدعوة النبوية في مرحلة ما قبل الهجرة، وما بعدها، وفي التفاصيل الصغيرة في داخل كل منهما، تعطينا الفكرة التي توحي إلينا بأن النبي (ص) كان يلاحظ في حركته في الواقع ما هو الأوفق بمصلحة الإسلام والمسلمين بعيدًا عن هذا المنطق أو ذاك في القضايا الكبيرة والصغيرة.

وهذا هو ما نتنباه، كحركة إسلامية تعمل لتحقيق الإسلام على أرض الواقع من أجل الوصول إلى الأهداف الكبرى ليتوازن فيها خط التحرك على صعيد الدعوة في خط الدولة والثورة معًا عندما يلتقيان، أو في الخط الأقرب للمصلحة الإسلامية العليا عندما يفترقان، ولن يكون الافتراق إلا مرحليًّا لا نهائيًّا ليكون كل واحد منهما في مرحلة انفراده عن الآخر حركة في طريق الوصول إلى الآخر، لا حركة من أجل منع وجوده في الواقع.. وفي حركة الإنسان في الحياة.

الحركة الإسلامية بين الثقافة الخاصة والثقافة العامة

- **الثقافة الموجهة**

تعبر عن وحدة الحركة في وحدة الفكر.

- **الحركة الإسلامية**

تدعو للنقد والالتزام وتنادي بالمراقبة والانضباط.

- **الالتزام بالثقافة الخاصة**

لا يعني قمع حرية الفكر.

الحركة الإسلامية بين الثقافة الخاصة والثقافة العامة

جدل حول الثقافة

هناك حديث يدور الجدل حوله في داخل الحركة الإسلامية حول الثقافة الملتزمة التي تقدمها الحركة للملتزمين بخطها الفكري والعملي ليطرح السؤال التالي: هل من الضروري، أو من المناسب أن تكون هناك ثقافة خاصة في الرؤية الإسلامية للمفاهيم العامة، وللمناهج والأساليب الحركية في الدعوة والحركة، بحيث تفرض على أتباعها، أن يلتزموا الدقة في ذلك على أساس أن للحركة فكرًا إسلاميًّا خاصًّا يحدد للإنسان شرعية الانتماء من خلال التزامه بمفردات هذا الفكر ليكون الشخص الذي يبتعد عن الخطوط العامة أو التفصيلية بعيدًا عن خط الاستقامة والإخلاص للحركة؟ أو أن المسألة تفرض إعطاء المنتمين حرية الانفتاح على الثقافة الإسلامية من بابها الواسع الذي ينطلق فيه الإنسان المسلم ليطلع على كل ما يستطيع الوصول إليه من النتاج العلمي للفكر الإسلامي في قواعده ومتفرعاته ومناهجه التعليمية ليختار لنفسه ما يقتنع به من ذلك، وليصنع شخصيته الإسلامية على هذا الأساس، حتى يكون انتماؤه للحركة منطلقًا من خلال رؤيته الثقافية لأبعادها وأوضاعها وقيادتها من دون تقيد بالأفكار التي يلتزمها القائمون عليها؛ لأنهم لا يمثلون أية سلطة على فرض التزاماتهم الفكرية على الناس من حولهم.

العقلية الحزبية والمنفتحة

وهذا هو الفرق بين العقلية الحزبية التي تريد أن تضع الناس في قالب فكري جامد لا يسمح لهم بحرية التفكير المستقل، وبين العقلية المنفتحة على الإسلام كله التي تتحرك في الهواء الطلق الذي يتيح لها الحرية في اختيار الخط الإسلامي الذي تقتنع به من خلال تأملاتها الفكرية على المستوى الذاتي والموضوعي أمام التنوع الاجتهادي الذي يتمثل في اختلاف المفكرين الإسلاميين في اجتهاداتهم المتنوعة في فهم النصوص والقواعد الإسلامية.

ولعل هذا هو الذي يمثل حركة الصراع بين أسلوب العمل الحزبي في الوصول إلى الأهداف الإسلامية، وبين العمل الحزبي الذي قد يطرح نفسه بعنوان «حزب الله» الذي يقدم نفسه على أساس أنه يمثل حركة الأمة الواسعة في جماهيرها الممتدة بدلاً من الدوران في الدائرة الضيقة التي يفرضها التنظيم الحزبي الذي ينفتح على مواقعه التنظيمية أكثر مما ينفتح على الأمة كلها.

هذا هو السؤال المطروح في حركة الخط الإسلامي الذي ينفتح على الساحة السياسية الواسعة من أجل تركيز الإسلام على صعيد الواقع كقوة فكرية سياسية قائدة ليكون الحكم للإسلام من خلال الحركة الإسلامية.

فكيف نواجه الموقف أمامه؟

هل نختار أحد الخيارين، أو أن هناك خيارًا آخر للعاملين فيما بينهما؟

الثقافة الخاصة ووحدة الأمة

ربما يؤكد القائمون بالثقافة الخاصة الموجهة في حركة العمل الإسلامي السياسي، بالملاحظة التالية:

إن الحاجة إلى الثقافة الخاصة تنطلق من الحاجة إلى وحدة التصور للجماعة التي تلتزم بوحدة الحركة الإسلامية باعتبارها القاعدة التي تتحرك من خلالها نحو الهدف مما يجعل من أفرادها مجتمعًا موحدًا منسجمًا في علاقاته ومفاهيمه وأوضاعه ليكون منسجمًا في حركته ومنهجه، وذلك من خلال وحدة الثقافة التي تمثل في الخط الحركي وحدة الموقف، ووحدة الشعور العام. وبذلك يمكن توزيع الأدوار في الساحة العملية على أساس الخطة العامة التي يتوحدون فيها، وفي الالتزام بها. كما يمكن مواجهة التحديات المضادة في الخط الفكري بالخط الواحد الذي يمنحه كل فرد قوة جديدة من خلال دوره لتتكامل الأدوار على هذا الأساس.

بينما يمثل الاختلاف في الذهنية الثقافية الذي يستتبع الاختلاف في الاجتهادات على مستوى الخط والخطة والأسلوب والهدف لونًا من ألوان الضياع الذي يوحي بالاهتزاز، ويفسح المجال لأكثر من مشكلة على صعيد الواقع الحركي الذي تتنوع مفرداته تبعًا لتنوع الآراء المتحركة في داخله، ويقود الأوضاع نحو التنافر والتجاذب والارتباك.

ويتابع هؤلاء القول بأن الحاجة إلى الحركة الإسلامية من أجل تغيير الواقع، تفرض الحاجة إلى رؤية موحّدة للصيغة الفكرية أو العملية التي تجسد صورة الواقع البديل، كما تفرض تكامل المجتمع حولها ليأخذ كل واحد دوره في هذا الجانب أو ذاك من الصورة؛ لأن البديل عن ذلك هو الفوضى عندما يتحرك فريق في جانب اليمين؛ لأن ثقافته الذاتية تؤكد له صلاح ذلك، ويتحرك فريق آخر في جانب الشمال؛ لأنه يرى في هذا الخير للمجتمع، مع انطلاق كليهما من مفهومه الإسلامي للنظرية أو للتطبيق.

وهذا هو ما يواجهه المسلمون في اختلاف الاجتهادات الفقهية التي أدت إلى انقسام الأمة الإسلامية إلى مذاهب، وإلى مرجعيات فقهية متنافرة في فهمها للأحكام الشرعية، مما أربك الواقع الإسلامي، ومنع الوصول إلى المجتمع الواحد في صورة المفهوم الواحد والأسلوب المشترك، ولأحكام الموحدة.

إن المسألة المطروحة هي هل نحن بحاجة إلى حركة واحدة فلا بد من ثقافة واحدة يلتقي عليها الجميع، وإذا كنا نلتزم حرية الحركة في قناعاته الثقافية، وفي أوضاعه الحركية المتفرعة من ذلك، فلابد أن نطلق للمجتمع أو للأفراد، الحرية في التعددية على مستوى المواقف والحركات، مما يوحي بأن لكل فرد الحق في اختيار أسلوبه الذي يختلف عن أساليب الآخرين.

الثقافة العامة وحماية الأمة

أما القائلون بضرورة إعطاء الأمة حريتها في اختيار الثقافة التي تنفتح عليها

وتلتزمها، فيثيرون مسألة حرية كل إنسان فيما يعتقد وفيما يقرأ، وفيما يلتزم من مفاهيم، وليس لأحد الحق أن يفرض عليه رأيه في فهمه للإسلام، وفي وعيه للأسلوب الذي يرتضيه لنفسه في حركة الدعوة، أو الجهاد؛ لأن المسألة هي مسألة قناعته التي يرى فيها طريق الخلاص، سواء كانت قناعة يقينية نابعة من المعطيات الذاتية التي يملكها، أو كانت قناعة تقليدية من خلال الحجة التي يملكها على تقليد هذا المجتهد أو ذاك، فكيف تستطيع الحركة الإسلامية أن توجب عليه التزام هذا الرأي أو ذاك على خلاف رأيه، أو تفرض عليه تفسير هذا المفهوم الإسلامي، بهذه الطريقة أو تلك، أو تجبره على السير في الطريق الذي يختلف عن الطريق الذي يراه مشروعًا في قناعاته الفقهية أو غير ذلك، ومن هو الذي أعطاها الولاية الثقافية أو الفقهية على المسلمين؟

ويتابع هؤلاء القول: إن الثقافة الحزبية المغلقة، تمثل حالة تجميد للفكر الإسلامي في الإنسان؛ لأنها تدخل في نطاق علبة مقفلة لا تسمح للنور أن ينفذ إليها، ولا للهواء أن يتحرك فيها، فتقول له: إن عليك أن لا تفكر لنفسك؛ لأن الحركة تفكر لك، وإن عليك أن تبتعد عن الخروج عن الثقافة الخاصة التي يلتزمها التنظيم الحزبي؛ لأن ذلك يمثل الانحراف عن الخط السليم، وتمردًا عن الالتزام الحزبي فيما ألزمت به نفسك من خلال الانتماء السياسي، مما قد يصل بالموقف إلى مستوى الخيانة عندما تتعرض سلامة الحركة للخطر من خلال الاهتزاز الذي يربك الساحة من أكثر من جانب.

إن هذا الأسلوب في التعاطي مع المحازبين يوحي إليهم بالقصور الفكري، وبالحصار الروحي، وباليأس من الوصول إلى حالة إبداعية في اكتشاف الجديد، أو في تغيير المفاهيم السائدة؛ لأن الطليعة – وحدها – هي المؤهلة للتفكير وللتخطيط وللتجديد، وبذلك تتحول العقلية الحزبية في دائرة الثقافة الخارجية الموجهة إلى ببغاوات تقلد القيادة في كلمتها من دون أن تتحرك لاستيحاء المضمون في فكر جديد.

ويضيف هؤلاء القول: إن التأكيد على فتح باب الاجتهاد في فهم العقيدة والشريعة والمنهج هو الذي يوحي بأن للمسلمين الحق في أن يختاروا الطريق للوصول إلى الإسلام في مفاهيمه وأحكامه من موقع الوسائل الفكرية التي يملكونها في تحريك إدراكاتهم، وفي مناقشة قراءاتهم، وفي الحصول على النتائج الحاسمة في ذلك؛ لأننا عندما نتحدث عن حرية الثقافة، فإننا لا نتحدث عن ثقافة لا يملك أصحابها الأسس الفكرية لتكوينها وتركيزها من خلال المعطيات الحقيقية المتوفرة للمثقفين؛ لأن المسألة ليست مسألة الواجهات الثقافية، بل هي مسألة العمق الثقافي للفكر الملتزم، في خط الإسلام.

وهذا هو الذي يحمي الأمة من الاختناق في سجن الأفكار الرسمية المعلبة التي تتحول فيه القيادة إلى سلطة تمارس الإرهاب الفكري فيما تفرضه على الفكر من قيود قاسية بفعل الوسائل الضاغطة على تفكير الناس.

ملاحظات ومواقف

ولكن دعاة الثقافة الخاصة الموجهة قد يلاحظون على هذا المنطق أنه لم يناقش الفكرة بدقة وأمانة؛ لأنهم لم يحجروا على حرية الإنسان المنتمي إلى الحركة الإسلامية في تفكيره، ولم يلتزموا بثقافة جامدة لا تتحرك من مواقعها الفكرية إلى الآفاق المنطلقة في أجواء التغيير؛ لأن الحركة التي تعمل على تغيير الواقع على صورتها في مواجهة الصورة القائمة المشوهة لا ترفض تغيير بعض ملامح الصورة إذا اكتشفت فيها تشويهًا أو ظلامًا فيما يكتشفه الفكر العميق والنظر الدقيق؛ لأن الرفض يعني التمرد على عمق معنى التغيير في التزام المسؤولية في الإخلاص لحياة الإنسان.

إنهم يطرحون المسألة على أساس معنى الانتماء فيما يلتزمه المنتمي على نفسه من موقف وحركة في قناعاته بالقاعدة الفكرية للحركة، وبالامتدادات الحركية في خطها العريض، وفي تفاصيلها المتفرعة عن ذلك؛ لأن الإيمان بالأصول يفرض الإيمان بالفروع بشكل تلقائي، مما يجعل للحركة الحق في محاسبته على مواقفه من خلال مطالبته بتعهده بالالتزام الفكري والعملي بخطها على ما هي القاعدة المعروفة «الزموهم بما ألزموا به أنفسهم..» مما يجعل القضية قضية صفته الحركية في إيمانه بالخط وبالقيادة على أساس أن هناك خطًّا للحركة يلتزم به الجميع، وخطًّا للقيادة يسير عليه الجميع.

الثقافة الموجهة والعامة

وقد لا يعني ذلك أن الذين يحركون الثقافة الموجهة في واقع الحركة يمنعون الناس الحركيين من الأخذ بالثقافة العامة الواسعة فيما يقرأون وفيما يسمعون وفيما يشاهدون، وفيما يدخلون فيه من صراع وحوار في القضايا الفكرية والسياسية، فهم قد يدفعونهم إلى الاستزادة من ذلك؛ لأنه يعتبر إغناءً للتجربة وتوسيعًا للثقافة وتعميقًا للوعي، وتأصيلاً للشخصية الإسلامية التي تلتزم بقناعاتها من موقع الفكر المقارن، والعقل المقارن، مما يدفع بها إلى مواقع القيادة الأمينة على مستقبل الإسلام من خلال الأفق الواسع الذي تتحرك فيه من أجل أن يكون ذلك وسيلة لإيجاد آفاق واسعة لحركة الإسلام في الحياة على مستوى العالم بدلاً من تجميده في الحدود الضيقة في الواقع.

الثقافة بين الإنسان والحركة

وإذا كانت هذه الثقافة موجبة لتغيير ذهنية الإنسان الحركي إلى ما يخالف المرتكزات التي يقوم عليها الفكر الحركي، فإن ذلك لا يؤدي إلى إخراج هذا الإنسان من الحركة، أو اضطهاده من قِبَل قياداتها تمامًا، كما لو كان قد قام بجريمة تمرُّدٍ على الخط، أو انحراف عن الالتزام، بل إن القضية تطرح في دائرة الصعيد الحركي على أساس أن رأيه لا يلزم الحركة، ولا يفرض عليها تغيير مسارها، كما لا يفرض على الحركيين الآخرين ذلك، فليس له أن يلزمها بما لا تلتزم به؛ لأنها لم تقتنع به، بل كل ما هناك أن يتحرك نحو إقناع الآخرين برأيه، فإذا اقتنعوا به

فقد وصل إلى ما يريده عندما يتحول الخط، وإذا لم يقتنعوا به، فإن عليه أن يبقى في خط المعارضة لتأكيد فكره بالوسائل الشرعية في المنهج القرآني الذي وضعه الله لحركات الخلاف الفكري، مع التزامه بالخط العام للحركة الإسلامية من دون أي لون من ألوان الإثارة الانفعالية التي تثير الفوضى وتؤدي إلى الإرباك والاهتزاز. إن الحركة الإسلامية التي تلتزم بثقافة خاصة تثير القضية من خلال الفكرة التي تقول: إن القاعدة الفكرية في خطوطها العامة والتفصيلية قد انطلقت من قناعات في فهم الإسلام، واتبعها الناس الملتزمون بها من خلال اقتناعهم بها وثقتهم بقيادتها بعيدًا عن أية حالة قمعية ضاغطة، وهي مستمرة في خطها الممتد في الحياة مادامت معتقدة بأنه يمثل الخط المستقيم المتحرك على أساس الحقيقة، فإذا استطاع الناس أن يكتشفوا الخطأ في ذلك فيما يكتشفونه من الخلل في طبيعته، أو في تفاصيله، فإن الحركة الإسلامية المخلصة لله وللإسلام لابد أن تغير مفهومها القديم الخاطئ إلى مفهومها الجديد المصيب تمامًا كما هو المجتهد الذي يكتشف خطأ اجتهاده الذي اتبعه عليه مقلدوه، فيرجع عنه، ويتبعه المقلدون في ذلك من دون أي حرج أو مشكلة.

بين الدليل والحجة الشرعية

ولا نريد أن نجعل المنتمين إلى الحركة مقلدين لها ليتحدث بعض الناس في الدليل الشرعي على حجة هذا المقلد، بل إننا نريد أن نتحدث عن القناعة التي يمتلكها المنتمون فيما يملكونه من حجة شرعية على هذا الانتماء، سواء كانت حالة

اجتهادية فيما يتوصلون إليه من اجتهاد جزئي في شرعية الحركة فيما يصلون إليه من الخطوط العامة، أو كانت حالة تقليدية فيما يأخذون به من رأي المجتهد المقلد في هذا الانتماء أو فيما تتحرك فيه الحركة لا من قيادة اجتهادية في مستوى المرجعية التي يرجع الناس فيها إليها في حركتهم الإسلامية.

دور الحركة الإسلامية

إن الثقافة الموجهة لا تلغي حرية حركة الفكر، بل هي تعبير عن وحدة الحركة في وحدة الفكر، مع إبقاء النوافذ على كل الفكر الآخر الذي يرصد الخطأ والصواب ليستطيع تعبير القاعدة الفكرية للحركة من خلال تغيير الذهنية التي أدت إلى الالتزام الخاص من خلال القناعة الخاصة.

إن الحركة الإسلامية تدعو إلى النقد كما تدعو إلى الالتزام، وتنادي بالمراقبة كما تنادي بالانضباط، ولا تدعي العصمة لنفسها إذا لم تكن قيادتها معصومة «ولا عصمة لأحد في كل قيادات الحركة الإسلامية المعاصرة». وعلى ضوء هذا، فإن الفكر الإسلامي يبقى متحركًا في ساحة التغيرات الاجتهادية أو الموضوعية من خلال كل عناصر التغيير لتبقى الحركة الإسلامية في حالة تقدم وتطور في البحث عن الحقيقة التي قد يلفها الضباب لتشرق عليها الشمس بعد ذلك، وفي خط الإخلاص لله ولرسوله الذي يفرض الإخلاص للإنسان وللحياة.

الحركة الإسلامية بين الإيجابية والسلبية

- **الأوضاع السياسية في العالم**

تحتاج إلى السلبية لتأكيد الطريقة الإسلامية.

- **التجربة الإيرانية أغنت الساحة**

بمفردات العمل السياسي السلبي والإيجابي.

- **الاجتهاد الإسلامي يملك المرونة**

لتحويل السلبية إلى إيجابية لحساب الهدف.

- **الأسلوب الإيجابي**

هو الأسلوب العملي الذي يرتبط بحركة الواقع.

- **من الضروري أن يكون لنا**

في كل قضية رأي وفي كل ساحة موقع.

الحركة الإسلامية بين الإيجابية والسلبية

أساليب العمل

هناك في الواقع العملي أسلوبان في حركة العاملين: الأسلوب الإيجابي والأسلوب السلبي، ونعني بالأسلوب الإيجابي النهج الذي يواجه الواقع بالأفكار التي تحدد الموقف في كل ساحة، وتضع الحلول لكل مشكلة، وتدير المسألة بالطريقة التي لا تترك فراغًا في التصور أو في الحركة، بحيث لا يشعر الناس – معها – باللاموقف. أما الأسلوب السلبي، فهو النهج الذي يواجه الواقع بالأفكار التي تبقى القضية معها جامدة في مكانها رافضة للأفكار المتحركة في الواقع من دون أن تضع في الساحة أفكارًا بديلة ليكون الجو للرفض المطلق الذي يعمل من أجل الهدم لا من أجل البناء.

وقد يكون من الطبيعي أن يكون الأسلوب الإيجابي هو الأسلوب العملي الذي ينبغي للحياة أن تأخذ به وتتوفر عليه؛ لأنه هو الذي يرتبط بالحركة الواقعية التي تحتوي قضاياها، وترتبط بها بشكل مباشر، وتمنحها نموًّا وتطورًا في الحركة التصاعدية للأشياء، بينما لا يحقق الأسلوب السلبي لها أي شيء؛ لأن العدم لا يحقق وجودًا، والنفي لا يؤكد الحياة.

وإذا كان الموضوع بهذا المقدار من الأهمية في الواقع العملي، فقد يكون من الضروري أن يكون لنا في كل قضية رأي، وفي كل ساحة موقع، وفي كل حركة

موقف لنستطيع تأكيد وجودنا في ساحة الصراع الفكري والعملي؛ لأن ذلك هو الذي يمنحنا الصفة الحركية الإنسانية في خط الزمن.

الإسلاميون والسلبية

وقد يثير البعض في هذا المجال أن الإسلاميين في حركتهم السياسية يرتبطون بالسلبية بدلاً من الإيجابية؛ لأنهم يقفون أمام الأهداف البعيدة المدى التي تمثل الإستراتيجية المبدئية في آخر الطريق، مما يجعلها تواجه قضايا الواقع العملي فيما يشبه الفراغ الذي يؤدي إلى اللاموقف في ساحة مواقف الآخرين، وإلى اللامبالاة في مواقع اهتمامات الحياة التفصيلية في مفردات الواقع في الوقت الذي يتقنون فيه عملية إرباك الساحة بالاتجاهات الرافضة التي تتقن صناعة الهدم بشكل حاسم فاعل.

وربما كان الهدف الذي يضعونه في دائرة الشعار قريبًا من الفكر المستحيل على مستوى الظروف الموضوعية المحيطة بالساحة في المراحل العملية التي تتحرك في المستقبل المنظور، مما يجعل الناس يتطلعون إلى الأفق المائل أمامهم، فلا يجدون هناك بارقة أمل فيما يفكرون فيه في مواجهة الفرص الواقعية التي تنتظر مشاريع الآخرين، الأمر الذي يؤدي إلى أن يتحولوا إلى الخط الآخر.

ولعل ذلك الذي يغري التيارات الفكرية أو السياسية المضادة أن توحي بأن الحركة الإسلامية لا تملك عناصر الثبات المتجذرة في الواقع، ولا تجد الوسائل العملية التي تمنحها إمكانية الوصول إلى النتائج الواقعية الحاسمة، بل تبقى في

دائرة المثال الذي يثير في الناس كثيرًا من المشاعر المؤثرة أو الأحلام الجميلة، ولكنه لا يغني عنهم شيئًا، ولهذا فإنهم يعتبرون أنها حركة طارئة، لا تلبث أن تتبخر وتذوب أمام حركة التطور الصاعدة، وذلك في الأجواء الإعلامية المضادة.

هل هذه هي الحقيقة؟

وكيف نواجه المسألة في ساحة التحدي؟

التقليديون بين الغيب والتقية السلبية

ربما نجد في بعض الأفكار الموجودة في الساحة الإسلامية شيئًا من هذا القبيل في دائرتين:

الدائرة الأولى التي يتحرك فيها التقليديون الذين يمثلون المحور الفكري الذي يرى في كل الواقع السياسي والتشريعي الذي تتحرك به الحياة في دنيا الناس واقعًا بعيدًا عن الشرعية الإسلامية، ولكنه لا يجد فرصة لمواجهته بوسائل التغيير؛ لأنه لا يجد شرعية الحركة المضادة التي تؤدي إلى هلاك الأنفس والأموال بالمستوى الذي لا تساعد عليه القواعد الشرعية؛ لأن الوصول إلى حكم الإسلام كبديل عن حكم الكفر، يتوقف على مقدمات لا يجب على الناس تحصيلها؛ لأنها من «شرائط الوجوب» كما يقول الأصوليون لا من شرائط الواجب، بل قد يحرم عليهم السعي إليها؛ لأنها تلتقي ببعض المحرمات، ولذلك فإن هؤلاء ينتظرون الغيب الإلهي في الوصول إلى الأهداف في آخر الزمان، ويعتمدون على بعض

الأحاديث المأثورة التي تتحدث عن لا شرعية كل حركة للوصول إلى الحكم فيما قبل ذلك، ولذلك فإنهم يتحركون في خط «التقية المطلقة» التي تتجمد في خط الحذر الشديد المغرق في استثارة عوامل الخوف في الساحة للتأكيد الدائم على العناصر اللاواقعية في التحرك السياسي لينطلق الآخرون في مشاريعهم العامة ليؤكدوا وجودهم الكافر أو الضال في الواقع الإسلامي من دون أن يواجهوا مشروعًا إسلاميًّا مضادًّا.

ولكن هؤلاء الإسلاميين في الفكر قد يتحركون في رفض الفكرة المضادة من الأساس في تثقيف الناس ضد التيار الماركسي أو التيار القومي أو الوطني أو العلماني في حركة ثقافية تبقي المسلمين في خط المواجهة الفكرية للآخرين، وقد ينطلقون في خطوات سياسية رافضة لبعض المشاريع التفصيلية في الدائرة السياسية في ساحة الآخرين ليكونوا القوة التي تثير الجو لإسقاط حكم معين، ولكن لا لمصلحة حكم الإسلام، بل لمصلحة حكم آخر غير إسلامي ليعود المعارضون الإسلاميون إلى دائرتهم الثقافية الإسلامية ليعارضوا فكر هذا الحكم أو ذاك من دون مشروع عملي.

وقد نلاحظ في هذه الدائرة فريقًا من الناس الذين يدعون إلى الاستسلام المطلق الذي لا يعمل على تحريك الرفض للواقع، بل قد يدعو إلى التعامل معه بواقعية تختلط فيها السلبية الفكرية الرافضة بالإيجابية العملية المنسجمة مع المشاريع العامة، مما يجعلهم سلبيين أمام حركة الهدف الإسلامي الكبير، أو

الهدف المرحلي في قضايا الإنسان، ولكنهم إيجابيون في الانفتاح على الانحراف من ناحية عملية.

الإسلاميون في دائرة التنظير

الدائرة الثانية وهي دائرة الإسلاميين الذين يعملون على الوصول إلى حكم إسلامي بالعمل التنظيمي الذي يحتوي الثقافة الإسلامية في جانب العقيدة والشريعة، وفي ساحة الحركة السياسية في الواقع الإسلامي، بحيث يتحركون في عملية صنع الشخصية المسلمة المنفتحة سياسيًّا، والمتحركة في خط الحركة السياسية التنظيمية، ويعملون على نقد الواقع والانفصال عنه في ساحة المواقف بالتحديد الحاسم للخط الفاصل بين ما هو الموقف الإسلامي في هذه المسألة أو تلك، وبين ما هو الموقف المرتكز على الفكر الكافر، ولكنهم يظلون في دائرة التنظير الذي لا يعمل على الضغط على الواقع بقوة، كما أنه لا يحرك أي مشروع سياسي مرحلي على مستوى القضايا المرحلية التي يعيشها الناس؛ لأن المسألة عندهم هي أن تكون المشاريع السياسية في نطاق الدائرة الإسلامية العملية، وقد يرون أن ذلك لن يتحقق إلا في الحالة التي تصل فيها الأمة إلى النضج الفكري السياسي الذي يجعلها في مرحلة استلام الحكم ليقوم حكم الإسلام.

وفي ضوء ذلك، فإنهم يرفضون الواقع، ويعملون على تهديم قواعده، ويتطلعون إلى المستقبل البعيد ليضعوا المشاريع البديلة عنه، مما يجعلهم سلبيين أمام الساحة، فلا يرسمون لها حلولاً مرحلية تملأ الفراغ، بل ينطلقون إلى التحدي بها،

لاكتشاف سلبيات الآخرين لتسجيل النقاط السلبية عليهم في ساحة الصراع الفكري والسياسي.

الموقف الرمادي

هذه هي بعض الملامح البارزة في الساحة الإسلامية، ولكن هناك دائرة ثالثة تتحرك في ساحة أوسع من الدائرتين المذكورتين، وهي دائرة الإسلاميين الذين يقفون ضد المشاريع اللاإسلامية في مسألة الحكم ليكون الحكم الإسلامي هو الهدف الكبير في حركة الصراع، ولكنهم لا يظلون في مكانهم ليتجمدوا أمام الهدف، بل يعملون على التخطيط للوصول إلى الهدف من خلال خطط مرحلية تواجه المسألة الإستراتيجية بالأسلوب المتحرك بمرونة وفاعلية على مستوى الطروحات العملية التي تزيل بعض الحواجز، وتقرب المسافات البعيدة، وتحرك بعض المشاريع العملية، وتعمل – في بعض الحالات – على تحريك العلاقات مع الآخرين والانفتاح عليهم من أجل الوصول إلى بعض الأهداف المرحلية المشتركة في مواقع اللقاء مما يجعل من حركتهم السياسية حركة إيجابية في إسقاط بعض المشاريع، وبناء مشاريع أخرى.

وقد يثير البعض في هذا المجال أن ذلك يعني الدخول في إشكالات شرعية من خلال احتضان بعض الخطط العملية التي قد لا يكون لها أساس شرعي، بل قد يكون لها في بعض العناوين عنوان شرعي مضاد، فنحن لا نستطيع أن ندخل في مسألة التشريع لأحكام لم يشرعها الله، مما قد يؤدي إلى الوقوف جامدين في

مواقعنا، فإما الحصول على الإسلام كله، وإما الابتعاد عن كل مواقع اللاإسلام في الساحة، مما يجعل الموقف دائرًا بين اللون الأبيض والأسود، فلا مجال للون الرمادي، بحيث تكون السلبية هي العنوان الطبيعي لكل عنوان.

ولكننا نلاحظ على ذلك أن المسألة ليست بهذه المثابة من الضيق، فهناك أكثر من فرصة للحركة في اتجاه تحريك المسألة السياسية لإسقاط بعض المواقع أو الرموز الكافرة والطاغية، أو المشاريع الخاصة المضادة، للانتقال إلى مرحلة متقدمة في خط الإسلام من دون الوقوع في إشكال شرعي؛ لأننا في هذه الحالة، لا نتبنى عنوانًا غير إسلامي من عناوين التيارات السياسية الأخرى، بل قد نفسح المجال أمامها من دون معارضة، باعتبارها قريبة من الهدف، مما قد يمنحها بعض الشرعية المرحلية، لاكتسابها بعدًا إسلاميًّا في نطاق المصالح والمفاسد الطارئة التي قد تخضع لها الأحكام الشرعية في تقدم بعضها على البعض الأخرى في دائرة التزاحم بين ملاكات الأحكام الشرعية. ولكن التبرير الشرعي لمثل هذه الأمور لابد من أن يخضع في المسألة الإعلامية للعناوين الشرعية المتحركة لا المحدودة بحدودها الواقعة في تلك الدائرة، ولا العناوين المطلقة التي قد تسيء إلى التصور الإسلامي في الساحة الشرعية، مما قد يوحي بأن الحركة الإسلامية تتجاوز شعاراتها لتتبنى شعارات الآخرين. وعلى ضوء ذلك، لابد من التأكيد على العناوين الثانوية التي تخضع لها الحركة السياسية الإسلامية في خط المعارضة للواقع.

الاجتهاد السياسي والعناوين الثانوية

إننا نريد أن نثير في هذا المجال أن الاجتهاد الإسلامي يملك الكثير من المرونة الفكرية والحركية التي يمكن لها أن تحرك إيجابيات الساحة في دائرة الطروحات العملية التي لا تترك هناك أي شلل في التحرك وأي فراغ في الواقع، مما يؤدي إلى أن تجتذب الحركة السلبية حركة إيجابية مقارنة لها لحساب الهدف الكبير، فلا يكون الإسلاميون في الموقع الذي يتحركون فيه لخدمة الآخرين، بل يعملون على إثارة الحركة لحساب الإسلام؛ لأنهم يملكون الأسس التي تثير أمامهم الحلول العملية للمشاكل الطارئة في نطاق القواعد الإسلامية العامة في دائرة العناوين الثانوية التي تمنح الموضوعات العملية بعدًا شرعيًّا جديدًا. وفي دائرة التزاحم بين المصالح والمفاسد الواقعية التي قد تجمد حكمًا إسلاميًّا معينًا لمصلحة حكم إسلامي آخر، في حساب الأهمية في الملاك، وهكذا ينطلق الاجتهاد الشرعي في دراسة الواقع المتحرك ليلتقط منه المفردات الشرعية التي يتحرك فيها الاجتهاد السياسي في نطاق التخطيط للحركة الإسلامية في ساحة الواقع.

ولن نطلق المسألة في دائرة النظرية التي قد تدخلنا في متاهات الفرضيات والاحتمالات، بل إننا نستطيع الإشارة إلى التجربة الإسلامية الرائدة في حركة الثورة الإسلامية في إيران التي انتصرت في إدارة المسألة الإسلامية الثورية في خط المعارضة للحكم اللاإسلامي، كما انتصرت في تأسيس الحكومة الإسلامية على أساس الخطوط الشرعية المرحلية في التخطيط للحركة، وفي اللقاء بالآخرين،

وفي تحريك المواقع المختلفة في الساحة. وقد تمكنت من إغناء الساحة الإسلامية في مفردات العمل السياسي في نطاقها السلبي والإيجابي، مما ترك للحركة الإسلامية في المواقع الأخرى، أو في مستقبلها العملي الكثير من التجارب والمواقف والمواقع التي نستطيع الإفادة منها في الحركة السياسية.

وقد كان البعض ممن يتهمون العمل الإسلامي الآن بالسلبية يواجهون تلك الثورة بنفس التهمة؛ لأنهم لم يتعودوا على السلبية الحاسمة التي تنتظر إيجابيات كبيرة بنفس المستوى، بل كانوا معتادين على الأسلوب الخائف الذي ينتظر النتيجة بشكل سريع، بحيث لو تأخرت قليلاً خافوا على الموقف من الانهيار.

إن كثيرًا من الأوضاع السياسية في العالم على صعيد الأوضاع والأشخاص والمواقع قد يحتاج إلى الكثير من المواقف السلبية التي تهزمها نفسيًّا لتؤكد الأسلوب الجديد البعيد عن الأساليب المألوفة الخاضعة للطريقة الغربية في العمل السياسي، ولتؤكد الطريقة الإسلامية في الواقع الإسلامي السياسي.

الحركة الإسلامية وصيغ العمل

- بين خط التنظيم وخط المرجعية
- العاملون للإسلام

  أمام صيغ الحزبية والمرجعية والشورى.
- الهدف من الصيغ

  الوصول إلى خدمة الإسلام لا تشكيل إطار خاص.
- التنظيم المشبع

  بالروح الإسلامية موقع مهم للعمل.

الحركة الإسلامية وصيغ العمل

الرأي الأول: التنظيم مفسدة وتعصب

لا يزال الجدل يدور بين العاملين للإسلام في تحديد الصيغة التي يتحرك فيها العمل. فهناك من يعتبر التنظيم السياسي مفسدًا لعمل، ومخرجًا له عن طبيعته الأصيلة التي تتمثل في الخط الإسلامي الروحي الذي يترك للإنسان المسلم حرية الانطلاق في العمل، فلا يحبسه في إطار ضيق من حيث تحديد المسؤوليات التنظيمية التي تربطه بأجهزة وخلايا وقيادات لا تملك من أمر القرار الشرعي شيئًا.. كما هو شأن الصيغة الحزبية للتنظيم، وبذلك يرى هؤلاء.. أن هذا الأسلوب غريب عن ثقافتنا ومفاهيمنا وأساليبنا الإسلامية في العمل، ولم نعهد في خطوات رسول الله (ص) الذي هو هدانا في النظرية والتطبيق أن قام بمثل هذا الأسلوب في عمله في الوقت الذي كانت الرسالة تواجه أخطر مشاكل الوجود، ويطرح هؤلاء خط المرجعية التي تستوعب كل النشاطات العملية للمؤمنين في صيغة إدارية تنظم لهم علاقاتهم بالقمة، في أوضاعهم المالية والعملية والحركية، وتوضح لهم خط العمل المتحرك من خلال الفتاوى الشرعية والتوجيهات العملية، من موقع القيادة الإسلامية الشرعية التي تصلح أن تكون عذرًا للمؤمن أمام الله. وربما يثير البعض شيئًا غير المرجعية فيما يتصورون من أساليب الارتباط بين القاعدة المؤمنة والقمة المشروعة فيما يثيرونه من فكرة «الشورى» التي يرونها

بديلاً عن فكرة «ولاية الفقيه». وفي جميع الأحوال، لا مجال للحزبية في التحرك؛ لأنها أسلوب غربي لا يلتقي مع القواعد الفكرية التي نؤمن بها ونسير عليها.

وقد يضيف البعض إلى سلبيات هذا الأسلوب التنظيمي في العمل سلبيات في تكوين الشخصية الداخلية للإنسان الحزبي، فإنه يثير في داخل هذا الإنسان شعورًا عميقًا بالانتماء إلى الصيغة والإطار، حتى التعصب بعيدًا عن الانتماء الحي إلى الإسلام والإيمان، بحيث يشعر بالانفصال عن المؤمنين الآخرين الذين لا يلتقون معه بالانتماء الخاص، بالمستوى الذي يصل إلى العداوة، أو ما يقرب من العداوة تمامًا كما هي الحدود التي تفصل بين دين ودين. وربما كان من مظاهر هذه السلبية التعبير المتعارف لدى هؤلاء عن غيرهم من المؤمنين بالمسلمين التقليديين، أو غير الواعين، أو الذين لا يفهمون الإسلام جيدًا. وربما تتصاعد حمى هذه النظرة فيتحول الحديث عن هؤلاء بأنهم غير مسلمين لابتعادهم عن الخط الأصيل للإسلام، والمفهوم الحقيقي له، بينما يتحرك خط «المرجعية»، أو «الشورى» فيقود المسلمين إلى الشعور بالانتماء إلى العقيدة والشريعة المتمثلة بحكم الله الذي تمثله الفتوى من خلال النظرية والممارسة، لا إلى الشخص والجهة، ولذا فإنه لا يعيش الشعور السلبي تجاه المؤمنين الآخرين في حجم الحدود الذاتية للشخصية، بل قد يحس إحساسًا خفيفًا بخطئهم في التحرك، أو في النظرة، مما لا يحقق أي انفصال عنهم في مشاعره وعواطفه، وبذلك لا يدخل في دائرة التعصب الذاتي المرفوض إسلاميًّا؛ لأنه يشعر بأنه يلتقي معها في هذا الانطلاق

الإسلامي في خط العبادة والمعاملة والجهاد، فلا إطار إلا الإطار الإسلامي الذي يتحرك الجميع فيه، فهو سر الشخصية، وهو حدها الأصيل الفاصل.

وقد يجد هؤلاء في هذا الأسلوب التنظيمي ما يوحي بالخروج عن دائرة الأحكام الشرعية؛ لأن اهتماماتهم تتركز على إطاعة الأوامر المباشرة من قياداتهم المسؤولة في نطاق التنظيم، الأمر الذي يجعلهم يبتعدون في عمق الشخصية عن مراعاة الحكم الشرعي في هذا الموقف أو ذاك من حيث موافقته لهذه الأوامر وعدم موافقته.

الرأي المقابل: التنظيم تركيز للخطوات وصنع للقيادات

وهناك رأي مقابل لهذا الرأي يعرض القضية في وجهة نظر مختلفة عن وجهة النظر هذه، فيرى هذا الفريق أن الأسلوب التنظيمي في الإطار الحزبي لا يشكل خطورة على سلامة العمل من ناحية فكرية، كما لا يشكل انحرافًا عن خطه الأصيل من ناحية عملية، بل هو على العكس من ذلك – يضمن للإسلام التركيز في خطواته المرحلية نحو الوصول إلى الهدف؛ لأن من أصول التنظيم، أن يحدد للعمل مراحله من خلال الظروف الموضوعية المطروحة في الساحة التي قد تفرض السرية تارة، وقد تفرض العلنية أخرى.. وقد تثير البعد عن الدخول في الصراع السياسي في وقت لتكتفي بالدعوة إلى الله في مجالاتها العامة والخاصة، وتربية القاعدة على أساس المفاهيم الإسلامية الأصيلة التي تحفظ لها التوازن في شخصيتها الإسلامية من أجل أن تعرف كيف تطلق التفكير على أساس الفكر

الإسلامي فيما يطرحه الواقع الفكري من قضايا ومشاكل ومفاهيم وتحديات، فإن التربية العامة التي تقوم على المواعظ والنصائح والوصايا والتوجيهات، والمفاهيم العامة الغائمة التي تظل تعيش في بعد عن الواقع لا يمكنها أن تحفظ للشخصية أصالتها الفكرية، بينما تتحرك التربية الخاصة المنظمة لتصوغ الشخصية صياغة هادئة منهجية، منتقلة بين قضايا الفكر وقضايا الواقع لينطلق الإنسان في هذا الاتجاه مع الفكر في حركة الواقع، ومع الواقع في منطلقات الفكر فلا يبقى حائرًا بين ما يفكر به وبين ما يعيشه من قضايا، فإذا انتقلت الحركة إلى المجال السياسي لتخوض الصراع مع الآخرين فيما يطلقونه من سياسات، وفيما يخططونه من مناهج للعمل، كانت الساحة جاهزة للتحرك في الصيغة الإسلامية الصحيحة التي لا تضيع عن خطوط الواقع، ولا تنحرف عن حركة المفاهيم الإسلامية الحقيقية، فلا يختلف الخط السياسي عن الخط الفكري؛ لأن التربية السياسية في المجال الثقافي، كانت سابقة للتحرك السياسي، مما يجعله بعيدًا عن التحرك في الفراغ، كما لو كان يريد أن يستوحي الفكر من خلال التجربة، ولا يحرك التجربة في خط الفكر ليوجهها في هذا الاتجاه وهكذا تبدأ الممارسة في المرحلة السياسية لتربي الجيل والقادة على التقدم في خطوات هادئة منظمة من أجل مسؤولية المستقبل في حياة الناس، وهكذا يتحرك الخط السياسي ليحدد للأمة الخط العسكري في صراعها المرير مع أعداء الله، وربما تقتضي الظروف المحيطة بالأمة أن تتداخل المراحل مع بعضها عندما تعيش الهجمة الاستعمارية الكافرة على الإيمان والمؤمنين؛ فيضطرهم ذلك إلى الدخول في مرحلة متقدمة تحمي

لها مواقعها، وتحفظ لها خطوطها تمامًا كما هي الحالات الطارئة التي تمر بالأمة في أوضاعها السياسية والاقتصادية والعسكرية.

وفي جميع الحالات، نلتقي بالعناصر القيادية المتنوعة التي أمكن للتنظيم أن يصنع منها القيادات التي تستطيع أن تقود التحرك في خط الإسلام الحق بعيدًا عن الضغوط الخانقة التي تفرضها الأوضاع والظروف الشاذة، فلا نحتاج– عند نجاح الحركة– إلى أن نستعير قيادات من هنا وهناك ممن ليس لهم سابقة في دين، ولا تقدم في يقين، الأمر الذي يوجب انحراف الحركة عن هدفها وفكرها وأسلوبها العملي الواعي، والدخول في متاهات روحية لا يعرف أولها من آخرها.

التنظيم بإشراف المرجعية

أما قضية الشرعية في خطة القيادة ومقرراتها وتعليماتها، فإنها لا تمثل مشكلة صعبة غير قابلة للحل، فيمكن أن يشرف على ذلك كله فقيه كفؤ، أو مجلس فقهاء، ممن تقوم به أو بهم الحجة على الناس، لا سيما إذا كانت أغلب القضايا التي تعرض في الساحة من الموضوعات التي يرجع فيها إلى أهل الخبرة حتى من قبل الفقيه، وليست من الأحكام التي يرجع فيها إلى الفقيه، وهي على كل حال، ضرورة شرعية، لابد لكل من يعمل للإسلام في أي خط من الخطوط، وبأي أسلوب من الأساليب من أن يعمل على إحراز تكليفه الشرعي، أو تكليف الآخرين الذين يعملون ويتعاونون معه.

وأما فكرة الغربة عن أساليب الإسلام، وأساليب النبي محمد (ص) في دعوته إلى الله، وفي العمل في سبيل الله، فهي فكرة لا تخلو من غرابة؛ لأن الإسلام لم يفرض على المؤمنين أسلوبًا معينًا، وطريقة محددة في طريق الدعوة إلى الله، بحيث يحتاج العاملون إلى نص خاص في كل أسلوب، وفي كل طريقة، بل وضع لهم المنهج العام في الدعوة بأن تكون بالحكمة والمواعظ الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، وفي العمل بأن أراد لهم أن تكون الخطوات خاضعة للأحكام الشرعية العامة، فلا ينحرف خط عن حكم شرعي، مهما كانت الأوضاع والظروف إلا في الحالات الصعبة التي تفرض فيها قاعدة التزاحم بين الملاكات أن يتجمد الحكم الشرعي في هذه الواقعة أو تلك أمام الهدف الأهم الذي يفوق الملاك الذي يتحرك فيه الحكم الشرعي، الأمر الذي يترك للعاملين الداعين إلى الله حرية اختيار الأسلوب الذي يريدونه في سبيل الوصول إلى الهدف الكبير في دائرة الأحكام الشرعية.

المرجعية ليست بديلاً عن التنظيم

أما المرجعية في خطها وحركتها، فإنها لن تكون بديلاً عن التنظيم، ولكنها تتقوى به وتقويه عندما تشرف عليه من خلال الفكر الإسلامي وتتحرك من أجل أن تفتح له الأبواب المغلقة، وتنظم له بعض خطواته وطريقة مساره، وتوجهه في الاتجاه السليم إذا انحرفت به الأوضاع في غير الاتجاه الصحيح.

إن المرجعية قد تستطيع أن تدفع التحرك بعيدًا في عملية إثارة الأمة، وتحريك المشاعر نحو مواجهة السلطة الغاشمة فيما توحيه للمؤمنين من تكاليف شرعية تفرض عليهم هذا الأمر أو ذاك، وتضمن لهم من خلال ذلك الشعور بالرضا، والأمن من عقاب الله فيما يتحركون فيه؛ لأن المرجعية، تحرز لهم سلامة التكليف الشرعي في هذا الموقف أو ذاك. إنها قد تستطيع ذلك في بعض المراحل الناضجة سياسيًّا، ولكنها قد تلاقي جهدًا كبيرًا ووضعًا صعبًا في الحالات التي لم تنضج فيها التجربة، مما يقتضيها تنظيم أوضاعها وخطواتها، وتحريك مراحلها من أجل تنضيج الواقع من حولها من أجل أن يصل إلى هذه المرحلة التي تقوده إلى الواقع الأصيل، مما لم يحصل لها إلا في الإطار التنظيمي المسؤول.

وفي موضوع الإحساس بالتعصب ضد المؤمنين الآخرين، لا نجد هذا الموضوع يصل إلى حجم الظاهرة التي ترتبط بهذا الأسلوب العملي، بل قد تتمثل في بعض الظواهر المتصلة بهذا الشعور.

الحزبية موقع لتنظيم العمل

ونحن أمام وجهتي النظر هاتين نتحفظ في هذا الاستقطاب الذي يعرض فيه كل فريق وجهة نظره؛ لأننا عندما نثير هذا اللون من الأسلوب أو ذاك، لا نريد أن نتجمد أمام الصيغة المطروحة كما هي، سواء في ذلك خط المرجعية، أو خط التنظيم، بل نعمل على إصلاحها فيما تشتمل عليه من انحرافات أو سلبيات.

فإذا كانت الحزبية تقود إلى التعصب، وتعمل على الإيحاء للإنسان بالانحراف عن خط الشريعة، فإن علينا أن ندخل فيها الروح الإسلامية التي تجعل منها مجرد موقع من مواقع العمل من دون أن يكون للإطار أية قيمة في تكوين الشخصية، وذلك بالمزيد من التعليمات التي تؤكد على الشخصية الإسلامية للعاملين بالإيحاء الدائم لهم بأن الاختلاف في أساليب العمل، وفي وعي حاجات الساحة، وفي حركة العاملين، لا يعني إلغاء الشخصية الإسلامية، وإنكار دورها في تعميق الصلات الروحية بين المؤمنين، وبذلك تبقى للعاملين مشاعرهم الإسلامية العميقة المتعاطفة مع كل مؤمن ومسلم، مهما كانت طريقة فهمه للإسلام، وذلك من موقع الحاجة إلى إصلاحهم بالمحبة، وهدايتهم بالفكر والرحمة. أما الانحراف عن الشريعة، فلابد لنا من أن نقف أمامه وقفة إيجابية ترصد الظاهرة في مفرداتها الجزئية الصغيرة والكبيرة، ثم تعمل على مواجهتها بالثقافة الشرعية كأساس من أسس الثقافة التنظيمية، والعمل على تربية الخوف من الله، ومحبته، ومراقبته في نفس كل عامل، والتأكيد على أن الإسلام لا يعني شيئًا خارج نطاق الالتزام الشرعي في الأشياء الجزئية والكلية؛ لأنه لا قيمة للدعوة للإسلام لدى الدعاة إلى الله إذا لم يعيشوا الالتزام فكرًا وعاطفة وعملاً وحركة حياة. إن فقدان الالتزام يمنع العمل من التجذر في نفوس الآخرين الذين ندعوهم. وخلاصة الفكرة: إن التنظيم لأي عمل هو روح العمل كمبدأ لا يعني إهمال التفاصيل، بل يعني التأكيد على طبيعتها وخصوصياتها من أجل الحفاظ على سلامة المبدأ في حركته وانطلاقته.

انسجام الحزبية مع المرجعية

وإذا كانت المرجعية لا تستوعب الجماهير في حركة تنظيمية فاعلة، ولا تعمل على تربية القيادات السياسية والاقتصادية للمجتمع، فإن من الممكن العمل على التأكيد على هذا الدور الأساسي في حركتها، وذلك بإيجاد الانسجام بينها وبين الصيغ الأخرى المطروحة في الساحة، بحيث تمنحها الرعاية والتوجيه والعناية التي تخفف الكثير من سلبياتها، وتحقق لها الكثير من الإيجابيات.

إن الصيغ العملية في أي جانب من الجوانب مطروحة للدخول في عملية تغيير متطورة متجددة تبعًا للأخطاء التي تبرز في حركة العمل، سواء في ذلك المرجعية التي تمثل ولاية الفقيه، أو الشورى، أو التنظيم؛ لأن القضية، كل القضية هي الوصول إلى خدمة الإسلام، وقوته في العالم، وحركته المتصاعدة في سبيل الوصول إلى أهدافه الكبيرة في الحياة.

وفي ضوء ذلك، نحب للعاملين أن لا يعيشوا التشنج إزاء بعضهم البعض فيما يختلفون فيه من صيغ العمل بالمستوى الذي يصل إلى حد التراشق والاتهامات وإثارة علامات الاستفهام، والشك من دون أساس أو مبرر، وإغلاق باب الحوار في تفاصيل القضايا المختلف عليها. فإن مثل هذه الروح لا تعبر عن روح إسلامية؛ لأن معنى أن يكون الإنسان مسلمًا أن يعيش أخلاقية الإسلام في العمل، وفي أسلوبه، وفي علاقاته وأوضاعه الجزئية والكلية.

وبذلك– فقط– يمكن أن نصل إلى المستوى الإسلامي الحق في الفكر والممارسة والحركة، وذلك بتعميق الشخصية الإسلامية المنطلقة من خوف الله وتقواه، فإن ذلك هو السبيل للنصر وللنجاح، وللوصول إلى الهدف الكبير.

الحركة الإسلامية وإجازة السلطات

- **الاختباء وراء العنوان غير الإسلامي**

  يبعد الإسلاميين عن ساحة الصراع ويهمش دورهم.

- **البقاء خارج إطار السلطة الرسمي**

  أفضل من التحرك في داخله.

- **معركة فصل الدين عن الحياة**

  والسياسة لا تزال مفتوحة.

- **الحزب ليس حركة بديلة**

  عن الأمة بل لتحريك الأمة.

الحركة الإسلامية وإجازة السلطات

حديث في الوسط السياسي

يدور حديث منذ مدة – في الوسط السياسي الرسمي- في بعض البلدان العربية الإسلامية، حول مسألة إجازة النشاط الإسلامي السياسي الحركي المتمثل بالحزب الإسلامي، أو الحركة الإسلامية، في الوقت الذي لا يمانع فيه القائمون على هذه البلدان من إجازة بعض الأحزاب الشيوعية والاشتراكية أو الوطنية أو القومية.

ويقدمون أمام هذا الموقف حجة إسلامية الشكل، منحرفة المضمون، وخلاصتها: إن الحزب– أي حزب – يمثل مجموعة من الأمة أو الشعب ممن ينتسبون إليه، تقابلها مجموعة أخرى لا تنتسب إليه، وبذلك ينقسم الناس– من خلاله– إلى قسمين، وهذا لا يمثل أية مشكلة في دائرة غير الإسلاميين؛ لأن انقسام الشعب إلى شيوعي وغير شيوعي، أو اشتراكي وغير اشتراكي لا يثير أية حساسية أو عقدة؛ لأن من المألوف لدى الناس الاختلاف في الانتماء السياسي الذي قد يحبذه فريق ويرفضه فريق.

الحزب الإسلامي وموقف السلطة

أما الحزب الإسلامي، فإنه يختزن في مفهومه إخراج الذين لا ينتمون إليه

من الإسلام عندما ينقسم الشعب عليه بين إسلاميين وغير إسلاميين، مما يؤثر سلبًا على الواقع الشعبي العام، ويثير الحساسيات التي قد تؤدي إلى التنازع والتقاتل؛ لأن من الصعب على الإنسان المسلم العادي الذي لا ينتمي إلى الحزب الإسلامي أن يقال عنه أنه غير إسلامي لمجرد رفضه للانخراط في التجمعات السياسية، مع العلم، أن الإسلام يحتوي في خط الانتماء إليه كل من شهد الشهادتين، حتى إذا كان غير مؤمن في عقيدته، كما في الأشخاص الذين دخلوا في الإسلام رغبة أو رهبة، ممن جعل التشريع الإسلامي لهم سهم المؤلفة قلوبهم في فريضة الزكاة، أو إذا كان غير ملتزم بالأحكام الإسلامية. فكيف ننفي الصفة الإسلامية عن من لا ينتمي إلى الحزب؟ وعلى ضوء ذلك، فإن إجازة الحزب الذي يقوم على الانتماء الإسلامي، يسيء إلى الذهنية العامة، ويخل بالنظام العام، ويؤدي إلى كثير من المشاكل الاجتماعية والسياسية التي قد تقود إلى التحاقد والتقاتل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

حركة النهضة في تونس

وقد كان من نتائج هذا المنطق السياسي الرسمي الذي تحول إلى قرار حاسم بالمنع من إجازة الحزب الذي يقوم تفكيره على أساس الإسلام أن حاولت بعض الأحزاب الإسلامية كالاتجاه الإسلامي في تونس أن تقدم طلبًا بالترخيص لها بالعمل السياسي باسم حركة «النهضة» التي لا توحي بالإسلام فيما هو العنوان العام، وفيما هي الخطوط السياسية العريضة، كوسيلة من وسائل الالتفاف على

هذا المنع، بالابتعاد عن العناوين المثيرة للحساسيات في الدائرة الشعبية، حسب زعم السلطة، ولكن ذلك لم يجدهم شيئًا؛ لأن المسألة في عمقها تتصل بمنع النشاط الإسلامي السياسي على أساس الخطة المرسومة.

وقد رأينا بعض الإسلاميين في مصر التي تتحدث بهذا المنطق قد لجؤوا إلى العمل في صفوف حزب يحمل الصفة العلمانية من أجل أن يكون لهم حرية العمل السياسي الإسلامي، ولكن بعناوين غير إسلامية، بعد أن استنفدوا الجهد في الحصول على رخصة بعنوانهم الإسلامي الحركي.

سلبية ترك العنوان الإسلامي

ولعل من الواضح، أن مثل هذا الأسلوب في الانسحاب من العنوان الإسلامي في العمل السياسي الحزبي قد يترك تأثيراته السلبية على حركة الإسلاميين في المستقبل من خلال الأجيال المقبلة التي قد تنسجم مع العنوان الجديد تدريجيًّا، فتختزن شعاراته في وعيها السياسي بفعل الترداد الكثير لكلماتها، وبواسطة الموقع السياسي الذي قد يدفعهم إلى مواقف معينة في الإطار العام، وبذلك تفقد الحركة الإسلامية حيويتها وعمقها وامتدادها في الأمة عندما تقدم نفسها إلى الأمة في صفتها الرسمية بعنوان آخر، فتنسى الأمة الإسلام الحركي في ذلك كله.

الخطة الاستكبارية

وربما كان هذا هو بعض الخطة المرسومة لدى الجهات السياسية الحاكمة، في ارتباطاتها الخفية بالخطة الاستكبارية الكافرة في إبعاد الإسلام عن حركة الحياة، والاقتصار في دوره على الجانب العبادي والأخلاقي في الوعي العام؛ لأن الاختباء وراء العناوين غير الإسلامية يبتعد بالإسلاميين عن الوقوف في قلب الساحة الكبيرة للصراع، ويقف بهم على هامشها الفكري والسياسي، فلا يكون الإسلام في مواجهة الماركسية والاشتراكية أو القومية في أبعاده المتنوعة، بل تكون العناوين النائمة التي قد تنسجم مع تلك الطروحات الفكرية في التيارات السياسية، وإذا كان الإسلاميون يقولون: إن العمق في الداخل سوف يكون إسلاميًّا في الثقافة والمنهج والتخطيط والتطلعات، فإننا نتصور أن ذلك كله لن يكون له القوة على تعميق الإسلام في الوعي الفكري والروحي للإنسان المسلم، مادامت التحفظات تحيط به من كل جانب حذرًا من اكتشاف السلطة الصفة الدينية في الحركة، فتبادر إلى إلغاء الحزب بفعل ابتعاده عن القانون العام للأحزاب، وتحوله إلى حزب ديني إسلامي.

بين العمل السري والتحرك غير المعنون

إننا لا نريد أن نثير السلبيات أمام هذه المسألة لنوحي بأن التحرك الإسلامي في هذا الخط لا يختزن الكثير من الإيجابيات التي تنطلق من إفساح المجال للإسلاميين أن يتحركوا بحرية، مما يجعل الناس المؤمنين بالإسلام ينجذبون

إليهم بفعل معرفتهم بالقادة وصفتهم الإسلامية الحركية، الأمر الذي قد يدفع بالحزب إلى مواقع القوة الكبيرة التي تكفل له الحصول على إمكانات الضغط على الدولة في إعطاء الإجازة الرسمية باسم الحزب الإسلامي، وربما كان ذلك أفضل من اللجوء إلى العمل السري الذي سرعان ما ينكشف لدى أجهزة المخابرات الداخلية والخارجية، فتبادر الدولة إلى أسلوب القمع الذي يضعف الحركة ويقيد حركتها ويمزق جماهيرها التي قد لا تملك القوة على التحمل، أو التي تخاف من الانتماء إلى الحزب المطارد من قبل السلطة.

وقد يتحدث هؤلاء بأن العبرة ليست في اللافتة التي توضع أمام المراكز الحزبية، بل العبرة هو في المضمون الذي يلتزمه الحركيون، وتتحرك من خلاله جماهيرهم، وهو النهج الذي يؤكدونه في خططهم ووسائلهم الفكرية والروحية. ولكننا مع ذلك كله، نعتقد بأن القضية لا تنحصر في دائرة معينة أو حالة طارئة لتنفتح في ساحة أخرى، أو لتنتقل إلى حالة أخرى، بل القضية تمثل نهجًا سياسيًّا في إبعاد الإسلام عن مواقع الحركة السياسية بشكل رسمي، بحيث يمتد في الساحة الإسلامية كلها مع إقرار لذلك من قبل الإسلاميين في التزامهم بتحفظات الدولة، وفي انسحابهم من شعاراتهم الكبيرة.

موقع التقية في التحرك

إننا قد لا نمانع في اللجوء إلى بعض هذه الأساليب في بعض المراحل والظروف الصعبة التي قد يدور الأمر فيها بين التجميد بشكل كبير أو نهائي، وبين التحرك

بهذه الطريقة، حيث يبدو الأمر شبيهًا بالعمل السري تحت لافتة علنية بعنوان لا يوحي بما في الداخل، وذلك فيما قد يشبه مبدأ التقية الذي يلتزمه بعض المسلمين انطلاقاً من النصوص الشرعية التي تبيح ذلك في حالات الضغط في دائرة الكافرين، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران/ ٢٨].

ويرون أن ذلك لا يقتصر على تعامل المؤمنين مع الكافرين، بل يمتد إلى تعامل المؤمنين مع المسلمين الذين يتحركون في خطط الكافرين أو يمثلون ذهنيتهم، فيمارسون الضغط على أهل الحق لمصلحة الباطل، بحيث يتعرض هؤلاء للخطر على حياتهم، أو على الخط الذي يلتزمونه.

أين يكمن الخوف؟

وفي ضوء ذلك، يمكنهم أن يلجأوا إلى عناوين أخرى قد توحي بالباطل، أو لا توحي بالحق ليتخلصوا من الضغوط القاسية الصعبة، ريثما تبتعد الظروف التي تملي مثل هذا السلوك، أو ترتفع تلك الضغوط، فتكون التقية أسلوبًا للمرونة العملية التي تحفظ الحق وأهله، فتمنعهم من السقوط أو الضلال في المدى البعيد. إننا لا نمانع في ذلك، ولكننا نخشى أن تتحول القضية إلى خط عام في المناهج السياسية الرسمية، بحيث تتحول الذهنية بفعل القانون إلى ذهنية عامة لدى المسلمين، فتؤكد المفهوم بفعل خضوع الإسلاميين له رسميًّا، بحيث يستنكر المسلمون

العاديون التحرك في الخط السياسي بعنوان الإسلام تمامًا كما حدث في العقلية الشعبية العامة التي زحفت إلى أذهان بعض علماء الدين والمثقفين المسلمين في مسألة فصل الدين عن السياسة، بحيث استطاعت أن تترك تأثيراتها السلبية على الخط الثقافي العام، حتى بات التقييم الروحي للشخصيات الإسلامية في نظر العامة من الناس منطلقًا من دائرة ابتعادها عن السياسة واقترابها منها سلبًا أو إيجابًا، فكلما اقترب العالم الديني من السياسة كلما كان أقرب إلى الله!!

وهكذا يتحول السلوك إلى تأكيد المفهوم المنحرف الذي يحاصر الإسلاميين في المستقبل ليكون عونًا للكافرين عليهم باسم الإسلام.

الموقف المطلوب والمعركة المفتوحة

ولذلك فإننا نتصور أن البقاء خارج الإطار الرسمي للسلطة أفضل من التحرك في داخله بهذه الطريقة؛ لأن ذلك سوف يبقي الموقف قويًّا صلبًا في خط المواجهة، ويحول الحركة الإسلامية إلى حركة مضطهدة في نظر الأمة، مما يزيد في التعاطف الشعوري معها، ويؤكد النهج السياسي الإسلامي في وعي الناس بشكل تدريجي من خلال حوادث الاعتقال والتشريد والاضطهاد والتعذيب والقتل ونحو ذلك، بحيث يتجذر ذلك في عمق الواقع السياسي للناس، ويجعل غير الإسلاميين في دائرة الإحراج السياسي في انسجامهم مع السلطة، لا سيما إذا استخدمتهم السلطة في إزعاج الإسلاميين أو في اضطهادهم.

إن القضية التي نريد إثارتها– في هذا الحديث– هي أن المعركة التي لا تزال مفتوحة بيننا وبين العلمانيين هي قضية فصل الدين عن السياسة وعن الحياة، ولذلك فلابد لنا من مواجهة هذا المفهوم بكل الوسائل من أجل إسقاطه فكريًّا في ساحة الصراع الفكري، وتبديل الذهنية الشعبية التي اختزنت هذا المفهوم بفعل الخطة الاستعمارية إلى ذهنية، تجد الإسلام شاملاً لكل مواقع الحياة، بحيث يتصور الإنسان المسلم قضية السياسة في واقعه، كما يتصور قضية العبادة في التزامه الديني، لتتحول الساحة الإسلامية إلى ساحة تتحرك فيها العبادة في خط الدعوة، كما تتحرك فيها السياسة في هذا الخط، وليتحركا معًا في الانفتاح على الله في حركة الحياة، وفي الالتزام بالحياة من خلال الانفتاح على الله.

مغالطة واضحة

أما الحديث عن إثارة الحزبية الإسلامية للحساسيات الشعبية التي تعقد الأمة عندما يتهم الحزبيون الإسلاميون الأشخاص الخارجين عن الحزب بأنهم خارجون عن الإسلام فيما يمثله الإسلام من امتداد وشمول في كل شؤون الحياة؛ لأن الإسلام التقليدي ليس إسلامًا أصيلاً على كل حال، بل هو صورة إسلام في ثوب التخلف الذي يحمل من مفاهيم الكفر الشيء الكثير.

أما الحديث عن ذلك فهو مغالطة واضحة لا يقصد منها إلا الإثارة؛ لأن الحزب ليس الحركة البديلة عن الأمة، وليس الخط الفاصل بين ما هو المسلم وما

هو غير المسلم، بل هو حركة سياسية من أجل تحريك الأمة المسلمة نحو إعادة الإسلام إلى الحياة على أساس أن تكون قيادتها الطليعة الواعية المتحركة في داخل الأمة من أجل إعانة الأمة على الانطلاق بعيدًا في هذا الاتجاه.

بين الإيمان والإسلام

وبذلك لا يكون الخارجون عن الحزب خارجين عن الإسلام؛ لأن الإسلام – في المفهوم الشرعي – يتمثل في الالتزام بالشهادتين والنطق بهما، والاستعداد للتحرك في الحياة العامة من موقع الانتماء الإسلامي، بل كل ما هنالك أن الحزبيين قد يرون صورة الآلام في وعيهم الفكري السياسي أكثر عمقًا وامتدادًا في التفاصيل الكثيرة المتصلة بشؤون الحياة بخلاف غيرهم الذين قد يحملون بعض المفاهيم المنحرفة، أو يغفلون عن بعض المواقع الأصيلة للفكر الإسلامي، أو عن بعض الخطوط الشرعية للحكم الإسلامي الشرعي، أو ما إلى ذلك، مما يجعلهم بحاجة إلى إكمال هذا النقص، بالوعي والممارسة، والتحرك في اتجاه الخط المستقيم، وقد تحدث الإسلام بهذه الطريقة عندما فصل بين المسلمين وبين المؤمنين وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٤]. فهناك مسلمون لم يدخل الإيمان في قلوبهم، وهناك مسلمون يعيشون هذا الإيمان في داخل كيانهم، وقد نستطيع – في هذا المنهج – أن نتحدث عن المسلمين الذين تكامل الوعي الإيماني في وجدانهم، وتجسد في حياتهم العامة والخاصة، وعن المسلمين الذين لم

يبلغوا هذه الدرجة لنقص في العلم أو لضعف في الإرادة، أو لانحراف في عناصر الشخصية، فكانوا يخلطون إيمانًا وكفرًا في التزاماتهم الفكرية والعملية. وهذا، من الأمور السائدة في المجتمع الإسلامي الذي يتحدث فيه عن المسلم العالم، والمسلم الجاهل، أو التقي والشقي، أو المنحرف والمستقيم من دون أن يتضمن ذلك تكفيرًا، أو يثير حساسية أو عقدة، إلا ما يثيره الحديث الذي يختلف فيه التقييم بين شخص وآخر بشكل طبيعي.

دور الحركة الإسلامية

إن الحركة الإسلامية ترى في الجماهير التي تطل عليها من موقع الفكر الإسلامي والنشاط السياسي، القاعدة الواسطة التي تعمل في داخلها لتثير مشاعرها وأفكارها ومواقفها، نحو الوصول إلى الأهداف الكبيرة، فلا يمكن لها أن تقوم بعملية تكفير لها، أو إبعاد لمواقفها عن مواقع الإسلام.

وإذا كانت بعض التيارات الفكرية الإسلامية، تعمل على تكفير المسلمين ممن لا يرى رأيها، أو ممن يقوم ببعض الممارسات التي ترى فيها نوعًا من الشرك أو الكفر، مع مخالفة الأخرى في ذلك، فإن ذلك ليس شأن الإسلاميين الحركيين الذين يرون في هذا الأسلوب، أسلوب تخلف ذهني لا يخدم الإسلام، بل يعمل على تعقيد الذهنية من حوله.

الواقعية والمثالية في الأسلوب العملي (أ)

- **التحديد الواقعي للأساليب والأدوات**

  يحقق التقدم والاستقامة للأمة.

- **المصالح المتشابكة في العلاقات السياسية**

  تحتم تخفيف الانتماء مهما أمكن.

- **التهور والضياع**

  نتاج النظرة المثالية للأوضاع.

الواقعية والمثالية في الأسلوب العملي (أ)

المفاهيم الضبابية والحلول غير الواقعية

من الملاحظ في خطوات كثير من العاملين للإسلام أنهم يواجهون الساحة بالأفكار غير الواقعية، وذلك من قاعدة إيمانية تطرح الفكرة الكبيرة بعيدًا عن وسائلها الطبيعية، مما يجعل المسيرة تتجه إلى الهدف فيما يشبه القفز في الهواء، ويؤدي بالتالي إلى أن تبقى القضية في موقع التنظير بعيدًا عن حركة التطبيق.

ويساهم- في أكثر من مجال- في تعبئة الأفكار بالمفاهيم الضبابية التي تقدم الصورة في إطار من الغموض والإبهام الذي يفقد الساحة حيويتها ومرونتها، في وضوح الرؤية وواقعية الحركة.

وكمثال على ذلك، الأفكار التي يطرحها البعض عن الحلول الإسلامية للمشاكل الكبرى كقضية فلسطين في حركة الواقع السياسي فيما يتحدث به المتحدثون من أن الإسلام هو الذي يمكن أن يحررها على يد المؤمنين الواعين الذين يخلصون لله في كل خطوة من خطواتهم العملية، فهم الذين يقفون المواقف الصعبة في مواجهة التحديات الكبيرة الكافرة، وهم الذين لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلاً، وهم الذين ينطلقون إلى الشهادة بروح قوية مؤمنة، وهم وهم... إلخ.

أما كيف يتحقق ذلك في ظل المعادلات السياسية الصعبة التي تحيط بالقضية من خلال التحديات الاستعمارية، والخطط الصهيونية، والإطارات القومية، والألاعيب الانتهازية الموجودة على الساحة من قبل الأنظمة العربية والإسلامية؟ أما كيف يتحقق ذلك في الأجواء التي يمكن أن يتحول الاتجاه الإسلامي في يد شياطين السياسة إلى عنصر من عناصر إرباك القضية باللعب على الجانب العاطفي منه فيما تحاول اللعبة الجهنمية أن تستغل العنصر الانفعالي لدى الأمة، والانتهازي لدى الحاكمين المنحرفين لتحول الواقع إلى أداة تفجير للسلبيات ضد القضية بعيدًا عن خط الإيجابيات الفاعل، كما ربما نشاهده في بعض جوانب المعركة من محاولة ضرب القوة بالقوى الطالعة لإنهاك القوة الجديدة من جهة، وتجميد المعركة الكبرى من جهة أخرى؟ أما كيف ذلك، فهذا مما لا نجد له مجالاً واسعًا في الخطوات العملية للحل الإسلامي للقضية.

التعامل مع الواقع والشرعية

وقد يطرح البعض في هذا المجال ضرورة تصفية، أو إضعاف كل القوى الأخرى قبل الإعداد للمعركة، وهكذا تظل القضية تعيش في هذه الأجواء في أسلوب رد الفعل الذي يفتح في كل يوم معركة جديدة في ساحة جديدة.

وقد استطاع هذا اللون من أساليب الطرح للقضية أن يدخل القضية في أجواء الضياع في جانب التصور والحركة. حيث لا مجال إلا للسلبيات المثيرة في كل وقت ومكان، إن مثل هذا الطرح يحقق جانبًا واحدًا من القضية، وهو

الإخلاص، ولكنه يغفل الجوانب الأخرى التي تعين على وضوح الرؤية وسلامة الحركة.

وقد نستطيع أن نثير أمامنا القضية في أجوائها الطبيعية لتثير الفكرة في الاتجاه الآخر، وهو أن نتحرك مع الخط الآخر الذي تسير فيه القضية لنكون فريقًا يدخل الساحة مع الفرقاء الآخرين للخط الذي نؤمن به بشرط أن يكون ذلك من موقع حركة الساحة، لا من موقع سكونها في حالات الاسترخاء، وفي ضوء ذلك يكون الطرح للحل الإسلامي في قلب الواقع المتحرك، لا في صعيد المستقبل المجهول الذي نتطلع إليه على أنقاض الواقع.

إن تأكيدنا على إثارة الفكرة في هذا الاتجاه ينطلق من دراسة الواقع الموضوعي الذي نريد أن ندفعه في الاتجاه السليم من خلال مواكبتنا له من دون أن نمنحه الشرعية الرسالية، بل تكون القضية كل القضية هي أن لا تفقد الساحة عنصرًا من عناصر التأثير بالهدف الكبير في النطاق المرحلي للتحرك.

إننا لا نطرح – في هذا المجال – أفكارًا حاسمة، بل كل ما نريده هو أن نعطي فكرة عن الاتجاه الواقعي للتفكير في هذه القضية، كعنصر من عناصر التفكير أو الحوار، لئلا تضيع القضية في المتاهات التحليلية البعيدة عن الواقع، وقد نلتقي – في الطريق – بالكثير من أمثال هذه الأفكار التي تتحرك في الاتجاه الإيجابي الواقعي للحل الإسلامي الأفضل، فقد يكفي في إسلامية الحل أن

ينطلق في حل المشكلة الإسلامية مرحليًّا، ولو بالتعاون مع الفرقاء الآخرين، من دون ضرورة إلى انفراده بالحركة.

إننا نعتقد أن التعامل مع الواقع في ظروفه وأدواته وأساليبه قد يخلق لنا الذهنية الواقعية في طريق التغيير التي تفكر موضوعيًّا في الخروج من سياسة الأمر الواقع.

شعار «لا شرقية ولا غربية» سلاح ذو حدين

وقد نحتاج إلى تبسيط الفكرة في مثال جديد، فقد نجد في الساحة شعار «لا شرقية ولا غربية»، كعنصر من عناصر إثارة الحماس الاستقلالي في داخل الشخصية المسلمة، ولكن حركة هذا الشعار على صعيد الواقع غير مفهومة مرحليًّا – على الأقل، ولذلك فإنها تظل في الضباب بعيدًا عن كل عناصر الإشراق والوضوح، وذلك ضمن التصور التالي: إن لهذا الشعار مجالين، فقد يتحقق في نطاق تفريغ الشخصية المسلمة من الشعور بالانتماء إلى أي من المعسكرين العالميين الموجودين في الساحة السياسية، كوسيلة من وسائل البدء في التحرك الطويل نحو الهدف البعيد، في إيجاد القوة الثالثة البديلة على أساس الإسلام السياسي الشامل الذي يمثل قوة المستضعفين في الأرض، وفي هذا الجو لابد من تعميق الشعور بالذاتية الإسلامية في داخل المسلمين، وتوجيه الثقافة والتربية والحركة السياسية نحو الاستقلال الكامل في شتى الجوانب الحياتية العامة لينشأ الجيل المسلم على أساس الهدف الكبير البعيد.

وقد يتحقق هذا الشعار في نطاق المرحلة الحاضرة على أساس الفكرة التي تفسح المجال للتحرك بعيدًا عن الأوضاع والتحالفات والعلاقات الموجودة في الساحة في الواقع السياسي والعسكري والاقتصادي والثقافي، فتكون القضية المطروحة أمامنا هي أن ترفض أية علاقة عضوية مع أي من المعسكرين، وذلك للحصول على سلامة الاتجاه في الحركة والتخطيط، والاستقلال في المواقف والممارسات، وفي هذا الجو لابد من البحث عن ساحة مستقلة في صعيد الواقع، لا مجال فيها لأية سيطرة كبرى من قبل القوى المتصارعة ليمكننا مواجهة الموقف المنطلق للاستقلال من خلالها.

القفز على خطوط التوازن السياسية

إننا نعتقد صعوبة الحصول على مثل ذلك فيما نملك من ظروف ومعطيات للساحات الموجودة أمامنا؛ لأن طبيعة المصالح المتشابكة في العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية لا تسمح بالعزلة، ولا تفسح المجال للاستقلال، حتى على أساس التعامل في نطاق المصالح المتبادلة من موقع مستقل لا يخضع للضغوط؛ لأن القوى العالمية، لا تواجه الموقف بالميزان الدقيق الذي يضع القضية في نطاق التبادل في المصالح على أساس السيادة المعترف بها للطرفين، بل تحاول أن تستغل حاجة الآخرين الصغار إليها لتأكيد قوتها بالمستوى الذي يحقق لها حماية مصالحها الحاضرة والمستقبلة بشكل مميز ضاغط، ونحن نعرف أن الأقوياء

يملكون بوسائلهم الخاصة أن يحققوا لأنفسهم المزيد من الأرباح والمواقع في أسلوب تعاملهم مع الضعفاء؛ لأن ذلك هو معنى تعاون القوي مع الضعيف.

وفي هذا المجال، نشعر بالحاجة إلى التفكير في تخفيف الانتماء، أو تقليل سلبياته، أو إضعاف عوامل الضغط فيه، مهما أمكن، وذلك بالقفز على خطوط التوازن والتعادل في المواقف السياسية الخاضعة لظروف الصراع بين المعسكرين الكبيرين، مع الأخذ بالاعتبار أنهما يلتقيان من خلال مصالحهما الاستعمارية المشتركة على إيقاف الصراع على خطوط حمراء لا يتجاوزانها من أجل عدم السماح للقوى الصغيرة في تخريب المعادلات السياسية المتفق عليها بينهما، تمامًا كما يقال في قصة الصراع في الداخل، حول القضايا المتنازع عليها، والسير بسياسة الوفاق فيما يتفقان عليه من مصالحهما المشتركة أمام العدو المشترك.

وقد لا نريد أن ندعي بأن واقع العلاقات بين القوى العالمية الكبرى يمثل القدر المحتوم الذي لا يمكن الهروب منه أو الخروج عليه ليكون هذا المنطق الذي نريد لونًا من ألوان الانهزامية الروحية، أو العملية التي تواجه القوة من قاعدة الرعب الداخلي والاهتزاز الخارجي، بل كل ما نريد أن ندعيه هو التأكيد على النظرة الواقعية للساحة وللقوى وللظروف من أجل اتخاذ المواقف المدروسة على أساس مصالح الإسلام والمسلمين؛ لنتمكن من خلال ذلك– التمييز بين ما نستطيع التخلص منه، وبين ما لا نستطيع في الحاضر أو في المستقبل المنظور؛ لأن

فقدان النظرة الموضوعية للأشياء، قد يوقعنا في خط التهور والضياع، ويفقدنا الكثير من الفرص المتاحة من أجل التقدم خطوة إلى الأمام في عملية التغيير.

الحياد الإيجابي واللاعبون الكبار

وربما يكون من المفيد لنا أن ندرس تجربة الحياد الإيجابي، أو عدم الانحياز، وكيف استطاعت القوى العالمية أن تعمل على تمييع شعاراتها وخطواتها حتى تحولت إلى نوع من ساحات التجاذب بين القوى التي تنتمي إلى هذه الجبهة، بحجة أنها تمثل الموقف المتوازن في مصلحة الشعوب، وبين القوى التي تنتمي إلى الجهة الأخرى بحجة أن الحياد الإيجابي لا يفرض السلبية في الموقف، بل يفرض الإيجابية في دعم المعسكر الذي يصادقنا وفي مواجهة المعسكر الذي يعادينا، مما يقتضينا الارتباط بهذه الجهة أو تلك في المواقف من موقع فكرة الحياد؛ لأنها لا تعني العزلة، بل تعني الهرب من الضغوط في اتخاذ المواقف، وهكذا رأينا كيف تحولت التجربة إلى ما يشبه اللعبة السياسية التي احتواها اللاعبون الكبار باسم المبادئ التي يؤمن بها اللاعبون الصغار.

إننا نجد في هذا الشعار قيمة التجربة الحية التي تسمح بالتحرك بعض الشيء، في الحصول على المزيد من الحرية الداخلية للأمة في تطلعاتها المستقبلية، ونظرتها إلى طبيعة الموقف الحر من القوى العالمية الكبرى، وفي الاستفادة من حالات الصراع، في تأكيد بعض المواقع، أو في التقدم خطوة إلى الأمام، في بعض

المجالات الاستقلالية، في صراعات القوى الصغيرة مع بعضها البعض. وفي التخطيط البعيد المدى لولادة القوة الجديدة مستقبليًّا على أساس طرح المفاهيم الإسلامية الجديدة، في غمار الطروحات المختلفة التي تحفل بها ساحات الصراع الفكري والسياسي.

التعاون مع الأخرين والمصلحة الإسلامية

أما حركة الواقع المحلية، فلابد من القيام بدراسة عميقة شاملة للمصلحة الإسلامية العليا، في التعاون مع هذه الجهة للخروج من الضغط الأكبر الذي نتعرض له من الجهة الأخرى، في بعض المواقع، أو لتحصيل بعض المكاسب للأمة، مما تختلف القوى في طبيعة التعامل فيه، وقد نحتاج إلى أن نقرر في هذا المجال أن الخط الدقيق الفاصل بين الخضوع المطلق للقوى على حساب الفكرة الأصيلة، وبين التعاون معها على أساس تقديم بعض التنازلات لمصلحة القضايا الكبرى لا يمكن أن نحدده على مستوى النظرية العامة، بل لابد لنا من تحديده على أساس حركة الواقع الذي ترصد القيادات الواعية طبيعته، وامتداده، ونتائجه الحاضرة والمستقبلية، وخلفياته السلبية والإيجابية على مستوى العلاقات.

التحرك والتوقف بحساب

إن كل ما نريد إثارته في هذا المجال في حديثنا عن الاتجاه الواقعي أو المثالي في مواجهة قضايا الواقع العملي ومشاكله هو أن نؤكد على أن عنصر التحديد

الواقعي للأساليب والأدوات التي تتحرك في الساحة، يحقق للأمة تقدمًا في طريقة تفكيرها ورصدها للأمور، فلا تبقى في أسر العموميات، بل تحاول أن تتحرك من موقع الخصوصيات الدقيقة... مما يجعل للأحكام الصادرة عن قياداتها صفة الدقة والتركيز والواقعية. ويحقق لها- في الوقت نفسه- سلامة في الخطى، واستقامة في القصد وشمولاً في الدراسة... ويقودها إلى الموقع القيادي الواعي الذي يتحرك بحساب عندما يتحرك، ويقف بحساب عندما يريد أن يقف... وتلك هي قصة الإسلام في نظرته الواقعية إلى الأمور حيث يعطي للأسباب الطبيعية دورًا كبيرًا، ولا يغفل في الوقت ذاته الأسباب غير الطبيعية المتحركة من خلال قانون الغيب المودع عند الله سبحانه وتعالى.

الواقعية والمثالية في الأسلوب العملي (ب)

- **الوصول إلى الأهداف الكبيرة**

لا يتم بالقفز على الواقع أو بالمغامرات.

- **العلاقات مع الآخرين**

أمر واقعي تحدده الظروف والساحة والأشخاص.

- **على الإسلاميين التطلع إلى المستقبل**

بعيون مفتوحة على الواقع في نطاق المبادئ.

الواقعية والمثالية في الأسلوب العملي (ب)

العاملون للإسلام وشعار مقاومة الظلم

قد يطرح العاملون في ساحة العمل مقاومة الظالمين، ومقاطعتهم، والابتعاد عن الأجواء التي تساهم في تحسين صورتهم لدى الناس، وقد يتصور البعض من هؤلاء في نشاطاتهم العملية والفكرية والسياسية بالمستوى الذي يمثل البعد الكلي عنهم، حتى في الزيارات الشخصية واللقاءات المحدودة. وربما يؤدي هذا التصور إلى إطلاق الأحكام السريعة الانفعالية على بعض العاملين الذين قد تفرض عليهم الظروف الموضوعية أن يلتقوا ببعض مراكز القوى المنحرفة المتواجدة في الساحة الاجتماعية والسياسية، مما يؤثر – في نهاية المطاف – على موقع هؤلاء العاملين في أوساطهم الإسلامية العامة.

الحكمة والمرونة ونهج الأئمة (ع)

ونحن هنا في محاولة للوقوف أمام هذا الشعار المطروح فيما يعنيه وفيما يستهدفه، وفيما يقف عنده من حدود، فقد نجد من الضروري التأكيد عليه، كحقيقة إسلامية أصيلة فيما يفرضه الإسلام على المسلم من العمل على تحريك المواقف العملية في اتجاه المبادئ العامة في السياسة والاجتماع على أساس خط العدالة المستقيم.

ولكن ذلك لا يعني السلبية المطلقة في التحرك في جميع مراحل الهدف، بل قد يفرض الموقف المرحلي أن يدخل الإنسان مع هؤلاء المنحرفين في علاقة جيدة من أجل الحفاظ على بعض مواقع التقدم من جهة أخرى، أو من جهة تغطية المواقف العملية المتقدمة من جهة ثالثة. الأمر الذي يدخل في دائرة الحكمة والمرونة في حركة الأسلوب والفكرة من دون أن يسيء إلى الهدف الكبير، مادامت المراحل تفرض مثل هذه المرونة الواقعية.

وهذا ما نلمسه في خط السير لأئمة أهل البيت (ع) في علاقتهم بخلفاء زمانهم الذين كانوا لا يملكون شرعية الخلافة فيما يعتقده مذهب أهل البيت (ع) فقد كانوا يلتقون بهم في أكثر من مجال من أجل بعض المصالح الإسلامية التي تترتب على ذلك... مادام ذلك لا يمثل اعترافاً بشرعية الخلافة، ولا تأييداً للموقع الذي يمثلونه.

وبذلك يستطيع العاملون الذين يقفون في مركز المسؤولية، أن يملكوا حرية الحركة في الساحة فيما تحتاجه من إيجاد علاقات بمراكز القوى الموجودة في الساحة الإسلامية سواء كان ذلك على مستوى التحالف في بعض القضايا التي تمثل إحدى نقاط الاتفاق.

التدقيق في الطروحات

ولكن ذلك لا يعني إلغاء التحفظات عن مثل هذا النوع من الممارسة من حيث طبيعة الظروف التي تفرض مثل هذا اللقاء، أو الأشخاص الذين يعقدون

مثل هذه الصلات، أو يخططون لمثل هذه العلاقات.. أو الساحة التي يتم فيها مثل ذلك؛ لأن بعض الظروف قد تخدم مواقع الفرقاء الآخرين أكثر مما تخدم موقع الفريق الإسلامي فتتحول القضية إلى عملية استغلال منهم لنا في صيغة قانونية مشروعة..

كما أن بعض الأشخاص، قد يضعفون أمام بعض الأساليب والطروحات والأطماع والأجواء العاطفية، مما قد يؤدي بهم إلى السقوط في التجربة الصعبة، والبعد عن الخط المستقيم تحت تأثير الجانب العاطفي الشديد.. أما الساحة فقد تضيق عن بعض أساليب اللقاء أو عوامله في مرحلة وقد تتسع له في مرحلة أخرى.

وفي هذا الجو، لابد من التدقيق في كل الطروحات التي تطرح علينا للقاء، أو تدعونا إلى الوفاق، أو تدفعنا إلى إيجاد صيغ توحيدية أو تعاقدية للعمل المشترك لئلا نسيء إلى الفكرة العامة التي نعمل على الإحسان إليها وفي هذا الاتجاه، لابد لنا من مراقبة الممارسات العملية التي قد تحصل من بعض الأشخاص الذين يقفون في أحد مراكز المسؤولية، وذلك بالتدقيق في طبيعة هذه الممارسة في اللقاء ببعض مراكز القوى، أو التجاوب مع بعض طروحاتهم، أو الانجذاب إلى مشاريعهم ومخططاتهم؛ وذلك من أجل أن نعرف سلامة ذلك كله؛ لأن مثل هؤلاء قد يستغلون بعض الشعارات الواقعية للعمل للاختفاء وراءها في تغطية ما يريدون من أوضاع سلبية، أو فيما يدبرون من خطة لتمييع الفكرة الحقيقة الحاسمة.

الصلة أو اللقاء ليس انتماءً أو ارتباطًا

إن القضية الأساس في هذا الطرح الذي نثيره في هذا الحديث هي أن الوصول إلى الأهداف الكبيرة لا يتم بالقفز على مراحل الواقع العملي رأسًا، بل لابد من التخطيط لذلك في ضمن المراحل المتدرجة التي تقتضي مهادنة الواقع ومسالمته في بعض المواقع، مما يفرض مسالمة رموزه وأبطاله وقضاياه في عملية واقعية، تفتح للإسلام طريقًا جديدًا للعمل وللعاملين؛ لأن إعلان الثورة على كل الواقع الذي من حولك يساهم في إثارته ضدك قبل أن تعد العدة لمواجهته بقوة وتصميم وعزم، بينما يسهل لك الأسلوب العملي السلمي مهمة دفع الخطط الحكيمة الواعية للسير في هذا الاتجاه السليم.. ولهذا فينبغي لنا أن لا نستثار أمام كثير من الشخاص الذين يتصلون بهذا الشخص أو ذاك، أو بهذه الجهة أو تلك؛ لأن الصلة لا تعني الانتماء، واللقاء لا يعني الارتباط العضوي... والتعاهد والتحالف العملي لا يعني – أيضًا – الانتماء لكل ما يمثله من رموز للباطل وأشكاله.

منح الشرعية والموقف الحاسم

وقد يفرض الموقف علينا في بعض المراحل أن نقف الوقفة الحاسمة ضد بعض الأشخاص أو بعض القوى؛ لأن المسالمة معهم تمنحهم شرعية إسلامية لا يملكونها، فيؤدي ذلك إلى امتدادهم في الخط المنحرف من خلال هذه الثقة التي يحصلون عليها، مما يوجب تقوية خط الانحراف من خلالهم لما يمثلونه من قوة

تبلغ حد الخطورة على الساحة. وهذا ما نفهمه من الموقف الصلب الذي وقفه الإمام علي (ع) من معاوية، عندما رفض إقراره على ولاية الشام، ولم يستجب لآراء «الناصحين» الذين كانوا يشيرون عليه بذلك؛ لأنهم انطلقوا من فكرة دعم الحكم وتقويته على أساس الأمر الواقع الذي يخضع لمراكز القوى الموجودة في الساحة، مما يجعل الموقف المطلوب خاضعًا للتسويات وأنصاف الحلول، وتجاوز المبادئ الأصلية في حركة الحكم نحو أهدافه... ولهذا، انطلقوا يطرحون الآراء المماثلة فيما يتعلق بمعاملة رؤساء العشائر ووجهاء المجتمع، وتأليف قلوبهم، بالإغداق عليهم بالعطايا من بيت المال؛ لأن ذلك هو السبيل لوقوفهم مع الحكم باعتباره يمثل الوسيلة للحصول على الأطماع والامتيازات والمواقع.. أما الإمام علي (ع) فقد كان يفكر في اتجاه آخر، فليست القضية عنده هي قضية سلطان ذاتي يريد له أن يتركز ويقوى، بل القضية عنده قضية رسالة يعمل على أن تتأكد مفاهيمها، في صعيد الواقع، كما تأكدت في الفكر، وقضية حكم يراد له أن يكون النموذج الأمثل في حركة الإسلام في الحياة بعيدًا عن كل التواء وانحراف في صورة الحاكم وفي أسلوب العمل من أجل أن يبعد عن الإسلام الصورة المثالية البعيدة عن الواقع التي أراد البعض أن يصوره بها تمامًا كما هي «المدن الفاضلة» في الأفكار التجريدية للفلاسفة.. ويعطي من خلال المعاناة الصورة الواقعية التي تتمثل في مواقف الحاكم الصلبة حتى على حساب سلامة الحكم في بعض المجالات، وفي أساليب الحكم القائمة على تمثل المبادئ في وعي القائمين عليها. وهذا ما عبر عنه في كلماته التي يحدد فيها نوعية الحاكم الذي يقيم أمر الله في

عباده وبلاده «لا يقيم أمر الله إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع ليس أمري وأمركم واحدًا إنني أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم».

«لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألفيت دنياكم هذه عندي أهون من عفطة عنز أتأمروني أن أطلب النصر بالجور والله ما أطور به سمر سمير وما أم نجم في السماء نجمًا».

الرسالة في الفكر والأسلوب والشخص

وهكذا نجد الحاجة إلى تجسيد الرسالة في الفكرة والأسلوب والشخص، قد فرضت الموقف الصعب الحاسم في حدة المعالجة وصرامة الأسلوب مع توفر كل عناصر المرونة الذاتية من الرؤية الواضحة للأساليب الملتوية، والحيل المتنوعة، فليست القضية اختلافًا في رؤية الواقع وفهمه، بل هي قضية اختلاف في طبيعة الهدف ورساليته، وهذا ما عبر عنه (ع) بقوله: «قد يرى الحوّل والقلب وجه الحيلة ودونها حاجز من أمر الله ونهيه فيدعها رأي عين وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين».

إن مأساته هي أن الساحة كانت تنتظر عليًّا (ع) في معنى الرسالة، ولم تنتظر عليًّا (ع) ليكون في موقع السلطة – الذات؛ لأن الرسالة كانت بحاجة إلى التجسد في حركة الواقع، لا إلى القفز إلى مواقع الحكم بعيدًا عن مواقع المبادئ العامة للحياة.

وهذا هو سر امتناعه عن قبول الحكم عندما عرض عليه شرط التقيد بسيرة الشيخين بعيدًا عن اجتهاده الشخصي في فهمه لقضية التطبيق العملي للرسالة في الحياة.

ولكن ذلك لم يمنع الإمام الحسن (ع) أن يصالح معاوية أو يسالمه انطلاقًا من الظروف الموضوعية التي كانت تفرض الصلح كحل وحيد للمشكلة، وكمنفذ لا بديل له لبقاء الامتداد الرسالي للمعارضة الإسلامية الحقيقة التي كانت معرضة للفناء والتصفية ويلتقي الموقفان معًا في خط الرسالة مع اختلافهما في طبيعة الشكل والمضمون.. فقد كان الموقف الأول محاولة لإعادة الاعتبار إلى الخط الرسالي في حركة الحياة ليؤكد واقعيته وجدّيته وأصالته. أما الموقف الثاني فقد كان حلاًّ للمشكلة التي كادت أن تذهب بكل الركائز التي أرادت للواقع أن يعيش معها في خط الامتداد للمستقبل، وبذلك أعطت للرسالة الإشارة إلى أن تستريح قليلاً في عملية الاستعداد لدفعة جديدة للأمام؛ لتكشف الواقع المزيف للانحراف من جهة؛ ولتقوي المواقف الجديدة للثورة الرائدة التي تحركت في اتجاه ثورة الحسين (ع) في نهاية المطاف.

وبهذه الروح، نفهم الأساليب العملية للأئمة من أهل البيت (ع) من حيث هي وسائل متنوعة تلتقي عند مواجهة الهدف في قصة المرحلة بدلاً من القفز إليه في الفراغ الذي قد يعطي الموقف نوعًا من الدهشة والإعجاب، ولكنه لن يمنحه قوة وامتدادًا وعمقًا.. لأن الهاوية هي التي تنتظر مصير المغامرات التي

تبحث عن صيحات الدهشة في طريق المستقبل الطويل.. وليس ذلك هو شأن الرساليين الذين يتطلعون إلى المستقبل بعيون مفتوحة على الواقع من منطق التفكير الواقعي للحياة، في نطاق المبادئ الأصيلة الباحثة عن الله.

الواقعية والمثالية في الأسلوب العملي (ج)

- الواقعية أقرب إلى المنطق الإسلامي.
- الاستسلام للأمر الواقع مرفوض.
- التخطيط الواقعي أمر ضروري.
- التفكير بالغيب يخفف حدة الواقع.

الواقعية والمثالية في الأسلوب العملي (ج)

التفكير بين الواقع والمطلق

كيف ينبغي للمسلم أن يفكر في منهجه السياسي الذي يتحرك من خلاله في حركته التغييرية في الواقع؟

هل يفكر بطريقة المطلق التي تطرح الفكرة مجردة عن ظروفها الموضوعية لتكون الخطة هي أن الواقع على أساس الفكرة بنسبة مائة في المائة، فلا تخضع المسألة لأية تنازلات في أي ظرف من الظروف، بل تتجمد أمام الحواجز الموضوعة أمامها، فأما أن تزيلها بالوسائل المتنوعة التي تملكها، وأما أن تظل واقفة عند مواقعها المبدئية فلا تخطو أية خطوة إلى الأمام؟ أو تفكر بطريقة واقعية بحيث تدرس حركة الفكرة في الواقع من خلال الظروف الطبيعية أو الطارئة المحيطة بها لتحدد الموقف على أساس ذلك... لتتعرف الإمكانات التي يمكن أن يحصل عليها لمصلحة الفكرة الرسالية... فيكتفي ببعض النتائج إذا لم يتمكن من الحصول عليها جميعًا، ويقدم بعض التنازلات المحدودة لمصلحة الموقف الأهم فيما تفرضه عليه الأوضاع ذلك؛ لأنه لن يحصل على شيء لو لم يفعل ذلك؟

الإسلام أو لا شيء

ربما يطرح بعض الناس المسألة بالطريقة الأولى؛ لأن الله يريد منا أن نأخذ

الدين كله، فلا يجوز لنا أن نأخذ بعض الكتاب ونهمل بعضًا، باعتبار أن ذلك يمثل لونًا من ألوان التجزئة أو الانحراف، مما يسيء إلى خط التوازن العقيدي في خط المعركة، وإلى الطهارة الفكرية الإسلامية التي تدفع المسلم إلى عدم الأخذ بأي نوع من أنواع المجاملة للآخرين، أو الخضوع للمؤثرات الخارجية الضاغطة على الموقف، لا سيما إذا كانت تتمثل في الانفتاح على الكافرين أو المستكبرين، أو توثيق العلاقات معهم في الدائرة السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية؛ لأنه يمثل عنوانًا للموادة والموالاة المرفوضتين من الله في علاقة المؤمنين بالكافرين.. مما يؤدي إلى الانحراف عن خط الاستقامة الفكرية والعملية.... وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة/ ٢٨].

وقوله تعالى:

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء/١٣٨-١٤٠].

وقوله تعالى:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة / ٢٢].

ولعل هذه الآيات، تؤكد لنا ضرورة المباينة والمقاطعة للفئات غير الإسلامية التي تكيد للإسلام وأهله في السر والعلن، وتوحي بأن إقامة أية علاقة معهم، أو تقديم أي تنازل لهم من أجل الحصول على رضاهم، أو من أجل تحقيق أية إيجابيات سياسية أو اقتصادية يمثل لوناً من ألوان النفاق ويؤدي إلى الدخول إلى النار.

ويضيف هذا البعض بأن الآيات لا تتسامح في البقاء في المجلس الذي يذكر فيه هؤلاء الكافرين آيات الله بالكفر والاستهزاء، فلابد من الانسحاب منه حتى يخوضوا في حديث غيره؛ لأن ذلك يعني المجاملة فيما لا يجوز المجاملة فيه، فلابد من إعلان الاحتجاج بالانسحاب من المجلس حتى لو أدى ذلك إلى نفورهم منه.

وعلى ضوء ذلك، فإن المسألة تمثل حكمًا شرعيًّا لابد للمسلم من التزامه في حياته بعيدًا عن النتائج السلبية على مستوى العلاقات العامة أو الخاصة.

وليست هناك أية مشكلة في أداء ذلك إلى ابتعاد الإسلاميين عن ساحة الواقع السياسي، والبقاء في عزلة سياسية، أو إلى فقدان الإسلام لبعض المواقع التي لن يحصل عليها إلا من خلال تقديم بعض التنازلات في مواقع أخرى بتجميد حركة معارضة، أو فقدان الإسلام للساحة السياسية كلها، ربما في ذلك خسارته للحكم في المجالات التي يملك فيها الموقع، أو التي يتحرك فيها من أجل الوصول إليه؛ لأن تفكير هؤلاء ينطلق من ضمن معادلة حاسمة، وهي إما أن يكون للإسلام كل شيء بكل المفردات الشرعية، وإما أن لا يكون هناك أي شيء.

بين التقية والواقعية

وقد يفكر بعض الناس في المسألة، بالطريقة الثانية على أساس أن الواقعية الإسلامية لا تعني الالتزام بحكم شرعي مضاد بحيث يؤدي الموقف إلى تغيير الحكم الشرعي، كما لا يعني التنازل عن القضايا المصيرية التي تتناول مسألة الحرية للناس، وللمسلمين بشكل خاص في مواجهة الذين يستعبدون الأرض والإنسان، بل كل ما هناك أن تقدم التنازلات الصغيرة لمصلحة القضايا الكبيرة، وأن تجمد بعض الخلافات الصغرى لمصلحة حل الخلافات الكبرى، وإن

تنوعت الوسائل العملية للوصول إلى النتائج الإيجابية المهمة... وبكلمة معبرة هي أن المسألة ليست مسألة موالاة للكافرين، أو موادة للمحادين لله ولرسوله، بل هي مسألة التقية التي أشارت إليها الفقرة الكريمة ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران/ ٢٨]، وهي لا تمثل حالة الخوف الذاتي بالمعنى الشعوري في حركة الشخص، بل تشمل في روحية المعنى الذي تختزنه، حالة الخوف العملي في حركة الأمة في القضية الكبيرة التي تحكم الإنسان، والرسالة والحياة، مما يفرض بعض المواقف التي يقتضيها الحفاظ على القضية، حتى لا تسقط أمام الضغط الكبير، وذلك في نطاق الظرف الطارئ الذي قد تكون له مرحليته الخاصة التي قد تنتهي أمام ظرف آخر يمنح الحرية للعاملين من أجل التغلب على المشاكل من دون تقديم تنازلات.

إن مسألة اتخاذ الكافرين أولياء لا يعني التعامل في بعض القضايا المشتركة، بل يعني الانجذاب الروحي والعملي، بحيث يفقد الإنسان أصالته الإسلامية في نظرته إلى الواقع والناس، فتكون الحرية السياسية أو الأمنية مشدودة إلى ذلك الجو الداخلي للالتزام الذاتي، وهذا هو الأمر المرفوض في الحس الإسلامي في طريقة التعامل الحركي في الحياة.

التزاحم بين المهم والأهم؟

ما هو الحق في هاتين الطريقتين؟ إننا نلاحظ أن الطريقة الثانية هي الواقعية هي الأقرب إلى المنطق الإسلامي الذي أراد الله له أن يحكم المسلم في الحياة

من خلال القدرة الإنسانية؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها أو ما أتاها؛ ولأن الميسور لا يسقط بالمعسور، وأن ما لا يدرك كله لا يترك كله؛ ولأن الله يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، ما جعل عليكم في الدين من حرج. وما من شيء إلا وقد أحله الله لمن اضطر إليه، ولأن المصلحة الأهم تتغلب على المفسدة التي لا ترقى إليها في الأهمية، مما يفرض تجميد الحكم لمصلحة الجانب الأهم.. وهذا ما نلاحظه في كثير من خطوات السيرة النبوية في تجميد بعض الأمور المهمة لمصلحة القضية الأهم... فإن الله يريد للإسلام أن يثبت نفسه ولو في بعض المواقع، ويريد للمسلمين العزة ولو في بعض المواقف... لتنطلق المسيرة نحو العزة والثبات بطريقة واقعية متوازنة.

الواقعية وسياسة الأمر الواقع

ربما يخلط الناس بين الواقعية في العمل السياسي وبين الخضوع للأمر الواقع، فيخيل إليهم أنهما تقتربان في المفهوم وفي النتيجة... وبذلك قد يرون في العمل الثوري ابتعادًا عن الواقعية، واقترابًا من المثالية، ويعتبرون العاملين في هذا الاتجاه متطرفين؛ لأنهم يتجاوزون الظروف الموضوعية التي قد تحكم الواقع، فتثبت الحواجز أمام كثير من الانطلاقات السياسية في عملية التغيير، مما قد يطلق عليه اسم المعادلات الدولية أو الإقليمية التي تتجذر في الأرض، كما هي الصخرة الكبيرة الضاربة في عمق الأعماق، فلا تحركها العواصف ولا تزيلها القواصف، مما يفرض على الواقعيين الاستسلام لهذه الثوابت السياسية.

ولكن الحقيقة هي أن هناك فرقًا بينهما... فالواقعية تمثل المنهج العملي الذي يعتمد على العناصر والوسائل العملية التي تجد لها مجالاً في الحركة نحو الغاية على صعيد الواقع، وعلى مستوى الحاضر، في المشاريع الحاضرة، وعلى مستوى المستقبل في المشاريع المستقبلة، بحيث تربط النتيجة بالمقدمات، وتتحرك الغايات من خلال الوسائل، فلا تكون الأهداف في تصور المؤمنين بها والساعين إليها قفزة في المجهول، وحركة في المطلق، كما يفكر المثاليون الذين يطرحون الأفكار كما لو كانت في عالم آخر غير عالم الحس والحركة والحياة.

أما الأمر الواقع فإنه يمثل الأرض والحدود والأشخاص والحواجز واللحظات الزمنية فيما تمثله هذه الأشياء المجتمعة من عناصر للواقع الذي قد يحاصر المشروع أو يقيد الحركة، أو يسقط الشخص... مما لا يمكن للإنسان تجاوزه، أو مما يصعب عليه القفز عليه، وذلك من خلال الحالة المغلقة المشدودة إلى أكثر من باب حديدي... الأمر الذي يفرض على العاملين الاستسلام له في الحاضر؛ لأنه لن يستطيع أن يفعل شيئًا غير ذلك؛ لأن التفكير بذلك لن يكون واقعيًّا في هذه الدائرة.

ولكننا إذا فكرنا في المستقبل الذي قد يحمل الكثير من الفرص، ويحطم الكثير من الحواجز، ويفتح بعض الآفاق، ويدفع بالخطوات نحو طريق جديد من خلال المتغيرات التي قد تحدث فيما يختزنه العمق بالخطوات نحو طريق جديد من إمكانات التطور، فيتحول المستحيل في الماضي الخاضع للحدود الثابتة

والحواجز المغلقة إلى الممكن، ولا يتجمد أمام الحواجز في رحابة العالم الجديد المترامي الأطراف.

وفي ضوء ذلك لا يكون التخطيط للمستقبل في مسألة التغيير، والتحرك في الحاضر على أساس اختيار بعض المواقع المتحركة فيه على مستوى الدائرة المحدودة، أمرًا غير واقعي.. لأن واقعيته تتحرك في نطاق الإمكانات التي قد لا تكون فاعليتها واقعًا حيًّا في حجم اللحظة، ولكنها تنفتح على حركة فاعلة في الزمن القادم المنظور لتحول الفكرة إلى واقع حي متحرك فاعل، بعد أن تجاوزت كل الحدود. وهذا هو الذي يجعل الثورة حركة في الواقع على صعيد المستقبل، لا حركة في المثال الحائر للمضمون الواقعي للحدود التي تحيط بها، فقد لا يكون الشيء الذي تراه حدًّا يمثل الخط الفاصل، بل قد يكون حالة طارئة قابلة للزوال في أي وقت، وربما يخيل إليك، أن ما تراه قوة مطلقة، قد يحمل في داخله الكثير من عناصر الضعف التي قد تتحرك في أية ثغرة تنفتح على القوة الساحقة المتحدية لتهزمها في ساحة الصراع، وقد يكون الخطأ في سلامة النظرة وواقعية التقييم هو الذي يجعل الفكر خاضعًا للتصور الخطأ الذي يجعل الواقع شيئًا في المثال، أو شيئًا في الواقع.

واقعية المشروع الإسلامي

وفي ضوء ذلك، كيف ينظر الإسلاميون إلى مشروعهم في إعادة الإسلام إلى الحياة، في عالم يتنكر للدين من حيث المبدأ؛ لأن العلم في زعمه قد حل محله،

وأبعد التصور الإسلامي عن تكوين قناعاته لمصلحته، وفي ساحة يملك فيها الكفر قوة كبيرة، كما يسيطر فيه المستكبرون على كل وسائل القوة والدمار في الوقت الذي لا يملك فيه الإسلاميون القدرة على تحريك قوتهم في خط أهدافهم؛ لأن الضعف المادي والعلمي والعملي قد فرض نفسه على كل ساحاتهم، فأصبحوا يحتاجون إلى الاستكبار العالمي الكافر في الأخذ بأسباب العلم، وفي الحصول على وسائل القوة من السلاح ونحوه.. فهل يكون المشروع الإسلامي واقعيًّا، وما هي الوسائل التي يملكها الإسلاميون للتأثير على الواقع كمقدمة لتغييره؟

أما تعليقنا على هذا السؤال، فهو أننا لا نرى في هذه العناصر المذكورة في السؤال مانعًا كبيرًا يجعل المسألة في حجم الحاضر على صعيد العالم كله، ولكن لا يمثل حالة بعيدة عن الحركة الواقعية في المنطقة المحدودة وفي نطاق المستقبل.. فقد نجد بعض عناصر القوة في بعض الساحات الإسلامية التي تملك حرية التحرك في إسقاط الواقع المستكبر، وإيجاد واقع جديد لمصلحة الإسلام والمسلمين والمستضعفين.. مما لا يملك الاستكبار فيه إمكانات كبيرة، أو لا يستطيع تحريكها في هذه المرحلة الزمنية أو في هذه المنطقة في العالم، كنتيجة لبعض التوازنات السياسية أو الأمنية في الواقع الدولي... وهذا هو ما لاحظناه في نجاح الثورة الإسلامية في إيران التي استطاعت قيادتها أن تجمع عناصر القوة والنجاح، وتحركها بقوة ومرونة وذكاء، حتى أسقطت عرش الطاووس، ولم تسمح للقوى المضادة أن تصادر الثورة لمصلحة التيارات الإسلامية.. وما زالت ثابتة

في مواقعها القوية... وبذلك فإننا نستطيع اعتبارها حركة واقعية في تخطيطها المستقبلي، بحيث أمكنها تجاوز الأمر الواقع باكتشاف عناصر الضعف فيه، وبالمحاولة الجادة الناجحة لمهاجمتها بكل قوة، حتى استطاعت إسقاط هذا الأمر الواقع لمصلحة أمر واقع جديد.

وإذا كانت قد لاقت بعض الصعوبات، أو بعض النكسات، في مسيرتها في مواجهتها لبعض التحديات الاستكبارية، ... فإنها قد استطاعت أن تتجاوزها بمرونة وواقعية لتجمد بعض مشاريعها في انتظار تجاوز الظروف الموضوعية الضاغطة التي تملك السيطرة عليها أو تغييرها في الوقت الحاضر، كما تمكنت بدراستها الواعية لمراكز القوى الكبرى أن تتجاوز المحنة القاسية بوعي وثبات، وإن تتفادى الخطط الاستكبارية الدولية التي كانت تتحرك من أجل إسقاط الثورة الإسلامية من الأساس.

التخطيط الواقعي

إن المسألة التي تحكم الحركة السياسية للإسلاميين هي إيمانهم بأن نجاح تجربة إسلامية يعني إمكانات نجاحها في موقع آخر، وإن قدرتهم على إسقاط معادلة الأمر الواقع في مرحلة يحمل في داخله الدليل على قدرتهم على إسقاطها في مرحلة أخرى، مما يعني واقعية حركتهم، ومما يوحي إليهم بالحاجة الدائمة إلى تنمية قوتهم وتجديد وسائلهم العملية، ومراقبة الواقع من حولهم لاكتشاف نقاط ضعفه، وبالانحناء مؤقتًا للعاصفة المجنونة ريثما تمر ليواصلوا السير من جديد في

الاتجاه السليم. إننا ضد الاستسلام للأمر الواقع المحكوم للظروف الموضوعية الطارئة التي لا تملك القدرة على الثبات في عمق الحياة.. فلابد لنا أن نعمل على تدميره وتغييره لمصلحة القضايا الإسلامية الكبرى من الحرية والعزة والعدالة، ولمصلحة حكم الإسلام نفسه، ... وذلك في تخطيط واقعي دقيق متحرك، يضع في حساباته ا لهزائم المرحلية كما يضع في حساباته الانتصارات... ويفكر دائمًا بالغيب الذي لا يمثل القاعدة التي تحكم حركة الإنسان، ولكنه قد يطل على الواقع المضغوط ليخفف من حدته، ويضعف من قوته، ولينصرن الله من ينصره إن الله قوي عزيز.

الواقعية في العلاقات السياسية

- **اللقاء مع الآخرين**

يتطلب دراسة الظروف الموضوعية وطبيعة المرحلة.

- **صيغة التعايش مع الآخرين**

بدل التوافق هي الفضلى.

- **لابد من صناعة القوة المشاركة**

في القرار وطرح الإسلام بصراحة ووضوح.

الواقعية في العلاقات السياسية

العمل في ظل الأنظمة غير الإسلامية

ربما يواجه العاملون للإسلام في حركة الواقع السياسي بعض الأنظمة غير الإسلامية التي قد يعيش المسلمون في ظلها، فيرتبطون بعلاقاتهم معها في أكثر من جانب، ويضطرون إلى ذلك فيما تفرضه عليهم الحاجات من هذه الروابط، تبعًا لارتباطها بتلك الأنظمة، فكيف يواجهون هذا الموقف؟

١ الرفض والمقاطعة

قد يطرح البعض السلبية المطلقة كموقف إسلامي حاسم؛ لأن الإسلام لا يعترف بأنصاف الحلول، ولا يخضع للمواقف المتأرجحة المائعة التي تؤمن بالحق من جهة، وتعطي للباطل وجهًا من جهة أخرى، فلابد من رفض هذا النظام أو ذاك، أو مقاطعته، وإلا فإن الموقف يتمثل في الركون إلى الظلم والكفر والضلال. وقد يرى البعض في ذلك لونًا من ألوان الثبات على الحق، والالتزام به في الخط المستقيم..

٢ التعايش لا التوافق والتأييد

وقد يجد بعض آخر وجهًا آخر للقضية، وخلاصته: إن هذه السلبية المطلقة لا تعتبر موقفًا متوازنًا فيما تفرضه المصلحة الإسلامية من مراعاة القضايا

الأساسية للمسلمين فيما يعيشونه من حياة، وفيما يمارسونه من أوضاع. فقد يكون في إهمالها، والتنكر لها، والاكتفاء بإصدار الأوامر الحاسمة بالمقاطعة، ما يدفع بهم إلى الوقوع في الحرج الشديد، والانسحاق أمام وطأة المشاكل الصعبة، فيؤدي ذلك إلى التراجع عن الخط الأصيل، كنتيجة طبيعية للصعوبة الشديدة في الوقوف معه، والالتزام به، نظرًا إلى أن الواقع لا يتحمل الفراغ مهما كانت الظروف، فإذا أطلقت في الساحة موقفًا سلبيًّا، فلابد من موقف إيجابي مقارن له يدعمه، ويحوله إلى موقف واقعي، لا يتنكر للحياة في حاجاتها وتطلعاتها.

وفي ضوء ذلك، قد يطرح هذا البعض الموقف في صيغة جديدة تقف في خط التوازن بين الموقف الذي يرفض إعطاء الشرعية للانحراف، وبين الموقف الذي يعمل على تلبية الحاجات الواقعية للإنسان المسلم، وذلك بالتأكيد على صيغة التعايش بدلاً من صيغة التوافق والتأييد، مما يجعل خطًّا فاصلاً بين ما هو الحق وما هو الباطل، فلا يختلط أحدهما بالآخر في طبيعة المواقف... فإن معنى التوافق هو اللقاء في الخط على أساس الاتفاق عليه فيما يعنيه من حدود في الداخل وفواصل في الخارج، بينما يمثل التعايش، اللقاء في الواقع على أرض تشترك في حاجاتها وأوضاعها الحياتية من دون التزام بحدودها الفكرية والسياسية، ففي خط التوافق للخطوط التفصيلية والإجمالية، وفي خط التعايش، التقاء في صعيد الواقع على أساس الاختلاف في النظر إليه، وفيما يطرح فيه من قضايا، وفيما تترتب عليه من نتائج، مما يجعل من الساحة، ساحة قابلة للأخذ والرد، في حرية التحرك في الصراع السياسي، في حدود واقعية حاسمة.

اكتشاف الأرض والجو الهادئ

وذلك هو معنى البحث عن أسس اللقاء، في حركة الصراع في الحياة. فإن اكتشاف الأرض المشتركة، يطرح فكرة إمكانية التعايش من خلال تلك الأرض، ولو لفترة قريبة، في نطاق المساحة التي توفرها حالة اللقاء العملي، وقد يقودنا ذلك إلى الأخذ بالجو الهادئ فيما نستقبل من خلافات وخصومات في الفكر والسياسة؛ لأن الهدوء الروحي والفكري الذي يسيطر على ساحة الخلاف، يفسح المجال للتدقيق فيما يمكن أن نلتقي عليه، وفيما نختلف فيه، ويسهل الوصول إلى القناعات المشتركة، أو اللقاءات المشتركة، بينما يتحول الجو العنيف إلى الاستغراق في الأجواء الضبابية الخانقة التي تحجب عن الإنسان وضوح الرؤية، وتحوله إلى حالة معقدة من التوتر النفسي الذي يرفض كل لون من ألوان التفاهم واللقاء. إن الفكرة الحاسمة هي أن الخلاف في كثير من النقاط لا يمنع من اللقاء في النقاط الأخرى التي تفرض فيها المصلحة الإسلامية علينا ضرورة اللقاء، وهذا هو ما ينبغي للعاملين أن يواجهوا ضمن شروط محددة هي:

١- الدراسة الواعية للظروف الموضوعية المحيطة بالساحة أو بالقضية لنتعرف من خلالها حجم النتائج الإيجابية لعملية اللقاء مع الجانب الآخر مقارنة بالنتائج السلبية المترتبة عليها، فربما يكون الموقف خاضعًا لبعض الأوضاع السياسية أو الاجتماعية المتقدمة لدى العدو، فيدفعه ذلك إلى استغلال فرصة اللقاء للحصول على مواقع متقدمة سياسيًّا أو اجتماعيًّا بفعل استرخاء الساحة

أمام تحدياته، أو انفتاحها النفسي على طروحاته، وربما يكون الموقف — على العكس من ذلك، منسجمًا مع حاجتنا للامتداد في ساحات الآخرين، وذلك بالتخلص من ضغوطاتهم التي تمنعنا من حرية الحركة، وبالاستفادة من الشعارات المشتركة فيما يمكننا النفاذ من خلاله إلى شعاراتنا العامة والخاصة.

السُّنة والشيعة أمام الكفر

وربما تخضع الساحة للتحديات الصعبة التي يوجهها العدو المشترك، فلا نجد مجالاً لمواجهة هذا الخطر، إلا بالاشتراك في خطة موحدة، أو منسجمة، بيننا وبين الفرقاء الآخرين؛ لأن الالتزام بالمواقف المنفردة المتمايزة، يعطل علينا فرصة الحصول على النصر، أو على إمكاناته، فإذا كان الخطر متمثلاً بالكفر في العقيدة والحياة، ضد الإسلام في عقيدته وشريعته، فإن من المفروض العمل على وحدة الموقف الإسلامي بعيدًا عن كل خلافات السنة والشيعة، إذ لا مجال للتحرك سنيًّا أو شيعيًّا بخصوصياتهما الطائفية والمذهبية، في الوقت الذي يتعرض فيه الإسلام للخطر.

اللقاء مع أهل الكتاب وغير الإسلاميين لمواجهة الخطر على أرض الإسلام

أما إذا كانت العقيدة بالله موضع الخطورة، فإن اللقاء مع كل أهل الكتاب الذين يؤمنون به هو الطرح القرآني الذي يريد من خلاله الوقوف على أرض مشتركة يمكننا أن نعبد الله عليها، ولا نعبد غيره كما جاء في قوله تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران/٦٤].

ولا تتوقف القضية عند هذا الحد فإذا كان هناك خطر على الأرض الإسلامية من هجوم مباغت من العدو، فإن المسألة قد تفرض علينا التعاون، أو اللقاء، مع الفئات التي تعمل في هذا الاتجاه من موقع غير إسلامي وغير إنساني.. وذلك من أجل المحافظة على أرض الإسلام والمسلمين من الضياع والاستسلام لسيطرة العدو الغاشم.

وفي ضوء ذلك، قد نجد من الضروري للعاملين للإسلام في ضمن الخطة المحددة الواعية أن يلاحقوا الظروف والمتغيرات السياسية بدقة حتى يحصلوا على الرؤية الواضحة التي يملكون من خلالها تحديد المواقع التي يقفون فيها، وينطلقون منها في حركتهم العملية الصاعدة، نحو الأهداف الإسلامية العليا، في حقل السياسية والاجتماع.

٢- التأكيد على طبيعة الفروق الفكرية والسياسية بيننا وبين الفئات الأخرى من أجل إبقاء الخطوط الأساسية للعقيدة، بعيدة عن الارتباك والاضطراب والتمييع، بفعل التشابك في المواقف التوحيدية والجبهوية، مع مراعاة جانب الحكمة في أسلوب عرض تلك الفروق لئلا يسيء ذلك إلى طبيعة المرحلة. ولعل تأكيدنا هذا ينطلق من ملاحظتنا لبعض الأوضاع السلبية التي تتمثل

في صيغ العمل المشترك، فتبعث على المزيد من الاسترخاء الفكري، مما يدفع إلى بعض التنازلات في الأفكار والمواقف، تحت تأثير الحرص على عدم الإساءة لمشاعر الفرقاء الآخرين، وهكذا يتحول الضغط الشعوري إلى عنصر ابتزاز فكري وسياسي لمصلحة الاتجاهات المضادة، وقد يكون من الإخلاص للتفاصيل الدقيقة للتفكير، بالإضافة إلى الخطوط العامة للتحرك فيما نلتقي به مع الآخرين، أن نعمل على استيحاء الإسلام في تحليلنا للمواقف المشتركة، كما نعمل على إبراز عملية الاستيحاء هذه في المواقف المنفصلة لئلا تتأثر عملية الاشتراك في الموقف، بالتركيز على جوانب الانفراد، فتبقى حركة الشخصية الإسلامية، منسجمة مع خطوط العمل في كل اتجاه، فلا يعيش الإنسان المسلم الغربة في التعاون مع الآخرين على أساس غربته عن مفاهيم، بل يشعر بأنه يعيش مع مفاهيمه الأصيلة التي قد تلتقي بهم في بعض المجالات، وقد تختلف عنهم في بعض آخر.

٣- التركيز على طبيعة المرحلية في العمل ليتميز العمل المرحلي عن العمل الحاسم النهائي ليبقى الإنسان المسلم مشدودًا إلى الهدف البعيد، في تعامله مع مفردات اللقاء، وأساليب التعاون، مما يجعله غير خاضع نفسيًّا للأجواء المحدودة للمرحلة، فتضيع أفكاره ومشاعره فيها فيما يخططه الآخرون من عمليات التيه الروحي والفكري والسياسي والاجتماعي، فإذا انتهت المرحلة لم يكن انتقاله عنها إلى غيرها في ظل ظروف انفصالية جديدة بعيدًا

عن إخلاصه للهدف؛ لأنه لم يستغرق في المرحلة ليغيب فيها، بل امتد إلى أعماقها ليفهم – من خلال ذلك – كيف يمكن له أن يدخل المرحلة الجديدة من دون أن تترك خصوصيات المرحلة السابقة، أي تأثير على مسار المرحلة اللاحقة في حركته نحو الهدف.

الواقعية السياسية لا الميوعة

وبكلمة أخيرة، إن هناك فرقًا بين الواقعية السياسية التي تفرض عليك المشاركة في حركة الواقع من حولك، مع الذين يحركونه في الاتجاهات المختلفة، وبين الميوعة السياسية التي تتمثل في خضوعك للقوى العاملة في الساحة، واعترافك بشرعية الانحراف والكفر، باسم المرونة والواقعية، فإن الاتجاه الأول يجعل منك عنصرًا فاعلاً في الساحة، ما دامت الساحة حافلة بالكثير الكثير، مما يرتبط بالهدف الكبير في بعض خطواته الصاعدة إليه بقوة، فلا يجوز أن تكون منعزلاً عما يتحرك فيها من تيارات واتجاهات لئلا تفقد فاعليتك المستقبلية في صنع القضايا الكبيرة للإنسان، فتأتي إليها بعد أن يحتويها الآخرون من جميع جوانبها. أما الاتجاه الثاني، فإنه يجعل منك إرادة ضعيفة مسحوقة تحت تأثير الإرادات الأخرى التي تملك التخطيط والقيادة والحركة لتترك لك والآخرين مهمة الخيار الواحد في القبول بكل شيء يفرض عليك، ولكن في إطار واجهة سياسية أو اجتماعية أو دينية توحي إليك بأن ذلك هو صنع إرادتك المستقلة لترضي فيك كبرياء العزة والاستقلال.

القوة وصناعة القرار

وفي هذا الجو لابد من عملية صنع القوة في كل المجالات التي تتحرك في الساحة لتكون في مستواها من أجل أن يكون لك المشاركة في صنع القرارات المتعلقة بالهدف الكبير من هذا الموقع... وذلك من خلال فرض الاعتراف بما تمثله من فكر واتجاه وقوة على الآخرين ليتعاملوا معك في إطار مفاهيمك التي قد تلتقي بمفاهيمهم في نطاق المرحلة، وقد تختلف معها في حركة المراحل الأخرى، فلا يجوز لك في هذه الحالة أن تختفي وراء قناع آخر، يوحي بأنك تخجل من حقيقتك، أو تخاف من سلبيات طروحاتها السياسية في الساحة، كما يفعله البعض في بعض الميادين السياسية، فيخشى أن يطرح الإسلام، كواجهة فكرية وسياسية وتنظيمية فيما يطرحه الآخرون من واجهات الكفر والضلال، وذلك على أساس ضغط الإرهاب الفكري الذي يفرضه الكفر أو الاستعمار على الواقع، في التلويح بتهمة الطائفية والرجعية التي يروجها ضد الذين يحملون الإسلام فكرًا أو شريعة ونظامًا للحياة ليدفعهم إلى الانهزام أمامه بهزيمة شعاراتهم الحقيقية التي تمثل الواجهة الأصيلة لشخصيتهم وحركتهم، فيلجأوا إلى شعارات أخرى، لا تربح من الآخرين شيئًا جديدًا في الحجم البشري والسياسي، ولكنها تلغي في داخلهم عمق الشخصية الإسلامية وقوتها، وتؤكد في الوقت نفسه الفكرة التي يريد الكفر والاستعمار أن يفرضها على الاتجاهات الفكرية، وهي أن الإطار الإسلامي ليس إطارًا للفكر وللسياسة وللاجتماع، ولكنه إطار للعبادة

والانعزال والمشاعر والأحقاد لتظل اللعبة الطائفية متحركة في حياة الناس بعيدًا عن كل مضمون حيّ فاعل ممتد ليسهل عليه عزل الناس عن مضمون القيم، فيكتفوا بشكلها المملوء بالمساحيق الملونة العابقة بالعطورة، فيتحقق له في ذلك الكثير الكثير من خطواته السياسية ضد مصلحة الشعوب.

الطرح الحقيقي والطرح المائع

وربما يندفع هذا الاتجاه في محاربة الواجهة الإسلامية الحقيقية التي تفرض نفسها على الحياة في صيغة إسلامية أصيلة تملك الكثير من وضوح الرؤية، وأصالة الفكر، وسلامة الهدف ليحقق من خلال ذلك هدفين: الأول: أن يثبت للآخرين إخلاصه للصيغة «غير الطائفية» التي يخاف من التصاقها به في دعواتهم ومواقفهم، وذلك بالضغط على العناصر الملتزمة في داخل نطاقه، وفي خارجه ليبعدهم عن التأثير الفاعل، في تصحيح الاتجاه نحو المسار الصحيح. الثاني: أن يمنع امتداد قوة إسلامية حقيقية تفضح الشعارات غير العميقة التي تطرح في الاتجاهات الأخرى السطحية، فإن الطروحات الحقيقية في الساحة لأي اتجاه تحرج الطروحات المائعة المتحركة فيها.. مما يخلق صراعًا عنيفًا بين فرقاء الشعار الواحد، لا يرقى إليه أي صراع آخر.

تعميق الشعارات وإثارة الوعي

وربما كان من المفيد للاتجاه الأصيل أن يواجه هذا التحرك بالمزيد من المرونة والواقعية والمسؤولية، وذلك بتفويت الفرصة على العناصر القلقة التي تعمل على

تفجير الصراع بطريقة غير مسؤولة، مما يخلق في الداخل سلبيات على مستوى العمل الإسلامي كله، ومحاولة احتواء الواقع بأسلوب مدروس، يهدف إلى تعميق الشعارات المطروحة في داخل نفوس الأمة، وإثارة الوعي المنفتح، البعيد عن التشنج والتقوقع في زنزانات المحاور الضيقة المظلمة ليعطي لنفسه الظروف الطبيعية الموضوعية التي تمنحه حرية الحركة في كل جوانب الساحة.

هذا من ناحية علاقات العمل بالفرقاء الإسلاميين الذين يعيشون خلف الأقنعة المتنوعة، أما في مستوى القضايا المصيرية، فلا مجال إلا للوضوح والصراحة والتركيز؛ لأن اللعب على الشعارات، يجر الخطوات إلى مزالق قد تنتهي بالقضية الكبرى إلى الوحول السياسية في عملية ابتزاز، أو اختناق، أو تمييع لتبقى الواقعية السياسية، في إطار التفكير الإسلامي المتلزم، فلا تسمح للآخرين أن يفرضوا عليها القفز فوق الإطار، والتحرك ضمن إطارات أخرى؛ لأن معنى ذلك أن يفقد العمل الإسلامي نفسه عندما يفقد القاعدة التي ينطلق منها، والإطار الذي يتحرك فيه، والهدف الذي يتجه نحوه.. وذلك هو الخسران المبين.

الإقليمية في العمل الإسلامي

- الإقليمية ظاهرة مرضية

  في العمل الإسلامي.

- اللعبة الاستعمارية

  صنعت الحس الإقليمي بذكاء فكانت التجزئة.

- أشد الأخطار

  في وجود حركات إسلامية تختنق في القضايا الصغيرة.

الإقليمية في العمل الإسلامي

ظاهرة الشخصية الإقليمية

يواجه العمل الإسلامي السياسي في حركته الداخلية مشاكل معقدة فيما يواجه من مشاكل الامتداد والوجود، مما يوحي بأن الأوضاع السلبية التي سيطرت على المسلمين في العصور المظلمة قد تحركت في وعي الإنسان المسلم لتخلق في داخله الحواجز الطارئة التي تفصله عن المسلمين الآخرين، فلكل إقليم شخصيته وطابعه وقضاياه ومصالحه، ولكل طائفة استقلالها في أوضاعها ومشاكلها وحلولها وتطلعاتها الخاصة في الحياة، وربما كان هذا هو أحد الأسباب في تحجيم العمل الإسلامي، وتطويقه من قِبَل الاتجاهات المضادة في الساحة الإسلامية... حتى أوشك الوضع، أن ينتهي بنا إلى الشلل في مواقع العمل.. ولهذا، فإن من الضروري لنا أن نقف وقفة تأملية هادئة من أجل دراسة هذه الظاهرة، ومحاولة البحث لها عن علاج معقول.

فنلتقي– في البداية– بظاهرة الشخصية الإقليمية في المجتمع الإسلامي فيما نلاحظه من النوازع والمشاعر الخاصة التي تعيش في داخل الأفراد الذين يجتمعون في منطقة واحدة، ذات خصائص جغرافية وتاريخية واجتماعية معينة، مما قد يترك في تكوين الشخصية أثرًا عميقًا في حركة العلاقات الإنسانية، ويتحول الموقف إلى نتائج إيجابية فيما ينسجم مع هذه الخصائص، وإلى نتائج سلبية فيما لا ينسجم معها.

ويتعمق الأثر الإيجابي أو السلبي إلى ما يشبه العقدة المتأصلة التي توحي بالفواصل على أساس هذه الخصائص المتميزة– في طبيعتها– عن خصائص أخرى.. لتكون العقدة المضادة هي المظهر المميز للتنافر الطبيعي بين الخصائص المتنوعة.. وتمتد المسألة إلى ما يشبه التباين في الشخصية؛ ليكون الأصل في العلاقات التقاطع، ما لم يحدث هناك ما يصل فيما بينها من الأوضاع الطارئة التي تفرض التواصل على أساس طارئ.

الاستعمار والكيانية السياسية

وقد جاء العامل السياسي الذي صنعه الاستعمار الكافر؛ ليعمق الفواصل بطريقة حاسمة... وذلك من خلال الكيانية السياسية التي تجعل من هذا الإقليم كيانًا مستقلاًّ على أساس القومية أو اللون، أو الأرض.. فتزداد الخصائص عمقًا وتنوعًا، فتنعكس على الساحة، مزيدًا من الشعور بالانفصال إزاء الواقع الآخر على أساس اللعبة الاستعمارية المتحركة في الساحة العامة.

وبذلك بدأت علاقات العمل الإسلامي المنطلق من وحي التغيير لتلتقي بهذه الظاهرة في الحساسيات التي تطغى في الجو من خلال بعض الأوضاع القلقة هنا وهناك، فتتأثر المشاعر، وتثور الانفعالات، نتيجة تصادم هذا العمل في هذا البلد بخصوصيات العمل في البلد الآخر.. وقد تشعر القيادة هنا باستقلالها عن القيادة هناك.. فإذا امتدت إحدى القيادتين إلى مواقع الأخرى؛ اصطدمت للأوضاع بطريقة غير متوازنة من أجل الوقوف ضد هذا الامتداد بحجة أن مثل

هذا يعتبر تدخلاً في القضايا الداخلية تمامًا كما هي الدول المستقلة، عندما تتدخل إحداها في شؤون الأخرى فيما يتحدث به السياسيون من رفض التدخل في القضايا الداخلية.

وفي هذا الجو، تتحول الأعمال الإسلامية إلى مؤسسات وصيغ محدودة تؤكد على الفواصل، ولا تقترب من خط الوحدة... وإذا تحقق النصر لأحدها في مواقعه الإقليمية، كانت الحساسية الخاصة مانعة عن قيادته لخطوات النصر المستقبلية للآخر فيما ترسمه الشخصية الإقليمية للعمل من حدود وآفاق.. وهكذا تبدأ عملية التجزئة للتحرك على أساس ذلك كله.

تلك هي بعض ملامح المشكلة في هذا الجانب من العمل الإسلامي، فكيف نواجه مسألة الحل؟

الإقليمية عنصر إضعاف وإثارة تناقضات

ربما يطرح البعض في الساحة شعار إلغاء الفوارق والخصوصيات، واللقاء عند القضية الإسلامية الواحدة، واحتواء النوازع الذاتية بالمشاعر الكلية الشاملة التي تتجاوز الحدود في عملية امتداد وشمول.

ولكننا نعتقد أن مثل هذا الطرح السهل للمشكلة والحل، يعتبر تبسيطًا لا يلامس الواقع، ولا يقترب من الجذور؛ لأن الخصوصيات الفاصلة ليست حديثًا طارئًا خارج نطاق الذات، بل هي من الأشياء النابعة من حركة الواقع اليومي

الذي يلتقي فيه الإنسان بخصوصيته الذاتية.. فلا يمكن لنا إهمالها تمامًا في خطة العمل، بل ينبغي أن نصل إليه من نتائج مستقبلية ليكون الطرح واقعيًّا عمليًّا.

وفي ضوء ذلك، قد يفرض علينا الواقع العملي أن نستفيد من الخصائص الذاتية، في تحريك الحلول الواقعية الإسلامية نحو المشاكل العامة والخاصة التي تواجه الإنسان المسلم ليلتقي فيها آلامه وآماله.. فإذا عرض مشاكله اليومية، بالطريقة التي يستطيع بها أن يتفهمها ويعيشها في حركة الواقع، أمكنه أن يتحرك نحوها بطريقة عملية؛ لأن الالتقاء بالخصوصيات يربط الإنسان بالمشاعر الحقيقية للواقع، مما يجعل من عملية التفاعل عنصرًا بارزًا في تحقيق النتائج العملية بشكل أكبر وأعمق.

ثم تبدأ المحاولة الجادة في الإيحاء بالتقاء هذه الخصوصيات بالخط الكبير للمشكلة، وبالعمق الممتد في حياة الآخرين، مما يجعل من مبدأ الفصل بينها وبينه مسألة تبتعد عن القوة وتوحي بالعنف؛ لأن الحلول الصغيرة للمشكلة من موقع الأفق الضيق المحدود، لا تحل المشكلة بل تخدرها لتعود من جديد، فتثير الآلام القديمة – الجديدة في الساحة.

وعلى هذا الأساس، تتحول الإقليمية إلى عنصر إضعاف للتحرك بدلاً من أن تكون عنصر تقوية؛ لأن الذين يخططون لصنع الهزيمة في الأمة، سوف يجعلون من عملية الفصل هذه فرصة لإثارة التناقضات الداخلية للأقاليم المختلفة من

أجل المزيد من اللعب عليها، وإثارة المشاكل حولها، وإفقادها فرصة المبادرة للقاء على القاعدة المشتركة للانطلاق.

بين الوطنية و «الإسلامية» المشكلة تربوية

فيتعمق الشعور بالوطنية بدلاً من الشعور بـ «الإسلامية» ليعود مجرد عامل ثانوي في الحركة.. ويصبح الإطار الواقعي الأصيل في الساحة الوطن الذي يبحث عن العقيدة والنظام في داخل حدوده ليترك للآخرين أن يبحثوا عنهما في أوطان أخرى... مما يترك تأثيرًا سلبيًّا على التربية الإسلامية للفرد المسلم، والمجتمع المسلم التي لا تجعل من الحدود المصطنعة واقعًا قانونيًّا، إلا بالمقدار الذي تفرضه المصلحة الإسلامية من ناحية مرحلية ليُصار إلى إلغائها في نهاية المطاف.

إننا نشعر أن من أشد الأخطار التي تواجهها الحركة الإسلامية في الواقع المعاصر هو هذا الاستسلام للأمر الواقع الذي فرضته توازنات المصالح الاستعمارية الكافرة؛ لأن ذلك يؤدي إلى خلق حركات إسلامية محدودة ضيقة، لا تعيش امتداد الإسلام في الآفاق الكبيرة، بل تختنق في القضايا الصغيرة المليئة بالالتواءات والتناقضات النفسية والعملية.

وحدة المصالح العامة للمسلمين

ولعل من الضروري أن يتنبه العاملون إلى الحقيقة الإسلامية الفكرية التي تنظر إلى خصوصيات المسلمين الإقليمية والقومية نظرة واقعية، فتجعل لها

متنفسًا طبيعيًّا في المشاعر الذاتية للإنسان، فلا تمنعه من التعبير عن ذلك بالفعل أو بالقول تلبية لحاجته الخاصة، ولا تعتبر ذلك شيئًا بعيدًا عن مصداقيته الإيمانية كمسلم، ولكن مثل هذه النظرة تؤكد- من ناحية أخرى- العلاقة الوثيقة العميقة بين المسلمين في علاقاتهم ومصالحهم وآلامهم وآمالهم ومواقفهم العملية في الالتزام بالقضايا الإسلامية الكبيرة، والدفاع عنها، والتضحية في سبيلها، ولو كان ذلك على حساب التزاماتهم المحدودة في المصالح الضيقة. ليكون الموقف الفكري والعملي، متمثلاً في وحدة المصالح العامة للمسلمين في العالم بعيدًا عن كل الآفاق المحدودة المهيمنة على الواقع، وهذا ما نتمثله في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التوبة/٧١]. وفي الحديث المأثور عن النبي محمد (ص): «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى..» والحديث المأثور عنه (ص): «من سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم»، وقوله (ص): «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»، وغيرها من النصوص الإسلامية التي تؤكد الجانب الشعوري، والجانب العملي في علاقات المسلمين ببعضهم البعض.

الإقليمية والمصلحة العامة للأمة

وفي هذا المجال، لابد من الالتفات إلى الأوضاع السلبية التي تتحرك في أجواء هذه العلاقات لتعمق الإحساس بالفواصل، في عملية مواجهة عنيفة فيما

تتنافر فيه المصالح المتنوعة لهذا الإقليم أو ذاك... فقد يكون التحرك لمصلحة قضية إسلامية في منطقة سببًا لإرباك الوضع في منطقة إسلامية أخرى، كما نعيشه الآن في حركة القضية الفلسطينية التي تركت آثارًا سلبية على المستوى السياسي والعسكري على أكثر من بلد إسلامي بفعل الأوضاع المعقدة التي تواجهها حركة الثورة في العلاقات السياسية الإقليمية والدولية، مما أفسح المجال لارتباك التصور الإسلامي لدى المسلمين إزاء الموقف من هذه القضية، بين تصور سلبي يطرح فكرة تقديم المصلحة الإقليمية في بلده على مصلحة القضية، أو يحاول تصوير الموضوع، كما لو كان ناشئًا من إساءة الأسلوب المتبع في معالجة القضية، الأمر الذي جعلها تنحرف عن مسارها الطبيعي، وتخلق المشاكل للمسلمين الآخرين من دون مقابل، وتؤدي بالتالي إلى المزيد من المنازعات والخلافات التي تعمل على تدمير القضية من الأساس بتدمير قاعدتها الشعبية التي تمنحها قوة الامتداد والاستمرار... وبين تصور إيجابي يطرح فكرة ارتباط المصلحة الإقليمية بالقضية العامة تبعًا للتصور المنفتح للخطر الإسرائيلي الذي يتخذ لنفسه صفة التدرج في الوصول إلى أهدافه من خلال اللعب على الأوضاع السياسية والإقليمية في المنطقة.

الإقليمية وقضية فلسطين

وبذلك لا تكون المسألة مسألة خطر تمثله القضية الفلسطينية كثورة على هذا البلد، أو ذاك، بل المسألة مسألة خطر تمثله إسرائيل في تطلعاتها السياسية

الاستعمارية المستقبلة على المنطقة بشكل عام، وهكذا نجد أن الإحساس بالإقليمية قد جعل الموضوع يتحول إلى مجال للأخذ والرد بطريقة تستبعد التصور الشامل للخطر من الذهنية السياسية للإنسان المسلم، وتجعله يتعامل مع الأشياء والوقائع من موقع السذاجة التي توحي له بالتهوين من خطورة شأن العدو، بحجة أن المشكلة ليست معه في بلد، إلا بقدر ما تتصل بمشكلة العدو مع الآخرين، فإذا تحرك الآخرون بعيدًا عن مواقعه لم يعد هناك مشكلة بينه وبين العدو، ولا تزال المشكلة تتفاعل سلبيًّا ضد مصلحة القضية، وإيجابيًّا لمصلحة العدو الذي استطاع أن يلعب على الحس الإقليمي بذكاء ومهارة إلى جانب الاتجاهات السياسية المضادة للقضايا الإسلامية، الملتقية مع العدو في خططها الإقليمية.

وقد يطرح بعض الناس في هذه المجالات قصة الأوضاع السلبية التي تعيشها الثورة الفلسطينية، أو المتاهات السياسية المتنوعة التي تغرق فيها، أو التجاوزات الظالمة الفردية أو الفئوية التي تتحرك منها، ولكن هناك فرقًا بين أن تعالج هذه الأمور كنقطة اتهام تريد أن تسجلها على الآخرين، وبين أن تثيرها كنقطة ضعف تحاول أن تعالجها وتحولها إلى نقطة قوة للقضية.

إن هناك فرقًا بين أن تعالج الخطأ من داخل مصلحة القضية الشاملة، وبين أن تعالجه من موقع الهجوم عليها لمصلحة الأوضاع السياسية القلقة التي تعيش في خطوات الخط الاستعماري في المنطقة والعالم.

الإقليمية في لا شعور العاملين

وقد نلتقي ببعض ملامح الإقليمية فيما نواجهه من استغراق بعض الحركات الإسلامية في مشاكل قطر إسلامي معين؛ لأن الأكثرية في داخل هذه الحركات تنتمي إلى هذا القطر أو ذاك، مما يجعل نشاطات الحركة مستغرقة في مشاكل هذا القطر في الوقت الذي تعيش فيه الأقطار الإسلامية الأخرى مشاكل صعبة لا تقل عن مشاكله، ومما قد يخلق عقدة لدى المؤمنين المنتمين بالجنسية إلى تلك الأقطار من خلال إهمال قضاياهم التي يعيشون مشاكلها بعمق وصعوبة، وربما ينكر بعض الناس الصفة الإقليمية لهذا النوع من الاستغراق، فيرجعونها إلى اعتبار هذا البلد أو ذاك من المراكز الحيوية للنشاط الإسلامي، وربما يكون هذا التخريج معقولاً بعض الشيء، ولكننا لا نستطيع استبعاد النزعة الإقليمية المختبئة داخل اللاشعور لدى الكثيرين من العاملين. وقد نضيف الكثير عن وضوح الرؤية إذا كانت المشاكل الإقليمية مرتبطة ببعضها البعض، بحيث كانت المشاكل في هذا البلد، مثلاً تنعكس على مشاكل البلد الآخر سلبًا أو إيجابيًّا.

إننا نحاول– من هذا الحديث– أن نثير التفكير حول هذه الظاهرة المَرَضية للعمل الإسلامي من أجل أن يفكر فيها العاملون من موقع البحث عن الجذور العميقة للأسباب الكامنة وراء كثير من الظواهر الساذجة التي قد توحي في مدلولها الظاهري بشيء، ولكنها تحمل في داخلها الكثير من التعقيدات المثقلة بالقلق والارتباك، وليس لهذا الحديث دور التنظير المطلق للفكرة، بل هو محاولة

لوضع الخطوط الأولى للبحث، في اتجاه تركيز العمل الإسلامي على قاعدة صلبة من الوعي والفكر والمسؤولية والتخطيط بعيدًا عن السرعة والانفعال والارتجال.

الوطنية من وجهة نظر إسلامية

- **التربية قد تجعل**

  من الوطنية حالة وثنية.

- **الوطنية حالة طارئة**

  وليست ذاتية في الفكر والشعور.

- **الخصوصية الإسلامية**

  لا تمنع قيام جبهة وطنية.

- **على الإسلاميين التحرك بوعي**

  وانفتاح لأن العزلة لا تحقق ربحًا.

الوطنية من وجهة نظر إسلامية

المسلم والوطن

للوطن في الوعي الفكري والشعوري للإنسان المسلم خطّان مختلفان: خط شعوري عاطفي يتصل بالجوانب الحميمة الذاتية الخاضعة للانفعال الداخلي بالأشياء القريبة إلى عاطفته المتصلة بمكامن الإحساس الذاتي في كيانه.

وخط سياسي يلتقي بالمضمون القانوني للأرض في حدودها الجغرافية الدستورية التي تفصلها عن الأرض الأخرى التي تملك حدودًا معينة فاصلة، وينفتح على مجموعات بشرية مختلفة في الدين والمذهب والاتجاه السياسي والقومي واللون والعرق، ولكنها تتوحد فيه، ويتقاطع وينفصل في علاقاته بجماعات أخرى أو ببلدان أخرى.

فكيف يواجه الإنسان هذين الخطين من خلال صفته الإسلامية التي تحدد له علاقاته بالناس وبالأشياء؟ سنعالج هذه المسألة بعد بلورة النقاط التالية:

أولاً: الخط الشعوري العاطفي

ليس هناك أي إشكال في الخط الأول؛ لأن الله لا يمنع أحدًا من عباده أن يألف بعض الأشياء التي تحيط به لتتحول الإلفة إلى علاقة في الذات، وبالتالي إلى حالة عاطفية تحنو وتهفو وترق وتنفتح على كل مفردات الأرض والناس

والأشياء؛ لأن الله لا يريد للإنسان أن يتعقد في عاطفته، مادامت المسألة مقتصرة على جانب الإحساس العاطفي، فإذا اقتربت من مواقع الانحراف لتنتقل إلى التأثير على الخط العملي في الحياة ردها الإسلام إلى الخط المستقيم بالعمل على عقلنة العاطفة وضبطها، وبالتالي تحريكها في الدائرة الإسلامية بعيدًا عن خط الضلال والانحراف.

وإذا استنطقنا القرآن الكريم نجد أن الكثير من آياته تقر بالجانب العاطفي، الناتج عن الارتباط بين الإنسان والأرض التي يقطنها، فيتحدث عن «الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق» وعن «الذين ظاهروا على إخراجكم» في لفتة إيحائية إلى الجانب العميق من العاطفة التي تشد الإنسان إلى داره بحيث يكون الإخراج منه، أو المناصرة عليه مشكلة كبيرة قد تبرر الحرب أو المقاطعة أو ما أشبه ذلك.

وفي هذا الجو قد نستطيع استيحاء الخط الفكري في هذه الدائرة، ذلك أن الإسلام لا يبتعد بالإنسان عن خصوصياته الذاتية والعاطفية في مشاعره الإنسانية فيما يحب أو فيما يكره، بل كل ما هنالك أنه يعمل على تهذيبها بالطريقة التي تركزها وتثبتها في خط الإيمان وضمن إطار الفهم التوحيدي للأمور. وإذا ثبت صدق الحديث المشهور المأثور «حب الوطن من الإيمان»، فإن ذلك يؤكد علاقة العاطفة المتصلة بوطن الإنسان بإيمانه، كذلك الأحاديث الأخرى مثل «عمرت البلدان بحب الأوطان» و»من كرم المرء بكاؤه على ما مضى من زمانه وحنينه إلى

أوطانه»، كذلك ما قاله الرسول (ص) عن مكة وحبه لها، كل هذه تقر بمشروعية هذه العاطفة وباعتبارها مسألة طبيعية.

ثانيًا: الخط السياسي

وفي الخط الآخر، قد يبرز أمامنا التحفظ الفكري على بعض المفردات من ناحية المضمون، فهل يعني الالتزام بهذا الخط، أي الخط الفكري الذي لا يبعد الإنسان عن خصوصياته الابتعاد عن ملاحظة الخصوصية الإسلامية فيه، بحيث لا تمثل المصلحة الإسلامية أية قيمة في تحديد الموقف، أو تحريك القضايا في ساحة العلاقات، أو أنه يعني دراسة المسألة من الناحية الإسلامية العامة التي تلاحظ كل خصوصيات الساحة، وترعى كل المواقع بكل دقة وحكمة وواقعية، بحيث لا تلغي حقوق كل الناس في قضاياهم المتنوعة المرتبطة بالخطوط العامة؟

قد يطرح البعض في هذا المجال، الاهتمام بالمسألة الإسلامية في قضايا المسلمين فلا تمثل قضايا غيرهم إلا حالة هامشية في الموقف، لا تثير الكثير من الاهتمام، ولا تدفع إلى المزيد من التحرك؛ لأن المسألة لدى المسلم، أنه يهتم بأمور المسلمين، فليس معنيًّا بأمور غيرهم، لا سيما إذا كانت هناك خلافات في المواقف السياسية أو الاجتماعية أو الجهادية، وقد يطرح بعض آخر المسألة في اتجاه آخر، وهو أن من الصعب في النطاق الوطني الذي يخضع للتنوع في اتجاهاته، أن تفصل جانبًا من المشكلة عن جانب آخر، أو تفرق بين مصلحة المسلمين وغير المسلمين؛ لأن طبيعة التعقيد السياسي والتداخل الاجتماعي يجعل الجوانب

متداخلة والمصالح متشابكة، وبذلك يصبح البعد الوطني بعدًا إسلاميًّا في المسألة السياسية أو في المسألة الاجتماعية أو غيرهما.

فما هو الموقف بين هذين الاتجاهين؟

الوطن في المصطلح السياسي

قد نحتاج في الجواب إلى دراسة المسألة أولاً من ناحية النظرة إلى الوطن في المصطلح السياسي في نظرة الإسلاميين إليه.

فقد نلاحظ أن الوطن قد تجاوز معناه اللغوي الضيق في الأرض التي يستوطنها الإنسان، ويتخذها مقرًّا دائمًا بالمعنى الواقعي الذي يشمل مساحة معينة من الأرض، خاضعة لعنوان البلدة التي تضم بيته وبيوت الناس الآخرين، وهذا هو المعنى الذي يخضع لبعض الأحكام الفقهية في الصلاة والصيام، فقد تحول إلى معنى سياسي، يتسع لما تتسع إليه كلمة الدولة التي تضم عدة بلدان ومساحات جغرافية واسعة أو ضيقة، مما تعارف عليه الناس في تقسيم الأرض إلى دول من خلال اختلاف الحكم أو النظام أو القومية أو العرق أو نحو ذلك، الأمر الذي يفرض حدودًا للأرض وللعلاقات العامة.

وقد تطور الجانب السياسي في معنى الوطن في نطاق الدولة ليتحرك في تأثيره إلى الجانب الشعوري الذي يربي العاطفة الإنسانية لدى المواطنين ليكون الحس الوطني حالة شعورية وجدانية، تملك كل أحاسيسه، وتحدد له طبيعة علاقاته

وأوضاعه، بحيث تذوب ذاته وخصوصياته فيها، فيكون مستعدًّا لبذل دمه والتضحية بذاته في سبيل وطنه.

وقد تتحرك التربية لتجعل من الوطنية حالة وثنية، يعبد من خلالها الإنسان الأرض ويخلص لها تمامًا كما يتعبد لله ويخلص له بعيدًا عن كل القضايا المبدئية، بل قد تتطور هذه الحالة لتفرض ضرورة انسجام المبدأ مع مصلحة الوطن، فإذا تعارضت حركة المصلحة الوطنية مع المصلحة الرسالية، فإن الوطن يتقدم على الرسالة بدلاً من أن تتقدم الرسالة على الوطن، أو يصار إلى إيجاد حالة من التوازن الواقعي العملي بينهما.

عناصر مكونات الوطن

وفي ضوء ذلك يتحول الوطن إلى عنوان للفرد أو للمجتمع، بحيث يتمايز الناس بأوطانهم بدلاً من أن يتمايزوا بالعناصر الفكرية أو الأخلاقية أو غيرها.

أما العناصر التي على أساسها يطلق على أرض معينة، يقطنها شعب معين، اسم الوطن فهي:

العنصر القومي: فقد يكون هذا العنصر مدخلية في بلورة وطن وكيان سياسي، فيحدد لهما أرضًا حسب الحدود التي يأخذها حجمه البشري أو الاقتصادي أو السياسي.

وقد يكون العنصر السياسي فيما تتفق عليه بعض القوى أو الدول الكبرى،

في تقسيم الأرض إلى دول متعددة من خلال مصالحها الإستراتيجية أو الاقتصادية المتنوعة التي تفرض وجود مناطق نفوذ متفق بينهم. وقد تكون الطبيعة الجغرافية هي التي تحدد ذلك تبعًا للحواجز الطبيعية الموجودة على الأرض.

قد يكون لوحدة المعتقد لدى الشعوب الذي ينبثق عنه نظام سياسي واجتماعي، تتحدد من خلالهما المواقف والمواقع، في إطار المنهج الواحد، كالعقيدة الإسلامية التي تعتبر العنوان الذي يوحد المسلمين في وطن واحد، في إطار الخصائص الواقعية التي تفرضها أوضاع البلاد، وتستوعب غير المسلمين، ضمن خطوط عامة وقواعد ثابتة، تكفل لهم الحصول على الحرية والعدالة في نطاق المصلحة العامة. وقد تكون هناك عناصر أخرى غير هذه الأمور.

هذا كله في الإطار النظري لكن الواقع قد يحصر هذه العناصر في بعضها تبعًا لمعادلات القوى والدول التي تبقى لها الكلمة الأخيرة؛ لأنها هي التي تكسبها شرعية القيام والاستمرار، وكذلك الرأي العام الذي يبقى له بالدرجة الأولى الخيار في تحديد شكل الكيان السياسي الذي يختاره.

النظرة الإسلامية لمفهوم الوطن

ولكن الإسلاميين لا يجدون أساسًا فكريًّا في الالتزام بهذه الحدود الوطنية التي تغلق على المسلمين الباب فيما وراء الحدود. فإن النظرة الإسلامية تجد في الأرض متسعًا للإنسان في الإقامة والتحرك في أي مكان فيها من دون أن يختص بحدود معينة، ويمكن استيحاء هذا المعنى من مدلولات الآيات التالية:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك/١٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾[العنكبوت/٥٦]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾[٤/٩٧]. وقد استوحى ذلك الإمام علي (ع) في بعض كلماته المأثورة المروية عنه في نهج البلاغة: «ليس بلد أولى بك من بلد خير البلاد ما حملك».

قيام وطن إسلامي محدود

ولكن ذلك لا يمنع من وجود مصلحة إسلامية عليا في التخطيط لوطن محدود بحدود معينة بصورة مؤقتة من خلال الظروف التي قد تقتضي التركيز على مساحة معينة من دون فرق بين أن يكون المسلمون– وحدهم– هم المتواجدين فيها، أو تكون خليطًا من المسلمين وغيرهم، بحيث تكون الشرعية منطلقة من طبيعة الظروف لا من طبيعة الأرض، فيلتقي المسلمون على الالتزام به، والدفاع عنه، والتحرك في خطوطه السياسية، ورعاية أوضاعه الاقتصادية، أو نحو ذلك في العلاقات التي تشدهم إلى الأوطان الأخرى من خلال حركة المصلحة في واقع الإنسان المسلم الذي قد يكون مرتبطًا بواقع إنسان آخر، فيعمل على التكامل معه، والتعاون معه في هذه الحدود الخاصة.

وفي ضوء ذلك، فإن الوطنية مهما بلغت من القيمة المرحلية، فإنها لا تتحول إلى حالة ذاتية في الناحية الفكرية والشعورية، بل تبقى حالة طارئة خاضعة

للظروف من حيث العمق والامتداد.

الفهم المحدود للوطن

ولم يكن الإسلاميون بدعًا من الناس في هذا الفهم الواقعي المحدود للمسألة الوطنية، فهناك القوميون الذين يفهمون الوطن الذي يعيشون فيه في الحدود الإقليمية جزءًا من الوطن القومي الكبير الذي يمتد في كل موقع من مواقع الأمة، مما يجعل تعاملهم مع الوطن خاضعًا للحركة السياسية في الوصول إلى الساحة الواسعة.

وهناك الماركسيون الذين يتجاوزون الوطنية والقومية في عمق تفكيرهم السياسي المرتكز على قاعدة الخط الأممي في حركة الطبقة العاملة، مما يجعل الحدود الوطنية متحركة في البعد الأممي الكبير.

وإذا كانت المسألة تتحرك في دائرة الظرف، فقد نستطيع أن نقرر عدم وجود حالة ثابتة في حركة المفهوم في الواقع، بل هي حالة متحركة في نطاق الخط الإسلامي الإستراتيجي في علاقة الداخل بالخارج وفي امتداد الحدود إلى أبعد من الوضع الذي يحيط بها من الناحية السياسية العامة.

جبهة وطنية

وقد نستطيع الآن أن نحرك الموضوع على الصعيد الواقعي لنلتقي بكل القضايا التي يمكن أن تثار سياسيًّا في المسألة الوطنية على أساس قضية الحرية

بكل فروعها الداخلية والخارجية. فعندما تكون المسألة مثلاً مسألة احتلال معاد، أو مسألة هيمنة ظالمة، فقد يفرض علينا الواقع أن نتحرك وطنيًّا بالمعنى الواقعي، لكن في إطار الخط الإسلامي، خدمة لمصالح المسلمين أو المستضعفين من غير المسلمين، وقد يملي علينا هذا التحرك الدخول في جبهة وطنية مع القوى السياسية الأخرى التي لا تلتقي معنا فكريًّا، ولكن بشروطنا الإسلامية الفكرية والسياسية التي لا تتعارض مع الآخرين، فنشترك في تحرير هذا البلد، كمرحلة من تحرير المنطقة، أو في هدم النظام الجائر الذي يضغط على حياة الناس.

الخصوصية الإسلامية

وإذا كان البعض يجد في الخصوصية الإسلامية حاجزًا يقف بين المسلمين وبين غيرهم في المجتمع المتنوع، مما يشكل فرصة للتناحر والتقاتل والاختلاف، مما يفسح في المجال لكثير من الاختراقات المعادية، أو يؤدي إلى الفوضى والارتباك، فإننا لا نرى المسألة كذلك؛ لأن هناك أكثر من قاعدة للتوافق والتعاون أو التوحد في الموقف، خلال القضايا المشتركة التي تفرضها طبيعة الوضع السياسي الذي تعيشه العلاقات الدولية أو المحلية المتحركة في صعيد الوطن كله، كما أن المشكلة قد تعيش في جذورها في كل مواقع الخلاف الفكري أو السياسي المتنوع، مما يجعل القضية في موضع الخطورة أو القلق بعيدًا عن طبيعة الخصوصية الإسلامية وغيرها.

ولكن الحل يكمن في طريقة إدارة الخلافات وتحريك المعارضة، وإيجاد الوسائل الكفيلة، بتحويل الخلافات إلى مواقع للحوار، والصراع الفكري والسياسي بطريقة حضارية بعيدًا عن كل أساليب العنف والتهويل.

وربما كانت الأجواء الدينية التي تتحرك في داخلها الصراعات السياسية مثيرة للحساسيات الملتهبة والمشاعر المتوترة، ولكن هذه المشكلة ليست من المشاكل البالغة التعقيد إذا استطعنا التعامل معها بطريقة موضوعية على الصعيد الفكري أو السياسي، بحيث تبتعد المسألة عن موقع الإحساس إلى منطقة العقل، وتحريك الخلافات الدينية في الدوائر الفكرية بدلاً من تحريكها في الدوائر الطائفية، وإذا كانت هناك بعض الصعوبات التي تعترض ذلك في ساحة التطبيق من جهة طبيعة الذهنيات الضيقة في مجالات الخلاف التي تخضع لها ذهنيات المتدينين بهذا الدين أو ذاك، فإنها ليست بالمستوى التي تصل فيه إلى المستحيل الذي لا يمكن معالجته، بل قد نجد في الساحات السياسية الأخرى بعض ملامح هذه المشاكل.

المسألة الوطنية تحت المجهر

إن الوطنية بالمعنى الضيق المنغلق الذي تتحول فيه إلى خط فكري، ينظر بأسلوب اللامبالاة أو الرفض نحو التيارات الأخرى لا يلتقي بالمعنى المنفتح الذي تتحرك فيه الخطوط الفكرية في البعد القومي أو الإنساني أو الديني، ولا سيما الإسلامي؛ لأن طبيعة هذه الساحات الواسعة تلغي الحدود الموضوعة هنا

أو هناك.. ولكنها لا تتنكر للخصوصيات الوطنية، بالمستوى الذي يثير الاهتمام بالقضايا العامة المطروحة في هذه الدائرة، ويعمل على الدفاع عن كل المواقع التي يفرضها الواقع، ويتكامل مع القوى الأخرى المتحركة فيها في كل الأصعدة السياسية والأمنية.

إن الاحتضان الإسلامي للمسألة الوطنية ينطلق في نطاق الواقع، لا في نطاق المفهوم، ويتحرك من المواقع الإسلامية التي هي الأساس من الجانب النظري في اللقاء بالمواقع الأخرى، أو الافتراق عنها؛ لأنه لا معنى لأن تتحرك كإسلامي بعيداً عن المفاهيم الإسلامية العامة.

دور الإسلاميين

لابد للإسلاميين من التحرك بالكثير من الوعي والمرونة والانفتاح على كل الساحة لدراسة كل مواقع اللقاء والخلاف مقارنة بدراسة المفهوم الإسلامي للقضايا العامة في داخل الساحة الإسلامية وخارجها؛ لأن الأفق الضيق والعزلة عن الواقع، لا يستطيعان أن يحققا أي ربح للحركة الإسلامية في أي مجال، بل يسهلان للآخرين عزلها عن مواقع التأثير ومصادر القرار.. وإذا كان البعض يرى بأن من الضروري المحافظة على نقاء الذهنية الفكرية للإنسان المسلم حتى لا تختلط عنده المفاهيم لتدخل عليها مفاهيم الانحراف، فإننا نؤكد ذلك، ولكننا نؤكد إلى جانب ذلك، أن هناك أكثر من أسلوب للحفاظ على الأصالة، مع التحرك في خط المرونة للإيحاء بالواقعية الحركية للإسلام، وبالانفتاح على المواقع

الأخرى غير الإسلامية للحصول على كثير من إيجابياتها السياسية لمصلحة الواقع الإسلامي، وللتحرك نحو النفاذ إلى عمقها الذي سوف يجد في الإسلام الكثير من الأمور التي يعمل الأعداء على تشويه الصورة من خلالها، مما لا أساس له في حركة الواقع.

هذه هي بعض الملامح العامة للحديث عن الوطنية في النظرة الإسلامية، وربما تمس الحاجة إلى الدخول في بعض التفاصيل الأخرى التي قد نحتاج إليها في توسيع الفكرة من خلال ملاحظات المفكرين الإسلاميين التي نرجو أن نجد فيها بعض الأفكار الناقدة التي تعيننا على تأصيل المفهوم الإسلامي في دائرة المفاهيم العامة.

الانفعالية في خطوات العمل

- الانفعالية تربك سياسة المراحل

وتسحق التماسك والانضباط.

- الانفعال يحوّل الإسلام

إلى إطار طائفي لا عقائدي.

- الانفعال أحد أسباب

اختلاط الحسابات لدى العاملين.

الانفعالية في خطوات العمل

الانفعالية ظاهرة ضبابية

لعل من أبرز الظواهر التي تطبع شخصية الكثيرين من العاملين للإسلام في هذه الظروف ظاهرة الانفعالية في الأسلوب العملي، وفي خطوات العمل وفي العلاقات العامة. مما أدى إلى أن يأخذ العمل نفسه هذا الطابع. ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الظاهرة على نوعية الرؤية للواقع وللأشياء وللأشخاص، فيفقد العاملون وضوح الرؤية. فتختلط الصورة الحقيقية في العيون، وترتبك الخطوات في الطريق؛ لأن الانفعال يغرق الشخصية في أجواء ضبابية، غارقة بالسحر والإغراء في جانب آخر؛ لأنه يتعامل مع الإحساس والشعور والعاطفة، ولا يتعامل- غالبًا- مع الفكر والعقل، مما يجعل للسرعة دورها الكبير فيما يصدره من حكم، وفيما يخلقه من انطباع، وفيما يتجه إليه من غايات.. وبذلك يفقد الحكم حيثياته الهادئة المتزنة. ويغيب التركيز عن الانطباع في غمار الضباب.. وتلك هي بعض ملامح الانفعال العامة في صورته العملية.. فماذا عنه في خطوات الواقع العملي في التصور الميداني للأشياء؟

ربما استطعنا أن نحدد بعض ملامحه في السلبيات المتحركة في الطريق فيما يتعلق بعلاقات العمل وبالارتباط بالأشخاص وبالتعامل مع الأشياء، وذلك في ضمن النقطة التالية.

الانفعال تجاوز للمرحلة

في علاقات العمل: إننا نعرف من خلال الفكر والتجربة – حاجة العمل التغييري إلى المراحل الطويلة التي يتعامل فيها العاملون مع الواقع على أساس العناصر المتوافرة لديه، في نطاق الظروف الموضوعية التي تحكم الأشياء والأشخاص.. فلكل مرحلة دورها الكبير المميز الذي يتطلب الكثير من الإعداد والمعاناة والتركيز من أجل أن تولد المرحلة الجديدة، وفي ظروف طبيعية ملائمة على أرض صلبة ثابتة؛ لأن المرحلة الثانية، تعتبر جنينًا في المرحلة الأولى.. وفي ضوء ذلك، يتحدث المتحدثون عن حاجة العمل السياسي إلى مرحلة ثقافية، تركز فيها الشخصية السياسية على أساس الفكر العملي والنظري، والذي يطرح المفاهيم ويعمقها وينميها في داخل الإنسان من خلال التجربة الواعية.. والتفكير العميق ليكون التحرك منطلقًا من الخط المستقيم، لا متخبّطًا في الخطوط الضائعة في الرمال المتحركة في أكثر من اتجاه.. ويرون أن المرحلة السياسية التي لا تسبقها المرحلة الثقافية سوف تخضع للسطحية والارتجال والضياع مع الخطوط القائمة القادمة من هنا وهناك التي يختلط فيه الحق بالباطل والهدى بالضلال... وربما يختلفون في تحديد محتوى المرحلة الثقافية، هل يقتصر على الفكر العقيدي المتحرك مع المفاهيم والمصطلحات، أو يتسع للفكر السياسي الذي يحتاج إلى بعض التجربة والمعاناة بالمستوى الذي يعطي الخطوات بعض الحرية، ولكنه لا يطلقها بعيدًا نحو نهايات الطريق ولكننا لسنا بصدد ذلك فيما نخوض من حديث، بل نحن هنا

من أجل الإشارة إلى دور الانفعال في إرباك سياسية المراحل وتداخلها، فقد يدفع الانفعال العاملين إلى تجاوز المرحلة، أو اختصارها، أو القفز عنها، كنتيجة لمتابعة أو ملاحقة خطوات الآخرين الذين قد يكونون متجاوزين للمرحلة التي بدأناها الآن.. فيخيل إلينا أن الوقوف عند حدود المرحلة، يعتبر انهزامًا أو تراجعًا أو تخاذلاً، وما أشبه ذلك من المفاهيم التي تسحق فينا إرادة التماسك والانضباط، لا سيما في الحالات التي قد نحصل على مقدار من النجاح في عملية الصراع التي نخوضها ضد الآخرين فيوحي لنا ذلك، أننا في موقع القوة وهم في موقع الضعف، وأن ذلك يوجب علينا أن نقفز إلى مواقع جديدة من قضايا الصراع، مما يبعد عنا كثيرًا من العناصر المفقودة التي لابد أن توجد، أو كثيرًا من الحواجز الموجودة التي لا بد أن تزول.

الانفعال وهم كبير وحماس

وقد يدفعنا إلى ذلك، بعض حالات النجاح التي تصيبها الأفكار التي نحملها، أو المبادئ التي نؤمن بها في مواقع من حياة الأمة في زمان معين، أو مكان معين، فينطلق الحماس لدى جماهير الأمة، في الأمكنة الأخرى تأييدًا وتعاطفًا ودعمًا لهذا النجاح... فيخيل إلينا، أن الساحة التي نتحرك عليها تملك ما يملكونه من قوى وظروف وأوضاع، وتستعد للخطوات التي ساروا فيها؛ لأن الصرخات التي تنطلق في الهواء تتحول إلى ما يشبه الهدير الذي يهز الجبال؛ ولأن الصدمة التي يقابل بها الأعداء هذه الثورة، تتركهم يواجهون الموقف بما

يشبه الخوف والقلق والهلع؛ ولأن المسافة التي قطعناها وتجاوزناها من خلالها موقفنا قد بلغت مجالاً بعيدًا يقرب من مواقع الهدف الكبير.. ويتعاظم الانفعال، ويكبر الحماس.. ونكتشف بعد ذلك أن الوهم الكبير هو الذي قادنا إلى هذه الرؤية الضبابية للواقع؛ لأن طبيعة العوامل المحيطة بالساحة، والعناصر الكامنة فيها لا تتعامل مع الهزاهز السريعة التي تمر في الجو بسرعة ليعود كل شيء إلى مكانه الطبيعي.

الثورة الإسلامية وانفعال الجماهير: مشكلة تخلف فكري وسياسي

ولعل هذا هو ما عشناه أمام الثورة الإسلامية المباركة في إيران، فقد استطاعت أن تهز العالم من حولها، فتهز أعماق الإنسان المسلم، وتقتحم عليه مشاعره فيما يشبه الطوفان، وتفتح عينيه على الحلم الكبير، في عودة الإسلام للحياة من جديد، وبشكل أقوى.. تحول الأمر إلى ما يشبه التيار، وخيل إلى كثير من البلدان الإسلامية أن اليقظة الإسلامية قد حولت الجماهير إلى قوة هائلة تكتسح أمامها كل ما يصادفها من عقبات، وما يعترضها من قوى، كما تحولت القوى المضادة إلى أقزام لا تكاد تبين على الساحة لفرط ضعفها وانسحاقها.

وفي هذا الجو، كانت كلمات الثورة الإسلامية في هذا البلد أو في ذاك هي الغالبة على التصور العام للتحرك... وكان الشعور بالنصر القريب هو ما يداعب مشاعر الكثيرين.. بفعل الروحية العالية الدالة على ذلك.. ولكن الحسابات لم تتفق مع المشاعر لسبب بسيط جدًّا، وهو أن بعض المواقع الثائرة كانت تفتقر إلى

بدايات الأجواء الدافعة إلى الحركة نحو الهدف الكبير البعيد فضلاً عن الثورة؛ لأنها كانت تعيش في ضباب التخلف الفكري والسياسي، بالمستوى الذي لا تستطيع فيه أن تفهم المعنى الذي يعنيه الإسلام من حيث هو برنامج حياة ودستور أمة، مما يجعل من قضية العمل الإسلامي من أجل التغيير أمرًا يرتبط بالقضايا الجزئية، لا بالقضايا الكلية.. ولذا، فإن من السهل جدًّا على القوى المضادة أن تستعين بعناصر التخلف الغالبة على سحق التحرك الوليد الغريب، وذلك من خلال الإيحاء لها بأن مثل هذا التحرك يهدم القواعد التي قام عليها كيان الأمة، ويدفع بالمستقبل إلى أحضان الضياع، وربما كان البعض من هذه المواقع متقدمًا في خطوات العمل ومراحله بالمستوى الذي تحول فيه الوعي الإسلامي إلى تيار فكري عظيم يفرض نفسه على مجرى الأحداث في الساحة... ولكنه في الوقت نفسه لا يملك الإمكانات الفعالة التي تتيح له تحويل الوعي من تيار فكري إلى تيار سياسي ضاغط، يواجه التيارات السياسية المهيمنة على الأوضاع العامة من موقع القوة والتنظيم والصمود. فقد نلاحظ في بعض المناطق الإسلامية الثائرة أن الوعي السياسي في المدارس والجامعات، أما الطبقات الشعبية الأخرى، كالعمال والفلاحين والفئات الأخرى من الأمة، فلم تكن في هذا المستوى من الوعي، بل ربما كانت تعمل ضد هذا الوعي، أو تكتفي منه بالعاطفة الخجولة التي لا تكلفها شيئًا من التضحيات والخسائر.. الأمر الذي تفقد معه الحركة الإسلامية قوتها في الشارع، وفي السوق، وفي الحقل، والمعمل..، وبالتالي تفقد قوة الضغط على الحكم الطاغي الموجود في البلد، فتتحول التضحيات إلى تضحيات سلبية،

يمارس فيها الطغيان دور الاستفراد بالمجاهدين من دون أية ردة فعل ضاغطة.. فقد نلاحظ– ولو من بعيد، أن التحرك الجدي السريع كان بحاجة إلى ظروف أوسع، وأكبر، وأشمل من أجل توسيع القاعدة الشعبية الممتدة التي تمثل التيار القوي المندفع الذي يخلق ثقلاً نوعيًّا وكميًّا في الساحة الإسلامية في البلد... وربما كان التحرك يوحي بارتباك في مواجهة المرحلة، أو في تحديد مسارها، في نطاق العوامل الزمنية والمكانية، وقد يكون الانفعال المشدود إلى الثورة الإسلامية، في أجواء الدهشة والمفاجأة مسؤولاً عن اختلاط الحسابات لدى العاملين، لا سيما الذين كانوا لا يرون في الحركة الإسلامية في إيران عنصرًا قويًّا، يمكن له أن يحقق الثورة في الظروف الموضوعية التي تحققت فيها.. أو الذين لم يشعروا بأنها تمثل المستوى العالي من الوعي الإسلامي في نطاق المفاهيم السياسية المطروحة في الساحة.. بل كانوا يرون أنها تنطلق في خطوات غير محددة، وغير مركزة فيما كان يبدو من انطلاقها من شعارات إصلاحية لا شعارات ثورية.. فكانت الفكرة أن النجاح هناك في إيران، يفرض النجاح هنا بشكل أقوى وأسرع من دون الالتفات إلى العناصر المتوفرة في الثورة الإسلامية في إيران من قيادة المرجعية، ومن طبيعة القاعدة الشعبية، ومن الظروف السياسية العالمية، ومن الموقع الإستراتيجي المميز... مما لم يكن متوافرًا في الساحة الأخرى.. وهكذا كان الانفعال مسؤولاً عن تجاوز المرحلة وعن اختصار النظرة إلى الواقع، مما أبعدنا عن رؤية كثير من الحواجز الماثلة أمام خطوات التقدم واندفاع، وقد لا نستطيع إعطاء الحكم بالمسؤولية المطلقة للانفعال عن كثير من الخسائر والنكسات التي أصابت العمل الإسلامي والعاملين في

بعض البلدان الإسلامية..، فقد تكون هناك عوامل ضاغطة لم تسمح للعاملين بالتقاط أنفاسهم، وقد تكون هناك عوامل خاصة، جعلتهم يشعرون أن المعركة مفروضة عليهم في كل حال، سواء قعدوا أو قاموا... ولكن ذلك لا يمنعنا من التقدير بأن الحجم الكبير للخسائر، كان من الممكن أن يكون أقل، لو كانت الأمور تخطئ بمزيد من عمليات الحساب للأخطاء الكثيرة على مستوى القمة والقاعدة.

الساحة اللبنانية وطابع الاستعجال

وقد تكون الساحة اللبنانية حافلة بالكثير الكثير من هذه النماذج التي تدعو إلى الاهتزاز والسرعة، في تقويم الواقع، وفي تحريكه، لا سيما في هذه الظروف القلقة التي يرزح تحت ثقلها هذا البلد، مما جعل الكثيرين يفكرون في أسلوب المحاكاة والتقليد للآخرين، بفعل الحمى السياسية والعسكرية، ويشعرون بأن عليهم أن يخوضوا المعركة، تحت المظلة السياسية والعسكرية بعيدًا عن أية خطوات ثقافية فكرية.. الأمر الذي أوقعهم في ضغوط السياسات المحلية المألوفة التي تدور في الحلقة المفرغة الواقعية في قبضة الكفر والانحراف، ولعل طابع الاستعجال هو الذي يغلب على كل عمل من الأعمال الإسلامية، مما يجعلك تلتقي بالسؤال الطويل الدائم، عندما تتحدث عن المرحلة الثقافية، وعن التوقف طويلاً قبل الاندفاع في الطريق المتحرك نحو الهدف، أو عندما تتحرك مع الآخرين، في خطوات التوعية والتثقيف من خلال المحاضرة والندوة والصحيفة والكتاب،

ما جدوى ذلك، وماذا استفدنا منه؟ وقد يعقبون على الموضوع، بما يشبه التندّر، لقد شبعنا ثقافة إسلامية فلم نحصل على شيء.. وتتابع الدعوات في الانطلاق بعيدًا عن ذلك كله...

ويبتعد الإسلام عن عقولنا وأفكارنا والتزاماتنا ليبقى مجرد شعار يثير الحماس والانفعال، ولكن دون مضمون. فيتحول إلى إطار طائفي بدلاً من أن يعيش في إطاره العقيدي الفكري والروحي الذي يتحرك نحو الإطار السياسي على عجلة من الفكر والوعي والإيمان.

علامات استفهام أمام وحدة القيادة وتعددها

- **لا وجود لنظرية إسلامية**
في الحكم الواحد سوى النموذج النبوي.

- **النصوص الشرعية**
لا تمنع تعدد القيادات أو الدول الإسلامية.

- **على الباحثين دراسة مسألة الوحدة**
أو التعدد على الأساس الشرعي والإمكانات العملية.

- **إثارة الموضوع لأجل النقاش العلمي**
والحوار البعيد عن الانفعال الإعلامي.

علامات استفهام أمام وحدة القيادة وتعددها

بين الوحدة والتعدد

كيف نتصور «القيادة الإسلامية» في مسألة الوحدة والتعدد، وكيف نتمثل ولاية أمور المسلمين في قضية الحكم على صعيد الدولة، أو على صعيد الواقع الذي لا يتحرك في نطاق الدولة؟

هل يجب أن يكون للمسلمين دولة إسلامية عالمية واحدة تحت ولاية حاكم واحد، أو يمكن أن يكون هناك أكثر من دولة تحت قيادة واحدة، تتفرع منها قيادات فرعية، أو تحت قيادات متعددة؟ هذه أسئلة تدور في ذهن العاملين في خط الإسلام، في المرحلة المعاصرة التي بدأوا فيها يفكرون في مسألة القيادة والدولة، تفكيرًا واقعيًّا، بعد نجاح الثورة الإسلامية في تحقيق مشروع الدولة الإسلامية على أساس نظرية «ولاية الفقيه» في داخل إيران، ولابد لها من جواب.

الخليفة الواحد والدولة الواحدة

ليس هناك خلاف بين المسلمين أن القيادة المتمثلة بالنبي (ص)، تمثل الوحدة الشاملة لكل مواقع الإنسان في العالم، فهو وحده القائد من موقع أنه وحده هو النبي، فلا مجال لأي شخص أن يكون شريكًا له..، بل لابد أن يخضع الجميع لقيادته في أي مكان، فلا شرعية لأحد إلا من خلاله.

ولا نجد خلافًا لدى القائلين بالإمامة بعد النبي (ص)، في وحدة القيادة للإمام في زمانه، فلا يشاركه أحد في إمامته، ولا يملك أحد الشرعية في تولي أية مسؤولية، إلا من خلاله لأنه الولي الوحيد للمسلمين.

ويلتقي جمهور المسلمين الملتزمين بمسألة الخلافة بوحدة الخليفة؛ إلا بعض من شذ منهم، كما يذكره الماوردي في الأحكام السلطانية، فلا يجوز أن يكون هناك خليفتان في موقع واحد، بل لابد من العمل على إيجاد ضابطة شرعية لانسحاب أحدهما للآخر، أو لتقديم أحدهما على الآخر، في فرض التعدد المنطلق من الشرعية في بعض الحالات.

وقد جرى المسلمون في سيرتهم العملية في مسألة الحكم على هذا الأساس، فكان الخليفة واحدًا في كل عصور الخلافة، وكان التعدد الطارئ ناشئًا من إنكار شرعية الخليفة في بعض المواقع لمصلحة شرعية المسلمين، لا على أساس اشتراكهما في ذلك، ولا يزال الكثيرون من المسلمين يفكرون بهذه الطريقة، ويعتقدون بوحدة الدولة الإسلامية في العالم، مما يفرض وحدة الحاكم أو الولي؛ لأنه من غير الجائز أن يكون هناك حاكمان لدولة واحدة، بحيث يستقل كل واحد منهما في الحكم، في نطاق هذه الدولة، فيؤدي ذلك إلى الفوضى في الحكم والإدارة، مما يخلق ارتباكًا شاملاً في كل الواقع الإسلامي.

تعدد القيادة بين الشرع والفقه

ولكن التساؤل يبقى في الذهن ليفرض نفسه على الخط الإسلامي لدى الذين لا يعتبرون الخلافة أساسًا للحكم الإسلامي من حيث العنوان والشكل؛ لأنهم لا يرونها الصيغة الشرعية الوحيدة، بل يرون فيها تجربة إسلامية في مرحلة ثانية، تنسجم مع التطور الكبير الذي يعيشه الإنسان في هذا الجانب في حياته فيتساءلون: هل يفرض الإسلام وحدة القيادة؟ وهل يلتزم بوحدة الدولة؟ لا سيما في الظروف الموضوعية الضاغطة التي قد تمنع خضوع العالم الإسلامي لدولة واحدة، أو لقيادة واحدة، كنتيجة طبيعية للتعقيدات الكثيرة التي ربما يحتاج تجاوزها إلى وقت كبير أو جهد شديد، وذلك من خلال الضغوط الداخلية أو الخارجية؟ فهل تتجمد المسألة الإسلامية في قضية الحكم، وهل يفقد الحكم الإسلامي شرعيته، أو مصداقيته، عندما تتنوع مواقعه وتتعدد قياداته؟ مع التزامها بالشريعة الإسلامية مع الاختلاف في بعض الخصوصيات التي تتعدد فيها موضوعات الأحكام الشرعية، لا سيما إذا كان الحاكم المسلم في هذا البلد، حائزًا على ثقة المسلمين أو بيعتهم، أو على اختيار أهل الحل والعقد مع كونه جامعًا للشروط الشرعية المعتبرة في الصفة والموقع؟

إن هؤلاء الإسلاميين لا يرون مانعًا من الالتزام بذلك إذا كانت المصلحة الإسلامية الواقعة تفرض ذلك، وإذا كانت الظروف الموضوعية التي تحاصر الخيار الإسلامي في هذه الدائرة الضيقة؛ لأن النصوص الشرعية لا تمنع من ذلك،

كما أن القواعد الفقهية لا ترفض ذلك، مع التأكيد على ملاحظة مهمة وهي أن من الصعب العثور على نظرية إسلامية دقيقة في مسألة الحكم الواحد، سوى النموذج النبوي الذي يملك خصوصية النبوة المانعة من التعدد، مما لا يجعل أي نموذج آخر في المراحل التالية مماثلاً له.

نظرية الإمامة وولاية الفقيه

وهناك الإسلاميون الذين يلتزمون نظرية الإمامة، ويرون ولاية الفقيه في زمان غيبة الإمام أساسًا لشرعية الحكم الإسلامي، ولحركية الإنسان المسلم، في قضاياه العامة حتى في المواقع التي لا تلتقي بالحكم، كما في الحالات التي تسبق قيام الدولة في حركة المسلمين نحو إقامتها أو في الحالات التي يحتاج فيها المسلمون إلى تنظيم أمورهم في النطاق العام، عندما يعيشون بوحدة الولي انطلاقًا من أن الفقيه هو نائب الإمام في كل مواقعه، مما يفرض الشمولية التي تتنافى مع التعدد الذي يحول الواقع إلى ما يشبه الفوضى في مسألة الحكم والإدارة والخدمات، عندما ينطلق فقيهان ليديرا الواقع الإسلامي بشكل مستقل، بحيث يدير كل واحد منهما ظهره للآخر.

ومن أن وحدة الأمام في شرعية الحكم الإسلامي المنطلقة من وحدة النبي في ذلك، قد تقدم النموذج الوحيد لطريقة الحكم الإسلامي، مما لا يدع مجالاً لنموذج آخر؛ لأنه يفقد المثال كما يفقد المعطيات الشرعية التي تبرره.

وإذا كانت المسألة تتحرك في هذه الدائرة على مستوى الحكم الإسلامي، فلابد لها من أن تكون حركته على هذا الصعيد، في مستوى الولاية العامة لأمور المسلمين، في قضاياهم الفردية والاجتماعية، في الدائرة البعيدة عن الحكم في هذا الموقع أو ذاك.

التعددية في الحكم والفوضى

ولكن هناك رأيًا آخر يؤمن بأن التعددية في الحكم في زمان الغيبة لا تبتعد عن خط النظرية؛ لأن النص الذي يتحدث عن ولاية الفقيه، لم يتحدث عن الجانب الوحداني الشمولي في الولاية، بل تحدث عن العنوان العام الذي يمكن انطباقه على الكثيرين من الفقهاء الذين تتوافر فيهم هذه المواصفات ليكون كل واحد منهم نائبًا عن الإمام، ومجعولاً من قبله في مركز الحاكمية، وهذا هو ما نتمثله في مقولة عمر بن حنظلة عن الإمام جعفر الصادق- عليه السلام:

«انظروا إلى رجل منكم قد روى حديثنا وعرف أحكامنا ونظر في حلالنا وحرامنا فارضوا به حكمًا فإني قد جعلته عليكم حاكمًا».

لعل هذا النص يصلح أن ينطبق على ما إذا اتفق المسلمون في بلد على شخص جامع لهذه المواصفات، فرضوا به حكمًا في أمورهم العامة، في الوقت الذي اتفق فيه المسلمون في بلد آخر على شخص آخر جامع لهذه المواصفات فرضوا به حكما في قضاياهم.

وإذا كان التعدد يؤدي إلى الفوضى والفساد العام في البلد الواحد، فإنه لا يؤدي إلى ذلك في البلدان المتعددة، وإذا كانت المسألة هي مسألة الخوف على فوضى حركة التقنين للشريعة الإسلامية بين هذا البلد أو ذاك انطلاقًا من اختلاف الاجتهاد بين هذا الفقيه أو ذاك، أو تنوع الخصوصيات هنا وهناك، مما يوجب تنوعًا في الأحكام تبعًا لتعدد الموضوعات؛ فإن ذلك لا يمثل مشكلة في الواقع الإسلامي الذي اعتاد على اختلاف الاجتهادات والموضوعات.

وإذا كان الخوف من الفوضى هو الذي يجعل البعض يقرر ضرورة الوحدة في الحاكم، فإن من الممكن أن يكون ذلك سببًا لتقييد حرية هذا الحاكم في التدخل في شؤون البلد الذي يقوده حاكم آخر ليؤدي ذلك إلى التوازن فلا تكون المنطلقات كافية في تقرير الوحدة، لا سيما إذا لاحظنا أن هناك رأيًا فقهيًّا يستفيد من هذه الرواية وأمثالها، وورودها في باب القضاء ليكون مفادها الرجوع إلى القضاة الذين يمكن تعددهم حسب تعدد البلدان، فلا يجوز لقاض أن يتدخل في قضية يعالجها قاض آخر.

الوحدة والوضوح

ويلاحظ هؤلاء أن عنوان النيابة عن الإمام الذي تختزنه نظرية ولاية الفقيه لدى فقهاء الشيعة الإمامية في المسلمين يوحي بأن الفقهاء يمثلون النيابة عن الإمام بالمعنى العام تمامًا كما هي النيابة عنه بالمعنى الخاص، مما يجعل الجميع على صعيد واحد في دائرة التعدد، مما يفرض عليهم توزع المهمات العامة في

الدوائر المتعددة التي تحتاج إلى ولايتهم ورعايتهم، بشكل لا يسيء إلى النظام العام للأمة، كما لو كان الإمام حاضرًا، ومارس بنفسه تنظيم الأمور تحت ولايته العامة، بل قد يكون وجود الإمام في شرعية الولاية، مؤشرًا على توزيع الأمور في غيبته، كما هو الحال في حال حضوره لتبقى النظرة إلى الولي الأصيل في دائرة الوحدة، موجبة للبعد عن توجه الأنظار إلى شخص آخر بهذا الشمول، ويشير هؤلاء إلى أن بعض هذه الملاحظات قد لا تصلح دليلاً على المسألة بشكل مستقل، ولكنها تصلح للإيحاء بأن مسألة الوحدة ليست من الأمور الواضحة التي تمثل العنوان الوحيد لمسألة الولاية العامة للفقيه في زمان الغيبة.

الأعلمية وولاية الفقيه

وقد يثير البعض في نطاق نظرية «ولاية الفقيه» مسألة اشتراط الأعلمية في الولي تمامًا كما هو كذلك في المقلد، مما يجعل الوحدة في القيادة أمرًا مفروضًا.

ونلاحظ على ذلك أن القائلين بالولاية لا يلتزمون بذلك كنظرية مسلمة، بل الظاهر، إن القائلين بالولاية لا يلتزمون بذلك كنظرية مسلمة، بل الظاهر أن القائلين بعدم اعتبار هذا الشرط هو الأغلب، مع ملاحظة مهمة وهي أن الأعلم قد يتعدد، كما إذا كان هناك شخصان أو عدة أشخاص في مرتبة واحدة من العلم، وهناك نقطة ضعف في هذه المسألة، وهي أن من الصعب اتفاق الأمة على تحديد الأعلم، مما يجعل القضية تتحرك في الدائرة العامة أو في الدائرة الخاصة

على أساس أنه الذي يمثل الشرعية الفقهية الإسلامية في الولاية، كما يجعل الفريق الآخر الذي يلتزم أعلمية شخص آخر ملتزمًا بالولاية في وضع آخر.

الولاية وأسبقية الإشراف

وقد يتحدث البعض عن المسألة في اتجاه آخر. وهو أن الذي يسبق إلى الإشراف على الأمة في دائرة الولاية هو الذي يتعين للولاية العامة، مما يجعله مصداقًا لولي الأمر الذي تجب طاعته، أو يضعه في نطاق المصلحة الإسلامية العليا التي تفرض الانسجام معه، والسير وراءه؛ لأن الابتعاد عنه أو التمرد عليه، يؤدي إلى شق عصا المسلمين، وإضعاف قوتهم، وإذلال عزتهم، الأمر الذي يثير مسألة الطاعة في دائرة القضايا المصيرية للإسلام والمسلمين، وهكذا تتحرك المسألة في نطاق العناوين الثانوية، بالإضافة إلى العناوين الأولية المنطقية عليها.

ولكن قد يلاحظ البعض على ذلك أن هذه القضايا قد لا تعيش في دائرة المطلق، فربما تكون هناك عناوين معينة وأوضاع خاصة، كما أن السبق لا يشمل جميع الأماكن، بل ينطلق في مكان معين، الأمر الذي يجعل الآخر السابق إلى مكان آخر مصداقًا لولي الأمر من الناحية النسبية، ويجعل التمرد عليه في نطاقه موردًا للعناوين السلبية المانعة من التحرك ضده من الناحية الشرعية.

الأمة بين وحدة الولي والحكومة والمصلحة

إن القضية التي لابد من مواجهتها في مسألة الوحدة والتعدد لا تخلو من أحد أمور:

١- وحدة الحكومة الإسلامية في العالم، بحيث لا يجوز للمسلمين تأسيس حكومات إسلامية متعددة، حتى لو فرضت الظروف الموضوعية ذلك، بحيث كانت الحكومة الإسلامية أمرًا غير واقعي في المستقبل المنظور، وبذلك تكون القيادات المتعددة في الحكومات المتعددة غير شرعية.

٢- وحدة الولي للمسلمين من خلال استيحاء طبيعة المنصب العام في نطاق النبي، أو في نطاق الإمام، مما يجعل الوحدة لازمة للمنصب فيما أريد له وحدة القيادة التي تحتله، بحيث لا تكون لخصوصية النبوة في النبي، أو الإمامة في الأمام مدخلية في ذلك.

٣- وجود مصلحة إسلامية عليا تفرض وحدة القيادة أو الحكومة، بحيث يكون التعدد ضد مصلحة المسلمين، أو موجبًا للمفسدة في موقع الإسلام في حركة الحياة، وذلك من خلال أن هناك شخصًا فقيهًا يتميز ببعض المواصفات المهمة التي لا تتوفر في غيره، مما يجعل من ولايته العامة ضرورة إسلامية، بينما تكون ولاية غيره في بعض المواقع الخاصة ضررًا على الإسلام والمسلمين، أو من خلال أن هناك أوضاعًا ضاغطة تفرض ذلك.

دراسة نظريات الحكم

إن على الباحثين أن يتوفروا على دراسة هذه الأمور ليؤكدوا مسألة الوحدة أو التعدد على أساس الأدلة الشرعية في نطاق نظرية الشورى أو نظرية «ولاية

الفقيه» ليدرسوا المسألة من ناحية واقعية فيما هي الإمكانات العملية على صعيد المرحلة، أو على صعيد الإستراتيجية لتكون المسألة الشرعية منسجمة مع الشروط الموضوعية، ونحن لا نجد فيما بأيدينا من المعطيات الفقهية أي مانع يمنع من تعدد الدولة، وتعدد القيادة من حيث العنوان الأولي سوى ما يذكره البعض من مسألة الإجماع على نفي التعدد، ولكن نلاحظ على ذلك أنه– على تقدير ثبوته- مختص بالموقع الذي تملك فيه القيادة الشرعية، وليس فيه حديث عن الدائرة الواسعة أو الضيقة التي تمارس فيها صلاحياتها، مما قد يجعل المسألة تتحرك في نطاق الموقع الخاص، لا في نطاق المطلق.

وربما نلاحظ– في هذا المجال- أن التطورات المعاصرة التي عاش فيها المسلمون بالمستوى الذي أصبحت فيه الدولة الواحدة العالمية أمرًا غير ذي موضوع من حيث الإمكانات الواقعية لم تكن موجودة في السابق لتقع موضعًا للأخذ والرد في النطاق العلمي، الأمر الذي يجعلنا نؤكد عدم انتباه العلماء لذلك، فكيف يُدّعى الإجماع على ما يشمل ذلك.

إننا نريد إثارة هذا الموضوع للنقاش العلمي حتى يمكن إدارة الحوار فيه بشكل دقيق بعيدًا عن الاستهلاك الانفعالي الإعلامي.

ولم يكن هدفنا في هذا الحديث إلا إثارة علامات الاستفهام حوله، مع بعض الإشارات الفقهية السريعة للإطلالة على بعض مواقع البحث في هذه المسألة المهمة الدقيقة.

الدولة الإسلامية بين الإسلامية والمذهبية

- الجو الإسلامي الوحدوي

يسمح بالحوار ويحرر الناس من العقد.

- الدولة الإسلامية تمثل

عزة المؤمنين وقوة الدعوة وفرصة لتطبيق الأحكام الشرعية.

- على الحركة الإسلامية تقديم

الدعم الكامل لأية دولة إسلامية.

- البديل من الوقوف مع الدولة الإسلامية

هو خذلان الإسلام وسيطرة الكفر.

الدولة الإسلامية بين الإسلامية والمذهبية

العصبية والمشكلة المذهبية

ربما كان من المشاكل العميقة التي تواجه الثورة الإسلامية في حركيتها في المجتمع الإسلامي مشكلة المذهبية التي تحولت إلى حالة ذهنية عصبية متحجرة بدلاً من أن تكون حالة فكرية منفتحة متحركة، مما جعلها تترك تأثيرها العميق على المحتوى النفسي للإنسان المسلم في نظرته إلى المسلم الآخر. وربما تفاعلت في بعض المواقع الإسلامية، فتحولت لديها إلى حالة من الغلو التي تنظر إلى الآخرين، كما لو لم يكونوا من المسلمين فتعتبرهم حالة كفر أو شرك في داخل الإسلام لتكون مشكلة في العقيدة التي تشكل نوعًا من الخطورة على الإسلام نفسه، لا مشكلة في الشريعة، أو في الفهم الاجتهادي لتفاصيل العقيدة.

وفي ضوء ذلك، كان الواقع المذهبي يقيم حواجز نفسية تثير العصبيات في المجتمعات الإسلامية لتفصلها عن بعضها، وتقسمها إلى مجتمعات سنية، ومجتمعات شيعية، قد تتخذ كل واحدة منهما، مواقع مستقلة عن مواقع الأخرى، وقد يجد بعضها لأفرادها مصالح تختلف عن مصالح أفراد الآخرين.

مشكلة الموقع الوحدوي الإسلامي

ومن هنا نشأت المشكلة في حركة الثورة الإسلامية، أو في نظرية التغيير

الإسلامية، فكيف يمكن أن تنطلق الثورة من موقع وحدوي إسلامي في مثل هذا الجو النفسي الذي تتحرك فيه الحواجز العصبية الكبيرة، إذا كانت تنطلق من موقع مذهبي معين مرفوض من الموقع المذهبي الآخر؟

ولا تقتصر المسألة على المفردات النفسية في الساحة الإسلامية، بل تمتد إلى الوضع السياسي الذي تستغله المحاور والتيارات الكافرة في الموقع الدولي الذي يعمل على إجهاض أية ثورة إسلامية تغييرية، ضد اتجاهاته الفكرية والسياسية ومصالحه الاستكبارية، وذلك من خلال تعميق الحالة النفسية المذهبية التي تمنع التواصل بين المسلمين في التحرك السياسي الموحد مما تسمح له بالنفاذ إلى بعض المواقع الثورية؛ لإثارتها ضد المواقع الأخرى، بطريقة وبأخرى.

وتتكاثر علامات الاستفهام في هذه الأجواء لتثير المزيد من التفكير الذي ينبغي للعاملين أن يحركوه في اتجاه إيجاد الحلول العملية للمشاكل الإسلامية التي تقف في وجهة حركة الثورة الإسلامية.

هل يمكن أن تكون هناك نظرية إسلامية موحدة في حركة الثورة في مسألة الحكم، بحيث يلتقي المسلمون عليها في الجانب العملي، حتى لو اختلفت المفردات التفصيلية فيها في الجانب النظري، فلا تجد فيها هذا الجانب حالة غير شرعية، أو يرى الآخر حالة غير ملزمة؟

نظرية الإمامة والخلافة

قد يثير البعض في هذا المجال أن هناك نظريتين في الفكر الإسلامي، هما نظرية الإمامة ونظرية الخلافة اللتان تختلفان في الخطوط، وتختلفان في الأسماء، مما يمنع من اللقاء بينهما على خط واحد، أو يحركهما في أسلوب واحد، فلا يجد الملتزمون بالمذهب السني، أساسًا فكريًّا إسلاميًّا يربطهم بنهج الإمامة، ولا يجد الملتزمون بالمذهب الشيعي، أساسًا فكريًّا إسلاميًّا يربطهم بنهج الخلافة، وبذلك يفقد كل وحد منهما الأساس الذي يلتقي فيه بالآخر ليتحد معه، أو ليتكامل معه، فكيف نواجه المسألة؟

إننا لا نرى هناك مشكلة كبيرة في الجانب العملي؛ لأن المسألة المطروحة هي كيف يمكن للمسلمين أن يعيشوا في داخل المجتمع الإسلامي الذي يحكمه أو يتحرك فيه فريق مذهبي إسلامي معين فيما هي الحركية، وفيما هو الخط العملي؟

١ تجربة الخلفاء الراشدين

والجواب عن ذلك، أولاً: إن هناك تجربة إسلامية رائدة، وهي الواقع الإسلامي الذي عاشه المسلمون في مرحلة الخلفاء الراشدين، فقد كانت المسألة التي واجهها الإمام علي (ع) هي حقه في الخلافة الذي لم يحصل عليه من خلال طبيعة التطورات التي عاشتها مسألة الحكم في تلك الفترة، مما قد تطرح في الموقف قضية الشرعية وعدم الشرعية للحكم آنذاك التي قد يستتبعها التفكير في التحرك السلبي المضاد، أو الوقوف بعيدًا عن ساحة المسؤولية.

ولكننا رأينا الإمام (ع) يطرح الخط العملي كأساس للموقف فيقول في بعض كلماته المأثورة عنه: «لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين..» ليعطي القاعدة الإسلامية التي تؤكد على أن النظرة في مثل هذه الأمور ينبغي أن تتركز على الخط العام للسلامة العامة للواقع الإسلامي في الحكم الإسلامي، لا على المفردات التفصيلية التي تتحرك في داخل الحكم وخارجه، فليست القضية المطروحة هي في الموافقة على هذا العمل أو ذاك، أو على هذا الفهم للحكم الشرعي أو ذاك، بل القضية المطروحة هي كيف يمكن الحفاظ على السلامة الإسلامية العامة للوجود السياسي الإسلامي ونجده (ع) يتحدث في حديث آخر، كما ورد في نهج البلاغة فيقول:

«فما راعني إلا انثيال الناس على فلان– ويقصد أبا بكر– يبايعونه فأمسكت يدي حتى إذا رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يريدون محق دين محمد (ص) فخشيت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلمًا أو هدمًا تكون المصيبة به عليَّ أعظم من فوت ولايتكم هذه التي إنما هي متاع أيام قلائل يزول منها ما زال كما يزول السرب أو كما ينقشع السحاب، فنهضت في هذه الأحداث وتلك حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين وتنهنه».

الإمام علي (ع) المعلم والمعاون

فإننا نلاحظ أن السلبية المتمثلة بالمقاطعة كانت هي الأسلوب العلمي الأول للإمام في هذه المسألة، ولكنها تحولت إلى إيجابية واقعية بعد ذلك عندما لاحظ أن

هناك خطرًا كبيرًا من خلال مسألة الردة التي بدأت تفرض نفسها على المجتمع الإسلامي آنذاك، وأن هناك إمكانية حدوث مشاكل فكرية وعملية تناقض فكر الإمام علي (ع)، وحركته الفاعلة في بناء القوة الإسلامية ومنع عناصر الهدم من أن تفرض نفسها على الواقع هناك. وهكذا دار الأمر لديه بين أن يجمد الموقف المتحرك في هذا المجال لينصرف إلى معالجة الأمور الخطيرة الطارئة التي قد تتحول إلى خطر على الإسلام نفسه لتكون المصيبة هي مسألة سقوط الإسلام أمام التحديات الداخلية والخارجية، لا مسألة الابتعاد عن الحكم من الناحية الذاتية؛ لأن مثل هذه الانفعالات الشخصية ليست واردة في حساب الرساليين. وهكذا كان علي (ع) في موقفه الإسلامي مشيرًا ومعلمًا ومعاونًا وناقدًا وناصحًا من دون أن تأخذه في الله لومة لائم، وهكذا كان المرتبطون بعلي (ع) في مواقفهم العملية لذلك لم نر هناك أية مشكلة معقدة في كل تلك المدة، حتى في قصة الثورة على عثمان، كان موقف علي (ع) هو الموقف الذي حاول أن أخذ فيه دور الوسيط بين الثائرين وبين الخليفة، ثم دور الذي يرسل ولديه للدفاع عنه، مع كل ما يحمله في فكره من نقد حقيقي لسلوكه في الخلافة.

النموذج الوحدوي المنفتح

إننا نقدم هذا النموذج الوحدوي في الموقف المنفتح على الفريق الآخر في الصورة الرائعة التي ينسجم فيه الرمز الأول للمعارضة، باعتباره الإنسان الذي يملك الحق في الخلافة فيما يراه، وفيما يعتقد الكثيرون أنه الحقيقة لتجري المسيرة

الإسلامية في الخط العام، حيث لا خطورة على مستوى القضايا العامة، بالرغم من التحفظات على كثير من المفردات والتفاصيل؛ لأن السلبية قد تمنع الإسلام الذي يواجه التحديات من كل موقع حوله، ويعيش الأخطار في الداخل والخارج من قوة كبيرة، تستطيع أن تحمي الكثير من المواقع، وتركز الكثير من المواقف، وتسيء بالتالي إلى سلامته على أكثر من صعيد.

وفي ضوء ذلك، يمكننا دراسة المشكلة المذهبية التي قد يملك فيه مذهب إسلامي معين موقعًا قياديًّا متقدمًا من خلال نجاحه في السيطرة على بعض الساحات الإسلامية سياسيًّا أو فكريًّا، أو بشكل شامل، يتمثل في قيام دولة على صورته، مما يعطي للإسلام دولة جديدة، ومحورًا سياسيًّا مميزًا، وحركة ثورية فاعلة، الأمر الذي يمنح أية حركة إسلامية سياسية أخرى بعض القدرة على تجربة جديدة في مواقع أخرى لتكون الدولة الإسلامية الثانية، والموقع الإسلامي الجديد، أو يحقق لها على الأقل، قوة – حركية فيما تحصل عليه من بعض الفرص، أو انفتاحًا على الدعوة للإسلام بشكل أكثر فاعلية، وأشد قوة وعلى كل حال، فإن الإخلاص للإسلام، يفرض على الحركة الإسلامية أو تلك، أن تقدم الدعم الفكري والسياسي والاقتصادي؛ لأن سقوط التجربة الإسلامية للدولة الوليدة تحت تأثير قوة الكفر فيما يعيشه من الشعور بالخطر على مواقعه وامتيازاته من خلالها، يعني صعوبة أو استحالة قيام دولة أخرى في ظروف قادمة؛ لأن الأعداء سوف يمنعون ذلك، عندما يستعدون للمواجهة قبل تحقق الانتصار؛

ولأن المعارضة القائمة على العصبية المذهبية، سوف تتمثل في عصبية أخرى، تتحرك في مواقع الهدم لا في مواقع البناء.

بين النهج الإسلامي والكافر

إننا نلاحظ في هذه الدائرة أن من الإخلاص للإسلام أن نفكر بجدية في الأفق الإسلامي الواسع الذي يوحي بالتعاون في المسألة من ناحية المبدأ بدلاً من التناحر والتخالف والتحارب؛ لأن الأمر قد يدور في الساحة العامة بين أن يكون الحكم لنهج إسلامي قد تختلف معه في بعض الأفكار العقيدية، أو في بعض الاجتهادات الشرعية، أو في بضع المواقف السياسية، وبين أن يكون الحكم للنهج الكافر، المتمثل بالخط العلماني الذي يتسع للأفكار الملحدة، أو الضالة في غير الاتجاه الديني.

إن المسألة المطروحة هي: هل نحافظ على المبدأ مع تجاوز بعض التفاصيل، أو نثير المشكلة في المبدأ والتفاصيل لننسف الواقع الذي يقوم على حركة المبدأ؟

وقد لا نحتاج إلى الكثير من الجهد لنقرر: إن إسلامًا لا نرضى عن بعض تفاصيله، أفضل من كفر لا نلتقي معه في أي شيء.. ولن يكون من الواقعي ومن الإخلاص للإسلام أن نتحدث كما يتحدث بعض الناس بأن الكفر أقرب إلينا من إسلام مخلوط ببعض الكفر، أو ببعض الشرك، أو ببعض الانحراف فيما تتصوره اجتهاداتنا الكلامية، أو الفقهية، أو أنه يتساوى معه؛ لأن مثل هذا

الكلام يوحي بالتعصب الذي يريد أن يدمر خصمه حتى لو كان في ذلك تدمير نفسه.

العصبية للشخص والحركة

وقد لا يقتصر هذا النوع من التفكير السلبي على الجانب المذهبي، بل قد يمتد إلى المواقع الحركية ذات التفكير المتعدد في وعي العمل الإسلامي، حيث تفضل حركة إسلامية، أن تبقى الساحة في سيطرة الكفر العقيدي أو السياسي بدلاً من سيطرة الحركة الإسلامية الأخرى، وقد يمتد إلى بعض المواقع المرجعية في دائرة الزعامات الإسلامية التي قد يجد اتباع هذا الشخص أو ذاك في انتصار زعيم إسلامي معين مشكلة كبيرة، قد يفضلون معها أن يسقط حكمه الإسلامي على يد الكفر والانحراف على امتداده في حياة الأمة بالمستوى الذي يؤثر فيه تأثيرًا سلبيًّا على مكانة الشخص الذي يتبعونه، وقد يحاولون التقاط بعض الأخطاء، أو بعض الانحرافات أو بعض المواقف غير الشرعية للتأكيد للناس بأن هذا الحكم غير إسلامي، أو أنه خطر على الإسلام أكثر من خطورة الحكم المبنى على قاعدة غير إسلامية، مما يكون تابعًا للشرق أو للغرب، وذلك من خلال العصبية للشخص، أو للحركة أو لغير ذلك.

٢ الاجتهاد والمسائل الفكرية

وثانيًا: إن المسألة لا تحمل أية مشكلة معقدة مستعصية؛ لأن التحفظ الذي قد يسجله اتباع الرأي الآخر على الدولة الإسلامية التي تتبع مذهبًا آخر، ربما

ينطلق من بعض تفاصيل العقيدة، كما قد يحركه فريق من المسلمين حول فريق آخر فيما قد ينسبونه إليهم من العلو في بعض الشخصيات القيادية من أئمة المسلمين، أو من الانحراف في بعض تفاصيل التوحيد، مما قد يخرجونهم به عن الإسلام، أو يحركه فريق آخر، حول بعض الشخصيات القيادية لدى فريق آخر من المسلمين، مما قد ينسب إليهم، بعض الانحرافات الكبيرة عن خط الإسلام. ولكن المسألة مهما كانت مهمة وخطيرة في نظر أصحابها، فإنها لا تؤثر تأثيرًا سلبيًّا كبيرًا على مستوى حركة الحكم الإسلامي؛ لأن بعض الأشياء تتصل بالتاريخ ولا تتصل بالحاضر، مما يجعل المسألة فيها، مسألة التصور الذي لا يغير كثيرًا من المسار العملي في الواقع، كما أن الخلاف في حدود التوحيد فيما يثيره هؤلاء أو أولئك، لا يقتصر على فريق دون فريق؛ لأنها ليست من المسائل المذهبية التي تمثل الانقسام الرسمي بين المسلمين، بل هي من المسائل الكلامية التي قد يلتقي فيها جمهور السنة والشيعة، مع تحفظ بعض الناس في ذلك، وبذلك تتحول المسألة إلى مسألة فكرية، يمكن أن يتوفر عليها الباحثون بالطريقة العلمية ليصلوا إلى حلها بشكل وبآخر، كما يمكن أن نلاحظ، أن مسألة التقييم للشخصيات سلبًا أو إيجابًا، أو مسألة ما يسمى بالغلو في التقييم، لا تمثل مشكلة مستحيلة الحل من الناحية الفكرية، مادامت لا تقترب بالإنسان من درجة الألوهية، أو من درجة النبوة، فيمن لم يكن نبيًّا، مما يعني أن الاجتهاد قد يصل بها إلى حل معقول، أو نتيجة حاسمة.

جو المسؤولية

وهكذا نرى أن هذه المسألة هما كانت خطيرة، فإن خطورتها ليست دائمة، مادام الجو الإسلامي الوحدوي في نطاق الدولة الإسلامية، يسمح بالحوار حولها من داخل مواقع اللقاء التي تتيح للمتحاورين جوًّا نفسيًّا، يختلف عن مواقع النزاع والخلاف، مع ملاحظة مهمة، وهي أن جو الدولة قد يفسح المجال للكثير من الانفتاح، في كثير من القضايا المختلف عليها، مما يساعد على حلها بطريقة سريعة؛ لأن جو المسؤولية المنفتحة قد يحرر الناس من كثير من العُقَد الصعبة التي يؤكدها الجو العادي البعيد عن طبيعة المسؤولية.

بين المذهب والقانون

وقد ينطلق التحفظ من خلال الخلاف في بعض القضايا الشرعية التي تختلف فيها الاجتهادات المذهبية في مذاهب السنة والشيعة فقد يرى فيها البعض مشكلة للدولة فيما قد تختلف فيه قوانينها العامة والخاصة عن قوانين هذا المذهب أو ذاك، مما قد يثير لدى المسلمين الذين يختلفون مع مذهب الدولة الاجتهادي، مشاكل حياتية كثيرة، وازدواجية فقهية عملية بين ما هو المذهب وبين ما هو القانون.

ولكن هذه المشكلة، في صورتها العامة ليست مشكلة السنة والشيعة فحسب، بل هي مشكلة المذاهب الفقهية المتعددة في دائرة المسلمين من أهل

السنة، كما هي مشكلة الاجتهادات الفقهية المتنوعة في دائرة المسلمين الشيعة، عندما يتبع بعض الناس مجتهدًا في التقليد، ويتبع أناس آخرون مجتهدًا آخر، ولذلك لابد من معالجتها على أي حال، في أية دائرة من دوائر تجربة الحكم الإسلامي.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الخلافات بين السنة والشيعة، أو بين المذاهب الفرعية، أو الاجتهادات المتنوعة في داخل المذهب الواحد ليست بالمستوى الذي يثير مشكلة كبيرة؛ لأنه قل أن تجد مذهبًا فقهيًّا، لا يتفق مع مذهب آخر في قضايا المعاملات والأحوال الشخصية، ونحو ذلك، مما يضيق هوة الخلاف، ولا سيما إذا أطلقت الدولة للناس أمر اختيار مذاهبهم الخاصة في الأحوال الشخصية، ومع ملاحظة أنها لا تتدخل في الشؤون العبادية فيما يختلف فيه المسلمون في شروط العبادات.

وقد نثير ملاحظة أخرى في الموضوع، وهي أن الاختلاف بين المسلمين في مذاهبهم، لن يكون بأكثر من اختلاف المسلمين مع العلمانيين، إذا كانت الدولة علمانية في قوانينها الوضعية، فكيف يصبر فريق من المسلمين أو حركة إسلامية على العيش تحت سلطة غير المسلمين، ولا يصبرون على الاختلافات الجزئية في ظل دولة إسلامية فيما يشتمل عليه قانونها الإسلامي من أحكام.

التحديات وتأييد الدولة الإسلامية

وثالثًا: إن التحديات الخطيرة التي تواجه العالم الإسلامي في عقيدته، وشريعته، وثورته وسياسته، واقتصاده وثقافته، وأمنه تفرض على المسلمين التطلع إلى إقامة دولة، أية دولة، تلتزم مواجهة هذه التحديات من موقع الفكر الإسلامي قاعدة وشريعة وحركة، بحيث يكون النهج الإسلامي في استنتاج الفكر هو المتبع في الاجتهاد الفكري، بشرط أن تنطلق في حركتها السياسية من هذا الموقع، لا أن تكون تابعًا هامشيًّا للمحاور الدولية الاستكبارية فيما تخططه من خطط، وفيما تحركه من مشاريع، وفيما تثيره من أهداف، ومن هنا فإن المفروض أن يفكر الإسلاميون على مستوى مراجع التقليد، أو على مستوى الحركات الإسلامية بأن الوقوف مع هذه الدولة الإسلامية، يمثل الوقوف مع حركة الدعوة الإسلامية من موقع متقدم؛ لأن الدولة تعطي الدعوة للإسلام، حركية عالمية من قاعدة القوة الكبيرة، كما يمثل الوقوف مع حرية المؤمنين وعزتهم التي أرادها القرآن الكريم، كقيمة أساسية من قيم الإسلام في الإنسان، كما تمثل الفرصة الكبيرة لتطبيق الأحكام الشرعية المنطلقة من اجتهاد إسلامي، قد يختلفون معه في بعض نتائجه، أو في بعض تطبيقاته ولكنهم لن يختلفوا في الإقرار بأنه ينطلق من القواعد الإسلامية المقررة.

إن البديل من الوقوف مع الدولة الإسلامية هو الابتعاد عن ساحة الصراع على أساس خذلان الإسلام فيما يحتاج إليه من القوة، والخضوع لسيطرة الظلم

الكافر الذي يمتد ظلمه للإسلام كله، وللمسلمين كلهم، أو التنسيق مع حركات الكفر في الاستكبار العالمي، أو الإقليمي، أو المحلي؛ لإسقاط هذه الدولة، لا ليكونوا البديل لتكون حجتهم أنهم يعملون للإسلام النقي الصحيح، بل ليكون الكفر هو البديل في الحكم والقانون والسيطرة الشاملة، وهذا ما لا يتفق مع أي منطق إسلامي، في أي اجتهاد وفي أي مذهب.

المشروع السياسي بين العنوان الإسلامي والعناوين الأخرى

- ضرورة إخراج الدين

من المفهوم العبادي الضيق إلى الحياتي الواسع.

- على العاملين التحدث بصراحة

وفتح القلوب على الإسلام بأصالته وكليته.

- مسألة الدعوة العالمية

هي صدم الواقع لفرض نفسها على الساحة.

- لابد من وضع الإسلام في الواجهة

في كل مشاريعه العامة والخاصة.

المشروع السياسي بين العنوان الإسلامي والعناوين الأخرى

قد يثور الجدل بين العاملين في الدائرة الإسلامية، حول الأسلوب الأفضل للعمل الإسلامي في معالجة القضايا العامة التي تتحرك في البلاد الإسلامية، أو الواقع الإنساني في حياة المستضعفين، بشكل عام، سواء كانت هذه القضايا، متحركة في الجانب المحلي لهذا البلد أو ذاك، أو في الجانب الخارجي، في نطاق المنطقة، أو في نطاق العالم.

التيار الإسلامي ولونه الفاقع

أما محور هذا الجدل، فيدور حول طريقة إثارة القضايا ليكون هو الذي يحكم الحركة، ويضع الخطوط ويحدد الهدف، ويثير الأجواء الإسلامية في طبيعة المفردات، وفي أسلوب الطرح، وفي القاعدة الفكرية التي يخضع لها التخطيط والحوار، فتكون المسألة في طبيعتها، أن التيار الإسلامي هو الذي يدخل ساحة الصراع بلونه الفاقع المميز في مواجهة التيارات الأخرى التي تملك ملامحها الواضحة في نفس الساحة من موقع الوضوح والتحديد؟ أو أن نصل إلى عمق هذه القضايا في مصداقيتها الواقعية لتتحقق في المجتمع ميدانيًّا بعيدًا عن العناوين السياسية البارزة التي قد تثير الكثير من الحساسيات، وتعقد الكثير من الحلول. وليست قضية الإسلام في الواقع، أن يؤكد اسمه وشعره، بل هي أن يؤكد وجود

حلوله في الحياة؛ لأنه جاء من أجل إقامة العدل وهدم الظلم، فلا مشكلة مع الوصول إلى الهدف من إغفال الواجهة وإسقاط العنوان.

فكيف نثير المسألة في حديثنا فيما يثيره هؤلاء من معطيات فكرية وعملية، أمام وجهة نظرهم، في حركة التساؤل؟

الطرح العام والأجواء المحمومة

قد يقول الفريق الذي يتبنى طرح المسألة السياسية في القضايا الإسلامية بطريقة عامة أن القضايا المصيرية الإسلامية من محلية وخارجية، تصطدم في مشاكلها الكثيرة المعقدة بالواقع السياسي المحلي أو الإقليمي أو الدولي الذي يحمل أكثر من لون، أو أكثر من واجهة، كما تلتقي بالواقع الفكري المتنوع الذي يحتضن الإسلام في بعض دوائره، ويصطدم به في بعض آخر، ويقف بعيدًا عنه في دائرة ثالثة، ويواجه كثيرًا من التحديات الصعبة التي تثير الحساسيات والمشاعر الطائفية والمذهبية والقومية والحزبية المعقدة وتخلق الكثير من الأجواء المحمومة العنيفة.

وعلى ضوء، فإن العاملين المخلصين للإسلام وللمسلمين، يعملون على أساس الوصول إلى نتائج واقعية علمية من أقرب طريق وبأسرع وقت للابتعاد بالواقع عن سلبيات المشكلة، ونتائجها المؤلمة في حياة الناس.

ولابد لهم في سبيل ذلك من إبعاد الأرض التي يتحركون فيها عن أكثر العوامل الموجودة إثارة ليلتقي الكثيرون في الساحة المشتركة التي لا تبتعد عن

الساحة الواسعة للإسلام، بل تتصل بالكثير من مواقعها ليكون ذلك أساسًا للحصول على أكبر قدر ممكن من التأييد الشعبي للمشروع الذي يمثل الحل الأمثل للمشاكل الصعبة التي يعيشها المسلمون.

ولن يكون ذلك إلا بإبعاد الإسلام عن الواجهة؛ لأن الحديث عن الإسلام في العنوان البارز للمشروع يبعد الكثيرين الذين لا يرتاحون للانتماء الإسلامي عنه كما يصرف الذين يقفون ضده، أو الذين لا يلتقون به، ولا يريدون أن يقحموا أنفسهم في المشاريع التي يكون مشرفًا عليها، وبذلك يفقد المشروع فاعليته وتأثيره، عندما يفقد شعبيته الكبيرة لدى الناس مما يجعل العاملين يربحون العنوان، ويخسرون المعنون، ويحصلون على الشعار، ويفقدون الواق.

وقد تكون المسألة أكثر أهمية، إذا كان البلد الذي يتحرك فيه المشروع متنوعًا في اتجاهاته الدينية، بحيث يعيش التعددية في طوائفه ومذاهبه على النحو الذي يأخذ فيه الخط السياسي ألوانًا طائفية متنوعة. وتأتي العناوين الدينية لتخلق تعقيدًا لأي حل للمشكلة؛ لأن العنوان هو الذي يحكم التصور والتحرك، ويثير الحماس والاندفاع، وليس الواقع؛ لأن الجو الطائفي المحموم قد يكون مستعدًّا لإجهاض أفضل المشاريع واقعية لمصلحة الانتماء الطائفي الذي يحمله؛ لأنه لا يتناسب معه.

ولهذا، فإن الأسلوب العملي هو الانطلاق في الحلول من ناحية عامة لتتحرك في الواقع من دون تعقيدات، حتى لا نبقى نتحرك في الدوامة التي لا تنتهي إلى أي شيء على صعيد الحل.

الطرح العام وكشف الأوراق

ويتابع هذا الفريق الحديث عن رأيه فيقول: إن الذين يتحدثون عن الوضوح في الطروحات السياسية ساذجون في الفهم السياسي لقواعد اللعبة السياسية التي يديرها الكبار ويتحرك في دائرتها الصغار، وتنطلق من خلال خلط الأوراق في كل وقت، ومواجهة الواقع على أساس سياسة اللف والدوران، واللعب على الحبال، مما يجعل الإنسان الذي يعيش في داخلها محكومًا بقواعدها، وخاضعًا لوسائلها، ومبتعدًا عن كشف ما عنده من الأوراق على الأقل حتى لا يخسر الرهان في أول الطريق؛ لأن الذي لا يفهم أصول اللعبة، ويعمل على كشف أوراقه، سوف يغري الآخرين باقتحام كل نقاط الأمن لديه، وبإضعاف كل فرص الربح عنده.

أما الحديث عن الإسلام في تقوية مواقعه، وتأكيد مفاهيمه، وتعميق وجوده في عقول الناس وقلوبهم ومشاعرهم، فهو أمر حيوي ومهم جدًّا، ولكن في دوائر أخرى هي دائرة الدعوة الفكرية التي تثير المسائل الإسلامية في الوعي الفكري العام، في كل جوانبها الفلسفية والتشريعية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ودائرة الممارسة العبادية، في انفتاح الإنسان على الله، ودائرة السلوك الأخلاقي الذي يتصل بالحياة العملية للناس، وذلك من دون الدخول في أية ملامسة للمسألة السياسية بعنوانها الإسلامي الذي يتحرك في منطق الانتماء على صعيد الواقع.

وبذلك نضمن إبقاء الإسلام في حركة الوعي الفكري للإنسان، كما نضمن نجاح المشروع السياسي في القضايا العامة للمسلمين من دون أية مشكلة أو أي تعقيد.

وقد يتحدث بعض هؤلاء عن المرحلية في بعض هذه المشاريع فيما يمكن أن تكون خطوة متقدمة نحو الهدف الإسلامي الكبير، في قضية الحكم الإسلامي في نهاية المطاف، مع الأخذ في الاعتبار، أن السرية في التخطيط والحركة والعنوان، تمثل السبيل الأفضل نحو الوصول إلى الأهداف بدون تعقيدات كبيرة.

الدين والمسألة السياسية

ويرى الفريق الثاني الذي يؤكد العنوان الإسلامي للعمل السياسي أن المسألة في المرحلة الحاضرة هي إفساح المجال للإسلام ليبرز في دوره الطبيعي كدين يحمل في داخله الفكر والشريعة والحركة والمنهج في الأسلوب والهدف؛ لأن التخلف الفكري في المفهوم الديني، قد استطاع أن يعمق في فكر الناس من قياديين وأتباع أن الدين ليس حركة في الحياة، بل هو حركة في الذات، وأن الشأن المدني، بفصوله السياسية والاجتماعية والاقتصادية لا يدخل في عمق التخطيط الديني، بل يدخل في الشأن الأخلاقي الذي قد يطل على هذه الجوانب من بعيد.

وفي ضوء ذلك، فقد خرج الدين من دائرة الصراع السياسي ليبقى شأناً طائفيًّا، يجمع الناس حوله من خلال العناوين الروحية القائمة التي تختزن المشاعر السلبية لتضع الحدود الفاصلة بينهم، في أجواء الأحقاد المتراكمة التي تعمل على إبعاد العنصر الإنساني في قيمه الروحية عن العلاقات الإنسانية.

ولم يعد للدين، ولا لعلماء الدين دور فاعل في ساحة العمل السياسي بالمعنى الإسلامي الذي يثير الحركة في حياة الناس العامة، بل أصبح مجرد هامش للإثارة، أو للتوجيهات العامة، أو لإعطاء الآخرين بعض البركة الدينية للمشاريع المتنوعة، أو للأشخاص البارزين.

وهكذا بدأت المسألة السياسية تحتضن التيارات الماركسية والقومية والوطنية في مواقعها الفكرية وفي شخصياتها الفاعلة، وفي مشاريعها العملية للتخطيط للحياة في أهدافها الكبيرة، وفي نظامها المتحرك.

وأصبحت المؤسسات الدينية مجرد مواقع وتجمعات خيرية واجتماعية، لا تملك إلا أن تضيف للواقع السياسي بعض المساحيق التجميلية، وللجو الديني بعض جمالات الروح.

ويضيف هذا الفريق إلى هذه الأفكار: إن الفريق الأول لا ينكر شمولية الإسلام للحياة، ودوره في حركة الحكم، واستهدافه الوصول إلى إدارة أمور الناس من خلاله، في شريعته الشاملة لكل الجوانب العامة، ومواجهته لكل

التيارات العقائدية في جانبها الفكري والعملي ليكون الدين كله لله وليستوعب الدين كل الساحة.

وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكننا الوصول إلى ذلك في نطاق الأجواء التقليدية التي يثيرها الأعداء في ساحات الدين من خلال الدعوة والممارسة ومن خلال الرواسب العميقة التي تحملها الأمة عن المساحة الضيقة التي يملكها الدين في حركته مع الناس، مما يمنعه من التحرك بحرية في الساحة الواسعة بفعل معارضة الأمة في الداخل قبل معارضة الأعداء في الخارج.

تغيير الوجدان الحركي

إن المسألة المطروحة ليست هي التثقيف الفكري الذي يملأ الفكر بالمعنى الشامل للدين، بل المسألة هي تغيير الوجدان الحركي، في احتوائه المنهج الديني، وانفعاله به في الواقع، بعيدًا عن الأوهام التي تبعده عنه انطلاقًا من تضخيم المشكلة في وعيه، وتحجيم الدين في مفهومه، ولن يكون ذلك، إلا بالعمل السياسي المباشر الذي يضع الجميع وجهًا لوجه، أمام العنوان الذي يحدد وجهة السير من موقع البداية من حيث ينطلق الآخرون أو يتحركون.

إن الدعوة إلى الإسلام ليست حركة في الموقع الفكري للإنسان، بل هي حركة في الموقع العملي الذي يتولى التثقيف بالممارسة، كما يتولى ذلك بتحريك الفكرة بالخطاب والتوجيه، وقد يكون من الضروري أن تتحرك مفردات العمل

الإسلامي، الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لتأخذ مضمونها الإسلامي، وصفتها الإسلامية ليكون هناك نمو متطور للشخصية الإسلامية التي تفتح عقله وروحه وحركته على الإسلام، كدين يحتوي كل الحياة من حوله، وليحدث في ساحة الواقع اقتناع بأن الإسلام يطرح فكره في كل قضية، وحله في كل مشكلة، وموقفه الحاسم في كل صراع، كأسلوب من أساليب تعبئة الجانب التصوري للذهنية العامة بالإسلام، الفكر والحركة، والمنهج والحياة بدلاً من الإسلام الطقوس والتقاليد، والأفكار الغيبية القائمة، والأخلاقيات المثالية الباحثة عن قاعدة في الواقع.

عملية تجديد شاملة

إن هذا الاتجاه في الطرح الإسلامي هو الذي يمكن أن يقوم بعملية التجديد الشاملة للطريقة التي يمارس بها المسلمون الإسلام، أو للذهنية التي يواجه بها الآخرون صورة الإسلام في حياة الناس، وليكون الإسلام هو العقيد التي تتسع لتحريك الإنسان، في الجانب المدني والعبادي والديني في المفهوم الغربي، فلا يبقى للعلمانية معنى في توحيد المجتمع في مواجهة التيارات الدينية؛ لأن الدين بحركته المدروسة، لا يترك هناك أي فراغ من ناحية الحلول الواقعية لمشاكل الواقع، ولا ينطلق في حلوله من النظر الغيبية، أو المثالية؛ لأنه لا يكفي الجانب النظري في الإسلام ليكون حاجزًا يمنع العلمانيين ليستوعبوا الساحة، بل لابد من أن تتحول النظرية إلى حركة ممتدة واسعة، وإلى تيار جارف في كل مجاري السيول.

تلك هي النظرة المعادية التي تختصر المسألة بكلمة واحدة، وهي أنه لابد أن نصدم الواقع بإخراج الدين من دائرة المفهوم العبادي الأخلاقي الضيق إلى المفهوم الحياتي الواسع الشامل، بالتأكيد على صفته في قاعدة الفكرة، وفي مفرداتها التفصيلية، وفي كل مواقع الحركة فيها، حتى لا يسمح للمسلم أن يعيش أي فراغ واقعي، يبحث من خلاله عما يملؤه من مفردات المبادئ الأخرى، كالديمقراطية، والاشتراكية، والليبرالية، والماركسية لتكون واجهة إعلامية يتحرك الإسلام باسمها في الساحة؛ لأن ذلك يعني خدمة هذه الواجهات من خلال تحريكها في صعيد الإسلام، لا خدمة الإسلام نفسه.

وقد نشعر بأننا في عصر دعوة، تحاول أن تفتح القلوب على الإسلام بأصالته وبكليته بعيدًا عن كل عوامل التخلف والتجزئة والضياع، مما يفرض علينا الصراحة في كل شيء أما الحيثيات التبريرية التي يقدم الفريق الآخر نفسه من خلالها، فقد نستطيع أن نقدم أمامها بعض الملاحظات.

ملاحظات على مقولة الفريق الأول

١ الصفة الإسلامية والإيجابية

إن الحديث عن الفئات المضادة التي تقف ضد الإسلام، فتدمر الحلول التي تقدم باسمه ليس واقعيًا؛ لأن المسائل التي يثيرها هذا الفريق أو ذاك، في ساحة الحلول الواقعية لمشاكل البلد أو المنطقة ليست بدعًا من المسائل التي يطرحها العاملون في مواجهة المشاكل، بل إننا نلاحظ انسجامها، مع أكثر من

موقع سياسي وطني، أو قومي، أو ماركسي، أو إقليمي، أو دولي، مما لا يجعل من طرح الصفة الإسلامية مشكلة كبيرة للمشروع؛ لأنها تلتقي بأكثر من طرح آخر يمنح نفسه صفته السياسية المميزة، الأمر الذي يجعل القضية السلبية مشتركة بين الإسلام وبين الآخرين.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن مثل هذا المشروع، لا يواجه المشاكل من خلال الصفة الإسلامية، بل يواجهها من خلال طبيعته التي تصطدم بالمصالح المتنوعة للقوى المضادة بعيدًا عن الواجهة والعنوان، ولذلك فإن المسألة المطروحة هي: ما إذا كانت القوى التي تؤمن بالمشروع، بالمستوى الذي تملك فيه القدرة على الدفاع عنه، أو الاستمرار به في موقع الصراع؟

وبذلك، فإن الإسلاميين لو كانوا وحدهم في الواجهة بصفتهم المميزة، أو كانوا بصفتهم الغامضة، أو مع غيرهم، فلن يتغير شيء في المعارضة من قبل الآخرين، إلا فيما يمكن أن تثيره الصفة لدى بعض الجهات من مشاكل جانبية، لا تقدم ولا تؤخر على مستوى النتائج الحاسمة.

وإذا كان الأمر بهذا القدر من الدقة والواقعية، فقد تكون صفة الإسلامية عنصرًا إيجابيًّا لدى الأطراف الموافقة؛ لأنها تكفل لها جمهورًا كبيرًا في الإثارة الروحية والفكرية والعملية لمصلحة المشروع من جانب المنتمين، وتمنحها نوعًا من ملامح الشرعية لدى هذا الجمهور، عندما يلاحظ انسجامها مع المشروع الإسلامي الذي يعني أن هناك توافقًا في المواقف بينها وبين الإسلام.

٢ قناع الصفة العامة

إن الحديث عن البلد المتعدد والطوائف والمذاهب، قد يثير أكثر من مشكلة أمام المسلمين في طروحاتهم العقيدية والاجتماعية تمامًا كما يثير مثل ذلك أمام طروحاتهم السياسية؛ لأن العقلية الطائفية والمذهبية تخلف الحساسيات المرهفة، والمشاعر المتوترة من خلال التعقيدات النفسية، والأوضاع الذاتية القائمة على العصبية، ومما يجعل كل طائفة تدرس مصالحها بحساسية دقيقة تستثير الشك في كل مشروع من الاحتمالات البعيدة في مواده التفصيلية انطلاقًا من الخوف الكامن في الأعماق الذي يحتاط لنفسه في كل شيء حتى في الموارد التي لا توحي بالخطر.

وعلى هذا الأساس، فإن طبيعة المشروع في معطياته العملية، وفي خلفياته الإسلامية، سوف تثير الشك فيه باعتباره واجهة إسلامية لا خطوط فيها من ناحية تفصيلية، ولكنها تختزن الصفة الخاصة في نتائجها تحت قناع الصفة العامة، مما يجعل الموقف المضاد أكثر قوة في المعارضة؛ لأن الأسلوب في رأي هؤلاء يعني الالتفاف عليهم لاستغفالهم بوحي الخديعة.

وهذا ما نلاحظه في لبنان الذي يعمل فيه النصارى على أن تكون لهم الامتيازات الكبرى على صعيد الحكم والإدارة، وكل مقدرات الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والأمني والتربوي والعسكري في لبنان، كضمانة لوجودهم المميز في المنطقة، وكحماية لهم من الذوبان في المحيط الإسلامي،

وذلك في ظل النظام الطائفي الذي لا يتحرك في مواقعه من الأكثرية العددية، بل من التوازن الطائفي في حسابات الضمانات القائمة على إلغاء عنصر الخوف لدى النصارى من ناحية واقعية.

فقد طرحت مسألة الأكثرية العددية وإلغاء الطائفية السياسية، ونحوها من الطروحات التي تعمل على إلغاء اللون المميز للنظام ليكون الناس بصفتهم الإنسانية والمواطنية هم الوجه البارز له، وليواجه الحديث عن جمهورية أو دولة إسلامية فيما يتحرك به الإسلاميون في طروحاتهم المبدئية، أو الإستراتيحية، بطريقة حادة أو بأسلوب موضوعي واقعي.

الصفة العامة والسلبيات

ولكن الطائفيين، اعتبروا هذه الطروحات وجهًا من وجوه الحكم الإسلامي؛ لأن الأكثرية العددية في لبنان هي لصالح المسلمين، لا لصالح النصارى. ولهذا فلم تنفع الصفة العامة، في تخفيف السلبيات التي تحصل من خلال الصفة الخاصة.

وفي ضوء ذلك، قد يجد الإسلاميون ضرورة في إخراج الإسلام من الجو الطائفي المعقد الذي يقترب من الجو العشائري الذي يعتمد على النسب في نطاق الصلات التاريخية القائمة على علاقة الدم لينطلق فيما يشبه الصدمة، فيكون نهجًا فكريًّا وسياسيًّا إلى جانب المواقع الحياتية الأخرى في شريعته، والمواقع

العبادية في روحيته ليستثير النصرانية لتتحرك من مواقع الفكر والروح، لا من مواقع الطائفية وبذلك يتحول الصراع إلى صراع فكري بدلاً من أن يكون صراعًا غرائزيًّا يتغذى من الأحقاد، ويتحرك من خلال الحساسيات، وتلتقي السياسة فيه بالمفهوم العقلاني بدلاً من أن تلتقي بالمفهوم الانفعالي.

ومن خلال ذلك، يطل الإسلام على التيارات الأخرى ليدعوها إلى الحوار على أساس ما يمثله من رؤية شاملة للساحة في مواجهة ما تمثله من رؤية شاملة، وليدفعها إلى الصراع في هذا الاتجاه، وبذلك يدخل الإسلام في روحية الأمة وعقلها، كما يتقدم نحو سياسة حياة، ومشاريعها المتنوعة في المواقع العامة، فلا يبقى على هامش الواقع فيما يريده الآخرون أن يكون كذلك، وفيما يرغبه ممثلوه أن يكون كذلك فيما يستريحون له من مواقع وامتيازات وأوضاع استرخائية.

وقد يلاحظ الإسلاميون– في هذا المجال– أن إبعاد الإسلام عن صفته السياسية الإستراتيجية في معالجة القضايا، واعتماد الصفة العامة للمشاريع السياسية التي يطرحها العاملون للإسلام، أو الممثلون الرسميون له يوحي بأن سقوط النظام الطائفي، يفرض طرده من الساحة في مواقع الحكم، وعدم السماح له بالتدخل في شؤونه تمامًا كما يفرض طرد الجهات الأخرى الطائفية، باعتباره حالة طائفية تعقد الواقع كما تعقده الحالات الأخرى مما يعني أن الساحة ينبغي أن تستعد للخضوع للتيارات العلمانية المطروحة على صعيد الحياة العامة من

دون أن يكون له أمل في أن يعيش على هامشها فضلاً عن الفكرة التي تريده أن يكون بديلاً عنها.

إن الذين يتحدثون عن العمل السياسي بعيدًا عن الإسلام في الوقت الذي يصرون فيه على صفتهم الإسلامية في الواقع، لا يلتفتون إلى طبيعة النتائج السلبية التي تؤدي إليها أساليبهم، أو لا يتحمسون للنتائج الإيجابية في الاتجاه الآخر.

٣ العنوان المحدّد والسذاجة

إن الحديث عن السذاجة لدى الإسلاميين؛ لأنهم يكشفون كل أوراقهم أمام الآخرين، مما يجعل مسألة خسارتهم محسومة سلفًا هو حديث غير دقيق؛ لأن الصفة الإسلامية للخط السياسي لا تعني أن تكشف أوراقك وأن تكف عن المناورة، وتبتعد عن فهم اللعبة السياسية، بل إنها تعني أن تنطلق في حركة اللعبة في ساحة الصراع من مواقعك الحقيقية الواضحة فيما تلتزمه من خط على مستوى الوسيلة والغاية، في الوقت الذي تخطط فيه للموقف كيف تحركه وتركزه وتطوره وتثيره، وتدرس فيه الأرض والأشخاص والظروف والوسائل المتنوعة التي تملك فيها حرية الحركة والمناورة من خلال الأحكام الشرعية التي ينطلق فيها التحليل والتحريم من مواقع المصلحة الإسلامية العليا.

إن المسألة هي أن الحركة لابد أن تكون في الدائرة الإسلامية، كي ينطلق

الآخرون في حركتهم من دوائرهم الخاصة، ولكن ما هي خطة التحرك في زوايا الدائرة وخباياها وخفاياها؟.. وكيف هي عناصر الإثارة هنا وهناك؟ إن التخطيط الدقيق لذلك كله هو الذي يحدد مسألة الربح أو الخسارة في مواقع الصراع.

أما ما يطرحه هذا الفريق، فهو أن تحصل على مقدار من الربح في التفاصيل، ولكن على أساس خسارة المبدأ كله في مستوى القاعدة.

وربما كانت مسألة السذاجة هي صفة الذين يتحدثون بمنطق الذكاء والواقعية عن أسلوبهم؛ لأن طريقتهم التي لا تخضع لعنوان محدد، سوف تسمح للآخرين بابتزازهم، مع اكتشافهم لخلفياتهم التي تتحرك بحرية من خلال نقاط الضعف، فيفقدون بالتالي ثقة جماهيرهم، وثقة الآخرين.

٤ المرحلية ووعي الهدف

أما المرحلية، فإنها لا تعني أن يتحرك الموقف في الفراغ ليكون مجرد صدفة ضائعة في المحيط، وهي تبحث عن مستقرها في أعماق الضياع.

بل تعني أن تخطط المراحل من خلال حاجة الهدف إلى الخطوات المتوازنة المتلاحقة، ولكن لابد في ذلك كله من أن يكون الهدف هو وجه كل مرحلة ليعرف السائرون في الطريق، كيف يحركون خطواتهم نحو الهدف بقوة واتزان.

إن وعي الهدف في ذهنية السائرين هو الشرط الأساسي للارتباط به، وللإخلاص للمرحلة في ظروفها الموضوعية لكل ما تحتاجه من دقة أو سرية أو

تخطيط؛ لأن ذلك كله لا يتنافى مع الصفة الإسلامية في الواجهة في مواقعها الأمنية الأصيلة.

هل نحتاج بعد ذلك إلى أن نقول: إننا نتبنى رأي الفريق الذي يضع الإسلام في الواجهة في كل مشاريعه العامة والخاصة؛ لأن مسألة الإسلام هي مسألة الدعوة العالمية التي لابد أن تصدم الواقع لتفرض نفسها على الساحة.

نزع الخوف

وقد نلاحظ أن التيار الإسلامي الأصيل الذي انطلق من خلال الحركات الإسلامية في العالم، وأخذ حجمه الكبير، وقوة موقعه واندفاعه من خلال الثورة الإسلامية في إيران قد استطاع أن يفرض نفسه على التفكير المعاصر، كخط سياسي يلتقي بكل الواقع الإنساني في خططه المتوازنة الواضحة، وخطه الجهادي القوي، وقد استطاع أن يقتحم على الذين يناهضونه كثيرًا من مفاهيمه الأصيلة بشكل لا شعوري.

إن المسألة هي أن ننزع عامل الخوف من نفوسنا، وأن نثير التفكير، في القوانين التي تحكم حركة الأفكار، في الواقع الذي لا يفسح المجال للخائفين، ولكنه يستقبل الأقوياء المقتحمين بكل صدر رحب، بعد أن يملأ حياتهم باللطمات والكدمات والجراحات والصدمات التي قد تثير الآلام في مشاعرهم، ولكنها لن تسقطهم، بل تمنحهم لونًا من ألوان المعاناة التي تتحول إلى تجربة حية للمستقبل الذي يختزن في داخله الكثير من التجارب التي تشير إلى مواقع النصر.

الأكثرية والأقلية في المفهوم الإسلامي

- الحركة الإسلامية تعمل

لتكون الأكثرية على حق.

- على الحركة الإسلامية أن تخطط للنفاذ

إلى قلب الأمة بشكل تدريجي.

- احتواء الرأي العام

قد يواجه انتكاسات كثيرة، وعلى الإسلاميين أن لا يستسلموا.

- العدد لا يمثل عنصر النصر

والأمل للقلة المؤمنة.

- القلة قد تمثل الحق

وكذلك الكثرة، وعلى الإسلاميين دراسة الأمور بدقة.

- على الإسلاميين صناعة القوة

والثقة بالله لا الخوف من الآخرين.

الأكثرية والأقلية في المفهـوم الإسلامي

الأكثرية والأقلية

يطرح العاملون في الحقل السياسي أو الاجتماعي مسألة الأكثرية والأقلية، كعنوانين للقيمة السياسية أو الاجتماعية المميزة للشخص أو للجهة أو للفكر الذي يحظى بانتماء الأكثرية إليه، أو للقيمة المنخفضة أو المنحطة للذين لا يحصلون عليها، بل تبقى مواقعهم في دائرة الأقلية... وهذا هو الخط الذي درجت عليه الديمقراطية التي تحتضن الحكم الذي يحظى بثقة الأكثرية، وترفضه إذا لم يحصل عليها.

فكيف تواجه الحركة الإسلامية الموقف؟

هل توافق على ذلك كله في تقويمها للمسألة الباقية فيما هو القرار، وفيما هو الحكم، وفيما هي الحركة لتكون الأكثرية هي المقياس الذي تقيس به الصواب والخطأ، أو الحق والباطل، أو المصلحة والمفسدة، بحيث يكون المضمون متحركًا مع طبيعة النتائج العددية في الأكثرية أو الأقلية؟ أو أنها تتحفظ حول الموضوع لترى في الأكثرية ضد القيمة، وفي الأقلية مضمون القيمة، أو أنها لا تجد القيمة خاضعة للعدد، بل للعناصر الأصيلة الحية في طبيعة المضمون الواقعي للأشياء؟

الأكثرية والأقلية في القرآن

ربما يطرح بعض الناس أن الإسلام يرفض رأي الأكثرية، ويرى أنه يمثل الباطل، مما يجعله بعيدًا عن موضوع القيمة الإيجابية ليكون في موقع القيمة السلبية.

ويعتمد هؤلاء على الآيات القرآنية التي أكدت على المعنى السلبي للواقع التاريخي الذي تحركت فيه الأكثرية في مواجهة دعوات الأنبياء ورسالات الخير والصلاح.. بالمستوى الذي قد يؤدي إلى تحقيق الانطباع الذي قد يتحول فيه إلى النظرة التي تجعل منه حالة إنسانية سلبية، بحيث أن الظاهرة الإنسانية الغالبة هي الظاهرة المنحرفة لا المستقيمة، والشريرة لا الخيرة لتكون القاعدة هي الانحراف، فتكون الاستقامة استثناء وهذا ما نستوحيه من الآيات التالية:

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف/ ٢١].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت/ ٦٣].

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ [الفرقان/ ٤٤].

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام/ ١١٦].

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود/ ١٧].

﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء/ ٨٩].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة/ ٤٩].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة/ ٢٤٣].

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف/ ٧٨].

وهكذا نلاحظ، أن القرآن يؤكد على أن الأكثرية تتحرك في دائرة الجهل، لا في دائرة العلم، وفي دائرة اللاعقل، لا في أجواء العقل، وأنها لا تملك السمع الواعي والإيمان العميق والعدالة الأخلاقية السلوكية، ولا تتعاطف إيجابيًّا مع الحق، بل وتتحرك مع الباطل في عاطفتها، ولا تشكر المنعم على نعمته، وتندفع في طريقة الضلال لتضل الناس بغير علم، مما قد يوحي إلينا بالتحفظ من كل أكثرية في أي موقف من المواقف الفكرية.

فإذا وقفنا أمام الأقلية في النظرة القرآنية، فإننا نجد الإيجابية المنفتحة على الحقيقة المتمثلة في مواقفها، وهذا ما نلاحظه في الآيات التالية:

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ/ ١٣].

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود/ ٤٠].

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء/ ٦٦].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص/ ٣٨].

وقد لا نحتاج إلى الحديث عن الآيات المتحدثة عن الأقلية؛ لأن آيات الأكثرية توحي بالجانب الإيجابي لواقع الأقلية؛ وفي حديثها عن الجانب السلبي لواقع الأكثرية.. وفي ضوء هذا يمكننا أن نخلص إلى النتيجة القرآنية البارزة، وهي أننا نجد التعقل والهدى والسلم والإيمان في كل أقلية، كما نجد الجهل والضلال والكفر في كل أكثرية.

ولسنا الآن بصدد تحليل العمق الفكري الواقعي لهذه النتيجة فيما يتحدث به البعض عن ارتباط الإنسان بالجانب الحسي المادي، دون الجانب المعنوي الروحي، وباللحظة الزمنية الحاضرة دون المستقبل الطويل، وبالسطح دون العمق، وبالمنفعة دون الأريحية، وبالقضايا الصغيرة دون القضايا الكبيرة؛ لأن ذلك يحتاج إلى تحليل مفصل وبحث طويل لا يتفق مع طبيعة التأملات الحركية فيما هي طبيعته الظاهرة في الامتداد لا في الخلفيات.

حكمة الموقف القرآني

ولنا ملاحظة:

إن القرآن الكريم كان يتحدث عن الظاهرة التاريخية التي قد تمتد إلى الحاضر والمستقبل، بفعل العناصر المتوفرة في حركة الإنسان في الواقع في كل زمان ومكان، ولكنه لا يتحدث عن الظاهرة الإنسانية فيما هي الخصائص الذاتية للإنسان، بحيث يكون الانحراف حالة طبيعية في شخصيته، لا لتكون الاستقامة

استثناء لأن الإنسان قد يختزن في طبيعته نقاط الضعف التي تقوده إلى الأسفل، وتمنعه من الارتفاع إلى الأعلى، وتدفعه إلى الانحراف، وتبعده عن الاستقامة فيما حدثنا به القرآن عن ضعفه وعجلته ونحوها، ولكنه يختزن إلى جانب ذلك نقاط القوة التي تتيح له الثبات في الموقف المتوازن، والتحرك في خط الاستقامة، كالعقل والإرادة ونحوهما، الأمر الذي يجعله واقعًا بين خطين: خط الهدى وخط الضلال في مسافة متساوية، وبذلك تكون المسألة هي مسألة العناصر الخارجية التي قد يغلب جانبًا على جانب من خلال المؤثرات الإيجابية أو السلبية التي تلتقي بعناصر القوة والضعف وفي الداخل بطريقة مختلفة.

وعلى ضوء هذا، فإن الحديث القرآني عن سلبية الأكثرية وإيجابية الأقلية، كان حديثًا عن الظروف المضادة التي واجهت المسيرة الإنسانية، فحاصرت الأنبياء الذين كانوا يملكون قدرات محدودة في التحرك الرسالي على صعيد تحريك الضغوط الروحية المعنوية، والمؤثرات الواقعية الموضوعية التي تترك تأثيراتها على ذهنيات مجتمعاتهم لمصلحة الرسالة لوجود الموانع الصعبة التي تحتاج إلى وقت طويل وجهد كبير، مما أدى لي هذه النتائج السلبية على صعيد كمية عدد المؤمنين.

إذا كان الأمر كما ذكرنا، فإن الهدف من إثارة الحديث عن الأكثرية بهذه الطريقة السلبية التي كادت أن تكون مطلقة في الشكل التعبيري هو الإيحاء بأن

الأكثرية لا تمثل الحقيقة، كما أن الأقلية لا تمثل الباطل فيما يمكن أن يتعرض فيه الشعور الإنساني للضغط الشديد، عندما يقف مبهورًا أمام القوة العددية، فيخيل إليه أن تماثل الآراء والمواقف بمثل هذا الحجم من الضخامة، لابد أن يتقارب من الحق بشكل أقوى في الطريق الآخر الذي لا يمثل مثل هذه القوة من الناس على أساس أن ألف فكر يتفق على رأي واحد، لابد أن يمنح القوة للاحتمال، أو يحقق المقدار الكافي من القناعة أكثر مما يمثله اتفاق مائة فكر على رأي آخر، في درجة الاحتمال أو في تكوين القناعة؛ لأن الكثرة التي تحدق بالموقف، قد تكشف كثيرًا من العناصر التي لا تستطيع أن تكشفها القلة فيه؛ لأن طبيعة العدد الزائد الذي يكرر النظر في الموضوع، يمنح الفكر امتدادًا وانفتاحًا على جوانبه بدرجة أعلى وأكبر.

ولهذا، فإن القرآن يريد أن يخفف من تأثير هذه النظرة السطحية على الذهنية الإنسانية فيما تنفعل به من مواقف أو قناعات من هذه الجهة ليوحي لنا بأن هذا الانطباع الذي نحمله عن تأثير الكمية في تعميق النظرة إلى الموضوع، بحيث يكون أقرب إلى الحقيقة، قد يتغير إذا لاحظنا أن الكمية الكبيرة، قد تصطدم في داخلها بالنوعية القليلة التي يملكها هذا العدد الكبير من الناس، مما لا يجعل لنظرتهم قيمة مؤثرة في الوصول إلى الحق، كما قد نجد لدى القلة العددية نوعية مميزة قد تملك من عمق النظرة وانفتاح العقل وسعة الأفق المستوى الذي يلتقي بالحق من أقرب طريق.

العدد والقيمة والمقياس

ولهذا، فإن العدد لا يملك مسألة القيمة سلبًا أو إيجابًا، بل لا بد من التدقيق في العناصر الذاتية والموضوعية للمسألة المطروحة لمناقشتها على أساس القواعد الفكرية الأصيلة الثابتة التي يمكن أن تكون الأساس في مسألة الحق والباطل، أو الخطأ والصواب.

وهذا ما نستوحيه من الكلام المروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) عندما قال له الحارث بن حوط – كما ورد في نهج البلاغة:

«أتراني أظن أن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة وأنا على حق»، وكأنه كان مشدودًا إلى كثرة أصحاب الجمل في مقابل أصحاب علي، فقال له الإمام (ع):

«يا هذا، إنك نظرت إلى تحتك ولم تنظر إلى فوقك فحرت، إنك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه».

وخلاصة الفكرة في هذا الكلام: إن الإمام يوجه هذا الرجل إلى الخطأ الذي وقع فيه، وهو اعتبار الكثرة أساسًا للحكم على أهل الجمل بأنهم على حق، أو لاستبعاد أن يكونوا من أهل الباطل ليؤكد له أن القاعدة الصحيحة هي أن يتعرف على المقياس الذي يقيس فيه الموقف لهؤلاء من خلال المصادر الأصيلة للحق والباطل، حتى يعرف الرجال بانسجامهم مع الخط الصحيح الذي يلتقي بالحق، أو الخط المنحرف الذي يلتقي بالباطل.

وقد ورد في كلام آخر ما مضمونه أن الحق لا يعرف بالرجال، ولكن الرجال هم الذين يعرفون بالحق، مما يعني أن من الضروري، أن يتوفر العاملون على دراسة الحق والباطل في عناصرهما الأصيلة ليتعرفوا إلى طبيعة الأمور، فقد يجدون الحق مع الأقلية، وقد يجدونه– في موقف آخر– مع الأكثرية، تبعًا للعناصر الواقعية المتوفرة في الموقف هنا وهناك.

وقد نلاحظ– في هذا المجال– أن الله سبحانه عندما أرسل الرسل برسالاته في هذا العدد الكبير منهم، في الأزمنة المختلفة، فإنه كان يريد أن يهيئ– الظروف الملائمة للناس ليلتزموا بالخط من خلال ذلك لتكون الأكثرية منهم إلى جانب الحق، وهذا هو ما تعمل الحركة الإسلامية للوصول إليه، في عملها الفكري القائم على تأكيد الدعوة إلى الله لإدخال الناس إلى الإسلام، وتعميق مضمونه العقيدي والشرعي والمنهجي في حياة المسلمين، وعلى تحريك الطاقات المتنوعة من أجل إعادة الإسلام إلى الحياة ليحركها في صعيد الواقع على مستوى الحكم والقانون، وبذلك يكون العمل السياسي وسيلة من وسائل ربط الناس بالإسلام، باعتبار ما يمثله في مفاهيمه السياسية من حل لمشاكلهم، ورفع لمستواهم، فلا يعيشون الفراغ في حياتهم السياسية، عندما يتحركون في الدائرة الإسلامية على الصعيد الديني؛ لأن السياسة جزء من الدين، وحالة حركية في امتداده في الحياة.

النفاذ إلى قلب الأمة

وإذا كان الوصول إلى قناعات الناس كافة، أو الأكثرية منهم هدفًا إسلاميًّا، فإن من الطبيعي أن تخطط الحركة الإسلامية للنفاذ إلى داخل الذهنية العامة للناس من خلال إثارة القضايا التي تمثل العنوان الكبير لمشاكلهم، وتحريك الشعارات التي تلامس مشاعرهم، سواء كان ذلك، بالطريقة العاطفية التي تثير الشعور، أو بالطريقة العقلانية التي تحرك العقول، أو بالأساليب التي يمتزج فيها الجانب العقلي بالجانب العاطفي.. وهكذا تبقى الحركة الإسلامية في حالة استنفار فكري وعملي لاكتشاف الآفاق، وملاحقة الظروف ودراسة الإمكانات المتنوعة لتحريك الرأي العام نحو الأهداف الكبيرة، مع ملاحظة ما يترتب على ذلك من الدخول في صراعات مريرة مع القوى التي تعمل على أن تقود الرأي العام، في الطريق المنحرف الذي تتحرك فيه للوصول إلى أهدافها الضالة.

وقد يفرض علينا ذلك النفاذ إلى عمق الوجدان الشعبي للأمة، ودراسة المؤثرات العاطفية التي تؤثر في تكوين قناعاتها وربح عواطفها ومواقفها، والعمل على إبعادها النهائية بشكل دفعي سريع، والانطلاق بدلاً من ذلك إلى وضع مشروع متحرك تدريجي على أساس المراحل لتهيئة الظروف النفسية التي تمنحنا حرية الحركة في مواقع الواقع الشعبي؛ لأن الأمة قد لا تتحمل النتائج الصعبة الكبيرة المتمثلة بالموقف الإستراتيجي الذي قد يوحي لها بالكثير من فقدان الأمن والاستقرار على مستوى الحاضر والمستقبل، مما قد يفسح المجال للأعداء

للدخول إلى دائرة مشاعرها الحساسة، والإيحاء إليها بأن الحركة الإسلامية لا تملك واقعية في طروحاتها السياسية؛ لأن النظرة إلى الأهداف بالطريقة المباشرة التي ترتكز على سياسة المراحل يجعل الخطة بعيدة عن الواقع، باعتبار أن الظروف الحالية لا تملك القوة الكافية التي تستطيع من خلالها أن تحقق تلك الأهداف.. بينما يمكن للأسلوب المتحرك بمرونة أن يهيئ الذهنية العامة للقبول بالإستراتيجية بطريقة التعبئة الروحية التي تثير المشاعر من جهة، بالإضافة إلى تقديم الهدف على دفعات، بحيث تمثل كل دفعة هدفًا مرحليًّا يربط الناس به ليندفعوا إليه بحماس وإخلاص، فيمثل الوصول إليه الشرط الموضوعي للهدف الجديد، وهكذا حتى نصل إلى الهدف النهائي على أساس من الحكمة والمرونة والواقعية.

الرأي العام والزلزال

وقد نحتاج إلى التأكيد على نقطة مهمة في هذا المجال وهي: إن الوصول إلى احتواء الرأي العام لمصلحة الحالة الإسلامية، قد يلتقي بالكثير من النكسات السياسية والاجتماعية والإعلامية، بحيث يتغلب الآخرون على الساحة الجماهيرية من خلال الظروف السياسية التي يستفيدون منها للضغط علينا، أو من خلال بعض الأخطاء التي تقع فيها الحركة الإسلامية، فتفسح المجال للقوى المضادة لاستغلالها لمحاصرة الإسلاميين واحتواء بعض ساحاتهم، وإبعاد الجماهير عنهم، بمختلف الوسائل اللاإنسانية حتى يخيل للبعض من العاملين

في دائرة الإسلام أن الفرصة قد ضاعت منهم، وأن الهزيمة قد لحقت بهم وأنهم يسيرون إلى مستوى الانهيار والسقوط الكبير.

وهذا هو الزلزال الذي تحدث عنه القرآن الكريم فيما تحدث عن البلاء الذي حل بالمؤمنين من أصحاب الرسالات كما في قوله تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة/ ٢١٤].

فقد نلاحظ في هذه الآية أن الرسول والمؤمنين قد وصلوا إلى درجة الاختناق النفسي الذي تحول إلى زلزال في الموقف، بحيث كادوا أن يصلوا إلى درجة اليأس من النصر فيما كانوا يواجهونه من التحديات الصعبة التي حاصرت كل قواهم من جميع الجهات، ولكن الله بشرهم بالنصر القريب الذي ينفتح على حياتهم في موقع المعاناة الشديدة التي كانوا يعيشونها في وعيهم للمأساة وللبلاء الذي حل بهم من كل جانب.

وهذا هو الزلزال الذي حدث للمسلمن في واقعة الأحزاب فيما حدثنا الله في قوله:

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ

﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ . هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب/ ١٠- ١١].

فقد كانت هناك حالة صعبة، واجه فيها المسلمون الزلزال النفسي أمام الحصار المحيط من قبل المشركين وحلفائهم من أهل الكتاب، حتى بدأ الحديث في المجتمع الإسلامي آنذاك، يتخذ شكلاً خطيرًا في الانحراف عن إيحاءات العقيدة الإسلامية في الثقة بالله ورسوله، ولولا أن الله رد الذين كفروا بغيظهم فلم ينالوا شيئًا مما يريدون لأمكن للوضع أن يزداد سوءًا.

الإسلاميون والهزيمة

إن ما نريد التأكيد عليه هو الابتعاد عن الاستسلام لحالة الإحباط التي يمكن أن تحل بالعاملين في الحركة الإسلامية من خلال تحولهم إلى أقلية، وذلك بابتعاد الأكثرية عنهم ليعيشوا في المجتمع فيما يشبه حالة العزلة السياسية والاجتماعية ليشير إليهم البعض من الناس كما لو كانوا جماعة منبوذة في الحياة.

أما الأساس فيما نريد التأكيد عليه، فهو أن يدرس هؤلاء طبيعة العوامل الواقعية للعزلة الشعبية التي حولتهم إلى أقلية ليروا – من خلال الدراسة المعمقة – أن السبب لم يكن منطلقًا من ضعف ذاتي في المضمون الفكري الذي يحملونه، وفي الخط الإسلامي الذي ينتمون إليه ومن عدم قدرتهم على الانطلاق والامتداد، بل كان منطلقًا من بعض الظروف الخارجية فيما تحمله

الحياة من متغيرات على موازين القوة والضعف التي لا تملك ثباتًا في أي موقع من المواقع، فقد يصير الضعيف قويًّا، وقد يتحول القوي إلى ضعيف على هدى السنة الإلهية التي عبر الله عنها في قوله تعالى:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران/ ١٤٠].

وعلى ضوء ذلك، فإنهم يعتبرون المسألة أمرًا طبيعيًّا في نطاق النظرة الواقعية، غير البعيدة عن النظرية الرسالية، فلا تسقطهم الهزيمة، ولا تحبط عزائمهم الأوضاع القلقة، بل يبادرون إلى تنمية عوامل القوة في كيانهم، واكتشاف عوامل الضعف في مواقع عدوهم، ومتابعة المتغيرات فيما تتغير فيه الرياح السياسية والاجتماعية، وفيما تتنوع فيه الظروف الجديدة ليتعاملوا معها بالطريقة الواقعية التي ترصد ذلك كله لتوظفه في إيجاد واقع جديد، يحول الأقلية إلى أكثرية، عندما يدخل الناس في دين الله أفواجًا، وقد نلمح هذه الإيحاءات الروحية التي تؤكد على استيحاء القوة دائمًا أمام الأكثرية الساحقة التي قد لا تترك للمؤمنين في بادئ الأمر أية قدرة على الأخذ بالموقف المتوازن المتماسك، عند الاستغراق في النظرة المادية للأشياء ليكون الانفتاح على الله في الشعور الواعي بالقوة المطلقة التي تتمثل في الألوهية الشاملة ليتحول الناس كلهم في نظر المؤمن إلى لون من القوة التي لا تملك الثبات أمام قوة الله الذي لا يحتاج المؤمن معه إلى الاستناد إلى أية قوة أخرى، وذلك هو قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ . فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ . إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران/ ١٧٣- ١٧٤].

وقد نجد في عمق هذا الإيحاء، أن القرآن يؤكد — في عملية صنع القوة – أن منطق التخويف بالآخرين هو منطق الشيطان، بينما يمثل منطق الإيحاء بالثقة بالله، منطق الإيمان والوحي الإلهي.

كما أن القرآن يؤكد القاعدة الروحية من موقع التجربة الواقعية، في انتصار المسلمين على الناس الذين هاجموهم في إحدى معارك الإسلام، مما يجعل المسألة لا تخضع للفكر المطلق، بل تخضع للتجربة الناجحة.

القلة المؤمنة والأمل

ويتنوع الأسلوب القرآني في تأكيد هذه الحقيقة التي تفتح النافذة الواسعة للأمل الكبير للقلة المؤمنة في أشد الحالات صعوبة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ﴾ [آل عمران/ ١٢٣] فيما توحي به كلمة الذل بالقلة في العدد والعدة، باعتبار أنها تضع الجماعة في الموقع الضعيف الذي لا يستطيعون معه أن يؤملوا بأي لون من ألوان الغلبة في ساحة المعركة.

وفي قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ للإيحاء بأن العدد لا يمثل دائمًا العنصر الكبير الحاسم في الانتصار، فقد تكون هناك بعض العوامل الأخرى في الداخل والخارج، الكفيلة بتغيير موازين القوة لمصلحة القلة في مواجهة الكثرة، وليست المسألة من القضايا النادرة التي لا تقع إلا صدفة، بل قد تتجسد المسألة في أكثر من حالة في الحياة على صعيد الماضي في دائرة حكايات التاريخ، وعلى مستوى الحاضر والمستقبل.

العمل السياسة والدعوة في

- **السياسة جزء**

من الدعوة والتربية الإسلامية

- **العمل السياسي**

يعمق تجربة المسلمين ويجتذب غير الملتزمين.

- **الواقع السياسي قد يدفع الناس**

نحو الحركات غير الإسلامية لحل مشاكلها.

- **الفراغ السياسي في العمل الإسلامي**

يملؤه العمل السياسي المضاد.

السياسة والدعوة في العمل

لا يزال الحديث دائرًا لدى الكثيرين من الناس من علماء المسلمين وغيرهم، حول مسألة السياسة والعمل السياسي في الإسلام، بطريقة سلبية وذلك في ضمن خطين:

لا سياسة، بل تشريعات

الخط الأول: الذي ينطلق من قاعدة فكرية تنكر على الإسلام؛ لأن يكون دين سياسة، فهو دين الله الذي أنزله على رسوله، كما أنزل الأديان على الرسل الآخرين ليقود الناس إلى عبادة ما فرضه عليهم من شؤون العبادة، وليتمثلوا بقيمه الروحية والأخلاقية، وليدل الناس على النهج الصحيح، في العناوين الكبيرة لقضايا الحياة ليترك لهم الوسائل التي يكتشفونها ويحددونها في تجسيد هذه العناوين في موقع الحرية العملية، فليس هناك نظام حكم يتخذ السياسة سبيلاً للوصول إليه، بل هناك تشريعات فردية متناثرة هنا وهناك، تحدد للفرد بعض مساره فيما يأخذه وفيما يتركه من أقوال وأفعال وعلاقات إنسانية مع الناس.

شمولية الإسلام

الخط الثاني الذي ينطلق من قاعدة فكرية تؤمن بالشمولية الإسلامية لقضايا

الحياة كلها، حتى قضية الحكم الذي يشرف على تنفيذ الشرعية، أو تحقيق العدل للناس، وتحريك الحياة في اتجاه القضايا الكبيرة، فهو يؤمن بأن الإسلام عقيدة وشريعة ونظام ومنهج للحكم وللحياة، ولكنه يرى ضرورة التوفر على الدعوة إلى الله، حتى يمكن إيجاد القاعدة الواسعة في الأمة في الإيمان بالإسلام، ثم العمل على التربية الروحية التي تؤكد على البناء الروحي والأخلاقي الذي يصنع الشخصية الإسلامية القوية الواعية المنفتحة على الله في روحانيتها وأخلاقيتها وعبادتها الخاشعة. فإذا استكملنا ذلك، أمكننا أن نضع في الواقع الإسلامي، المنهج السياسي الذي يستمر في الإسلام صفاؤه ونقاؤه وحركيته وفعاليته في حركة الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله؛ لأننا بذلك نضمن للإسلام البقاء على حيويته وطهارته، ونضمن للحركة الإسلامية استقامتها على الخط فيما تملكه من عناصر الاستقامة الفكرية والعملية.

مرحلية العمل

وقد يتمثل هذا الخط، في دائرة أخرى تتحرك في التفكير المرحلي الذي يحدد للعمل الإسلامي المراحل المتدرجة المتمثلة ببناء الأمة على أساس المفاهيم الإسلامية في العقيدة والحركة والحياة، ثم تليها المرحلة السياسية المتمثلة بحركة الأمة الواعية في طليعتها الواسعة الممتدة في الساحة من أجل العمل نحو الوصول إلى الحكم، ثم تأتي المرحلة الجهادية المتمثلة في حمل الحركة الإسلامية السلاح في وجه العدو لتحاربه من أجل تثبيت قواعد الإسلام الحركي في

مواجهة التحديات، وقد تتداخل الحركة الجهادية بالحركة السياسية في بعض الظروف الطارئة

سلبية مطلقة

وربما نجد هذا الخط في صورة أخرى مغرقة في السلبية المطلقة، وذلك في تفكير الناس الذين يرون الحكم الإسلامي في شرعيته مقصورًا على عصر النبي (ص) والأئمة (ع)، فلا مجال لأي عمل إسلامي سياسي في غيبة الإمام، ولا شرعية لأي حركة إسلامية سياسية في سبيل الوصول إلى الحكم، فإن ذلك لا يزيد الواقع إلا تعقيدًا، ولا يزيد المسلمين إلا تمزقًا وتفرقًا، ولا يحقق لهم أية نتائج إيجابية، فلابد من التوفر على رعاية شؤون المسلمين الحياتية، والاتجاه إلى التربية الروحية والفكرية والفقهية في المجالات الفردية والاجتماعية، والبعد عن ساحات الصراع الحاد الذي قد يؤدي إلى القتال والتخاصم لتترك أمر الحكم إلى عصر الظهور؛ لأنه لا حكم إلا للمعصوم؛ لأن غير المعصوم يجر الأمة إلى الانحراف.

مناقشة الخطين

هذه هي الأجواء المتحركة في الواقع الإسلامي التي تتخذ موقفًا سلبيًّا من العمل السياسي الإسلامي من ناحية المبدأ أو المرحلة أو الحركة في عصر الغيبة.... فكيف نواجه الموقف الإسلامي في هذه الأجواء؟

لا نريد مناقشة هذا الخط أو ذاك الخط من الناحية الفكرية التفصيلية؛ لأن المجال لا يتسع لذلك..، ولكننا نريد أن نؤكد للخط الأول أن عنوان العدل الذي جعله الله عنوانًا للهدف الذي تحركت فيه الرسالة، لا يمكن أن يتحقق بدون عمل سياسي شامل على جميع المستويات، وذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد/٢٥]. كما أن الشريعة الإسلامية الشاملة، في الدائرة الفقهية التي تتسع للجانب الفردي والاجتماعي، وتتحرك في دائرة الحرب والسلم، لا يمكن أن تنال التطبيق الحي إلا من خلال العمل السياسي الذي يضع الحكم في واجهته.

أما الخط الثاني الذي يؤمن بالإسلام كقاعدة للفكر والعاطفة والحياة في النطاق الفكري، فنلاحظ على النهج الأول الذي يركز على جانب التربية الفكرية والروحية، قبل الدخول في العمل السياسي.

أولاً: إن الآخرين الذين يسيطرون على الساحة السياسية، قد يكونون ممن يحملون أفكارًا غير إسلامية، مما يجعلهم يخططون لإبعاد الناس عن الإسلام فكريًّا، حتى على صعيد التربية الروحية والأخلاقية، وذلك بإفساح المجال للنهج المضاد للإسلام؛ لايجاد قاعدة شعبية مضادة للإسلام، وللتأكيد على الجانب العبادي الذاتي كخيار وحيد للعمل الإسلامي، الأمر الذي يجمد كل عمل إسلامي تربوي وفكري، أو يلغيه تمامًا، بالوسائل المتنوعة التي يملكها فيما يملكه

من القوة الطاغية، مما يفسح المجال لحركة التخلف الفكري والسياسي أن تفرض نفسها على الذهنية الإسلامية.

وثانيًا: إن العمل السياسي يمثل جزءًا من عمل الدعوة، ومن حركة التربية؛ لأن الواقع السياسي الذي يفرض نفسه على الناس جميعًا في ساحة التحديات المصيرية فيما هي قضايا الحرية والعدالة قد يدفع الناس إلى الاندفاع نحو الحركات السياسية غير الإسلامية من أجل التعاون معها لحل المشكلة العامة للوصول إلى النتائج الكبيرة في حياتهم، مما يؤدي إلى تربية مضادة بطبيعة الارتباط بين العمل التربوي الفكري والروحي والعمل السياسي فيما تتحرك به الحركات السياسية الأخرى، المرتكزة على قواعد فكرية مضادة.

السياسة والقضايا المصيرية

إن الناس الذين يعيشون مشاكلهم الصعبة، لا سيما في القضايا المصرية، قد يشعرون بالحاجة إلى حركة تستوعب حاجاتهم السياسية، فإذا كان هناك فراغ سياسي في العمل الإسلامي، فلابد أن يأتي عمل فكري سياسي آخر يملأ فراغ الواقع في الساحة السياسية ليحتوي الذهنية كلها، أو ليخلق ازدواجية في الشخصية السياسية المنفتحة على الكفر والضلال في التصور السياسي، وعلى الإيمان في التصور العقيدي والعبادي، مما يعقد الإنسان المسلم، ويتركه تحت رحمة التيارات الفكرية الأخرى.

وعلى ضوء ذلك، فإن العمل السياسي يعتبر جزءًا من العمل في الدعوة إلى الإسلام، أو في التربية الإسلامية؛ لأنه هو الذي يعمق للإنسان المسلم تجربته الإسلامية الحية في المسألة الفكرية والروحية، عندما يعيش فكره السياسي في حركته، كما يعيش فكره العقيدي في عبادته، وهو الذي يجتذب الكثيرين من المسلمين غير الملتزمين الذين قد يجدون في العمل السياسي دافعًا قويًّا نحو الرجوع إلى خط الالتزام الإسلامي باعتباره القاعدة الفكرية أو الشرعية للحركة الإسلامية.

الصحوة الإسلامية

وهذا ما لاحظناه في الامتداد الإسلامي في حياة الأمة، في خط العقيدة والالتزام من خلال الصحوة الإسلامية، سواء في خط الثورة الإسلامية في إيران، أو في الحركات الإسلامية المنطلقة في خط المعارضة السياسية في العالم الإسلامي، وبذلك تكون السياسة لونًا من ألوان العمل في الدعوة الإسلامية، والتربية الإسلامية، لا مجرد عمل مستقل عن ذلك.

المرحلية في العمل

- **المرحلة المكية**

مرحلة ولادة دعوة لا مرحلة حركية.

- **على الإسلاميين دراسة الواقع**

لمعرفة مساحة الحركة وحريتها.

- **الذهنية الثقافية**

قد تقف حاجزًا أمام الذهنية السياسية.

- **الجهاد والسياسة**

يخدمان الدعوة وينصرانها.

المرحلية في العمل

بين الثقافة والسياسة

قد يفكر بعض العاملين الحركيين للإسلام بأن العمل الإسلامي السياسي، لابد أن ينطلق في دائرة المرحلية، وذلك بالتأكيد على مسألة العمل الثقافي كمرحلة أولى تسبق العمل السياسي كمرحلة ثانية، وذلك من أجل أن الأمة التي تريد الانطلاق إلى إقامة الكيان السياسي على مستوى الحركة والحكم لابد أن تنطلق من قاعدة واعية سياسيًّا، وذلك فيما يرتكز عليه الوعي السياسي الإسلامي من أساس فكري وروحي وحركي، حتى لا تصاب بنكسات انحرافية فكرية أو سياسية، فلابد من مرحلة أولى تنطلق في البناء الثقافي الحركي الذي يؤكد على التعبئة الفكرية الإسلامية التي يتعرف فيها الإنسان المسلم على القواعد الفكرية العقيدية والمفاهيم الحياتية الإسلامية، والوسائل الحركية في المنهج السياسي الإسلامي، والتدريب المتواصل على إعداد الإنسان المسلم للانتماء الحركي الإسلامي من أجل إيجاد إنسان العقيدة والعبادة والسياسية والثقافة الذي يمثل إنسان الإسلام القوي في مواقع الصراع.

التجربة النبوية

وقد يستوحي هؤلاء العاملون هذه الخطة المرحلية من السيرة النبوية الشريفة

في حركة الإسلام في الدعوة وفي السياسة وفي الجهاد، فقد رأينا أن العهد المكي كان عهد دعوة، لم يسمح فيه النبي (ص) للمسلمين بالقتال، ولم يأذن فيه بالعمل لإقامة وضع سياسي في اتجاه الدولة، بل كان العمل كله متمحضًا في كسب الأفراد للإسلام ليدخلوا فيه، أو في إثارة الأجواء الثقافية في المواقع العامة من أجل احتواء الذهنية الجاهلية في إثارة المفردات الإسلامية التي تطرح علامات الاستفهام لتحرك الفكر فيما كان النبي يدعو إليه في قضايا الإيمان والعقيدة، كما أننا نستوحي مسألة المرحلية التي تعني التدرج في تكوين الواقع الإسلامي من خلال التدرج في نزول الوحي وتشريع الأحكام لإقامة الكيان الإسلامي للشخصية التي تتنامى بشكل تدريجي في حركة عناصرها الذاتية في الداخل والخارج.

وهكذا رأينا حركة هذه المرحلة تنتهي في مكة لتبدأ مرحلة التكوين الجديد للمجتمع الإسلامي في الخط السياسي والجهادي، وذلك بعد الهجرة إلى المدينة التي سبقها التحضير الدقيق لذلك في اللقاءات التي كان يعقدها النبي (ص) مع فعاليات المدينة في مكة.

ولكننا نلاحظ على ذلك أن الحاجة إلى مرحلة الدعوة في أول البعثة، كانت نتيجة طبيعية للواقع الذي عاش فيه النبي في بداية الرسالة؛ لأن الإسلام كان طرحًا جديدًا في المجتمع، فلم يكن لأحد معرفة به، فضلاً عن أن يكون هناك من يؤمن، مما يجعل من مسألة الاستغراق في الدعوة، وعدم إفساح المجال لأي عمل

آخر، مما يمكن أن يدخلها في متاهات كثيرة، ويخضعها لأخطار شديدة، ويفوت عليها الكثير من الفرص، ويعرضها لضغوط لا تحتملها قدرتها المحدودة، أمرًا حيويًّا لبداية الدعوة وسلامتها وحركتها من أجل اجتذاب الناس إلى فكرها.. والاستفادة من دور الضحية الذي يعيش فيه المؤمنون المستضعفون في إثارة العاطفة نحوها.

إن المسألة المطروحة هناك في العهد المكي كانت مرحلة شق الطريق إلى الإيمان في أرض لا يملك الإيمان فيها أية ثغرة للنفاذ إلى الأفق الواسع، ولذلك فلم تكن المسألة مرحلة حركية بالمعنى المصطلح، بل كانت المسألة مسألة ولادة لدعوة لتعيش طفولتها في أوضاع طبيعية، حتى يشتد عودها ويقوى موقعها لتنطلق في حركة صنع القوة في مرحلة الشباب من قاعدة ثابتة، مع ملاحظة مهمة وهي أن الظرف لا يسمح بأي تحرك آخر على أي صعيد سياسي فيما يتسع له العمل السياسي آنذاك، أو أي صعيد جهادي في مواجهة الكافرين، مما يعني بأن القضية لا تتحمل أية حركة أخرى غير الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

الحركة والواقع السياسي

وفي ضوء ذلك، لابد من دراسة الواقع الذي يعيشه العمل الإسلامي السياسي فيما هي الحركة، وفيما هو الرد، وفيما هي المرحلة، وذلك للتعرف على المساحة الحرة التي يملك فيها الخط الإسلامي الحركي حرية الحركة فيها. فقد تكون المساحة ضيقة المستوى الذي لا مجال فيها إلا للثقافة والعبادة

والتربية. وفي هذا الحال، لا بد من توفير كل الوسائل الثقافية والروحية والتربوية، والاستغراق فيها من أجل تكوين قاعدة إسلامية قوية من حيث الوعي الفكري والصفاء الروحي والتوازن التربوي للبدء بعد ذلك بمرحلة جديدة للانطلاق في العمل السياسي بعد استكمال شروطه الموضوعية فيما يمكن أن يكون حقيقة في توسيع القاعدة، وتحرير الساحة في حدودها الضيقة.

وقد تكون الساحة واسعة باعتبار أن الأجواء العامة منفتحة على الأجواء الإسلامية؛ لأن المجتمع ينتمي إلى الإسلام على صعيد الانتماء الديني، ويمارس طقوسه على الصعيد العبادي، ويعيش أخلاقياته في الجانب الفردي والاجتماعي، مع بعض الانحراف أو التخلف في الوعي والممارسة، وفي طريقة الانتماء، فليست هناك أية ضرورة للقيام بعملية البناء الفكري من جديد...، ولكن ربما يكون هناك حاجة إلى الوعي السياسي فيما هو المفهوم السياسي المعقد الذي يعيش فيه الناس منطلقًا لتحريك الوعي فيما يثير من مشاعر وقضايا وأوضاع متنوعة، مما يوفر الكثير من الجهد النظري على العاملين في إقناع الناس بضرورة التحرك، بحيث يكون التحرك السياسي العفوي، المنطلق في أجواء آيات الجهاد وعناوين العزة والحرية والعدالة، مدخلاً للتثقيف السياسي من خلال مفردات الواقع المتحرك وللانتماء الإسلامي الحركي من موقع الحاجة إلى الخروج من المشكلة، والابتعاد عن المأزق والاندفاع نحو الحل على صعيد العمل الجهادي الذي تفرضه كل الأغلال التي تقيد حرية الناس، وكل التحديات التي تسقط أصالتهم وضقوتهم وحركتهم في الاتجاه السليم.

السياسة والجهاد والثقافة

وفي ضوء ذلك، فقد تنطلق المرحلة لتحرك العمل السياسي والجهادي إلى جانب العمل الثقافي وباعتبار أن حركية الواقع المتنوعة تفرض ذلك كله وتغني التجربة كلها، وتضم الحركة في وحدة الشخصية للإنسان المسلم في ذهنيته الثقافية والجهادية والسياسية؛ لأن الإسلام يضم ذلك كله في وحدته الفكرية والشرعية، فلا يعيش انفصام الشخصية، عندما يلتقي بالإنسان الثقافي في وقت، وبالإنسان السياسي في وقت آخر؛ لأنه لم ينطلق في تكوينه الذاتي من تجربة واحدة، بل من تجربتين مختلفتين متباعدتين.

وقد نلاحظ في هذا الاتجاه أن بعض الحركات الإسلامية التي عاشت تجربة المرحلية في الجانب الثقافي المحض، وفي الجانب السياسي الذي يتحرك في البعد الثقافي، قد اصطدمت بالشخصية الثقافية الغارقة في ضبط المفاهيم المطلقة، فوجدت صعوبة كبيرة في التحول إلى المرحلة السياسية في العمل؛ لأن طبيعة التطبيق تختلف عن طبيعة النظرية... ولأن التربية الخاضعة للخطوط الفكرية العامة، لا تتفق مع الخطوط التفصيلية المتعرجة التي تتحرك يمينًا وشمالاً، وتحتاج إلى ذهنية متحركة في أكثر من اتجاه، بحيث تستطيع احتواء كل المتغيرات، ومواجهة كل الالتواءات في حركة الواقع.. وبذلك بقيت الذهنية الثقافية حاجزًا كبيرًا أمام الذهنية السياسية، الأمر الذي أدى إلى الكثير من الخلل في طريقة العمل، وفي طبيعة التكفير.

ولعلنا نجد في التحرك الإسلامي في العهد المدني ظاهرة حركية يمتزج فيها العمل الجهادي والسياسي إلى جانب حركة الدعوة في سبيل الله، بل رأينا أن الجهاد والسياسة، قد استطاعا أن يقدما للدعوة الكثير من الانتصارات والفتوحات، والغنى الكبير في التجربة الواعية المتحركة من خلال الآفاق الواسعة التي انفتحت على حياة الناس.

دور المرحلية

إننا نريد أن لا ننكر على المرحلية في العمل الإسلامي قيمتها الحركية، ولكننا نريد أن نؤكد حقيقة واقعية في هذا المجال، وهي أن المسألة لا تأخذ دور الحقيقة الموضوعية المطلقة التي تمثل القانون الطبيعي للخطة الإسلامية للعمل؛ لأن الأوضاع قد تختلف في طبيعتها وفي ظروفها، كما أن الساحات قد تختلف في نوعية ذلك كله قبل تحديد المراحل، أو إلغائها؛ لأن لذلك أثرًا كبيرًا في جدية العمل وسلامته على كل صعيد.

خط البطل وبطل الخط

- رفض صنمية الشخص

وعبادة الذات.

- الإخلاص لبطل الخط

وإمامه لا لخط البطل أو الإمام.

- الحركة التي تنتمي للبطل

لا تمثل قاعدة متكاملة.

- الهتاف للشخص

قد يتقدم الهتاف للفكرة.

- لا وجود لخط منتصر

بدون بطل يحمل الفكر.

خط البطل وبطل الخط

ظاهرة القيادات والتحرك الفعال

ربما كان من الظواهر التي تطبع المرحلة الحاضرة التي يمر بها المسلمون بروز ظاهرة القيادات الروحية أو السياسية التي تتقدم حركة الأمة في جهادها الكبير في مواجهة قوى الاستعمار، أو في انطلاقتها الواسعة في تحرير واقعها من الهيمنة الداخلية الطاغية، وفي تأكيد وجودها على أساس إثارة عناصر القوة الكامنة في داخلها في مواجهة نقاط الضعف.

وقد استطاعت هذه القيادات تحقيق بعض الانتصار على مستوى داخلي، أو إقليمي، فأثارت التحديات في وجه قوى الاستكبار في الداخل بإسقاط رموزها المحلية، أو بإثارة الغبار في وجهها، وتحركت من أجل تجديد المسار الفكري والاجتماعي والسياسي فيما يمثل الثورة في بعض المناطق، أو فيما يشبه الثورة، أو يحمل روحها في المناطق الأخرى... فنجحت في بعض التجارب وفشلت في تجارب أخرى، ومازالت تقف بين النجاح والفشل في مجالات أخرى... وهكذا كانت حركتهما في مساحاتها السياسية، نقطة تحول فكرية أو روحية أو اجتماعية أو سياسية لدى الناس الذين يمثلون القاعدة الواسعة لحركة الثورة، أو الانتفاضة مما أدى إلى حالة انفعالية حماسية هائجة فيما تعيشه جماهيرها من عواطف وفيما يحيط بها من أجواء وفيما تتحرك نحوه من أهداف.. بحيث كانت التظاهرات

والمهرجانات هي الأساليب التي تحكم المرحلة، فتعمق الإحساس بالفرح وتشد المشاعر بالتحدي وتقوي الموقف بالمواجهة وتدفع القضية نحو أجواء التوتر في خط تصاعدي متحرك.

قيادة الشخص: سحر وعبادة

ويبقى الشخص هو كل شيء، في خطاباته وتطلعاته ولقاءاته.. وآفاقه المتنوعة... ليتحرك الناس معه فيا يشبه السحر الذي يوحي بالجو الحميم الخاشع الذي يتنامى في حركة المشاعر والعواطف ليصل بها إلى ما يشبه العبادة الشعورية في علاقة الناس به.. مما ينقل الجو من مشاريعه العملية إلى شخصه في شكله.. وفي خصائصه الذاتية.. وفي أولاده.. وعائلته... وهكذا يتأكد الارتباط بالشخص.. ليكون هو القاعدة التي يجتمع الناس حولها، فيرتبطون ببعضهم من خلالها.. ويتسابقون إلى التعبير عن إخلاصهم لها، والكلمات التي تحمل الكثير من كلمات المبالغة، وصيغ التفضيل، وتحويل النجاح في جهة إلى النجاح في جميع الجهات، حتى ليخيل إليك أنك تقف في ساحة الكمال المطلق الذي لا يقترب إليه النقص من أية جهة من الجهات.. وتبدأ عملية الصور التي تعلق في البيوت، وفي الصدور وفي كل مكان.. للتدليل على المساحة الواسعة التي يملكها هذا الإنسان أو ذاك في حياة الناس، وفي حركة المصير.. وقد تتطور القضية لدى البعض فيصنعون له التماثيل التي تنصب في الساحات العامة... كأسلوب من أساليب التعظيم والتقديس.

العصبية للشخص: عملية انتماء لا ولاء

وقد لا تخلو هذه الظاهرة.. من حركة مضادة تحاول أن تثير علامات الاستفهام حول هذه القيادات فيما تثيره حولها من شوك، وفيما توجهه إليها من اتهامات، وفيما توحي به من خلفيات غير نظيفة.. وربما كان منشأ ذلك كله حسدًا من هنا، وعداوةً من هنا، واختلافًا في الرأي من هناك، وتنوعًا في التقييم من جهة أخرى.

ولعل من الطبيعي أن تثير الأساليب التي لا تتناسب مع الاحترام الذي يحمله الناس لهذه القيادات بعضًا من السلبيات في الساحة لا تستريح للنقد، ولا تتفاعل معه؛ لأنها لا تعتبره مظهر تقويم للشخص، أو محاولة لتصحيح الخطأ، بل تعتبره مظهر عداوة فيما يعتقده الناس من الفكرة التي توحي بالعلاقة بين المحبة والتعظيم، وبين العداوة والنقد.

وفي مثل هذا الجو الذي يدور الحديث فيه بين شخصية العصمة في المستوى الواقعي فيما يسير عليه الناس، وإن لم يكن لها ذلك في مستوى عقيدتهم وبين شخصية الإنسان الطبيعي الذي يخطئ ويصيب، تتحرك ردود الفعل لتؤكد العصبية ولتعمقها.. فيما تفرضها الممارسة في حركة الصراع بين الفريقين.. من مواجهة يتولى أحدهما التحرك من مواقع الهجوم.. ويقوم الآخر بالانطلاق في مواقع الدفاع.. فيكون لهذا جماعته، وللآخر جماعته... وتمتد المسألة لتتحول إلى اتجاه آخر يدفع بها إلى ساحة أخرى.... من ساحات الصراع.

فقد أصبح الشخص صفة لهذه الجماعة التي انطلقت في محاولة تطوير مسألة الولاء إلى عملية انتماء... وربما كان الانتماء- في بعض الحالات – منطلقًا من الطرف الآخر الذي يحاول أن يلصق بهذه الجماعة صفة الانتساب لهذا الشخص كأسلوب من أساليب الضغط عليهم أو لإبعاد الصفة الحقيقية عنهم؛ لأنها تشكل نقطة التحدي له. وقد يستريح هؤلاء لذلك؛ لأنهم يرون فيها شرفًا فيما يوحي الشخص من عظمة وقوة.

فكر الشخص: محور للاستنباط والاجتهاد

ولكن القضية لا تقتصر على هذا المستوى، ولا تقف عند هذا الحد، فإن الصفة تبدأ في الالتفاف حول الجماعة لتطوق كل اهتماماتهم، فتقف بها عند الشخص. فإذا كان ينطلق من قاعدة فكرية معينة، فإن الفكرة لا يمكن أن تتمثل في غيره، إلا من خلاله.. وإذا كان يتحرك في خط معين، فإنه هو الذي يجسد هذا الخط تجسيدًا حيًّا لا مثيل له.. وهكذا يبدأ البحث لديهم عن الخصوصية التي تفصلهم عن الآخرين بالمقدار الذي ينفصل به فكر هذا الشخص عن الآخرين.

وقد يزداد الاستغراق في هذه الخصوصية... حتى يتحول الأمر إلى إغفال للقاعدة الأصيلة... وتأكيد للخط الخاص... وللفكر الخاص، كما لو كان شيئًا منفصلاً عن الجذور... ويبدأ «المخلصون» في عملية الاستنباط والاجتهاد من هذه الخطبة..

ومن هذا التصريح.. اللذين قد يكونان منطلقين من حالة انفعالية طبيعية لا توحي بالكثير من الفكر.. ليفلسفوا هذه الكلمة... وهذه الوقفة فيثيروا حولها الكثير من التحليلات والتأويلات التي تتمثل فيها قاعدة سياسية هنا... وقاعدة فكرية هناك.. مما قد يمثل فكر المحللين والمتفلسفين... ولا يمثل فكر القائد من قريب أو من بعيد.

وهكذا يتنامى الاجتهاد والتحليل.. حتى نجد لدينا دستورًا مفصّلاً لا تعرف مدى شرعية نسبته إلى هذا الشخص أو نسبته إلى الفكر الذي انطلق الشخص منه في منطلقات التحرك.

بين الشخص والخط ضاع الإنسان

هذه صورة عن الواقع الذي يتمثل في أكثر من موقع من مواقعنا السياسية فنحن واجدون في الحركات البارزة في مجتمعاتنا أسماء وعناوين تتخذ من اسم الشخص محورًا في الحركة والانتماء في الوقت الذي نعرف فيه أن الشخص ينتمي إلى فكر ممتد في حركة الدين أو في حركة الفكر الآخر.

وكمثال على ذلك، نلاحظ التعبير بـ «الناصرية» في أكثر من حركة من حركات «القومية العربية» فيما يمثله ذلك من الانتماء إلى جمال عبد الناصر الذي لا يملك– فيما نلاحظه– فكرًا متكاملاً على مستوى النظرية– بل كل ما هناك– أنه يملك حركة سياسية من موقع الساحة التي يحكمها أو يحركها

في نطاق الظروف الموضوعية التي تحيط به في النتائج الإيجابية أو السلبية... وفي ضوء ذلك، كانت الحركات التي تأخذ صفة الانتماء إلى اسمه لا تمثل قاعدة فكرية سياسية متكاملة واضحة بعيدًا عن الشعارات القائمة التي تستمدها من خطبه وتصريحاته.

وإذا انطلقنا إلى الواقع اللبناني الإسلامي، نلاحظ التعبير «بالصدريين» في بعض الكلمات فيما يمثله ذلك من الانتماء إلى السيد موسى الصدر الذي يعتبر من علماء المسلمين الذين يعملون على استلهام الإسلام فيما ينطلقون به من علاقات وأوضاع وتحركات ومواقف من خلال الرؤية الخاصة للمفاهيم الإسلامية... ليحولوا ذلك إلى عمل إصلاحي في النطاق السياسي والاجتماعي.. وقد نجد هناك تعبيرًا خاصًّا يتحرك في هذا المجال أو ذاك فيما يحاول البعض تقييم هذا الشخص أو ذاك.. فهذا يسير على «خط الإمام» وذاك لا يسير عليه... وقد نلاحظ ذلك في الوسط الإسلامي العراقي الذي ينطلق في أجواء الانتماء إلى السيد الشهيد السيد محمد باقر الصدر الذي يأخذ بعض العاملين اسمه كعنوان لهم فنجد هناك اسم «الصدريين».

«خط الإمام» عنوان للمسيرة وفرز للمجتمع

وهكذا نجد الساحة الإسلامية الثورية تحتضن اسم «الخمينيين» الذي يمثل السائرين في خطهم السياسي على خط الثورة الإسلامية الإيرانية، .. وربما كانت هذه الصفة من خلال أعداء الإسلام الذين يحاولون إبعاد الحركة الإسلامية

عن الارتباط بالإسلام للإيحاء بارتباطها بالشخص.. ولكن مثل ذلك قد يلقى هوى في نفوس الكثيرين من المتحمسين فيرتاحون لهذه الصفة ويعتبرونها عنواناً لهم.

وإذا كان هذا الاسم غريبًا عن طبيعة الساحة فيما تريده من صفة أو عنوان؛ لأنها تعمل على أن يكون الإسلام هو عنوانها الأساسي فيما تتحرك به، أو تنطلق من خلاله... فإننا نلاحظ أن كلمة «خط الإمام» اعتبرت عنوانًا للمسيرة، فهؤلاء الطلبة هم السائرون على خط الإمام وهؤلاء العلماء كذلك.. أو أنهم ليسوا كذلك.. وذلك في عملية فرز للمجتمع على أساس التزامه بالخط وعدم التزامه به.

وهكذا وجدنا حركة الساحة تنطلق من وحي الإخلاص للشخص الكبير والعظيم والقائد لتجعل الشخص عنوانًا للفكرة بدلاً من أن تكون الفكرة عنواناً له.. فكيف يكون موقفنا منها وما هي إيجابياتها وسلبياتها في طبيعة العمل على مستوى قضية الأمة في المجال الفكري والسياسي والاجتماعي؟

الوجه الإيجابي للمسألة:

وجود القائد القدوة دون الغموض والقلق

ربما يطرح البعض الوجه الإيجابي للمسألة، فيعتبر أن الفكرة أية فكرة لا تنطلق من الفراغ؛ لأن الإنسان مطبوع على الارتباط بالأشياء من المواقع

المحسوسة التي يعيشها في حياته العملية، ومن هنا كانت قضية القدوة، والقيادة شرطًا في نجاح أية حركة عملية في الحياة؛ لأن ذلك هو الذي يعطيها معنى التجسيد الحي الذي يحقق للحركة مصداقيتها الواقعية... فيجد الناس في الشخص القائد القدوة، شخصية الفكرة والرسالة كما يستوحون آفاقها من خلال آفاقه ونشاطاته.. أما إذا فقدنا الشخص في الفكرة فإننا نواجه غموضًا في الرؤية، وضبابًا في الأفق، وقلقًا في الموقف وارتباكًا في الاستنتاج مما يجعل الناس تعيش في تيهٍ من الاحتمالات المتنوعة... ويؤدي بالتالي إلى فقدان الحماسة الذاتية لأن الأجواء الحميمة هي التي تثير الحماس للفكرة من خلال الشخص، وليس العكس هو الفرض الصحيح..

وبذلك يكون انتماء الخط إلى البطل، أو القائد، أو الإمام الذي عرفه الناس، في إخلاصه، وعبقريته، وانتصاره، يحقق للخط حيويةً في وجدانهم، وقوة دفع في حياتهم، مما لا يتحقق في حالة الانتماء إلى الخط الذي ينتمي إليه الشخص الكبير وستكون النتيجة في الإخلاص لخط الإمام لمصلحة الفكرة نفسها فيما تأخذه من حيوية التأييد الجماهيري للقائد.

وقد يضيف هؤلاء سؤالاً محددًا، وهو: لماذا تخافون من فكرة اعتبار الشخص عنوانًا للفكرة؟ هل هو الخوف من صنمية الشخص وتحول المسألة إلى عبادة للذات، وابتعاد عن الفكرة؟ هل هذا هو ما تخافونه؟ فإذا كان الأمر هو ذلك.. فإننا نجيب عليه.. بأن المطروح في الساحة هو صاحب الرسالة، والحركة... والثورة،

وليس الشخص في صفاته الذاتية المميزة، وبذلك يدخل إلى وعي الناس في نطاق الفكرة، مما يوحي لهم بأن الارتباط به من خلال الفكرة، لا من خلال الذات.. لتكون هي المنطلقة في وعي الوجدان في الأمة، لا هو بالذات.

الوجه السلبي للمسألة:

الهتاف للشخص يتقدم الهتاف للفكرة

١- إن الارتباط بالفكرة في نطاق الارتباط بالشخص، يجعل من الفكرة حالة ذاتية له... فنحن نحبها لأنها فكرته.. تمامًا كما نحب بعض الناس القريبين إليه لأنهم عائلته أو إخوانه أو أصحابه؛ لأن الشخص هو القاعدة في الانتماء فيما يمثله من زهو بالقائد المنتصر، أو الرجل القوي مما يحول الفكرة إلى أن تكون إحدى ميزاته، وبعض فضائله وهذا مما يؤدي إلى أن نبتعد عنها كلما اقتربنا من الشخص وذلك من خلال التصور الوجداني لحركة الفكرة في الفكر والعمل؛ لأن صورته ستكون هي المنطلق في المرتبة الأولى من الوعي، أما صورة الفكرة، فتقف في المرتبة الثانية التي يغلب عليها صورة الشبح.. ولهذا نجد أن الهتاف للشخص يتقدم كثيرًا عن الهتاف للفكرة.

نقد الفكرة إساءة للشخص

٢- إن الفكرة لا تفقد قابليتها للحوار من خلال هذا الأسلوب؛ لأن مناقشتها، أو نقدها، فضلاً عن إثبات خطئها، يعتبر إساءة للشخص؛ لأن معنى ذلك أنه

لا يبتعد عن مواقع الخطأ في فكره... وهذا ما لا يتقبله المخلصون المتحمسون الذين قد لا يؤمنون بعصمته فكريًّا، ولكنهم يمارسون عملية الإيمان بذلك من ناحية عملية.

وقد لا نحتاج في إثبات ذلك إلى جهد كبير.. فقد يكفينا ملاحظة الواقع الذي تعيشه جماهير هذا القائد أو ذاك، عندما يحاول بعض الناس الذي يعيشون حرية الفكر أن يسجلوا علامة استفهام حوله في هذا الخط أو ذاك... إن رد الفعل هو المزيد من الاتهامات والضغوط النفسية والمادية التي توجه للناقد بالمستوى الذي يشعر معه أن عليه أن يخضع لأجواء «التقية» أو المجاملة أو الوقوف — بخضوع — موقف الاعتراف بالخطأ الذي اقترفه في حق الخط المعصوم للقائد غير المعصوم... مما يفسح المجال لعملية النفاق الاجتماعي في مواجهة الرموز الكبير للأمة.

إن مثل هذا الواقع العملي يربطنا بالمسألة التي ألمحنا إليها وهي الربط بين عظمة الشخص وعظمة الفكرة الذي يقتضي الربط بين نقد الفكرة وبين الإساءة إلى الشخص.

الانشداد للشخص بدل الفكر

٣- إن الاستغراق في الشخص الذي يجعل الفكرة خطًّا له يؤدي إلى إهمال الفكرة الأساس في وجدان الناس، ولو بعد حين، فإذا كان هذا الشخص

يمثل الإسلام في فكره، وفي حركته، وفي أسلوبه... فإن اعتبار خط السير خطًّا له.. يبعد الإسلام عن الدخول في عمق الفكر، والوجدان، والشعور... للناس؛ لأنهم يظلون مشدودين إلى الشخص، وإلى فكره، فهو الذي يفكر، وهو الذي يقرر، وهو الذي ينتصر... حتى إذا ذكر الإسلام في نطاقه فإنه يعبر عن الإسلام الذي يفهمه، لا الذي يفهمه الآخرون... وبذلك يأخذ الإسلام خصوصيته التي تميزه عن إسلام الآخرين.. مما قد يشكل اتهامًا لهم في صدق الانتماء، أو في سوء الفهم.

أما إذا كان الخط... وهو الإسلام.. هو القاعدة التي ينطلق الناس منها، فإن المسألة تختلف؛ لأن البطل يمثل نتاج الإسلام في حركته.. ليكون دوره دور الذي استلهم الرسالة لتكون عظمته من خلالها وانتصاره على أساس أفكارها التي تقود إلى النصر.. فيدخل إلى الوجدان من خلال الإسلام.. ولا يدخل الإسلام من خلاله.

فإذا أخطأ في الفكر والأسلوب، كان الخطأ خطأه، وإذا أصاب كان الإسلام هو الذي هداه إلى طريق الصواب... وبذلك يكون الإسلام هو الميزان في تقويم أعماله.. وهو الفكر الذي يعيش في وجدان الأمة ليدخل الجميع إلى أعماقها من خلاله.

المزايدة وعدم وضوح الرؤية

٤- إن فكرة خط الإمام، أو خط القائد.. ربما تكون معقولة إذا كانت تملك أساسًا من الوضوح فيما يخططه للفكر وللسير في منهاج محدد في تصوراته الفكرية، وفي أساليبه العملية، كما لو كان في معرض طرح فكرة متكاملة منهجية للجمهور.. ولكن الواقع التطبيقي للمسألة يختلف عن ذلك.. فنحن نواجه في الساحة أفكارًا متفرقة تتحرك في مواقف خطابية، أو لقاءات سياسية أو اجتماعية تحكمها ظروف معينة، وحالات طارئة مما يجعل منها مادة قابلة للاستنتاجات المختلفة التي يحاول كل فريق أن يفهمها على طريقته الخاصة، أو على مزاجه الخاص وربما يحاول البعض أن يوجهها طبقًا لمصالحه الخاصة.. هذا ما نلاحظه في أسلوب المزايدات الذي يحكم الساحة فيما تتحرك به من اتهامات متبادلة في الخروج عن الخط هنا أو هناك؛ لأن القضية لا تنطلق في وضوح من الرؤية.. وربما تطور الأمر إلى الكثير من التأويل والتكلف في تأويل هذه الكلمة، أو تفسير هذا العمل.. ليثبت زيد بأنه سائر على خط الذي توحي به الكلمة أو العمل، أو ليثبت عمرة خلاف ذلك.

نقد الفكرة والشخص

٥- إننا لا نؤمن بالتجريد في حركة الفكر في وعي الأمة.. فلا يمكن أن تكون هناك رسالة ناجحة بدون رسول حكيم في فكره وأسلوبه، ولا يمكن أن تكون هناك حركة منتصرة بدون قيادة واعية مخلصة؛ لأن الناس يبحثون عن

تجسيد الفكرة في حركة الشخص في صعيد الواقع كما يبحثون عن الفكرة في نطاق المعادلات الفكرية في حركة الفكر. ولكن... ليس معنى ذلك أن تكون الفكرة هي فكرة الشخص، بل معناه أن يكون الشخص هو رسول الفكرة ومبلغها وقائد حركتها في الحياة... فإذا كان معصومًا؛ كانت العصمة هي الأساس في الحكم على سلامة أسلوبه في التبليغ والممارسة.... وإذا لم يكن معصومًا كانت الفكرة في مصادرها الواضحة؛ هي القاعدة في الحكم على طبيعة تحركه فيما إذا كانت الفكرة معصومة... أما إذا لم تكن كذلك فإن من الممكن نقد الشخص في سلامة تطبيقه وتفكيره، كما يكن نقد الفكرة في سلامة حلولها لمشاكل الواقع.

المطلوب إعطاء الحرية للنقد الموضوعي

٦- إننا لم نحاول الدخول في عملية تقييم للأشخاص الذين ورد ذكرهم في الحديث «لأننا لسنا في صدد البحث عن هذا الجانب من المسألة» فيما يمثله هؤلاء أو غيرهم من قيمة فكرية أو روحية أو سياسية، أو قيادية، بل كنا في معرض الحديث عن طبيعة حركة المبادئ الفكرية والسياسية والاجتماعية في حياتنا.. لنخلص إلى النتيجة الحاسمة التي نؤمن بها وهي ضرورة ارتباط الأمة بالشخص من خلال الفكرة التي يؤمن بها أفرادها تبعًا لارتباطها بخط الفكرة... بحيث يبقى الارتباط به متحركًا تبعًا لحركة الفكرة في حياته.. مع ملاحظة إعطاء الحرية للنقد البناء الموضوعي في المجالات القابلة للنقد.. فإذا

انحرف عن الخط، ابتعدت الأمة عنه، وإذا بقي مخلصًا له.. استمرت سائرة معه.. وبذلك فإن علينا أن يكون شعارنا في حركتنا العملية... هو الإخلاص لبطل الخط، أو إمامه، أو قائده من خلال بطولته وإمامته وقيادته التي تمثل حركة الخط في حياته... وليس الإخلاص لخط البطل، أو الإمام، أو القائد.

وقد يعتبر بعض الناس مسألة شكلية فيما يمثله اختلاف التعبير من شكليات لا تؤثر على المضمون... ولكننا نختلف مع هذا فيقرر البعض (أن المسألة «مضمونية» في مدلولها فيما يوحيه من عبادة الشخص) وفيما يؤدي إليه من خضوع التربية للأسلوب الذي يجعل الشخصية واقعة تحت تأثير الأشخاص من ناحية ذاتية، مما يجعلها تبتعد عن وعي الفكرة في سلبياتها وإيجابياتها المتحركة، مادام هو الذي يحدد في وعي الأمة له، حركة السلبيات والإيجابيات.

هذه وجهة نظر في حركة الشخص، وحركة الفكرة في الساحة، فهل هناك وجهة نظر أخرى؟

إن الموضوع مفتوح للحوار.

شرعية الأسلوب واستقامة الخط

- **رصد خطوات الأعمال الإسلامية**

أمر ضروري.

- **الأسلوب الشرعي شرط لاستقامة**

المسيرة وسلامة العمل.

- **تقييم الآخرين**

يتم عبر المقياس الشرعي.

- **المشكلة تربوية**

وتتصل بتكوين الشخصية الإسلامية.

شرعية الأسلوب واستقامة الخط

العمل الإسلامي والأسلوب الشرعي

ربما يجد المراقب الذي يرصد العمل الإسلامي وهو يتحرك في اندفاع كبير أن من الضروري للعاملين أن يلتقطوا أنفاسهم ليقفوا وقفة تأمل وتفكير يستعيدون فيها أمام أنفسهم الصورة التي يتمثل فيها العمل، وتتحرك فيها المسيرة؛ لأن الطبيعة الانفعالية للموقف، قد تحجب الكثير من جوانب الصورة، وقد تغير بعض الملامح القائمة إلى ملامح مشرقة، وبالعكس، مما يساعد في طمس معالم الحقيقة، وبالتالي يدفع العمل بجملته إلى كثير من المخاطر والمصاعب، وربما ينتهي به إلى حافة الهاوية.

وقد يكون من الشروط الأساسية لسلامة العمل، واستقامة خط المسيرة، أن ينتبه العاملون إلى شرعية الأسلوب الذي تتحرك فيه الممارسة في الكلمة التي تقال والجو الذي يثار، والطريقة التي تتمثل فيه الحركة؛ لأن للإسلام أساليبه الخاصة التي يصل بها إلى غاياته تمامًا كما تملك المبادئ والتيارات الأخرى أساليبها، المستمدة من نظرتها إلى الحياة.

أما السبب في تأكيدنا على هذه النقطة فهو أن الجو العام للتحرك الفكري والسياسي قد يخلق بعض التأثيرات السلبية على ذهنية الإنسان المسلم، وطريقة

فهمه للأشياء وممارسته لها، وطبيعة العلاقات التي تربطه بالأشخاص، وأسلوب تعامله معهم فيما يختلف فيه من قضايا، وفيما يخوضه من أمور الصراع، وتكون النتيجة هي الانطلاق في المسيرة الإسلامية بعيدًا عن الأدوات الشرعية في الصراع، وعن الروحية الإسلامية في التحرك، مما يطبع العمل بطابع غير إسلامي في الشكل والصورة، ويسيء إلى سلامته في الواقع والمضمون.

وإذا كنا نتحدث عن العمل الإسلامي والعاملين في هذا السبيل، فإننا لا نتحدث عن حالة معينة، أو محور معين، أو أشخاص يعيشون في إحدى المواقع الخاصة في العمل. بل إننا نريد الشمول لكل حالات العمل وأشخاصه، سواء في ذلك، الأعمال الإسلامية التي تتحرك في النطاق التقليدي، في قضايا الوعظ والإرشاد والتوجيه والتدريس، أو الأعمال التي تتحرك في النطاق الجديد، في مجال المؤسسات والمجتمعات، أو في مجال الأحزاب والتنظيمات.. فإن الصفة الإسلامية التي تحملها في واجهاتها، أو في قياداتها وأتباعها، تفرض أن يكون لهذه الصفة معنى العمق في التصور والأسلوب والهدف... وحركة الفكرة في الشكل والمضمون، بحيث تتحول الصفة إلى إشارة مميزة وعلامة فارقة، بينها وبين التيارات الأخرى في ذلك كله.

وهذا ما نريد أن نخوض فيه في محاولة لرصد الخطوات العملية التي تتحرك في هذا المجال، في نقاط عديدة وأمام علامات استفهام محددة.

التقييم على أساس الحقيقة والعدالة

ما هي الأسس التي ترتكز عليها القناعات الذاتية تجاه تصرفات الآخرين في مجالات الحكم والتقييم والمحاسبة؟

في الساحة عدة حالات فهناك الاحتمال الذي يمثل حالة الشك في صدور الفعل المعين، أو وجود القصد الخاص السيئ من دون أي عنصر مرجح، أو الظن الذي يحمل صفة الحدس الناشئ عن ترجيح جانب من جوانب القضية، أو اليقين الذي لا مجال معه للاحتمال المضاد.

في الموقف غير الإسلامي للقضية نجد الاتجاه الذي يتصرف على أساس الشك، ويحكم على أساس الظن من دون انتظار للوصول إلى حالة اليقين. فقد يكفي لديهم في الحكم على خيانة شخص ما، في قضية سياسية أو اجتماعية أن يدخل مكانًا ما، أو يتصل بشخص معين. وقد تدخل في معطيات الحكم والمواجهة السلبية، طبيعة العلاقات المضادة التي تربطنا بهذا الشخص، أو طبيعة الأهمية للقضية في حسابات الصراع؛ لأن المهم هو تحطيم الشخص إياه، أو إنجاح أو إسقاط القضية التي يدور حولها الصراع، وليس من المهم أن يكون هناك احتمال للبراءة أو أن توجد في الساحة بعض النقاط الخفية التي يمكن أن تخلق للقضية وجهًا آخر، غير الوجه الذي تظهر الأوضاع فيه. أما الموقف الإسلامي فإنه يرتكز على استبعاد أي صفة مقربة أو مبعدة من ناحية الصفات الذاتية التي يتصف بها الشخص أو الموضوع، أو تتمثل فيها العلاقة... فليس من المهم في

تكوين القناعات، أو في إصدار الأحكام، أو في تحريك الممارسات، ما هو الموضوع من هو الشخص، بل المهم الوقوف على الحقيقة ومع طبيعة العدالة في ذلك كله... ليكون التساؤل مرتكزًا على النحو التالي:

ما هي المعطيات الواقعية التي تمنحنا وضوح الرؤية للأشياء وما هي المعطيات التي يمكن أن يقدمها الرأي المعارض، أو الشخص المتهم في مقام الدفاع عن وجهة النظر الأخرى لتتم المقارنة بينهما بهدوء على أساس من تقوى الله ومحبته، عبر المقاييس الشرعية التي تلاحق الاحتمالات الأخرى، حتى ولو كانت ضعيفة لتنفيها أو تثبتها وذلك هو ما نفهمه من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء/٣٦].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات/ ١٢]. ذلك هو الخط العريض للقضية.. لا مجال للاحتمال، ولا للظن كأساس للحكم أو لتكوين القناعات، أو لتحريك الممارسة، بل القاعدة هي العلم واليقين.

أما استبعاد الظروف المقربة أو المبعدة لذلك فهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾[الأنعام/١٥٢]..

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة/٨]..

وفي ضوء ذلك، لابد من الوقوف عند الموقف الذي يريدنا الله أن نقف فيه، لا أن نستسلم للاحتمال فنتجمد أمامه، بل لابد لنا من أن نلاحق إمكانات الحق فيه. فالقضية كل القضية هي أن لا نحكم على أساس الاحتمال، وليست هي أن نحذر، فنتخذ احتياطات السلامة، ولو إلى حين. ذلك هو الخط، فماذا عن الواقع؟

العاملون والعلماء وفوضى الأحكام

إننا نواجه في صراعات العاملين في داخل العمل الإسلامي، سواء في القضايا التي تتعلق بالأشخاص عندما تكون القضية أن يتقدم شخص أو يتأخر آخر، في صراع القيادات والمسؤوليات. أو في القضايا التي تتعلق بالمؤسسات، في خلفياتها وخطواتها العملية، إننا نواجه في هذه الصراعات فوضى مريرة في الأحكام غير المدروسة، فهذا فاسق؛ لأنه فعل الفعلة الفلانية مع احتمال كونه معذورًا فيها. وهذا خائن؛ لأنه أكل المال المعين مع إمكان وجود المبررات الشرعية فيه من فتوى أو شبهة أو غير ذلك. وهذا عميل للاستعمار وخائن للأمة؛ لأنه قام بحركة سياسية معينة، أو باتصالات خاصة مع بعض الفرقاء الذين يرتبطون بهذا المعسكر أو ذاك مع وجود بعض الأوضاع والظروف الخاصة التي قد تخلق له مبررًا شرعيًّا. وهذه المؤسسة جمعية كانت أو حزبًا أو لجنة خائنة أو عميلة أو مشبوهة؛ لأن مثيلاتها في بعض النماذج الموجودة على الساحة تخضع لهذه الموازين، مع عدم وجود فكرة شاملة عن طبيعة المؤسسة، وعن قيادتها، وعلاقاتها

بالآخرين وبالأوضاع، وتحركاتها الخفية والعلنية، بل كل ما هناك أن فلانًا قال كذا، أو أن الأوضاع المعينة تدل على كذا... مما لا يخرج عن طبيعة الحدس والتخمين.

وتصدر الأحكام، وتتنوع التصرفات السلبية والمضادة، وتتكون القناعات، وتتحرك أجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وغيرهما، في سبيل التأكيد على اعتبار القضية حقيقة ملموسة في واقع حياة الناس السياسية والاجتماعية.

وربما نجد الإنسان الذي يدعو إلى مزيد من التثبت والتفحص قبل إصدار الأحكام أو تكوين القناعات؛ لأن الحجة لم تكتمل؛ ولأن المعطيات المطروحة قابلة للمناقشة، فنقابله بالسخرية والاستهزاء والاتهام بالسذاجة والبساطة التي تجعله لا يعرف طبيعة الأشياء، فينكمش على نفسه ويتراجع خوفًا من أن ينسب إلى الجنون في نهاية المطاف.

وتنطلق المسيرة بعيدًا في هذا الاتجاه، فإذا بالمسلمين المؤمنين من علماء وعاملين، يمارسون الحكم بغير حجة، والقول بغير علم، كنتيجة للظن والشبهة تمامًا كما يفعل غير المسلمين في صراعاتهم السياسية والشخصية والاجتماعية.. من أجل أن يحطموا سمعة خصومهم، أو يدمروا قاعدة المؤسسات المنافسة لهم، وقد يتساءل المتسائلون لماذا هذا كله؟

مشكلة تربية

ويكون الجواب في هذا المجال: إن التربية الإسلامية لم تنطلق في هذا الاتجاه العملي، بل تحركت في إعطاء القضية المشار إليها بعدًا نظريًّا، يتحرك في الخطوط النظرية للتفكير في مجال المقارنات بين الإسلام وبين النظريات الأخرى.. أما الجانب العملي الذي يتمثل في رصد الممارسات للإنسان المسلم، في طفولته ونشأته في البيت والمدرسة، وفي التوجيهات العملية التي تصدر من هذه المؤسسات التي تتحرك في ناحية النظرية والتطبيق، فتسجل على الانحراف بعض المؤاخذات أو العقوبات التأديبية، مما يعطي إحساسًا بخطورة هذا اللون من الانحراف عن الخط الإسلامي في حياة العاملين وفي مسار العمل.

ونظرًا لعدم الاهتمام بهذا الجانب، يتصرف العاملون بوحي الواقع المنحرف الذي يعيشه الوضع الاجتماعي، الخاضع في أساليبه للتوجيهات غير الإسلامية في نطاقها السلبي والإيجابي.. إننا نثير الالتفات إلى هذه النقطة؛ لأننا نعتقد أنها تتصل بتكوين الشخصية الإسلامية من جهة، وبسلامة العمل من جهة أخرى وفي النظرة الواقعية الجدية التي تتكون لدى الآخرين من خلال رصدهم للعمل وللعاملين.

حركة الشعار في واقعنا

- **الشعار يؤكد**

ملامح الشخصية ويغذي الشعور.

- **مواجهة الأفكار الأخرى وتحديها**

تتمثل بالشعار.

- **ضرورة التخطيط**

لثقافة إسلامية تحمي الشعار.

حركة الشعار في واقعنا

دور الشعار في حركة الواقع

للشعار في حياتنا دور العنوان الذي يحمل الفكرة– في الخط العريض– لتدخل إلى الفكر من الباب الواسع لتكون التفاصيل مرحلة ثانية في عملية الاختزان الداخلي للوعي الذاتي للإنسان؛ لأن الجزئيات لابد أن تنطلق من خلال الكليات التي تمثل المبادئ العامة التي توجهه إلى الساحات الكبيرة في الحياة فيما يتميز به فكر عن فكر، أو موقع عن موقع، ثم تبدأ عملية الحركة نحو الدوائر الصغيرة المتفرعة عنها.

معرفة الحدود الفكرية

وهذا هو ما لاحظناه في الرسالات الإلهية التي طرحت شعار التوحيد كواجهة للرسالة، وطرحت شعار الرسالة كواجهة للعقيدة والشريعة ليعرف الإنسان الحدود الفكرية التي تميزه عن الآخرين فيما يريد أن يؤكده من ملامح الشخصية المميزة في وجوده.

وهذا هو الدور الإيجابي للشعار في بناء الإنسان، في تأثيره على دائرة التصور في الملامح الفكرية للقضايا العامة، حيث يملك الإنسان فيها الخطوط العريضة لما يحمله من فكر ولما يتحرك فيه من خط السير.. فلا يواجه الحيرة في تصوراته

كما يواجهها أولئك الذين يتحركون في الحياة من خلال التفاصيل الغارقة في الجزئيات الكثيرة البعيدة عن الكليات، بل يعرف كيف يحدد لنفسه خط السير من خلال ما يملكه من عناوين عامة، كما يستطيع تحديد صورته لنفسه وللآخرين بكل وضوح، وتحريك خطواته في هذا الطريق أو ذاك.

وإذا كان للشعار دور العنوان الذي يحدد وجه الفكرة، فإن له دورًا مهما آخر، وهو تغذية الجانب الشعوري بالمشاعر المتنوعة التي تختلف سلبًا وإيجابًا حسب اختلاف الإيحاءات النفسية لهذه الفكرة أو تلك، فقد تلتقي بشعار يثير في داخلك المشاعر الرقيقة الحانية التي تدفعك إلى الانفتاح على الآخرين والالتقاء بهم، وقد تلتقي بشعار آخر يثير في داخلك المشاعر القاسية التي تتطلب وتتحدى وتهاجم وتدفعك إلى الانغلاق على الناس والانفصال عنهم.

الشعار في القرآن: تكوين المشاعر الإنسانية حربًا وسلمًا

ولنضرب لذلك مثلاً: في شعار المسلم الذي تحمله الآية الكريمة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ... ﴾ [البقرة/ ٢٠٨].

إنك ستقف أمام هذا النداء الشعار لتشعر بالأجواء الحميمة التي تقتحم كل فكرك ووجدانك وعاطفتك إزاء هؤلاء الذين يواجهونك وتواجههم في ساحات الصراع وستعمل على توفير كل المناخات الملائمة التي تحتويك وتحتويهم، في حب ورحمة وحنان لتربط بينك وبينهم في عملية توثيق العلاقة فيما تثيره كلمة

«السلم» من مشاعر وأجواء، وفيما توحيه من وجود ساحة مفتوحة للجميع لا تفصلها الحواجز ولا تعقدها الخلافات، بل ربما تثير في داخلك الإرادة الحرة في كسر كل حاجز ينتصب في الساحة، وفي تذويب كل خلاف يطل برأسه ليخرب السلام، وذلك من أجل أن يأخذ الشعر مكانه الطبيعي في حياة الإنسان.

وهكذا نلتقي بهذه الأجواء في شعار «الصداقة بين الشعوب» و«المحبة» و»الرحمة» وغير ذلك.

ونقف في الاتجاه المقابل أمام شعارات الحرب والجهاد ونحوهما، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التحريم / ٩].

فإنك ستشعر بوجود أجواء حادة تتداخل فيها الصرخات الحادة بالكلمات المثيرة والمشاعر المتوترة التي تجعل منك إنساناً مفصولاً عن الآخرين وعن حياتهم لتتحول إلى عنصر مدمر، يحاول أن يكتسح كل شيء في منطقة الانفعال وفي منطقة الواقع.

وبذلك تفقد الكلمة الحلوة معناها في هذه الأجواء، وتعود الابتسامة حركة شاذة لا تتناسب مع ما تحتاجه الساحة من عبوس وإثارة. وبذلك لا يجد الإنسان أمامه إلا المزيد من العنف والدماء والصراخ في ساحة الصراع.

ولا نريد أمام هذين الشعارين أن ندخل في تقييم المشاعر الإيجابية أو السلبية التي تكون نتيجة طبيعية لهذا الشعار أو ذاك لنتحدث عن حدود المشاعر الملائمة أو المضادة، لئلا تفقد الحرب معناها الإنساني الذي يحفظ للحياة توازنها، أو يفقد السلم معناه الواقعي الذي يحفظ للواقع قوته، فلذلك مجال آخر، بل كل ما نريده هو إعطاء الفكرة عن الجانب الشعوري كالشعار الذي يتدخل في تكوين المشاعر الإنسانية للشخصية بطريقة شعورية أو لا شعورية، مما يقودنا في حركته داخل الذات، بالإضافة إلى حركته خارجها وذلك من أجل رصد النتائج المتنوعة في ساحة الواقع.

الشعار في شروطه: كلمة للعقل والعاطفة

وإذا كان للشعار هذا الدور في الحالة الفكرية والوجدانية للإنسان، فقد ينبغي لنا أن ندقق جيدًا في نوعية الكلمات التي يحملها، وفي طبيعة الوجه الذي يمثله والأجواء التي يثيرها والأسلوب الذي يهيمن عليه؛ لأن لذلك مدخلاً كبيرًا في الجانب الإيجابي أو السلبي في حركة الشعار في داخل الإنسان الذي يحمله في الساحة التي يتحرك فيها وفي خدمة الفكرة التي يريد أن يوجه الناس إليها والغاية التي يعمل على إيصالهم إليها.

وربما كان من الضروري في هذا المجال أن ندرس الشروط الموضوعية الفكرية التي تسمح للشعار أن يدخل عقل الناس وشعورهم؛ لأن هناك أفكارًا لا تستطيع

أن تتقدم في الساحة إلا إذا سبقتها أفكار أخرى. فإذا لم نلاحظ هذه الناحية فقد نجد هذه الفكرة أو تلك غريبة عن الواقع، مما يجعل منها عنصرًا مرفوضًا فيه؛ لأنه يصطدم ببعض القناعات الخاطئة التي تحتاج إلى إعداد مسبق من أجل إبعادها عن وعي الناس.

إننا نريد أن نقرر– في هذه الملاحظة– مبدأ التسلسل الطبيعي لحركة الفكر في الذهن وفي الواقع من أجل أن لا تكون المسألة قفزة في الفراغ فيما يحتاج إلى قاعدة ترتكز عليها الفكرة. ولا نريد بذلك الخوف من مواجهة التحديات الفكرية الأخرى التي تفرض نفسها على الساحة، فتمنع غيرها من الدخول إليها؛ لأن ذلك من الأمور الطبيعية في ساحة الصراع، بل كل ما نريده هو أن لا يفقد الشعار بعضًا من عناصره الذاتية في عملية إقناع الآخرين به في دائرة الوعي الوجداني للفكرة.

الشعار والواقع: الأرض الضالة والحواجز

وقد نجد– في هذا الاتجاه– نقطة أخرى جديرة بالتأمل والملاحظة، وهي مسألة حركة الشعار على صعيد الواقع. فربما كان بحاجة إلى أرض صالحة تنمو فيها البذور بشكل طبيعي معقول بحيث لا تتحول الحركة إلى ضدها كنتيجة لما يثيره الطرح السريع الذي لا ينتظر تكامل عناصر النجاح من أوضاع مضادة تصنع للشعار ألف حاجز وحاجز في الطريق.

وقد لا تقتصر السلبيات– في هذه المسألة– على المشاكل التي تحدث للشعار من ناحية واقعية، بل قد تتعداه إلى أن يتحول في وعي الناس– إلى واجهة مثالية، لا تحمل أية فرصة معقولة لإمكانات النجاح، لا سيما إذا كان الطرح السريع يتضمن تحديدًا زمنيًّا للوصول إلى الغاية، لا يملك العاملون معه أية إمكانية لتحريك الفكرة فضلاً عن الوصول إليها، وقد يؤدي ذلك إلى اليأس الذي يدفع إلى الهزيمة والتراجع على أكثر من صعيد.

الشعار في مرحلة الدعوة: صدم الفكر القديم

وقد يطرح بعض الناس سؤالاً– في هذا المجال– وهو:

ماذا تعني بالأرض الصالحة لنمو البذور للفكرة؟

هل تريد بذلك أن تكون الأرض خالية من الأفكار الأخرى في صعيد الواقع؛ لأن ذلك يمنع عملية توزيع البذور بطريقة طبيعية كأية أرض مشغولة ببذور معينة بغراس خاصة؟

ولكن، إذا كان المراد ذلك، فإن معناه أن يبقى المشروع مجرد فكرة في ذهن صاحبه؛ لأن أية فكرة جديدة لابد أن تكون مسبوقة بفكرة أخرى متجذرة في الفكر والواقع والشعور، مما يفرض الكثير من الصراع العنيف الذي يهزم كل عناصرها، ويزيل كل آثارها من أجل ولادة المشروع الجديد؟

إن مسؤولية الفكر الجديد أن يصدم الفكر القديم بقوة، وإن مهمة المشاريع

الجديدة أن تواجه المشاريع القديمة بأكثر من عملية اقتحام وعنف؟

إن ذلك يعني أن الفكرة الجديدة هي التي تقوم بإصلاح الأرض، وليس من المفروض أن تجري عملية تنقية الأرض من الشوائب بعيدًا عن حركة الفكرة في الواقع.

ونجيب على ذلك أن السؤال لا يقترب من جو الفكرة فيما أثرناه من ملاحظة فإن هناك فرقًا كبيرًا بين أن يطرح المشروع الجديد في المرحلة التي تريد أن تثير الوعي الجديد فيها ليعيش الفكر في الوجدان في مستوى الحقيقة الفكرية والعملية للمستقبل، وبين أن تطرحه ليتحرك في الساحة في المرحلة التي تريد له أن يدخل دائرة التنفيذ.

إننا في المرحلة الأولى نؤكد على ضرورة المواجهة الحاسمة للأفكار الأخرى بالطريقة التي تجعل من الفكرة الجديدة قوة كبيرة تقف في خط التحدي لتصارع وتقتتل وتناقش وتدفع الآخرين إلى الحوار بأية وسيلة ممكنة، وهذا هو خط الأنبياء والرسل في إعلان كلمة الله على الناس، ومواجهة الكفر والشرك والضلال، بكل حسم وصراحة، مما أدى إلى أن يخوضوا الصراع بأقوى أشكاله، ويتحملوا العذاب بأشد ألوانه.

إننا نؤكد على ذلك؛ لأن هذا هو السبيل الوحيد الذي يمكن للرسالة أن تدخل في ساحة الواقع من خلال الصراع الحاسم، فإن الآخرين لا يسمحون لها بالدخول إلى الحياة بسهولة.

الشعار في مرحلة الدولة: المرونة لا للإلغاء والتجميد

ولكن هناك مرحلة أخرى قد تحتاج إلى إعداد كبير، وهي مرحلة تحول الدعوة إلى حكم يفرض نفسه على الناس.

إن مثل هذه المرحلة، قد تأتي في فترة قلقة يستسلم فيها الناس لأنواع أخرى من شكل الحكم ومضمونه، وقد تكون في ساحة يتنوع فيها المجتمع في أفراده أشكالاً وألوانًا، في أفكاره ومناهج حياته، وقد تواجه ظروفًا موضوعية ضاغطة في أكثر من وضع سياسي أو اقتصادي أو عسكري قلق، مما يترك تأثيره السلبي على حركة الشعار في الواقع، بحيث يكون تحريكه على صعيد مباشر سببًا في تطويقه وتقييده ومحاصرته وإخضاعه لضغوط مبكرة لا يملك أمامها القدرة الواقعية على المواجهة لحاجته إلى تنمية القدرة بشكل تدريجي.

إن مسألة المرونة في إطلاق الشعار لا تعني إلغاءه وتجميده، ولكنها تعني التحرك بطريقة واقعية في عرض الفكرة وتحريكها وتنميتها بالوسائل الفكرية والسياسية التي تعمل على توسيع القاعدة وتقويتها بالمستوى الذي تستطيع فيه أن تحمي مستقبل الشعار لتحمله إلى صعيد الواقع عندما تحين الفرصة المناسبة.

ولعل الدراسة الموضوعية للتحديات السياسية والعسكرية، والأوضاع الطائفية والعرقية وأمثالها، تعرفنا طبيعة هذا التحفظ الذي نطلقه في قضية إثارة الحكم الإسلامي في بعض المراحل في بعض البلدان.

خطورة الشعار في دائرة المطلق

وقد نحتاج إلى التأكيد على نقطة معينة دقيقة في حركة الشعار على صعيد الواقع العملي في الدعوة والممارسة.

فقد نلاحظ أن الشعار قد يتحرك في أجواء المطلق في الدائرة التي يتحرك فيها، مما يجعل الفكر يطوف معه في أكثر من أفق وفي أكثر من وسيلة.. وربما يقع الخطأ في فهم آفاق الشعار، وربما تنحرف الخطى في طريقة الممارسة على مستوى الوسائل؛ لأن التوجيه لم يربط النظرية بالتطبيق، والغاية بالوسيلة، مما ترك للإنسان حريته في الأخذ بالوسائل كما يشاء، وفي التعامل مع التطبيق بما يحلو له، كما أن المضللين من أصحاب الأفكار المضادة، استطاعوا استغلال هذه المسافة الفاصلة بين النظرية والتطبيق، وبين الوسيلة والغاية في وعي الإنسان من أجل فرض وسائلهم وتطبيقاتهم على فكره ووجدانه وحياته من خلال الإيحاء له بأن ذلك هو الذي يحقق له الخط العريض في منهجه في الفكر وفي الحياة.

وهذا هو ما لا حظناه في مثل شعارات «العدل» و«الحرية» و«المساواة» و«الوحدة»، وما إلى ذلك من كلمات تلتقي عندها كل المبادئ الدينية وغير الدينية من خلال «العنوان»، ولكنها تختلف في الوسائل وفي التطبيقات والمواقع والأجواء.

فقد استطاعت التيارات المضادة في داخل المجتمع الإسلامي أن تستفيد من غموض الخطوط التفصيلية لهذه العناوين في ذهن الإنسان المسلم لتفرض

عليه طريقتها في ممارستها على أساس الأهداف المشبوهة التي تستهدفها لمصالحها الخاصة في إضعاف الإسلام والمسلمين.

وقد ساهم في تسهيل سيطرة الاستكبار العالمي على مقدرات المسلمين في استغلاله لهذه السذاجة الفكرية التي لا تنجذب إلى الشعار من موقع العمق، بل تتحرك معه من مواقع السطح، ولا نزال نعاني الكثير منه على أكثر من صعيد.

إننا نريد أن نؤكد على هذه النقطة لنبدأ في التخطيط لثقافة إسلامية عقيدية وسياسية واجتماعية، تحرك النظرية في خطوات التطبيق، حتى تعود النظرية حركة في الواقع لا في المثال، وتطرح الغاية من خلال الوسيلة، حتى لا تضيع الناس في متاهات الوسائل غير المشروعة وغير المحدودة لنستطيع الوقوف على أرض ثابتة، والتحرك في طريق لا يهتز تحت أقدامنا لتكون لنا شخصيتنا الإسلامية المتوازنة في حركة الواقع كما هي في حركة الفكر.

معد الدراسة التقديمية في سطور

زكي الميلاد

- كاتب وباحث في الفكر الإسلامي والإسلاميات المعاصرة.
- رئيس تحرير مجلة الكلمة فصلية فكرية تصدر من بيروت.
- عضو في عدد من المؤسسات والهيئات العلمية والفكرية العربية والإسلامية.
- عضو في الهيئة الاستشارية لعدد من المجلات والدوريات الفكرية العربية.
- شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات والحلقات الدراسية والفكرية والأكاديمية العربية والدولية، التي عقدت في العديد من العواصم والمدن العربية والإسلامية والغربية وفي عدد من الجامعات العربية والمعاهد الأكاديمية، والتي تزيد على أربعين ندوة.
- شارك في العديد من الكتب المشتركة.
- له العديد من الكتابات ـ دراسات ومقالات ـ منشورة في أكثر من ٥٠ بين دورية ومجلة وصحيفة؛ فصلية وشهرية وأسبوعية ويومية.
- له مقالة أسبوعية ينشرها في صحيفة عكاظ السعودية.

له عدة مؤلفات منشورة منها:

- الفكر الإسلامي بين التأصيل والتجديد، بيروت ١٩٩٤م.
- مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، دمشق ١٩٩٨م.
- المسألة الحضارية: كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير؟ بيروت ١٩٩٩م.
- الفكر الإسلامي قراءات ومراجعات، بيروت ١٩٩٩م.
- الفكر الإسلامي: تطوراته ومساراته المعاصرة، بيروت ٢٠٠١م.
- تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة، بيروت ٢٠٠١م.
- من التراث إلى الاجتهاد.. الفكر الإسلامي وقضايا الإصلاح والتجديد، بيروت ٢٠٠٤م.
- المسألة الثقافية.. من أجل بناء نظرية للثقافة، بيروت ٢٠٠٥م.
- نحن والعالم.. من أجل تجديد رؤيتنا إلى العالم، الرياض ٢٠٠٥م.
- تعارف الحضارات، دمشق ٢٠٠٦م.

اللجنة الاستشارية للمشروع

(١٤٣٥ - ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٤ - ٢٠١٥م)

إسماعيل سراج الدين (مكتبة الإسكندرية)، مصر- رئيس اللجنة.

إبراهيم البيومي غانم (المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية)، مصر.

حسن مكي (جامعة إفريقيا العالمية)، السودان.

رضوان السيد (الجامعة اللبنانية، بيروت)، لبنان.

زاهر عبد الرحمن عثمان (مركز المعلم محمد بن لادن للعلم والتعليم)، المملكة العربية السعودية.

زكي الميلاد (رئيس تحرير مجلة الكلمة)، المملكة العربية السعودية.

سعيد بنسعيد العلوي (جامعة الرباط)، المغرب.

صلاح الدين الجوهري (مكتبة الإسكندرية)، مصر- أمين اللجنة.

ظفر إسحق أنصاري (الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد)، باكستان.

عبد الدايم نصير (مستشار شيخ الأزهر)، مصر.

عبد الرحمن السالمي (وزارة الأوقاف والشؤون الدينية)، عُمان.

عمار الطالبي (جامعة الجزائر)، الجزائر.

مجدي عاشور (دار الإفتاء)، مصر.

محمد زاهد جول (كاتب وباحث)، تركيا.

محمد عمارة (هيئة كبار العلماء، الأزهر الشريف)، مصر.

محمد كمال الدين إمام (جامعة الإسكندرية)، مصر.

محمد موفق الأرناؤوط (جامعة العلوم الإسلامية العالمية)، الأردن.

مصباح الله عبد الباقي (جامعة كابول)، أفغانستان.

منى أحمد أبو زيد (جامعة حلوان، القاهرة)، مصر.

نور الدين الخادمي (جامعة الزيتونة)، تونس.

نوزاد صواش (مؤسسة البحوث الأكاديمية والإنترنت، إسطنبول)، تركيا.

وان صبري وان يوسف (الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالمبور)، ماليزيا.

سلسلة «في الفكر النهضوي الإسلامي»

صدر في هذه السلسلة

(١) **العـــودة إلـى الــذات**، تأليف علي شريعتي.
(٢) **الحياة الروحية في الإسلام**، تأليف محمد مصطفى حلمي.
(٣) **امرأتنا في الشـريعة والمجتمـع**، تأليف لطاهر لحد د.
(٤) **الإسلام دين الفطرة والحرية**، تأليف عبد لعزيز جاويش.
(٥) **المـــرأة والعمـــل**، تأليف نبوية موسى.
(٦) **تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية**، تأليف مصطفى عبد لر زق.
(٧) **دفـــاع عـن الشـريعـة**، تأليف علال لفاسي.
(٨) **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تأليف لطاهر بن عاشور.
(٩) **تجديد الفكر الديني في الإسلام**، تأليف محمد إقبال، ترجمة محمد يوسف عدس.
(١٠) **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، تأليف عبد لرحمن لكو كبي.
(١١) **المدرســة الإســلامية**، تأليف محمد باقر لصدر.
(١٢) **الإسلام وأصول الحكم**، تأليف علي عبد لر زق.
(١٣) **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، تأليف خير لدين لتونسيّ.
(١٤) **الحرية الدينية في الإسلام**، تأليف عبد لمتعال لصعيديّ.
(١٥) **الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقية الشريعة المحمدية**، تأليف حسين لجسر.
(١٦) **السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث**، تأليف محمد لغز لي.
(١٧) **القرآن والفلسفة**، تأليف محمد يوسف مُوسى.
(١٨) **كشف المخبَّا عن فنون أوربا**، تأليف ُحمد فارس لشدياق.
(١٩) **المرشد الأمين للبنات والبنين**، تأليف رفاعة لطهطاوي.
(٢٠) **شروط النهضة**، تأليف مالك بن نبيّ.
(٢١) **مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية**، تأليف رفاعة لطهطاويّ.
(٢٢) **نهضة الأمة وحياتها**، تأليف طنطاويّ جوهريّ.
(٢٣) **البيان في التمدن وأسباب العمران**، تأليف رفيق لعظم.
(٢٤) - (٢٥) **تحـرير المـرأة**، تأليف قاسم ُمين، **وتربية المرأة والحجاب**، تأليف طلعت حرب.
(٢٦) **تنبيه الأمة وتنزيه الملة**، تأليف محمد حسين لنائيني، تعريب عبد لمحسن َل نجف، تحقيق عبد لكريم َل نجف.
(٢٧) **خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني**، تأليف محمد باشا لمخزومي.
(٢٨) - (٢٩) **السفور والحجاب**، تأليف نظيرة زين لدين، **ونظرات في كتاب السفور والحجاب**، تأليف مصطفى لغلاييني.
(٣٠) **في الاجتماع السياسي الإسلامي**، تأليف محمد مهدي شمس لدين.
(٣١) **لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟**، تأليف لأمير شكيب ُرسلان.
(٣٢) **المدنية الإسلامية**، تأليف شمس لدين سامي فر شري، ترجمة محمد م لأرناؤوط.
(٣٣) **المدنيــة والإسلام**، تأليف محمد فريد وجدي.
(٣٤) **المســئلة الشرقية**، تأليف مصطفى كامل.
(٣٥) **وجهة العالم الإسلامي**، تأليف مالك بن نبي، ترجمة عبد لصبور شاهين.

(٣٦) **طلعة الشمس شرح شمس الأصول**، تأليف نور لدين عبد الله بن حميد لسالمي.
(٣٧) **أدب الطلب ومنتهى الأرب**، تأليف محمد بن علي لشوكاني.
(٣٨) **الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني**، تأليف َدم عبد الله لإلوري.
(٣٩) **أم القرى**، تأليف لسيد لفر تي (عبد لرحمن لكو كبي).
(٤٠) **تجديد الفقه ونصوص أخرى**، تأليف محمد بن لحسن لحَجْوي.
(٤١) **الحضارة الإسلامية**، تأليف ٔحمد زكي.
(٤٢) **الرسالة الخالدة**، تأليف عبد لرحمن عز م.
(٤٣) **مسألة الخلافة وجزيرة العرب**، تأليف ٔبي لكلام َز د، ترجمة مصباح الله عبد لباقي.
(٤٤) **النبأ العظيم .. نظرات جديدة في القرآن**، تأليف محمد عبد الله در ز.
(٤٥) **الحركة الإسلامية .. هموم وقضايا**، تأليف لسيد محمد حسين فضل الله.
(٤٦) **الأعمال المختارة لمحمد خانجيتش البوسنوي**، تأليف محمد خانجيتش، ترجمة عبد لرحيم ياقدي.
(٤٧) **الدين والوحي والإسلام**، تأليف مصطفى عبد لر زق.
(٤٨) **النسائيات**، تأليف ملك حفني ناصف (باحثة لبادية).
(٤٩) **في الفلسفة الإسلامية .. منهج وتطبيقه (الكتاب الأول)**، تأليف ٕبر هيم مدكور.
(٥٠) **في الفلسفة الإسلامية .. منهج وتطبيقه (الكتاب الثاني)**، تأليف ٕبر هيم مدكور.

AL-ḤARAKAH AL-ISLĀMĪYAH: HUMŪM WA-QAḌĀYĀ

AL-ḤARAKAH AL-ISLĀMĪYAH: HUMŪM WA-QAḌĀYĀ

Muḥammad Ḥusayn Faḍl Allāh

DAR AL-KITAB
AL-MASRI

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

DAR AL-KITAB
AL-LUBNANI

في الفكر النهضوي الإسلامي

AL-ḤARAKAH AL-ISLĀMĪYAH: HUMŪM WA-QAḌĀYĀ

Muḥammad Ḥusayn Faḍl Allāh

هذا الكتاب

(45)

طبع لأول مرة عام (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، ويُعدّ واحدًا من أهم مؤلفات السيد محمد حسين فضل الله وأكثرها قربًا وصلة بمشروعه الفكري المرتكز على العلاقة بين الفكر الإسلامي وانعكاسه الحركي على الواقع؛ لتعزيز الإسلام في الحياة المعاصرة. كما يُعد من أهم المؤلفات التي حاولت نقل الجدل والنقاش حول هموم وقضايا الحركة الإسلامية من الأطر النخبوية والحركية الداخلية والمغلقة إلى الأطر العلنية والعامة والمفتوحة. وهو كذلك من أهم المؤلفات المبكرة التي دعت وطرحت وناقشت مسألة تجديد وتحديث الفكر الإسلامي الحركي على المستوى النظري، وتجديد وتحديث الحركة الإسلامية على المستوى العملي.

يسعى الكتاب إلى أن يكون عنصرًا من عناصر الإثارة الفكرية التي تخطط لإبداع نهج جديد لحركة إسلامية جديدة تعمل بقوة ووعي وتدقيق؛ من أجل أن يكون الإسلام قاعدة للفكر والعاطفة والحياة، وليس لصالح انتماء ضيق أو تنظيم.

يتكون الكتاب من الناحية البنائية من مقدمة وسبعة وثلاثين فصلاً عالجت أربعًا وعشرين قضية تمثل أبرز هموم وقضايا الحركة الإسلامية المعاصرة. من أهمها: قضية التغيير في الأمة، والواقعية والمثالية، والسرية والعلنية، والأكثرية والأقلية، والإسلامية والمذهبية، والإسلامية والوطنية، والسياسة والدعوة.

يقول الإمام الأكبر أحمد الطيب عن المشروع:

بسم الله الرحمن الرحيم

إن هذا المشروع الذي تقوم به مكتبة الإسكندرية - وهي تستهدف إعادة نشر الإنتاج العلمي والثقافي لأعلام نهضتنا في العصر الحديث - ليُعدُّ فيما أرى - من أهم المشاريع العلمية نحو تأصيل المفاهيم الثقافية في العالم الإسلامي وإعادة تأسيس عقل إسلامي معاصر يستوعب أصوله، ويعيش عصره. وإني أدعو إلى ترجمة هذه الأعمال إلى اللغات الحية، وتعميم نشرها، بكل الوسائل الورقية والإلكترونية.

شيخ الأزهر

أ.د/ أحمد محمد الطيب

ISBN: 978-977-452-308-3

DAR AL-KITAB AL-MASRI
CAIRO

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

DAR AL-KITAB AL-LUBNANI
BEIRUT